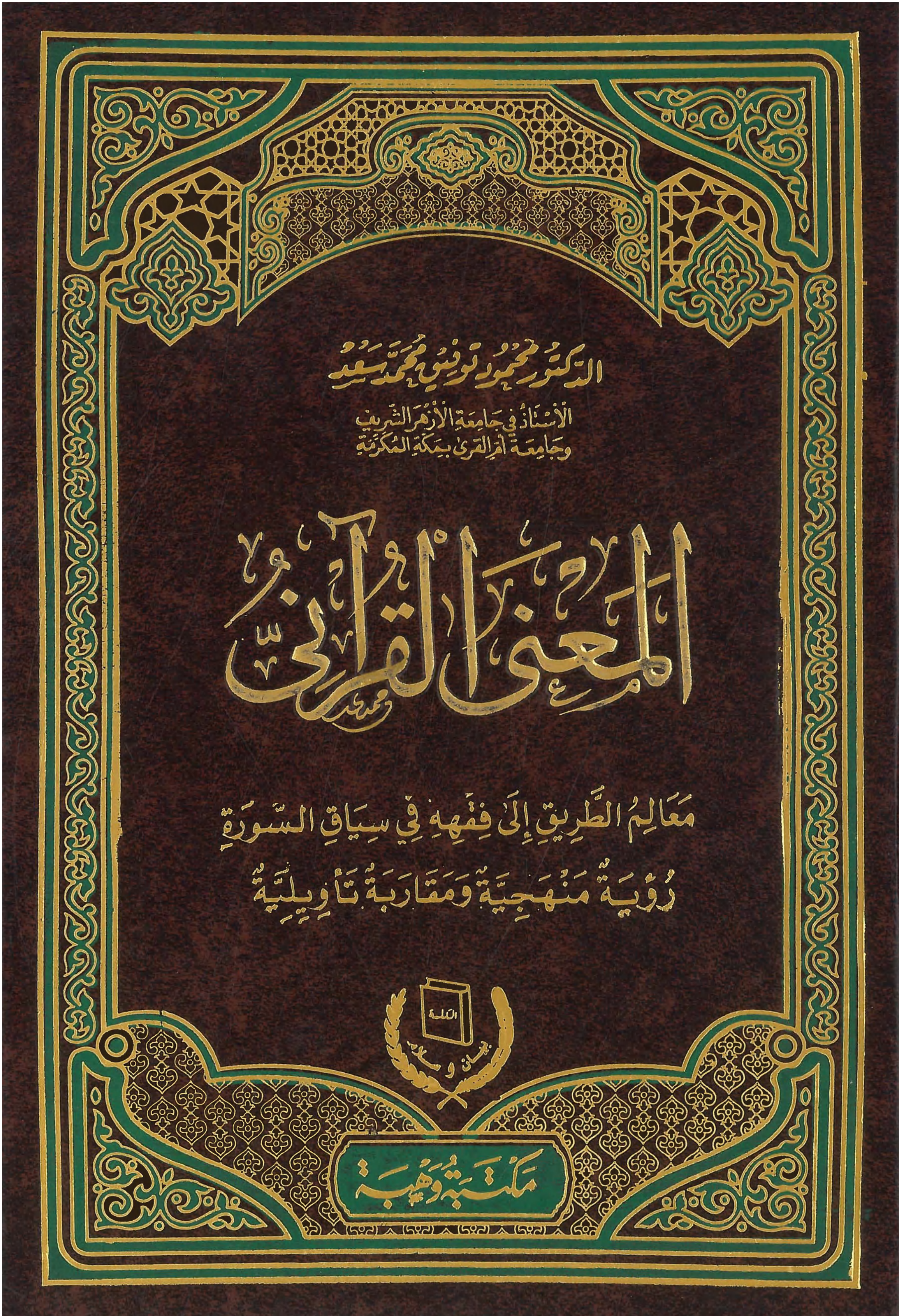


الدكتور محمود توفيق محمد سعد
الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف
وجامعة أم القرى بمكة المكرمة
المعنى القرآني
معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة
رؤية منهجية ومقاربة تأويلية
مكتبة وهبة

الدكتور

محمود توفيق محمد سعد

أستاذ البلاغة والنقد - جامعة الأزهر

عضو هيئة كبار العلماء



معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة

رؤية منهجية ومقاربة تأويلية


مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين ـ القاهرة

ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

المعنى القرآني
معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة
رؤية منهجية ومقاربة تأويلية
الدكتور
محمود توفيق محمد سعد
الطبعة الثانية ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م
الطبعة الأولى ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٥٣٦ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠٢٠/١٧٣٥٧
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
978-977-225-532-0



دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سعد ، محمود توفيق محمد .
المعنى القرآني : معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة : رؤية منهجية ومقاربة تأويلية محمود توفيق محمد سعد .- ط١ .- القاهرة مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠٢٠
٥٣٦ صفحة ؛ ٢٤ سم

ط٢ ، ٢٠٢٢
تدمك ٠ ٥٣٢ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

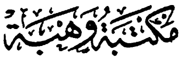
١- القرآن - بلاغة
٢- القرآن - ألفاظ

أ- العنوان

٢٢٥







١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

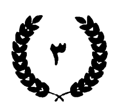
مُقَدِّمَة

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة: ٢-٧) .

بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (الكهف: ١-٥) .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبراهيم وعلى آلِ إِبْراهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إبراهيم وعلى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، فِي العالمين . إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِى الأَمْرِ ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبادَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ قَلْباً سَلِيمًا ، وَأَسْأَلُكَ لِسَاناً صَادِقاً ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ .



أمَّا بعدُ : ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ (الكهف:١٦) ففِي ذَلِك مِن الهُدَى ما يستقيمُ به مسيرُ العبد إلى مَصيره ، فيكونُ مِن الَّذين قال فِيهم الحقّ ﷻ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة:٥) مَعصومًا مِن أنّ يكونَ ممّن قال الله ـ تعالى ـ فِيهم : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:٧٢) .

﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴾ (طه:١٠٠) .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه:١٢٤-١٢٧) .

الشَّأنُ فِي كلّ أمّةٍ أنْ تتخذَ لنفسِها مِنهاجًا تُقِيمُ شؤُون حياتَها عليه ، وتَجعلُ لها «دُستُورًا» تَضبِطُ بِه حركتَها وحركةَ القائمين على شؤُونها ، فَتعصَم من القواصِمِ ، وتندبُ ثُلّة من خيرتها للقيام علَى هذا المنهاجِ ، وذلك «الدُّستُور» ، تعلُّمًا ، وتفقّها ، ورِعايةً وتجديدًا ، وتقويمًا .

أمرٌ لا تكادُ تجِدُ عاقلاً يُنكِرُهُ .

والأمّةُ الإسلاميّةُ أكرمَها ربُّها ﷻ فلَم يُحمِّلها عِبءَ تأسِيس هذا المنهاجِ والحفاظِ عليه ـ تكفّل لها بذلك مِن فيضِ رحمانيّتِه ورحيميّتِه ـ أنزلَ صفوة ملائكتِه «جِبريلَ» عليه السلام على صفوةِ خلقِه أجمعين ، سيّدنا محمَّد بن عبد الله ﷺ بأعظمِ كتابٍ ومنهاجٍ : القُرآن الكَريم ، ليبيّن صَلّى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم للنّاسِ ما يريدُه ﷻ منهم .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩) .

وهو ﷻ تكفَّل بحفظِه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) كمثل ما تكفلَ بإنزالِه إشارة إلى أن حفظه له ﷻ لا يقلُّ عظمةً عن إنزالِه ، فمِن رحمةِ اللهِ ـ تعالى ـ بعباده أنّه لِما يعلمه مِن عجزِهم عن أن يحفظُوا ، فقد عجزوا عَن حفظِ كتبِه السَّابقةِ ، تكفَّل بحفظِ خاتمِ كتبِه إليهم والمُهيْمنِ عليها ، وتولاّه عنهم ، فكان ذلك نعمةً جليلةً تستوجِبُ عظيمَ شكرِه ﷻ . وما تكفَّل الله ـ تعالى ـ به لن يَعتريَه نقضٌ أوْ نقصٌ ولو تظاهرَ الَّذين كرِهوا ما أنزلَ الله ـ تعالى ـ على أن يفعلوا .

فمُنَزِّلُ القرآن ﷻ هو حافظُهُ مِن التَّحريفِ والتَّغيير، فكانت عصمتَه مِن التَّحريفِ آيةً بيِّنةً قاهرةً علَى أنّ القرآنَ مِن عند الله ذِي الجَلالِ والإكْرَامِ ، فلَو أراد متوقِّفٌ دليلاً قطعيًا على أنّ القرآنَ مِن عندِ اللهِ ﷻ لَكان فِي عِصمةِ القُرآن مِن التّحريف الدّليلُ الأمثلُ الأكملُ على ذلك ، فبقاؤه خمسةَ عشرَ قرنا من الزَّمان لم يقع فيه تحريفٌ ، بلْ يتحدَّى أن يقعَ فيه شَيْءٌ من ذلك إلى قيامِ السّاعة ، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا ، برهانٌ فتيٌّ قاهرٌ على أنَّ القرآنَ من عند الله ﷻ ، وعلى أنَّ القرآنَ الَّذِي تلاه جبريلُ عليه السلام علَى سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ ، وتلاه على أصحابِه ﷺ هو الّذي نتلوه نحنُ في زمانِنا ، وهذا لا يمكنُ أن يتحقَّقَ لأيّ بيانٍ بشريّ قطُّ .

وإذا ما كانَ اللهُ ﷻ قد حفظَ القرآن مِن أنْ يقعَ فِي شَيْءٍ منه أدنى تَحريفٍ أوْ تغييرٍ ، ويمضِي دون أن يزهقَ ويدمغ ، فإنّه أيضًا هو ﷻ كذلك حافظُه مِن

أن يكونَ في الأمَّة نازلةٌ ليس في القرآن بيانُ سواءِ الصِّراطِ فيها ، فهو كتابٌ مباركٌ :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص:٢٩) .

فهو دائمُ الخيرِ والعطاءِ ، ليس كمثلِه مناهجُ الخَلْقِ ودَساتِيرُهم المُفتقرةُ إلى تقويمٍ وتجديدٍ وتغييرٍ بحذفٍ أوإضافة ...

وإذا ما تكفَّل الله ﷻ بذلك ، فإنّه زاد الأمّة تشريفا بأن حمَلَها إلى أن تقوم بشرف فقهِه وفهمِه ، واستخراجِ مكنون أسرار عطائه ونواله ، وذلك مِن النَّصِيحةِ له :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٢) .

وحثّهم على «التّدبّر» وهو دَيموميّة الفعل القلبيّ في تلقّي القرآن . يقُول الله ﷻ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص:٢٩) .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢) .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد:٢٤) .

وهذا التّدبّرُ سبيلٌ مُمْتَدٌّ مُتراحِبٌ تتعدَّدُ مناهجُ تحقيقِه بتعدّد الغايات المنشودة من القيام به والثّمار المرجوّ اجتناؤها ، فلكلٍّ متدبِّرٍ طَلِبتُه وقطُوفٌ يبتغي جناها ، وتتعدَّدُ أدواتُه وآلاتُه ، وعلى قدر ما يمتلكُ المرْء منها ، ويُحْسِنُ الانتفاعَ بها يكونُ نوالُه وعطاؤه .

* * *

ما يقوم له هذا الكتاب :

القولُ في شيْءٍ ما فِي سِياقه هو الأملكُ لعـواملِ الحفـظِ مِن الضَّلالةِ مِن جهةٍ ، والأوفرُ عطاءً مِن جهةٍ أخرَى ، فلا تجدُ ذا عنايةٍ بشيْءٍ إلاّ وهو مستحضِرٌ سياقَه ، لذا جعلت هذا الكتاب للقول في «مَعالم الطريق إلى فقهِ المعنَى القرآنِيّ فِي سِياق السُّورة» .

جعلته في سياق السّورة مِن أنّ «السّورة» وإن لم تكنْ هي أدنَى مراحلِ الإعجازِ ، مِن أنَّ كلَّ شيْءٍ مِن القرآن في سياقِه معجزٌ إلا أنّ السّورةَ هي أدنَى مراحلِ التَّحدّي ، وفرقٌ بين التَّحدّي والإعجاز ، فكلّ ما هو مِن الله ـ تعالى ـ فِي عالَم الأمرِ، وعالم الخلق معجزٌ ، أمّا التَّحدي فله اعتبارات أخر، تكلَّم فيها أهلُ العلم .

قلت : السّورة هي أدنَى مراحل التّحدِّي ، ومستوياتُ الإعجازِ تكونُ هي الأعلى حين يكونُ الإعجازِ بالسّورةِ ، وما فوقها «الحِزب» ثُمَّ «القرآن» كلّه ، ولذا كان أهلُ العلمِ على أنَّ الأصلَ في الإعجازِ هو فصاحةُ البيان القرآنيّ وبلاغته ، وليس أصلُ الإعجازِ فِي نظمِه أيْ الطَّريقة الَّتِي بُنِيَ عليها البيانُ ، كما فِي هيئةِ «السّورة» ، فجعلوا الفصاحةَ والبلاغةَ المتحقّقة فِي ما دون السُّورة هي أصلُ الإعجاز ، وجعلوا نظم بنية السُّورة مقويا هذا الإعجاز ، وإن كان التحدّي لم يقع إلا بالسّورة على تمامِها على ما عليْه جمهرةُ أهلِ العلمِ .

يقول القاضِي عبدُ الجبّار : «إنّ التحدّي وإن كانَ قد يصحّ بقدرٍ من الفصَاحةِ والبلاغةِ ، فمتى اختصّ ما له قدرٌ عظيمٌ في الفصاحةِ بطريقة من النّظمِ خارجةٍ عَن العـادةِ يكون وجه الإعجـاز فيه أظهرَ وأبينَ ، وظهور عجز الغيرِ عَنه أكشف ، فلمَّا كان الأمرُ كذلك أجرَى الله ﷻ حالَ القرآن على مثلِه ،

ليكـونَ وجـهُ الإعجاز فيه أبينَ ، فخصّه تعالى بطريقةٍ خارجةٍ مِن نظمِهم ونثرِهم ، وبقدرٍ من الرُّتبة في الفصَاحةِ خارج عن عادتهم ، فلذلك أشبهَت الحالُ ، فظنّ بعضُهم أنّ وجهَ الإعجازِ يرجعُ إلى « النّظم » [أيْ بِنْيَة السّورة علَى تَمامها] وبعضهم أنّه يرجعُ إلى قدرِ الفصَاحةِ في أنّها لو انفردتْ لكان معجزًا مخالفًا لمرتبةٍ في طريقة « النّظم » ؛ لأنّها لو عريّتْ عَن الرّتبةِ المخصُوصةِ فِي الفصَاحةِ لَمْ يكنْ معجِزًا ، وإنْ كان ذلك مُقويًا لَحالِه ومؤكدًا لأمرِه ، كما نعلَم أنّ حسْنَ « المعنى » يؤكد كونَ الكلامِ الفصِيحِ معجِزًا ، وإنْ كان لَو انفردَ لَم يختصّ لِهذه الصّفة »[1] .

جمهرة أهل العلم على أنّ ما كان في مقدارِ أصغر سورة نظمًا معجزٌ ومناطُ تحدٍّ ، ومنهم مَن يذهبُ إلى كلمة « سُورة » في آيات التّحدّي ، لا يراد بها المفهوم الاصطلاحيّ للـ« سورة »[2] .

---

(١) المغنِي في أبواب العدل والتوحيد . إمـلاء القاضِـي أبـو الحسـن عبـد الجبّـار الأسـد آبـاديّ (ت : ٤١٥هــ) «(إعجـاز القـرآن) ٢٢٤/١٦ ، وانظـر : ص ٢٢٥ ، ٣١٨ ، ٣٢١ تقويم : أمـين الخـولي ، وزارة الثقافـة والإرشـاد القـومي ـ مصـر ، ط . الأولى ١٣٨٠هـ .

(٢) يقول البقاعيّ : «قال الحرالّيّ : السُّورة تمامُ جملةٍ مـن المسـموع يحـيط بمعنـى تـام بمنزلة إحاطة السور بالمدينة ـ انتهى ....
المطلوب منهم في التحدي قطعة من ذلك المثل الذي ادعوه ، حكيمة المعاني ، متلائمة المباني ، منتظم أولها بآخرها كسور المدينة في صحة الانتظام ، وحسن الالتيام ، والإحاطة بالمباني التي هي كالمعاني ، والتقاء الطرفين حتـى صـار بحيث لا يدرى أوله من آخره ، سواء كانت القطعة المأتي بها تباري آية أو ما فوقها ، لأن آيات القرآن كسورة يعرف من ابتدائها ختامها ويهدي إلى افتتاحها تمامها ، فالتحدي هنا منصرف إلى الآية بالنظر الأول وإلى ما فوقها بالنظر الثاني .
والمراد بالسورة هنا مفهومها اللغوي ، لأنها من المثل المفروض وهو لا وجود له في الخارج حتى يكون لقطعه اصطلاح في الأسماء معروف ، ولأن معرفة المعنى ==

وما أذهبُ إليه أنّ كلّ كلمةٍ في سياقِها معجزةٌ ، والله ـ سبْحانَه وبِحمدِه ـ لم يتحدَّ بكلِّ قدرٍ مُعجِز مِن القرآن كـ« آية الكرسِيّ » أو آيةِ « المداينة » ونحو ذلك ، بل تحدّى بالسّورة في هيْئتها الَّتي تراها في « المُصحف » ، فآية « المُدايَنة » مُعجزةٌ إلاَّ أنَّ اللهَ ﷻ لَم يتحدّ بها ، بينما تحدّى بسورة « الكوثر » أو « العَصر » أو « قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ » ونحو ذلك .

مَن هنا كان إحسانُ فقه « المعنى القرآنيّ » لا يتأتى لك إلا مِن خلال الجمع بين الأمرين معًا : النَّظم بمفهومه عند عبد القاهر ، والنّظم بمفهومه عند بعضِ سابقيه : « هيئة السُّورة » .

وإذا ما كان بعض مقـوّمات النّظم بمفهومه عند عبـد القـاهر قد تغيبُ إذا ما ترجمتْ معاني القرآن إلى غيرِ العربيّة ، فإنَّ ما يتعلّقُ منها بترتيبِ المعاني الكليّة ونسقها ، بحيث يتحقّق لبنية السُّورة تصاعدها ، ولحركة المعنى أن تمتدَّ ، لا يغيبُ عند ترجمة معاني القرآن إلى غيرِ العربيّة ، وهذا التَّرتيبُ والنَّسقُ في حركة المعنى وتصاعدِه الباقي مع ترجمةِ المعنى إلى غير العربيّة هو معجزٌ لغير العرب ، كما هو معجزٌ للعربِ ، وبذلك يكون المعجزُ مِن البلاغة القرآنيّة للعربي أمريْن كليّيْن :

الأوّل : أمرٌ لا يبقَى عند ترجمة معانِي القرآن لغير العربيّة .

= الاصطلاحي كانت مخصوصًا بالمصدقين ، ولو أريد التحدي بسورة من القرآن لقيل : فائتوا بمثل سورة منه ، ولما كان هذا هو المراد قصرهم في الدعاء على من بحضرتهم من الشهداء .

ينظر كتاب : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» ١/٦٤ ، ٦٥ تأليف برهان الدين البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت : ٨٨٥هـ) دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة .

والآخر : ما يبقَى مع ترجمة المعاني لغير العربيّة .

والمعجـز لغير العربيّ من بلاغة القرآن هو ما لا يغيبُ عند التَّرجمة ، بلْ يبقَى ظاهرًا باهرًا مع التَّرجمة .

بهذا تتبيَّن لك الأهميّة البالغة للقولِ في ما سمي بـ«التَّناسُب» في تحقيق نظم السُّورة «هيئتها» ، المتولّدة مِن علاقاتِ المعاني ببعضِها على تنوّع أقدارِ هذه المعاني فِي السّورة مِن المعانِي الكليّة والجزئيّة .

ولو أنّ عبدَ القاهر صرح بأنَّ «النَّظم» درجاتٌ متصاعِدةٌ ، مبدؤها توخِّي معاني النّحو في ما بين معاني الكلم على وفق الأغراضِ والأحوال ، لكان هذا أقطعَ للجاجةِ ، وأقضَى للحاجة ، على أنّه ليس في كتابيه ما يصرّح بأنّه يرفضُ بسطَ فسطاط «النَّظم» ليدخلَ فيه نظمُ السّورة بتمامِها ، ونظم القرآن من السّور بكمالِه .

هذا الكتاب :

«**المعنَى القرآنيّ** : معالم الطّريق إلى فقهِه فِي سياقِ السّورة ـ رُؤيَةٌ مَنْهجِيـّةٌ ومُقارَبَةٌ تأويليَّة» يسعَى إلى أن يُقدّم رؤيةً منهجيّةً لِتدبّرٍ يُعينُ عَلَى اجتناءِ المَعانِي القُرآنِيَّة فِي سياقِ السّورةِ تأسيسًا على أنّها وحدةُ التَّحدّي الصُّغرَى ؛ لتكونَ زادًا إلَى حسنِ الفهمِ عَن اللهِ ـ سبْحانَه وبِحمدِه .

«**الرُّؤيةُ المَنهجيّة**» هِي وظيفيًا أشبهُ بما يسمَّى «البوصلة» ، هِيَ رؤيةٌ تُعلِمُ ، ولا تُلْزِمُ ، فَمَـنْ شَـاءَ أن يجعلها ملزِمةً ، فإنّما أُتِيَ منْ قبـلِ اختيارِه ، لا منْ قِبلِ الرّؤية المنهجيّة في بُعدِها الوظيفيّ .

و«**المقاربةُ التَّأويليّة**» هِيَ إلَى «التَّجريبِ» لا إلَى «التّطبِيق» ، لذا كان الَّذي أسطُرُه منهاجًا تدبُّريًّا لبيان القرآن الكريم ، لا أسْتَهْتِرُ بتطبيق ما يقومُ فيه مِن أصولٍ كليّةٍ ومعالمَ إرشادِيّةٍ تحمِلُ النَّاظِرَ فيها إلى غايةٍ شريفةٍ نبيلةٍ ،

ولكنَّها لا تحملُه عليها . منهاجٌ يُقِيمُك على مقربةٍ لِتُبْصِرَ ، ولا يُقِيمُك فِيه فَتُؤسَرَ ، يغريك تجريبًا ، ولا يقسرك تطبيقًا .

«التَّجريب» صَنعةُ الأحرار، و«التَّطبيق» عبادة الصِّغار .

في «التّطبيق» تقدِيسٌ ، وفي التّجريب تقويمٌ وتزكيةٌ .

كلّ تجْـريبٍ يُضِيفُ إلى المنهاجِ ما يحَقِّقُ له التَّخلُّصَ ممَّا غيرُه أزكَى وأندَى .

التّطبيق يسْتطِيعُه ناشئٌ قد لا يملك التّحصُّنَ ممَّا قدْ يَأْتَلِقُ من المنهاجِ الَّذي بيْن يديه ؛ لأنَّـه يمكثُ في المنهج ، فيأسِرُه ، ولا يملك أن يَجُوسَ خلاله يَسْتَكْشِفُ عَوَارَهُ ، فإذا هو بتطبيقِه يلقِي على ذلك المنهاجِ طَيْلَسَانَ التّقديس ...

والتّجريب لا يقومُ به إلاَّ مُتَمكّنٌ مِن استبصارِ أبعادِ المِنهاج الَّذي بيْن يديه نافذُ البصيرة فيه ، فلا يُسيطِرُ المنهاجُ علَيْهِ ؛ لأنَّـه لا يمكُثُ فِي المنهاجِ بَل يُقيمُه بيْن ناظِريْه ، يتفرَّسُهُ ، فيقوِّمُ ويُسدِّدُ .

صاحبُ المِنهاجِ هُوَ أقربُ إلَى التّطبيقِ مِنه إلَى التّجريبِ مَا لَم يكنْ فحلاً ، ذلك أنَّ صاحبَ المِنهاجِ وثيقُ العلاقةِ بما وضع مِن أصولِه ومعالمِه ، إذْ هو وليدُ قلبِه ولسانِه ، فقد يغفُل ، فلا يفتّش عمّا فيه من خَلَلٍ ، وذلك غير حميد ، وإنجاز التَّجريب من الآخر آمَنُ عُقْبَى ، وأوفرُ ثمرًا ؟

والربّانيُّون مِن أهل العلْم لا يحملون تلاميذَهم على مناهجِهم ، بل يحملونهم إليها حملَ إبانةٍ ، ويغرونهم بالمناقضَة المؤسَّسة على عرفانٍ نافذٍ مُحيط بما هم قائِمون له ، ويذكرونهم بأنَّـهم في سياق المناقدة والتَّفتيش عن الأعلَى والأزكَى والأذكَى ، قائمون في الاهتداء بما جاء في كتاب الله ـ سبْحانَه وَبِحمدِه ـ : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا** ﴾ (الإسراء:٣٦) .

وجاء عن سيِّدنا عبد الله بن مسعود ـ رَضِيَ الله عَنه ـ موقوفًا : « لا تكونُوا إِمَّعَة » فليس حسنًا أن يسلك طالبُ العلم بكتابِ الله ـ تعالى ـ مسلك التَّقليد على غير بصيرة ، ولا سيَّما تقليد الَّذِينَ يرضَون بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فاستحبّوها عَلَى الآخِرَةِ ، وَصدُّواَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، الَذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

حرَى بكلّ طالبِ علمٍ ، بلْ بكلِّ مُسلمٍ ، بلْ بكلّ ذي عقلٍ ألا يقفُوَ ما ليس له به علمٌ ، وألا يطعَم مِن عملِ غيرِه ما كان قادرًا على أن يُطعِمَ نفسه ، فإنَّ الصَّدقة لا تحلّ لذِي مرّة سَوِيّ ، فلستَ حرًّا في أن تستعبِدَ نفسَك لغيرِ خالقها جَلَّ جلاله ، فما أنت بمالِكِها أصلاً أو وكالةً .

إنّها أمــانةٌ أنتَ عنها مسـؤولٌ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (النساء:٥٨) .

روى مسلم في كتاب « الزَّكاة » من صَحيحه بسنده عَنْ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ عَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رَضِيَ الله عَنهما ـ إِذْ جَاءَهُ قَهْرَمَانٌ لَهُ ، فَدَخَلَ ، فَقَالَ : أَعْطَيْتَ الرَّقِيقَ قُوتَهُمْ ؟ قَالَ : لاَ . قَالَ : فَانْطَلِقْ ، فَأَعْطِهِمْ . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ » .

وروَى أبو داود في كتاب « الزكاة » من سننِه بسنـدِه عَـنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رضِيَ الله عنهما ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ » .

وروَى مسْلم في كتابِ « الزكاة » من صَحيحِه بسنـده عَـنْ حكيمِ بْـنِ حِـزَامٍ ـ رَضِيَ الله عَنه ـ عَنِ النَّبِيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ :



«الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ» .

حسنٌ ألا يحسبنَّ طالب العلم أنَّ هذا الهَدي النَّبويّ مقصورٌ على طعام الأجساد ، بل طعام النّفوسِ والعقول والقلوب والأرواح هو المقدم ، فاتخذْ لنفسِك طريقًا إلى مرضاة ربّك سبْحانَه وَبِحمدِه .

أوّلُ من أنت مسؤولٌ عن قوتِه نفسُك الّتي بين جنبيك ، وقوتها علما وإيمانًا مقدّم على غيره ، فاتخذ العدة للوفاء بحقّ نفسك عليْك ، وإلاّ كانت نفسك أوّل من يطالبك بحقها عليْك بين يدي خالقِها ، ومؤتمنك عليْها ، فانظر أين أنت .

وهذا الكتابُ قائمٌ لتحقيق إعانة طالب العلم بكتابِ الله ـ سبْحانَه وَبِحمدِه ـ على أن يقوم بما أمر به الله ـ سبْحانَه وَبِحمدِه ـ في قوله : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (الزمر:٥٥) .

وللعلماء في تأويل قوله تعالى : ﴿ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ مذاهبُ عدّةٌ تتلاقَى من وجهٍ وتتفاضلُ من آخر :

منهم من ذهب إلى أن قوله سبْحانَه وَبِحمدِه : ﴿ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم ﴾ عامٌّ يشمل كلُّ ما أنزل الله ـ تعالَى ـ من كتب وصحفٍ علَى أنبيائه ورسلِه ، فأحسنها «القرآن» ، والحسن سائر الكتب الأخر .

وأحسن الأنبياء هو سيدنا محمّد ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبه وسَلّم ـ والحَسَن سائر الأنبياء ، وكأنَّ هذا الخطابَ موجهٌ إلى أهل الكتاب أوّلاً ، فهم الّذين أنزل إليهم القرآن والتَّوراة أو الإنجيل ، فأُمِروا فِي زَمن النبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبه وسَلّم ـ وما بعده باتباع أحسن الثّلاثة : المصَدِّق لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنٌ عَلَيْهِ .

ومنهم مَن ذهب إلى أنَّ في القرآنِ عزيمةً ورُخصةً ، فالأحسن العزيمة ، والحَسن الرّخصة ، فمجازاة المعتدي بمثل ما اعتدَى حسنٌ ، والأحسن العفو :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (النحل:١٢٦) .

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾

(الشورى:٤٠-٤١) .

والّذي أذهبُ إليْه أنّ الأحسنيّة ليس مناطها عينَ ما أنزل إليْنا من ربنا ـ سبْحانَه وبِحمدِه ـ فكلّ ما أنزل إليْنا منه هو الأحسن والأكمل والأمثل ، فلا تفاوت في ذاته .

إنّما مناط الأحسنيّة هو مناطُ عطاءِ ما أنزل لمن أطاع ، فهذا يتفاوتُ بتفاوتِ إتقانِ الطّاعة إخلاصًا وصناعةً ، ففي بابِ ترتيلِ القرآن مثلا مِن النّاس من مثوبته الحرف بعشر حسناتٍ ، ومِن النَّاس من ترتيله الحرف بمئة ، ومِنهم مَن ترتيله الحرفَ بألفٍ إلى ما يشاء الله ـ سبْحانَه وبِحمدِه ـ ففي هذا دعوةٌ إلى أن لا يرضَى العبد في ترتيلِه أن يكونَ نَصيبه الحَسَنَ (الحرف بعشر) ، بل يسعَى جاهدًا إلى أن يكون نصِيب ترتيله الأحسن (الحرف بألفٍ وما فوقه) ، فهو دعوةٌ إلى صفاءِ القصدِ وإتقانِ العَمل تلاوةً ، وتدبرًا وتأدبًا ودعوةً إلى الحُسنَى بلسانِ الحالِ قبلَ لسانِ المقالِ ، فلسانُ الحالِ أصدقُ وأبلغُ وأنجعُ .

* * *

ما يقوم عليْه الكتابُ :

إذا ما كان هذا الكِتابُ « المعنى القرآني : معالم الطريق إلى فقهه في سياق

السورة» يسعَى إلى أن يجعلَ مِن طالب العلم مِمّن تكون مثوبته على الحرف من القرآن ألفًا وما فوقه ، وذلِك بحسن التَّدبّر في كلٍّ فعلٍ من أفعال التلقّي عن الله ـ سبْحانَه وَبِحمدِه ـ ، فقد رأيت أن أجعله شريجين :

الشّريج الأوّل :

في المصطلحِ وما إليه وهو من توطئةٍ ، وخمسةِ معاقدَ :

التّوطئة : في شأن المقصدِ الرّبانيّ في إعجازِ البيان القرآنيّ

والمعقد الأوّل : في شأن التّدبّر مفهومًا ومغزَى .

والمعقد الثّاني : في شأنِ المعنَى القرآنيّ مفهومُه وأنواعُه وخصائصُه .

والمعقد الثّالث : في شأن العواصِم مِن القواصِم .

والمعقد الرّابع : في مستوياتِ صورةِ المعنى في الذّكرِ الحكيمِ .

والمعقد الخامس : في النّصّ والخطابِ وما إليهما .

الشّريج الثّاني :

لبيان معالم الطَّريق إلى مُدارسَةِ المعنَى المركَزيّ وأثره في تناسبِ بناءِ السُّورة القُـرآنيّة .

وجعلته مِن خمسةِ معاقدَ :

المعقد الأوّل : فِي شأنِ موقع السّورةِ مِن نسق التِّلاوة المديد والحزبِ الّذي تكون فيه .

والمعقد الثّاني : في شأنِ الطَّريق إلى استنباطِ المقصود الأعظم للسّورة ، وفقه أثره في البِناء النّصّي للسُّورة .

والمعقد الثّالث : في شَأنِ تقسيم السُّورة إلى معاقـدَ ، وعلاقتها بالمقصودِ الأعظمِ وحركةِ المَعنَى .

والمعقد الرّابع : في شأنِ تقسيم المعاقد إلى نجوم ، وعلاقتها بالغرض المرحلي للمعقد وحركة المعنى .

والمعقد الخامس : في شأن التّحْليل البَيَانيّ في ضوء السياق والمغزى .

* * *

الضّابط الكليّ لمنهاجِ القولِ في قضايا الكتابِ ومسائله :

وإذا كان من أصول العقيدة الإسلامية أنّـه سبْحانَه وَبِحمدِهِ : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** ﴾ (الشورى:١١) لا في ذاتِه ولا صفاته ولا أفعاله ، وكلامه سبْحانَه وَبِحمدِهِ صفة من صفاته ، فإنَّ الأمر يقضِي بأن لا تكون مدارسة كتابه الّذي هو صفته كمثلها مدارسة أيّ كلام ، وإن كان سبْحانَه وَبِحمدِهِ قد خاطب في كتابه النّاس على معهود العرب فهما وإفهاما زمن التنزيل، إلاَّ أنّ ما يعالجُ به فهم الكلمة الإنسان شعرًا ونثرًا أدبيًّا من أصول وضوابط مستمدَّة من واقع هذه الكلمة الإنسان ، لا يستقيم قطُّ أن نخضع لها الكلمة «الوحي» ، فعلينا أن نجتهدَ في أن نستمدَ من الكلمة الوحي أصول فهمها وضوابطها ، وعلينا أن نقيم علم بلاغة القرآن ، وهذا ما لا يطيق الوفاء بحقّه كتاب ، بل هو ممّا يستوجب على أهل العلم وطلبته أن يتعاونوا على تحقيقِ بعضِه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وليس هذا بالعسير إن تحقق صفَيّ القصد ، وفتي العزم ، ووفير العدّة ، فإنّه سبْحانَه وَبِحمدِهِ قد هدى إلى أنّـه قد يسَّر القرآن للذّكر: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ (القمر:٢٢) .

وكرّر هذا القَسَم في سورة «القمر» أربع مرات ، ولولا عظيمُ شأنه ما كرّره ، ومن الذِّكر حُسن فهمِهِ بما يليق به ، فلا يسلك إليه ما لا يحقّق ما يجبُ أن

يستجنِي منه : البيان ، والبلاغ ، والهدى ، والذكرى ، والشفاءُ ، والبشرَى ، والرحمة .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٩) .

وكلُّ قراءةٍ لا يُستَجنَى بها شيءٌ من تلك العطاءاتِ يُخشَى أن يكون صاحبُها ذا نصيبٍ ممَّا جاء في قول الله ـ سبْحانَه وَبِحمدِه ـ :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة:٥) .

وهذا ما لا يرتضيه عاقلٌ لنفسِه قطُّ .

* * *

أدواتُ المدارسة :

مدارسةُ بيانِ القرآن في أيِّ مجالٍ مِن مجالاتِه ، ولا سيَّما مجال سَنَنِهِ البيانيّة في الإعرابِ عن معاني الهدَى المكنوزة فيه ، تحتاجُ إلى مهاراتٍ وأدواتٍ زائدةٍ على ما تحتاجُه مُدارسةُ الكلمةِ الإنسانِ شِعْرًا ونثرًا أدبِيًّا ، فقد يكونُ المرْءُ لَوذَعِيًّا فِي مُدارسةِ الكلمةِ الشّاعرة ، يستنطقُها بِما هو الخَبِيءُ فيها ، ثُمَّ لا تجدُه مقتدِرًا علَى أن يحومَ حَوْلَ حِمَى البيانِ القُرآنيِّ علَى النَّحو الّذِي كان له في الكلمةِ الإنسانِ .

قضَى الله ـ سبْحانَه وَبِحمدِه ـ في كتابه بأمور زائدٍ تطلّبها على ما يتطلّبه العرفان بأسرار الكلمةِ الإنسانِ : تطلّبَ أمورًا هي عاملٌ من عواملِ حُسن التَّلقّي عنه ، وأبان عن أمورٍ هي العوائقُ عن التلقّي عنه .

وهو قد استفتح حديثه في سورة «البقرة» ببيان العامل الرّئيس من عوامل حسن التّلقي من بعد أن أبانَ عن كمال هذا الكتاب في ما أنزل من أجله ، وأبان عن سموه عن أن يكون فيه ما يُمكن لذي عقل أن يرتاب فيه ، فقد حفظه من أن يكون سببًا في أن يرتاب فيه إلاّ مَن كان ذا دغلٍ في عقلِه ، فيصوّر له دغلُه وخبلُه أنّ هنالك ما يرتابُ فيه .

وهذا وجهٌ مِن وجوهِ حفظِه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) فقال : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ (البقرة:٢) وذلك أَيَضًا وجهٌ مِن وجوهِ إعجازه .

وفيه أيضًا إنباءٌ لأهل القرآنِ أنّه متضمنٌ ما يحفظه من الرَّيب ، وأنَّ فيه نقَضًا لكلّ شبهةٍ قد يتوهَّمها غِرٌّ، ولو أنّه راجعَ لَرَجَعَ ، لو أنّه أحسنَ التَّبصّر فيما يتوهّم لَعلم أنَّ في القرآنِ ما يدفعُ عنه ما تردّى فيه وَهْمُهُ من الشُّبهة .

وتلك خصِيصةٌ لا يمكنُ لأحدٍ مِن العالمين أن يدَّعيها لأيِّ عملٍ يَصْدُرُ عنه.

* * *

وليس من ريبٍ في أنَّ ما يأتيَ به كتابي هذا إنّما هو سَعيٌ فَرديٌّ لِرَسْمِ مَعالم رؤيةٍ منهجيّة في هذه القضيةِ ، حقّها على القارئِ أن يسبِرها ، وأن يقوّمَ عوجَها ، وأن يُسدّد خلَلها ، وأن يُكمِلَ نقصَها ، وأن ينفَيَ خبَثَها ، فالمُسلم أخو المسلمِ لا يظلمُه ولا يسلمُه ، ولا يخذلُه ، ومن إسلامِه لِما يُضيره أن يدعه في ما هو فيه مِن عَوج أو نقصٍ أو خللٍ أو نقصٍ أوخبثٍ .

والله ـ سبْحانَه وبِحمدِه ـ أسأله هداية إبانة وإعانة على ما يرضِيه ، وأن يصرفَ عنَّا ما لا يرضيه ، وأن يشغلَنا بطاعتِه إيمانًا واحتسابًا ، وأسألُه أن يصحِّحَ من قبْلُ نيَّاتِنا ، وأن يجعلَها خالصةً له قبلَ إقْدَامِنا وسعينا ، وأن يكونَ

لنا فِي عاجلِ أمرنا وآجلِه ، وأن يرفعَ ذكرَنا بالقرآنِ الكريم بين عباده الصَّالحين في الدّنيا والآخرة .

اللهمّ صَلِّ وسلّمْ وباركْ على عبدك ونبيك ورسولِك سيدِنا محمّدِ بنِ عبدِ الله وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وأُمَّتِه فِي كُلِّ لَمْحَةٍ وَنَفَسٍ عَدَدَ خلقك وَرِضَاءَ نفسك وزِنَةَ عرشك وَمدادَ كلماتك ، كَما تحبُّ وترضَى صلاةً وسلامًا وبركةً تجمعنا بها معه يوم القيامة في الفردوسِ الأعلى . آمين آمين آمين رَبَّ العالمين .

لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

القاهرة : مدينة الشّروق

المحرم ١٤٤٢هـ

الدكتور

محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ بجامعة الأزهر

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

الشَّريج الأوَّل

فِي المصطلحِ وما إليْه

التَّوطِئة : فِي شأنِ المقصد الربّاني من إعجاز البيان القرآنيّ .

المعقد الأوَّل : التّدبرُ مفهومًا ، ومغزَى .

المعقد الثَّاني : المعنى القرآنيّ مفهومه ، وأنواعه ، وخصائصه .

المعقد الثَّالث : العواصِم مِن القواصم .

المعقد الرَّابع : مستويات بِنَاءِ صُورةِ المعنَى فِي الذِّكر الحكيم .

المعقد الخامِس : النّصّ ، والخطاب وما إليهما .

التّـوطِئة
في شأنِ المقصد الرّباني
من إعجاز البيان القرآنيّ

المقصد الرّبانيّ من إعجازِ البيان القُرآنيّ

ممّا هو جديرٌ بأن نكونَ منه على ذكرٍ أنّ القرآنَ لم تخرج كلمةٌ مِن معجمِه الكلميّ عن معجم العرب اللُّغويِّ، فمعجمُه الكلميّ هو أفصحُ ما جاء في المعجم اللُّغويِّ للعرب فصَاحةً ذاتيّة وسياقِيّة (وَظيفيّة)، ولا توجدُ كلمةٌ في معجمِهم الّلغويِّ هي أفصحُ ممَّا في معجمِه الكلميّ في سياقها، بحيث يمكِن أن تقامَ مقامَها، كذلك لم يأت القرآن بسَنن في التركيب أيًّا كان امتداده لا يتأتّى للعرب الأنس به، بحيثُ يشكِل عليْهم، فيفتقرُ جميعُهم إلى أن يتساءَلوا عنه، هذا ما يجب أن نكونَ على ذكرٍ منه، وهو يهديك إلى أنَّ مناطَ الإعجاز في النّظم ليس الإتيانَ بمفرداتٍ أو تراكيبَ لا تعرفُها العربُ زمنَ الوحي ؛ لأنَّ ذلك معيقٌ عن حسن التلقّي، ومنزِّل القرآن إنّما هو ربّ العالمين، وهو الرَّحمن الرَّحيم، وهو القائل سبْحانَه وَبِحمدِه :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢) .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ (مريم:٩٧) .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الدخان:٥٨) .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧) .

المناطُ الرَّئيسُ للإعجازِ متمثّلٌ في منهج الإبانة بهذه المفردات والتَّراكيب على تصاعدها وامتداداتها ، وتحقيق علاقاتٍ بينْها تحقق الإبانة والإفهام لدقيق المعاني ولطيفها وكريمها ، والإقناعِ العقليّ والنَّفسيّ بالحقائق الشّهوديّة والغيبيّة وآياتها ، مضافًا إليه ما يحمله من معان الهُدَى الَّتي لا قبلَ لأحدٍ من العالمين أن يخبرَ بها ، لنقصان علمِهم ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا ؛ ذلك أنّ «بيانَ كلٍّ مبينٍ على قدرِ إحاطَةِ علمِه ، فإذا أبانَ الإنسانُ عَن الكائنِ أبان بقدرِ ما يُدركُ منه ، وهُو لا يُحيطُ به علمُه ، فلا يصلُ إلى غايةِ البلاغة فيه بيانُه .

وإذا أنبأَ عَن الماضي فبقدرِ ما بقِيَ مِن ناقصِ علمِه بِهِ كائنًا فِي ذكره ، لِمَا لَزِمَ الإنسانَ مِن نسيانِه .

وإذا أراد أن ينبِئَ عَن الآتِي ، أعوزَه البيانُ كلُّه ، إلاَّ ما يقدِّرُه أوْ يُزَوِّرُهُ ، فبيانُه فِي الكائنِ ناقِصٌ ، وبيانُه فِي الماضِي أنقصُ ، وبيانُه فِي الآتِي ساقطٌ ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ (القيامة:٥) .

وبيان الله ـ سبْحانَه وَبِحمدِه ـ عَن الكائنِ بالغٌ إِلَى غايةِ ما أحاطَ بِه علمُه ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الملك:٢٦) ، وعَن المنقطِع ، كونُه بحسَب إحاطتِه بالكائنِ ، وسبحانه وتعالى من النِّسيان ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (طه:٥٢).

وعَن الآتِي بِما هُو الحَقُّ الواقِعُ ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ (الأعراف:٧-٨)»[1] .

---

(١) تراث أبي الحسن الحَرَالّي المراكشي في التفسير . لأبي الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ ابنِ حَسَنِ التُّجِيبِيُّ الحرالّي (ت: ٦٣٨هـ) ص٢٩ تحقيق : محمادي بن عبد السلام الخياطي ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـ الرباط . ط . الأولى ، ١٤١٨هـ .

وإذا ما كان مسلّمًا لدَى كلّ ذي عقلٍ أنّه لا يكونُ شيءٌ ذو بالٍ في دنيا النَّاسِ إلاّ ومِن وراءِ ذلك مقصدٌ يرمَى بِه إليْه ، ذلك المقصد هو الّذي له السُّلطان الأعظمُ على ذلك الشّيْءِ في جميع شأنِه ، فلا يكونُ شيءٌ منه أو فيه أو بِه إلاّ وهو خاضعٌ لذلك المقصدِ ، الّذِي اقتضَى أن يكونَ ذلك الشّيْء - إذا ما كان ذلك حقيقةً مسلّمةَ - فإنّ علينا أنْ نستبصرَ المقصد الرَّبانيّ من إعجاز البيان القرآنيّ ، كيما يكون تدّبرنا ذلك الإعجاز منضبطًا بما يحقّق فينا هذا المقصد الربّانيّ ، فغيرُ قليلٍ من أسباب إخفاق بعضِ الجهودِ المبذولةِ في أمورٍ جليلةٍ مرجعُه إلى الغفلةِ عن تحريرِ المقصد من تلك الأعمالِ ، فيجرِي السّعيُ في غير المسعَى الموصّل إلى ذلك المقصدِ ، فلا تثمر تلك الجهود ما هو المرتجَى أن تُثمره .

وأرِيدُ بالمقصد الرَّبانيّ هو ما يريد الله ﷻ بإعجاز البيان القرآنيّ أن يربينَا بِه ، فهو ربّ العالمين ، ففِي كلٍّ ما يحقّق الإعجاز البيانيّ للقرآن ما إذا أدركه المُتدبّرُ واستطعمه كان له به ما يزكوه ، ويذكيه ، وينميه ، ويتصاعد به إلى مقام محبّة الله - تعالى - له ، فإذا ما أحبه الله ﷻ كان له كل شيْءٍ يرجوه .

« فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ التي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سألني لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » . (البخاريّ : الرّقاق) .

ففي كلّ مكوّن مِن مكونات بلاغة البيان القرآنيّ المعجزة معنى تربويّ يتجلّي للسّامع حينًا ، ويخفَى أحيانًا ممّا يفتقر في تلقيه إلى تبصّر وتدبّر ، كلٌّ بحسبِ السّياق ومغزَى الكلام سواءٌ كان المكوِّن كلمةً أو تركيبًا أو أداءً .

ولذا حثّ النَّبيُّ ـ صَلى الله عَلَيْـهِ وَعَلَـى آلِـه وَصَـحبِه وسَـلّم ـ علـى حسـن التَّغنّي بالقرآن : « زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » . (أبو داود : الوتر) .

« حَسِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ ، فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا ».

(الدّارمي : فضائل القرآن)

أيْ زيّنوه وحسِّنوه في أفئدة السّامعين ، ليقبلوا عليه مستأنسِين به ، مسـتغنين به ، فيكون لهم منه عطاءٌ يغنيهم عن التَّغني بغيرِه ، فـالتَّلاؤم الصَّـوتيّ وحسـن الأداء لهما مِن الأثر في النَّفسِ ما لا يستطيع غيرهما أن يفعل .

يقول أبو الحسن الرُّمانيّ (٣٨٤هـ) : « والفائدة في التَّلاؤم حسـن الكـلام في السَّمع ، وسهولته في اللّفظ ، وتقبّل المعنـى لـه في النّفس لمـا يـرد عليهـا مِـن حسن الصّورة وطريق الدَّلالة »[1] .

وإذا ما تقبلت النّفسُ المعنى أقبَلت إلى ما يدعوها إليه مـن الحـقّ والخـيرّ ، فتتحقق الغايـة الرئيسـة مـن البيـان ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقــرة:٢) ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة:١٨٥) .

* * *

(١) النكت في إعجاز القرآن . تأليف أبي الحسن عليّ بن عيسَى بن عليّ بن عبد الله الرماني (ت : ٣٨٤هـ) ص٩٦ تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام . مطبوع ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة : ذخائر العرب (١٦)] دار المعارف بمصر . ط . الثالثة ، سنة : ١٩٧٦م .
وانظر معه : شرح رسالة الرّماني في إعجاز القرآن لعالم مجهـول . ص٦٢ تحقيـق : زكريا سعيد على . دار الفكر العربي ـ القاهرة . ط . الأولى . ١٩٩٧م .

ممّا هو قائمٌ في وعْي غيرِ قليلٍ من طلابِ العلمِ بكتاب الله ـ سبْحانَه وَبِحمدِه ـ أنّ مقصديّة إعجازِ بلاغته إنّما تتمثّلُ في تحقيق أنّه كتاب اللهِ ـ تعالى ـ ، وأنّ من أُنزِل عليْه القرآن إنّما هو عبد الله ونبيُّه ورسوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ وهذا حقٌّ مبينٌ ، إلاّ أنّ الّذِي ليسَ بحقٍّ أنْ تكونَ مقاصِد إعجازِ بلاغةِ القرآنِ منحصِرةً في هذا المقصِدِ ، فإنَّ مِن رحمِ هذا المقصِدِ المتّسمِ بشرَفِ الأوَّليّة قصدًا ، وبشَرفِ الأوَّليّة مكانةً ، مقاصدَ جمّةً يراد مِنها ما يحقِّق للعبادِ في مسيرِهم الدّنيويّ ومصِيرِهم الأخرويّ شرفَ صَفاء عبوديّتهم لله ربّ العالمين ـ سبْحانَه وَبِحمدِه .

وقَد هدَى القُرآن إلى هذِه المقاصدِ التّربويّة التي يجبُ استحضارُها في مدارسة البيان القرآنيّ بأيِّ منهجٍ منْ مناهج المدارسة ، وفي أيِّ مجالٍ من مجالات المدارسة .

للقرآنِ الكريمِ حديثٌ مستطيلٌ متنوّعُ طرائقِ الإعرابِ عن أمورٍ عدّة :

- الإعراب عَن شأنِه .

- والإعرابِ عَن ما أنزلَ لتحقيقِه .

- والإعرابِ عَن مقصديّة اتّخاذه اللّسانَ العربيّ المبين منهاجَ إفهام فعيلٍ .

- والإعرابِ عَنْ مقصِدية إعجاز بيانِه إعجازًا يرغم أنفَ كلّ ذي أنفٍ ، ويَهدِي هداية إبانةٍ وإعانةٍ كلَّ ذي فؤادٍ سليمٍ مِن عوائقِ التّلقّي : فؤادٍ يريد الاهتداءَ إلى ما له بِه المَنجاةُ مِن كلّ مضرّة في مَسيرِهِ ومصَيرِه .

فمَن شاءَ أنْ يتلقّى فؤادُه عِلمًا محيطًا بذلِك كلّه ، علمًا هو الحقُّ المبِينُ الّذِي لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ، فَلَن يجِدَ محققًا له ذلك كَمثل ما هو واجدُه في بيان الله ـ سبْحانَه وَبِحمدِه ـ عَن القرآن ، ثمَّ في بيانِ سيّدنا رسولِ اللهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم .

فِي هذين البيانين الإعرابُ الحقُّ المطلَقُ ، السّابغُ الجامعُ كلٍّ ما يتعلّق بِشأنِ هذا الكِتاب ، وما أنزل مِن أجلِ تحقِيقه ، وما اقتضاه تحقيق ذلك من منهج إبانة ومِن مستوياتِ دَلالة متنوّعة متفاوتةٍ وضوحًا وخفاءً وقربًا وبعدًا ، واحتمالاً وإحكامًا تنوّعًا يتواءَم مع السّياقِ المقاليّ والمَقامِيّ والمغزَى .

ومنْ يستجمع هذه الآياتِ والأحاديثَ النّبويّةَ ويستبصِرها ، يتّأتى له أنْ يدرِك الأصولَ الكليّة العَواصبَ ، والضّوابطَ العواصمَ لحركة تلقّيه ذلك البيانَ ، تلقيًا يثوّر عزيمتَه علَى أنْ يهتفَ كلُّ شيْءٍ فيه إيمانًا واحتسابا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

إنَّ استحضارَ هذه المقاصدِ الكليَّة المنصُوصِ عليْها فِي البيانِ القرآنيّ وفِي البيانِ النَّبويّ لَهو فريضة عينٍ علَى كلّ عقلٍ يتبصّر فِي هذا البيانِ عامَّة ، وفريضة عينٍ على العقلِ البلاغيّ العربيّ خاصّة ؛ إنّه عقلٌ ليس كمثلِه عقلٌ بلاغيٌّ آخر في هذه الدّنيا ؛ إنّه عقلٌ ما نشأ إلاَّ لِتحقيقِ حُسْنِ الفَهمِ عن اللهِ ـ تعالى ـ وعن سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم .

حسن الفهم هذا وما يثمره من كمال القنوتِ والتّزلّفِ إلى الله ﷻ إيمانًا واحتسابًا هو الغاية الحسنَى والعُظمى مِن حركة هذا العقلِ البلاغيِّ العربيّ وَمنْ فعله .

ومِن قبل هذِه الغايةِ العظمَى غاياتٌ مرحليّة يبلغها العقل البلاغيُّ العربيُّ ، بمصَابرته الرَّشيدة في تذوّق الكلمةِ الإنسانِ شعْرًا ونثرًا أدبيًا بديعًا في رؤيتِه وأدواتِ تصويره هذِه الرُّؤيةِ ، وهِي غاياتٌ أشبهُ بالزّادِ إلى بلوغ هذِه الغايةِ الجليلةِ القدرِ والوفيرةِ العطاءِ ، غايةِ حسن الفهم عن الله ﷻ .

إنّ من مقاصدِ إعجازِ بلاغةِ القرآنِ أمْرَيْن كُلّيين هما مِن فيض عطاء الرُّبوبيّة الأعظم :

الأمــر الأوّل :

أن يكون عطاؤه معانيَ تتّسم بأمور عِدّة منها :

- أن تُبِينَ عمّا يريدُه الله ﷻ مِن عبادِه ، أمرًا ونهيًا ، معانِيَ تهدِي إلَى الّتي هي أقومُ .

- وأن لا تخلَقُ علَى كثرةِ الرّدّ ، ولا تنقَضِي عجائبها ما بقيت الحياةُ علَى عظيمِ اتّساعِها وتقدُّمها وتجدُّدها، وتجدّد مناهج الفهم والإفهامِ فيها ، فلا تنزل بالنّاسِ نازلةٌ إلاّ ويجدُ فيها أهلُ العلم به وبأصولِ فقهِه وفهمِه وبضوابطهما ما يهدِي إلى الحقّ والخيرِ في هذِه النّازلةِ علَى تنوّعِ الأعصارِ والأمصارِ ، وامتداد حركة الحياة ، وذلك لديموميّة العطاء ، ولشيوعِه وملاءمتِه حالَ كلّ متشوّفٍ إلى الهُدَى أيًا كان موقعُه من امتلاك مهاراتِ التَّلقّي وأدواتِه ، وأيًّا كان موقعُه مِن العُروبة والعُجمة الّلسانيّة ، فإنّ في هذا البيانِ القُرآنِيّ مِن العطاءِ ما لا يتوقّفُ على أنْ يكونَ المُتشوّفُ إليه عربيَّ الّلسان ، بل فيه من معالم الإعجاز البيانيّ وملامحه ما تبقَى على التّرجمةِ إلى أيّ لسان ، فما كلّ معانِي الهدَى لا تستطعم إلا مِن لسان عربيّ مبين ، بلْ منها ما يبقَى علَى التّرجمَةِ ، ذلك أنّه هُدًى للنَّاسِ كلِّ النّاسِ .

= وأن لا يشبعَ منها العلماءُ وإن اعتكفوا العُمُرَ كلّه فِي مِحرابِ تدبّره تفكرًا وتبصّرًا واستنباطًا واستطعامًا ، فلا يحتاجون إلَى غيرِه ، كلّما استطعم العلماءُ شيئًا مِن معانيه الْهُدَى تشوّفوا إلى أُخَر، تتصاعد بهم في مقامات القُرب الأقدس بلوغًا إلى مقام « الصّديقيّة » : مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ : مَنْهُومٌ فِي الْعِلْمِ ، وَمَنْهُومٌ فِي الدُّنْيَا .

والأمـر الآخر :

أن يكون عطاؤه معانيَ تـثقّف النّفس تثقيفًا يحملـها في رفـقٍ إلى أنْ تقبـلَ على مرادِ الله الشَّرعيّ أمرًا ونهيًـا إقبـالَ متشـوّفٍ مستشـرفٍ متشـرّفٍ ، فيـدخل فسطاط طاعة الله ـ سبْحانَه وَتَعَالَى ـ والتّزلّف إليـه دخـول مُحِـبٍّ لـه ﷻ ، ثُـمَّ لعطائِه ؛ لأنّـه عطاءٌ مِنه سبْحانَه وَبِحمدِه لا لِذاتِ العَطاءِ ، لا دخـولَ مُتَـوَجّسٍ ، وَفَرْقٌ بَيْن الدُّخُولَيْنِ .

ولمّا كان القـرآنُ قـد نُـزّل للنَّـاسِ كافّـة ، وتحـدّى الله ـ تعـالى ـ بـه النَّـاسَ أجمعين في أيّ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ ، ولسانٍ ، جعلَ لكـلّ تحـديًا في مـا هـو متميزٌ فيه ، ومنْ ثَمَّ لمْ يكنْ إعجاز بلاغة القـرآن منحصِـرًا في بلاغـة التَّصـوير المتوقفة على عربيّة البيان ، بلَ فيه ضربان من الإعجاز البيانيّ لا يتوقّفـان علـى عربية بيانه :

الضّربُ الأوّل : إعجاز بلاغة الإقناع العقلي والمحاجّـة بـالّتي هـي أحسـنُ طريقًا وأفعل أثرًا .

والضرب الآخر : إعجاز بلاغة تناسب المعاني وتآخيها وتناديهـا وتناغيهـا أيضًا[1] .

هما إعجازان حاضران حضورًا فتيًّا فيما لو تُرجِمت معـاني القـرآن ترجمـةً صادرةً عن فقيه حكيم في اللّسانين .

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن ، تأليف أبي بكر البـاقلاني محمـد بـن الطيـب (ت : ٤٠٣هـ) ص٢٠٠ تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر . ط . الخامسة ١٩٩٧م .
وما قاله في ، ص ٢٠٧ في تبيين وجه الإعجاز البلاغـيّ في قـول الله ﷻ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ (النساء:٢٣) .

ترجمةُ معاني القرآن الكريم إلى أيّ لسانٍ لا تفقده كلّ إعجازَه وتحدّيه ، إذا ما كانت ترجمةً عن خبيرٍ باللّسانين مكينٍ في فقه معاني الهُدَى ، وإن كان هذا الإعجاز القائم في البيان المترجم عَن العربيةِ إعجازًا وتحدِّيًا خارجَ مجال بلاغة التّصوير ، فليس مردّ الإعجاز فيه إلى تصوير المعاني ، بل إلى منهج الإقناع والمحاجة الحقّة ، وإلى تناسبِ المعاني وتصاعدها ، ذلك أنَّ إعجاز بلاغة القرآن حُجّة على كلِّ ذي لسان أنَّ فيه له هدًى ، وأنّه كتاب الله ﷻ هدًى للنّاسِ كلّ النّاس .

ومن مقاصدِ إعجاز بلاغة القرآن أنْ يجد فيه كلّ كارهٍ له ما يُرغم أنفه ، وما يسِمُه على الخرطوم بحقائِقه الزّاهرة الباهرة الّتي لا يستطيعُ الأعداءُ طمسَها أوْ دفعها .

ومنْ مقاصد إعجاز بلاغته أنْ يبقَى هذا القرآنُ مهيْمنًا على كلّ شأنِ الإنسانِ ، فِي علاقته بالحياةِ كونًا وإنسانًا علاقة تعبّد وتزلّفٍ .

ومنْ مقاصِد إعجاز بلاغَتِه أن يَعجزَ منْ حسب أنْ يعبَث به عبثًا لا ينكشف عوارُه ومعرّته لأصغرَ مؤمنٍ به . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) .

ومن عَوامِلِ حفظِهِ إعجازُ بلاغتِه ... كلُّ هذه المقاصدِ وكثيرٌ غيرها لا تتحقّق إلا إذا كان بيانُ هذا القرآن بيانًا معجزًا ببلاغته .

ومنْ ثَمّ فكلّ دراسةٍ بلاغيَّةٍ للبيان القرآنيّ لا تستحضِر في تفكّرِها ، وتبصُّرِها ، واستنباطِها الحقائق والكُليات ، هذه المقاصدَ الّتي جاء القرآن لتحقيقِها والّتي اقتضتْ أن يكونَ بيانُه بيانًا معجزًا ، إنّما هي دراسةٌ تساوِي بيْن منهجيّة النّظر في البياناتِ على تنوّع مصادِرها وغايتها .

ولا يستطيعُ أحدٌ البتّة أن يزعمَ أنَّ منهجيَّة نظرِ العقلِ البلاغيّ العربيّ فِي الكلمةِ الإنسانِ شعرًا ونثرًا أدبيًا ، وأدوات هذا المنهج هِيَ هِيَ مَنْهجيّة النَّظرِ فِي الكلمةِ الوحي قُرآنًا وسنَّة نبويَّة ؛ ذلك أنَّ اختلافَ مصدرِ البيانِ، وما يُبين عنه ، وما يُبينُ له لذو أثرٍ بليغٍ في اصطفاءِ المنهجِ وكيفيَّة الإبانةِ ومستَواها ، والأداةِ الفاعلةِ الّتي يتمُّ بها استبصارُ شأنِ هذا البيانِ ، واستنباطِ ما هو مكنوزٌ فيه .

وإذا ما صَحّ هذا وهو ـ إنْ شاء الله تعالى ـ جدّ صَحيح ، فعلَيْنا أن نعملَ جاهدين على أن نقيم علمًا يقوم على ما لبلاغةِ بيانِ الوحي مِن خصوصيَّةٍ منهجيّة ، ومِن خصوصيّة في أدوات الاستبصارِ والاستنباطِ والاستثمار في حركةِ الحياة إلى تحقيقِ الرّسالةِ المنوطةِ بالإنسانِ المسلمِ في هذه الحياة .

إنّ الّذي بيْن أيدينا من أصولِ علمِ البلاغة وضوابطِه ، الّتي أقامَها الأعيان من أهل العلمِ قديمًا وحديثًا في أسفارهِم لغيرُ كافٍ للقيامِ بهذه المُهمةِ الثَّقيلة النّبيلة ، لافتقاره إلى أمورٍ كثيرةٍ هي أخصّ ببلاغةِ القرآن منها ببلاغةِ الإنسان .

ومِن البيِّنِ أنّ بعض الأدواتِ الفعيلةِ في تلقّي القرآنِ ما هو عِلميٌّ معرفيّ ، يتوصَّل إليه بطريق التّعليم والتّعلم والمُمارسة ، وإنَّ بعضها ما هو إيمانيّ سلوكيٌّ مرتبطٌ بعلاقة الدّارسِ والباحثِ في هذا البيان الوحي بصاحبِ هذا البيانِ جلَّ جلاله ، فإنّ من خَواصِّ هذا البيانِ القرآنيّ الّتي لن تجدَها في أيٍّ بيان آخر ، أنَّ مِن عواملِ إحسانِ تلقّيه إحسانَ علاقةِ المتلقّي بصَاحب هذا البيان سبحانه وتعالى قنوتًا وتزلفًا .

وإذا ما كان كلُّ بيانٍ بشريٍّ يُعِينُ عرفانُ متلقّيه بشأنِ صاحبِه وبأحوالِه وأحوال إبداعه على أنْ يَفقهه ويتذوقَه ، فإنَّ حُسنَ العلاقةِ بهذا الأديب المُبدع ، شاعرًا أو ناثرًا طاعةً قنوتًا وتزلفًا وتحببًا ليس فيه عونٌ على حُسنِ الفقهِ عنه ، لكنّ ذلك هو الّذي يجبُ تحققه في تلقّي بيان الوحي قرآنًا وسنّةً ، مصاحبًا

لامتلاكِ الزّاد العلميّ المعرفيّ الواجبِ تحقُّقه لهذا التلقّي. فمَا نصّ عليه القاضِي الجرجانيّ (ت : ٣٩٢هـ) في «الوساطة» قائلاً في شأنِ الشّاعر، قَولاً منطبقًا على ناقده أيضًا: «إنَّ الشّعر علمٌ من علوم العربِ يشتركُ فيه الطبعُ والرّواية والذّكاء، ثمَّ تكونُ الدُّربَةُ مادةً له، وقوّةً لكلّ واحدٍ مِن أسبابِه؛ فمَن اجتمعت له هذه الخصالُ، فهو المُحسنُ المبرِّزُ، وبقدرِ نصيبِه منها تكونُ مرتبته من الإحسان»[1].

مقالة القاضي الجرجانيّ هذه على جلالِها في بابِها لا تكفِي في تلقّي بيان الوحي قرآنا وسنّة، إنّ ثمَّ خصوصيّةً لذلك البيانِ المعجزةُ بلاغتُه، تتمثّلُ في أن يكونَ القائم لتلقّيه وثيقَ العلاقةِ بصَاحبِ هذا البيان قنوتًا وتزلفًا وتحبّبًا، بخالصِ طاعتِه فيما أمر بِه ونَهى عنه. والقرآنُ الكريمُ قَد نصّ على ذلك في آياتٍ عديدة، ومواضع متنوّعة من سوره.

أنت تقرأ في أول إنباءِ الله ﷻ عَن القرآن في فاتحة سورة البقرة قوله ـ عَزَّ وَعَلا ـ: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:١-٢).

قوله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فيه هـداية إلى أنّه لَن يكونَ هدًى إلا لمن اتقّى صراط المغضوبِ عليْهم وصراط الضّالين المذكورين في خاتمة سورة «أم الكتاب» وسلك صراط الّذين أنعم الله عليهم.

والله ﷻ يقول: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٤).

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص ١٥ تأليف: القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت:٣٩٢هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.

قوله ﷻ : ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ دالٌّ دلالة بيّنة محكمة على أنّ الإيمانَ بِه شرطٌ رئيسٌ لتحقيق إنزال الهدَى في قلبِ المَرءِ ، فالهدايةُ هنا هدايةُ إنزالٍ في القلبِ ، وليس إنزالَ إبانةٍ ، فذلك متحقّقٌ لِلنّاس كلّ النّاس عربًا وعجما كما قال ﷻ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة:١٨٥) .

وإنّ لمن جليل أدوات تلقّي بيان الوحي وفعيله صفاءَ الإيمان ببيان الوحي ، والقيامَ بحقّ النّصيحة له ، ومِن حقِّ النَّصيحة ألاّ يتلقّى هذا البيان بِما يتغافل عَن مقاصد الإبانة عن معانيه بلسانٍ عربيّ مُبينٍ على نحوٍ معجزٍ كلّ العالمين .

فمن النّصيحة الواجبة إعادة النّظر في تعلّمنا علم بلاغة القرآن وتعليمه الطلاب ، فنوجبُ على أنفسنا أوّلاً وعليْهم ثانيا أن نستحضِرَ هذه المقاصدَ في ممارستنا هذا التّعلم والتَّعليم ، وأن نجتهدَ في امتلاكِ المهاراتِ والأدواتِ الّتي يتحقّق بها الوفاءُ بحقّ دراسة البيان القرآنيّ ، دراسة تحقق لهذه المقاصدِ حضورها في وعينا وفي حركتنا في هذه الحياة لاستعمارها كونا وإنسانا بما يرضي الله ﷻ .

المعقد الأوّل
التّـدبّـر مفهومـًا ومَغزَى

لم يجعلِ الله ﷻ القرآن الكريم مجرد آيةٍ علىٰ صدقِ رسُولِه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ على ما أنبأ به من أنّه رسول الله ـ تعالى ـ إلى النّاسِ كافّةً كما كانت آياتِ الأنبياء من قبلِه ، ولو شاء الله ﷻ أن يجعل سَمْتَ رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ وخلقَه هو الآية على نبوّته ورسالته لكان ذلك ، فأنت لن تجدَ في النّاسِ أجمعين من يمكن أن يعارضَه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ في سمته وخلقه ، فالآيات على أنّه رسولُ الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ غير القرآن جدّ كثيرة ، بل لا يحاط بها ، ولو شئت أن تحاجج على ذلك بأيّ شأنٍ من شؤونه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ لحاججت وغلبت .

قلت : لم يقصر الله ﷻ القرآن آية على صدق ما جاء به من أنّه رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ بلْ جعله من قبلِ ذلك هدًى للنّاس ، يخرجهم من الظّلمات إلى النّور ، جعله تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ متعلّق بعلاقة الثقلين بربهم سبْحانَه وبحمدِه وبأنفسِهم وبالحياةِ كلها، وجعله هدًى وشفاءً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى وذكرَى .

وهذا يقتضِي أن يكونَ مِن نصْح المرءِ نفسَه مِن بعد تحقيقِ كمال الإيمان به أنْ يجتهدَ في إتقان ترتيلَه ، وتدبّره والعملَ بما فيه ، وتعليمه والدّعوة إليه بلسان الحال ولسان المقال والمدافعة عنه بالحقّ المبين .

ولهذا تسمع قول الله ﷻ مقرراً أنَّه قد أنزله مباركًا ليدبّروا آياته وليتذكر أولو الألباب : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص:٢٩) .

فهذه (اللام) في (لِيَدّبّروا) و(ليتذكر) لام الغاية والحكمة ، فمن لم يأخذ حظَّه من مدخولهما لن يأخذ حظَّه من بركتِه ، فعلَى قدر سعيك إلى اكتساب حظّك من التَّدبُّر والتَّذكُّر يكون حظُّك مِن بركة هذا الكتاب العظيم ، وقد وصف الله ﷻ القرآن الكريم في مواضع عِدّة بالبركة :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾

(الأنعام:٩٢) .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٥).

﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٥٠) .

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

(ص:٢٩)

وأصل المعنى لهذه الكلمة : «البركة» إنّما هو اتّساع النّعمة وديموميتها وتجدّدها ، فكانت من الكلمات الحبيبة الّتي تنشرحُ لها قلوب العباد ، فإنَّها مرتبطةٌ في وعيهم بالنَّماء والزِّيادة ، وقد يغفلون عن معنى الثَّبات والدَّوام الَّذي تتضمّنه الكلمة ، فقرّر بهذه الكلمة ثلاثة نعوتٍ للكتاب :

= اتساع عطائهِ ، فهو الَّذي لا تنزلُ بالنّاس في أيّ عصرٍ أوْ مصرٍ نازلةٌ إلاّ ولهم فيه ما يخرجهم من الظّلمات إلى النّور .

= وتجدّده فهو متجدّد العطاءِ لا يخلقُ على كثرة الرَّدّ ، ولا تنقضِي عجائبه ، ولا يشبعُ منه العلماء .

= ودوام نفعه المتّسع المتجدّد ، فهو باقٍ بقاءَ الحياة لا سبيلَ لأحدٍ البتـة إلى أن يحاجزَه عن أن يمدّ نوره إلى حيث يكون ليلٌ أو نهار . ومن ثَمَّ حثّ على تدبّره ، أي ديمومية الأفعال الّتي يمارسُها المؤمن فيه من تعقّلٍ وتفكرٍ وتبصّر واستطعامٍ ، فما هو مكنوزٌ فيه من معاني الهدى متجدّدةٌ متكاثِرةٌ في أفئدةِ المتدبّرين ، وهي لا تصْلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ، فحسبُ ، بل هي تُصْلِحُ كلّ ذلك وتُقوّمُه وتُقيمُه على سواء الصِّراط في كلِّ أمرٍ من أمورِه وحالٍ مِنْ أحوالِهِ .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٩) .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء:٨٢) .

وفي قول الله ﷻ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص:٢٩) قراءتان :

قرأ الجماعة (لِيَدَّبَّـرُوا آيَاتِهِ) بالياء وتشديد الدّال .

وقرأ أبو جعفر ، والأعشى والبرجمي عن أبي بكر عن عاصم (لتـدبَّرُوا) بالتاء وتخفيف الدّال .

قراءة « لتدبّروا» بالتاء : المثناة الفوقية ، وتخفيف الدّال هي لكلّ من يصحّ خطابه ، ولا سيّما من كان منْ أمّة الإجابة وعلى رأسها المخاطب بصدر الآية سيدنا محمّد ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ .

وقراءة الجماعة بالياء : المثّناة التّحتية ، وتشديد الدَّال لم تعين مرجعَ « الواو » كمثل ما جاء التّعيين في ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ ﴾ ، إذ جعله من أولي الألباب ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، إشارة إلى أنَّ التَّذكُّرَ منزلةٌ مُترَتِّبَةٌ على حسن

التّدبر في أفعال التّلقّي ، فمن قام بشيْءٍ مِن حقّ التّدبُّر كان له من التّذكر نصيبٌ على قدر لبّه ، فالتَّدبّر ديموميّة الفعلِ أيّ فعلٍ من أفعال مراتب التّلقّي عَن الله ﷻ وهي سِتّةُ أفعالٍ كليّة تبدأ بـ «التعقّل».

و«التعقّل» درجاتٌ، وأوّل درجاته استيعاب البيان وأصول معانيه في الفؤاد.

ثم «التفكّر» : (تفكيك البيان وتحليله) وهذا التّفكر يصحبه عقل مُنْتَجَه.

ثم «التّبصّر» : (التّدسّس في البيان ومعانيه لإدراك دقائقه ورقائقه) وهذا التبصّر يصحبه أيضًا عقل ثَمَرِهِ.

ثم «الاستنباطِ» : (استخراج الدّقائق واللطائف من مَعْدَنِها ومَكْنَزِها).

ثمّ «الاستنتاج» وهو استخراج ما ليس بموجودٍ ممًّا هو موجودٌ. فالاستنتاج يكون بتلقيحِ المعاني ببعضها ، وهذا أَيْضًا يصحبه عقلُ ثماره.

ثم تأتي الطَّلِبَة الأخيرة : «الاستطعام» : استطعام المنتج المستحصد من كلّ تلك الأفعال ؛ لِيسرِي أثره في سلوك العبدِ ، فيكون محبوب ربّه ﷻ.

«وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ» . (البخاريّ : الرّقاق).

كمْ من عاقلٍ مستوعبٍ البيان وأصول معانيه : «المعاني الجمهوريّة» غيرِ متفكّر فيما عقل واستوعَى ، وكمْ مِن متفكّرٍ مفكّك محلّل غير متبصّرٍ فيما فكّره وحلّله وفصّله ، وكمْ من متبصّرٍ غَيرَ مستنبطٍ مستحصلٍ ، وكمْ مِن مستنبطٍ متحصّلٍ لمعاني الهدَي في قلبِه غير مستثمرٍ مستطعِمٍ ، فلا يرَى أثر ذلك على مسلكه وعلاقته بالحياة كونًا وإنسانًا ، ومِن قبلُ علاقتِه بخالِقِ الحياة سبْحانَه وبِحمدِهِ.

المرتبة الأخيرة : «الاستطعام» هي التي تحيل الفقيه فهيمًا ، فالفهمُ عن الله ـ تعالى ـ إنّما هو ثمرة حسن الاستطعام .

وكلّ فعلٍ من أفعال التّلقي لا بدّ أن يكون على منهاجِ التّدبر : والتّدبر **إنّما هو استطالة الفعلِ وديمومته وتجدّده واكتمالِه .**

وكلُّ فعلٍ من هذه الأفعال يَحتاج إلى « تعقّل » : « استيعاب ثمار الفعل » ليصنع فيها الفعلَ الأعلى ، فالمتَفكِّر يحتاج إلى عقل ما أثمره « التّفكر » ليمارسَ في هذه الثّمار المتعقّلة المستوعاة فعل « التّبصّر » .... وهكذا ، فالتّعقل والتّدبر فعلان دائمان يتنوّعان بتنوّع مراحل التلقّي ومراتبه .

وثمرة التَّدبّر في كلّ فعل تتمثّل في تحقيق درجةٍ من درجاتِ « التّذكر » : تذكّر جَلالِ الألوهيّة ، وجمال الرّبوبيّة متجليًا في آياتِ الله ﷻ فِي العالمين .

و« التّذكر » هو حضور المتَذكَّر في الفؤاد وسلطانُه عليه سلطانًا يضبطُ به الفؤادُ حركةَ المرء حسيّها ومعنويها ، فلا يكونُ من المرْءِ إلا ما هو منضبطٌ بمقتضِيات هذا « التّذكّر » فيكون جَمِيعُ أمره قولاً وفعلا وحالا باللهِ وللهِ ﷻ .

وكثيرًا ما يقرِنُ التّذكّر الّذي هو ثمرة استطعامِ معاني الهُدَى بأولي الألباب : **﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾** (البقرة:٢٦٩) .

فـ « التّذكّر » هنا استحضار الشُّعور الصَّادق الفتيّ النّقيّ بِجلال الألوهيّة ، وجمالِ الرُّبوبيَّة، وهو الّذي يضبطُ حركة العبد في علاقتِه بالعالمين ، وبربّ العالمين من قبلُ ، وهذا لا يتمكّن منه إلا أولو الألباب .

والله ﷻ قدْ حَثَّ عبادَه على تدبُّره مقررًا اتّساقه قائلا : **﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾** (النساء:٨٢) .

فقرَّر أنَّ ما يكون من عند غير الله ﷻ فيه الاختلاف الكثير ، أمَّا ما كان من عنده ﷻ ، فلا اختلاف فيه البتَّة ، ولكنْ فيه تصريف البيان عن المعاني المحقّق لبيان المراد كماله .

وفي هذا دعوةٌ ربانيّة وإغراءٌ كريم بالعكوف على تدبُّر البيان القرآنيّ والوقوف على اتّساقه وتناسبه ، فإنّه لن يؤمن المرء بأنَّ القرآن الكريم من عند الله ﷻ إيمانًا مؤسّسًا على علم وعرفان إلاّ إذا استفرغ جهدَه في هذا التَّدبّر، فهو مِن جليلِ العبادات .

* * *

مفهومُ التّدبّر :

التَّدبُّر في لسان العرب : النّظر الثاقب في أدبار الأمور للوقوف على ما تنتهي إليه .

وهو عند أهل العلم بكتاب الله ﷻ **ديمومة العمل وتجدُّده لتحقيق نفاذ البصيرة وتحديقها في ما يبلغه المعنى القرآني المَدِيدُ من درجات الهداية إلى الصّراط المستقيم** .

وهذا التَّدبُّر لا يتناهَى ، فإنّ المعنى القرآني له أصلٌ يبدأُ منه ، ولن لا منتهَى له يمكنُ لعبدٍ أنْ يبلغَه ، فصاحبُ القرآن الكريم في سفرٍ دائمٍ طلبًا للمزيد من المعنى القرآنيّ .

وكلّ فعلٍ في البيان القرآني لا يحقق العلم بدرجة من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم ، ولا يقيمُ في الفؤاد شعورًا صادقًا قويًّا فتيًّا بجلالِ الألوهية ، وجمالِ الرُّبوبيّةِ لا يكون من تدبّر القرآن الكريم في شيْءٍ .

تبيّن لك أن «التّدبّر» ليس فعلاً من أفعال التّلقّي، بل هو منهجٌ وكيفيّة لكلّ فعلٍ من أفعالِ التّلقّي، فما مِن فعل من أفعالِه إلا وهو مفتقرٌ إلى هذه الكيفية: «التدبّر» أي السّعي إلى بلوغ الأدبارِ.

والعباد ليسوا سواء في تحقيق أفعالِ التلقّى المستفتحة بالتعقّل: الإمساك بالنصّ وبأصول معانيه «والمختتمة بـ «الاستطعام»: «سيرورة معانِي الهُدَى زادَ الفؤاد المُهَيْمِنِ على جميع أحوال صاحبه الحسيَّة والمعنوية الظاهرة والخفيّة.

* * *

المبتغى إليه بالتّدبّر.

إذا ما كان التَّدبّر فريضةً، فما المغزَى الّذي يُجَيِّشُ صاحبُ القرآنِ الكريمُ مهاراتِه وخبراتِه وقدراتِه ووسائلِه، ويجمع زادَه ليبلغه أو ليحومَ حول حماه؟

أنزل القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ؛ ليكون بيانًا وهدًى وشِفاءً ورحمة وبشرَى لعباده.

التّدبّر القائم في كلِّ أفعال التّلقّي بدءًا من التّعقل إلى الاستطعام ليس غايةً في نفسِه، بل وسيلةً إلى غايةٍ أجلّ، به يتحقّق للمتدبّر ما يجعله أهلاً لأن يترقّى في مقاماتِ القرب الأقدس، وهي مقاماتٌ تبدأ بمقام «الإيمان» وتنتهي بمقام «الصّديقية»، وهي أربعة مقامات كليّة على النّحو التالي:

مقام الإيمان، ثمَّ مقام التّقوى، ثم مقام الإحسان، ثم مقام الصديقية، وهذا مستمد من البيان القرآني نفسِه.

ولكلّ مقامٍ مطلعٌ ومقطعٌ، والسُّنّة البيانية للقرآن أنّه يعرب عمَّن هم في مطلع المقام باسم الموصول وصلته: «الذين آمنوا، الذين اتقوا، الذين

أحسنوا» ويعرب عمّن بلغوا مقطع المقام بالصّفة : «المؤمنون ـ المتقون ـ المحسنون ـ الصدّيقون»[1] .

والسّنّة البيانيّة للقرآن أن حديثه عن الثّلة الّتي في المطلعِ من كلّ مقام ليس كمثلِه حديثُه عن الثّلّة الّتي في المقطعِ من كلّ مقام وكذلك حديثه لهم .

ولو أنك راقبت ذلك لتبيّن لك الفروق النّظمية في البيان القرآني حديثا عن كلّ أو مع كلّ .

وكيما أقرّب الأمر تبصّر قوله ﷻ : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران ١٣٣) .

وقوله ﷻ : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢١) .

تبصّر الفروق النّظمية ووصف جنة «الّذين آمنوا» وجنة «المتّقين» لتدرك الفرق بين مقام كلّ في مدرج القرب الأقدس من الله ـ تعالى ـ .

---

(١) الذي جاء في القرآن .
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة ١٧٧) .
﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾
(العنكبوت:٣) ولم أجد فيه «الذين صدَّقوا» بتشديد الدال المقابل للصدّيقين .
ولم أجد قراءة لقوله «الذين صدقوا» بتشديد الدال في السورتينَ . فما الحكمة من ذلك ؟
أيشير ذلك إلى أن مرتبة «الصّديقية» درجة واحدة لضيق فسطاطها وقلة أهلِها ، وأن ما تتحقق بها لهم أمرٌ واحدٌ لا يتنوع ولا يتفاوت ، فمن أخذه أخذه جملةً ، فهم فيه سواء ؟ ربما .

إنَّ تدبُّرَ كلِّ ثلَّةٍ من أهل القرآن يفضِي بها إلى عطاءٍ من معاني الهدَى على قدر ما يبذلون من جهدٍ في تدبرهم . والقرآن قد أبان أنَّه بيانٌ ، وشفاءٌ ، وموعظةٌ ، وهدًى ، وذِكرَى ، وبشْرَى ، ورَحمةٌ .

وتلك العطاءاتُ الّتي يبتغِيها كلّ متدبّرٍ ليتأهَّل أن يكونَ محبوبَ الله  فيكون سمعُه به تعالى وبصرُه به تعالى ... إلخ ، في مسيره في هذه الحياة الدّنيا ، وليكون في الآخرة : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (النساء:٦٩-٧٠) .

وكأني بالقرآن يهدي أهلَه إيمانًا وترتيلاً وتدّبرًا وتخلُّقًا ودعوةً إلى الله ـ عزَّ وجلّ ـ أنَّ اجتماع هذه العطاءات فيه إنّما تكون لهم بحسن صحبته ومخادنته ، فمن شاء بيانًا في نازلةٍ من نوازل الحياة ، فهو واجده فيه بالتّدبر ـ ومَن شاءَ شفاءَ من داءٍ فهو واجده ـ أيضًا ـ فيه بالتّدبّر ، وهكذا ، ممّا يجعل أهل القرآن في غَنَاءٍ به وبتبينه : السّنّة النّبويّة عن كلّ كتاب في علاقتهم بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وبالحياة كونًا وإنسانًا .

* * *

المعقِد الثَّانِي
مُصطلَح المعنى القرآنيّ
مفهومه وأنواعه وخصائصه ومستوياته

ليسَ يخفَى قطُّ على ذي نظرٍ أنَّ المعنى القرآنيّ هو طلبة أهلِ القرآن ومستطعم أفئدتهم ، وكلّ جُهدٍ يبذلونه في مدارسة القرآن إنّما مأمّه الأنفس ، ومحجّه الأقدس ، تحصِيلُ وفيرٍ منْ معانِي الهدَى ، وتمكينها في أفئدتهم غذاءً وشِفاءً ونـوراً يستضاءُ بـه ويسْتدفَأُ في سفرهم إلى ربّهم ﷻ .

كلّ ما يبذل من اجتهادٍ في استحصاد أسرارِ الأساليب على تفنّنها وتعدّدها وتمدّدها واتّساعها إنّما هو بمنزلةِ الوضوءِ من الصّلاةِ : هو سبيلٌ إلى غاية هي استطعام المعنى القرآنيّ ، فتستحيل هذه الغاية نفسُها على نبلها سبيلاً إلى مَحَجٍّ نفيسٍ : الاعتكاف في محرابِ العبودية القانتة لله ربّ العالمين .

الغاية الوسْطَى لطلاب العلم بالقرآن وأهلِه إنّما هي «المعنى القرآنيّ» ، وتمكينه في الفؤاد وتفعيله لتخضع لهديه الأمثل الأكمل حركة المرْءِ في استعماره الحياة كونًا وإنسانًا بتبيين الحقّ ونصرتِه ، وبتبيين الخير وصِناعتِهِ ونشرِه في النَّاسِ كلّ النَّاسِ استرضاءً لمن استخلفه فيها ﷻ .

وإذا ما كانتْ قِيمة «الوسيلة» من قيمة «الغاية» فإنّ الاعتناء بالوسيلة آيةٌ علَى عظيم الاعتناء بالغايةِ .

ولما كان المعنَى القرآنيّ هو مسْتطعمَ أهل القُرآن ، كان هذا حاملاً إلى التّوفّر على السّعي الحثيثِ إلى تبيين مفهومِه ، وتبيينِ شيْءٍ منْ خصَائصِه ؛ كيما

لا يشتبه علَى المرءِ بغيرِهِ ، فيحسب أنّ الّذي في يدِه معنًى قرآنيًا ، وما هو في الحقيقة بِه ، فيكون كمن ضَلّ سعيه في درسِه ، وهو يحسِبُ أنّه يحسنُ صنعًا .

مفهوم مصطلح «المعنى» إذا ما نظرنا في مدلول كلمة «معنى» في لسان العرب ألفينا أن مادة «عني» اليائيّة اللام «تدلُّ على القصد والاهتمام والإظهار ، وتدلّ أيضا على المقاساة والتّجشّم».

تقول العرب : عنَيْت كذا : قصدته ، وعَنَتَ القربة : أظهرت ماءها ، وعنت الأرض : أنبتت نبتا حسنا ، وتقول : عانيْت الأمرَ : قاسيته ، وتعنّاه : تجشمه ، وعناه الأمر : أهمه ..

أمّا المعنى الاصطلاحيّ لكلمة «معنًى» فقد لقى اختلافًا بالغا بيْن العلوم المختلفة ذات العلاقة باللّغة ، ومردُّ اختلافهم فى تحرير المعنى الاصطلاحى لكلمة «معنًى» هو اختلافهم حول وظيفة اللغة .

لا أرمِي إلى النَّظر فى معنى «المعنى اللغويّ» على إطلاقه بل إلى (المعنى القرآنيّ) بهذا النّعت التَّقييديّ الجليل ، ولذلك لن أُبحر فى قاموس الاختلاف بيْن أهل العلم فى بيان معنى المعنى ، وإنّما سأعمد إلى تبيان مرادي من معنى «المعنى القرآنيّ» .

المعنى القرآني عندِي :

«هو كلُّ ما أبان الله ـ تعالى ـ في كتابه العليّ الحكيم المنزل على رسوله ـ صَلّى الله عَليْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه وَسَلّمَ ـ بلسان عربيّ مبين ، ويدركه ، ويستنبطه الأعيان مِنْ أهل العلم مِن النّصِّ القرآنيّ في سياقه القريبِ والمديد ، وفقا لأصول الفهم والاستنباط وضوابطهما ، متجليًا فيه جلال الألوهية وجمال الرّبوبية ، هاديًا مَن آمن به إلى الارتقاء إلى مقام العبودية الصّفاء لله ربّ العالمين» .

هذا المفهوم لمصطلح «المعنى القرآني» ذو أركانٍ وشروطِ صِحَّةٍ :

أمّا الأركان ، فتتمثَّل في قولِي : «هو كلُّ ما أبان الله ـ تعالى ـ في كتابه العليّ الحكيم المنزل على رسوله ـ صَلّى الله عَليْـهِ وعَلَى آلِه وَصحبه وَسَلّمَ ـ بلسان عربيّ مبين ، ويدركه ويستنبطه الأعيانُ منْ أهلُ العلم من النَّصِّ القرآني في سياقه القريبِ والمديد وفقا لأصول الفهم والاستنباط وضوابطهما» .

هذا دالٌّ على أنّ ما يستنبطَه ويستخرجَه أهلُ العلم الأعيانُ من البيان القرآنيّ وفق منهاج الاستنباط الصَّحيحِ والتزامًا بضوابطه هو ما أودعه الله ﷻ في بيانه ، ذلك أنـّه لو لم يكن كذلك لأقام الله رب العالمين في بيانه وسياقه ما يحاجز الأعيان من العلماء عن إدراك ذلك الّذي لا يريده .

وكلمة «استنباط» هادية إلى أنَّ ذلك المعنى مستخـرجٌ من معـدن هذا البيان ، فما هو بمستسْقطٍ عليْه من نفسِ النّاظر ، وما هو ممّاً يَرِدُ على الخاطر عند سماعِ البيان لعارضٍ ، بحيثُ يزول ذلك عند زوال العارض .

وأمّا شّرط الصّحة فيمثّله قولي : «متجليًا فيه جلال الألوهية وجمال الرّبوبيّة ، هاديًا مَن آمن به إلى الارتقاء إلى مقام العبودية الصّفاء لله ربّ العالمين» .

يتضمن هذا الشّرط أمرًا يرجع إلى ذات المعنى ، وأمرًا يرجع إلى وظيفته . أمّا الّذي يرجع إلى ذاته ، فقولي : «متجليًا فيه جلال الألوهية وجمال الرّبوبّية» .

وأمّا الّذي يرجع إلى وظيفته ، فقولي : «هاديًا مَن آمن به إلى الارتقاء إلى شرفِ مقام العبودية الصّفاء لله ربّ العالمين» .

كلُّ معنى لا يتسم بهذا هو عندِي مباعَدٌ عن أن يتسم بحلية «القرآنيّ» قد يكون معنى لغويًا للنّظم ، ولكنّه لا يحمل من جلال الألوهية وجمال الرّبوبية

إلى القلبِ المتلقيه شيئًا. فالّذي يقرأ قول الله ﷻ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ١-٤) .

ولا يدرك إلاّ المعنى الّلغويّ «النّحويّ» من هذه الآيات ، فما أدركه وإن كان صحيحًا في نفسِه ، فما هو بالمعنى القرآنيّ الّذي هو طَلبة العقلِ البلاغيّ مِن تَدبّرالبيانِ القرآنيّ .

وكذلك إذا لم يكن ما وقع في سمعه وقلبِه من الآيات حاملَه إلى أن يرتقِي درجة في مدرجة القربِ الأقدس ، فالمعنى القرآنيّ هدًى وذكرى ورحمة وشفاء وبشرى للمؤمنين وللمحسنين ، فإذا لم يكن هذا نصيب قلبِك ممًا تلاه لسانُك أوْ سمعت أذنُك أو أبصرتْ عينُك ، فاعلمنّ أنّك ما استطعمتَ معنًى قرآنيًا ، بل معنى بيانيًا . وفرقٌ وسيعٌ شَسِيعٌ بينَهما .

* * *

أنماط المعنى :

أشرتُ قبلُ إلى أنَّ الدَّلالة المعجميّة لكلمة «عنَى» ذات بعدين رئيسين : بُعْدُ القصد والاهتمامِ وبُعْدُ الظّهورِ . فالمعنى أيّ معنًى ينقَسمُ ثلاثة أنماط : مقصُودٌ ، ومدلولٌ ، ومفهومٌ .

النّمط الأوّل : المعنى المقصُودُ

هو ذلك المعنى الّذي يريد المتكلم أن يوصله للسَّامع ، وهذا لا يحيطُ به إلا صَاحبه ، فهو يرجع إلى المتكلم .

وإذا ما كان المتكلم بالمعنى هو الله ﷻ أو رسوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ فليس لنا أنْ نزعم أنّنا يُمكن أن نقطع بتحرير هذا المعنى

المقصود من الله ﷻ تحقيقه من بيانه القرآنيّ مهما بالغنا في الاجتهـاد ، فإنَّ ما تفهمه الأمَّة من كلامه ﷻ ليس هو عين مراده من كلامه الموحَى إلى نبيـه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ، ذلك أنَّ القطع بأنَّ ذلك المعنى من هذه الآية مثلا هو عين مراد الله ﷻ منها إنّما يكون بطريق توقيفي صحيح الإسناد إلى رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ .

وما نقرأ أو نسمع من أهل العلم بكتابِ الله ﷻ أنّ المقصود كذا ، فإنّما هو ضربٌ من التَّسامح حمل إليْه أنّ ما يفهم من البيان وفق المنهج القويم لِلفهم ، ووفق أداوته ومهارته ، والتزامًا بضوابطه وعواصمه سيكون من مراد الله ـ تعالى ـ ؛ لأنـَّه لو لم يكن منْ مراده لأقام ﷻ في بيانه وسياقه من القرائن ما يحاجز عن فهم ما لا يريد ، فإنَّ حكمتَه وعدلَه ورحمتَه من عطاءاتها أن يحمي المتدبّرين كتابه أن يفهموا غير مرادِه ما داموا أهلا للفهم عنه ﷻ .

النّمط الثاني : المعنى المدلول

هو ذلك المعنى الّذي تدلّ عليه الصُّورة «التّركيب» في سياقها القريب والمديد .

والشَّأن في المعنى المدلول في بيان الوحي قرآنا وسنة أنـّه مطابقٌ للمعنى المقصود .

المتكلم بهذا البيان مقتدرٌ على أن يكونَ بيانه حاملاً كلَّ مقصوده جليله ودقيقه ، فهنالك تطابقٌ كاملٌ بيْن المدلول بالصّورة والمقصود منها .

أمَّا بيان البشر فإنّه لا يُمكنُ أن يكون تطابقٌ بين المدلول والمقصود ، فالشَّأن في بيان الإنسان أنـّه غير قادر على تحقيق وفاء منطوقه بالدَّلالة على مقصوده كاملا أو غير زائد عليْه ، فهو بيْن نقصٍ في الدَّلالة ، أو دَلالته على غير مقصودٍ .

النّمط الثالث : المعنى المفهوم «المعنى الإدراكيّ»

ذلك هو المعنى الّذي يقع في قلب المتلقّي البيان من تبصُّره فيه وفي سياقِه ، إذا ما كان ذلك المتلقّي أهلا لأن يستقبلَ هذا البيانَ ، وأن يحسِن البصر فيه ، فلا يؤتى البيان من قِبَلِ سوءِ تلقِّيه .

هذا المعنى المفهوم يتنوّع بتنوّع المتلقّين ، وتنوّع أعصارِهم وأمصارِهم وأحوالِهم ، بل إنّ المتلقّي الواحدَ ليتنوَّع المعنى المفهوم عنده من حالٍ إلى حالٍ لِما يخضع له من عواملَ متغيرةٍ تعتريه ذاتِ أثرٍ في تلقِّيه ، ولعلَّ أعظمَها أثراً حالُ قلبِه مع ربّه ﷻ : «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ...» .

ومن هنا تفاوتَ العلماء في هذا الضَّرب مِن المعنى ، وهذا الضّرب هو مناط الاعتناء .

وجه ذلك أنَّه إذا ما كان الاستنباطُ مِن النّصّ وفق الأصول العلميَّة للاستنباط منضبِطًا بعواصمِه قائمًا به مِن هو أهلٌ لذلك الاستنباطِ ، فإنَّ ثمرةَ ذلك ممَّا يريد الله ﷻ من عباده أن يعرفوه ، وما يريد أن يبلّغهم عنه ؛ لأنَّه لو كان ذلك لا يريد إبلاغَه إلينا لأقامَ في بيانِه من القرائن ما يصرفُنا عن فقهه ، فقرينةُ خلوّ البيان عن الصَّوارف عن فقه هذا المعنى آيةٌ بينةٌ على أنّ هذا المعنَى من المراد .

وهذا النَّوع من القرائنِ قد يغفُلُ عنه بعض طلابِ العلمِ .

شأن كلّ بليغ من البشر أن يقيم في بيانه ما يصرف السَّامع عن أن يفهمَ من بيانه غير ما يريد المتكلم منه كيما لايؤتَى السامعُ من قبلِه .

وقد جاء عن أهل العلم أنّ مِن حظ البلاغة ألاَّ يؤتَى السَّامع من قِبَلِ المتكلم ، فحقّ السَّامعِ أن يقيمَ المتكلم المنائرَ على الطَّريق ، وأنْ يضعَ القرائن

المُعِينَة على فقهِ المراد الصَّارفة عمًّا لا يريد . ألم يجعلْ سيُّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ إماطة الأذى من الطريق صدقة (متفق عليه) فالطّريق إلى حسن الفهم أحقّ بأن يُماط عنه الأذى .

* * *

خصَائص المعنى القرآني :

الخصائص مفردها خصيصة ، وهي ما يكون للشّيْءِ ، ولا يكون لغيره ، سواء كان ذلك متعلقًا بجنس ذلك الشيءِ أو صِفته الذّاتية أو مقدارِه ، ونحو ذلك ، فقد يكون الشّيْءِ قائمًا بذاته في أشياء كثيرة إلاّ أنّه على صفة ما لا تكون إلا في شيءٍ واحدٍ ، أو على مقدارٍ ما ، فيعدّ هذا خصيصته من تلك الجهةِ .

من هنا يمكنك أن ترصد كثيرًا ممًّا لا يحاط به من خصائص المعنى القرآنيّ ، بل إنَّك لتجد كلّ سمةٍ مِن سماتِ المعنى القرآنيّ المتجلّية في صورته المتلوّة هي من خصَائصه ؛ لأنّك لن تجدَ هذه السّمة على كمالِها في أيّ بيانٍ ولو كان بيان النّبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ فمن وجوه إعجاز القرآن الكريم أنّه لايحاط بمعانيه ، ولا يحاط بخصائص معنًى واحدٍ مِن تلك المعاني .

* * *

الخصيصّة الأولى :

المعنى القرآني إلهيُّ المصدر آدميّ الغاية .

هذه الخاصية تكادُ تكون فسطاط الخصائص كلّها ، فهي «أم القُرى» فما مِن خصيصَة من خصائص المعنى القرآني إلاّ وهي ذات نسبٍ وثيق بإلهية مصدر ذلك المعنى ، وآدمية غاية الإبانة عنه إبانة معجزة في نفسِها وفي جميع

أمرها . ولذا بدأت بها .

ومعنى إلهية المصدر أنَّ هذا المعنى لا يُمكن لغير الله ﷻ أن يقولَه ، ولذا لم يكن المعنى القرآنيّ مناطَ التّحدّي ، بل هو مناط الإعجاز ، وفرق بين «التّحدّي» و«الإعجاز» ، فقد يكون الشَّيْء في نفسِه معجزًا لا يطيقه غير صَاحبه ، وبرغم مِن ذلك لم يتحدّ بِه ، لأنَّه ليس من جنسِ ما برع فيه من يتحدَى ، إذ منطق العدل والحكمةِ والرَّحمة معًا قاضٍ بأنْ يكونَ ما يتحدّى فيه مِن جنس ما برع فيه منْ يُتحدى ، لِذلك لم يقع التّحدّي بالمعنى القرآنيّ في أيّ طور من أطوار التّحدّي .

لم يكن قطُّ المعنى الإلهيّ داخلا في التَّحديّ على أنَّ المعنى الإلهيّ في نفسه معجزٌ ، بلْ هو معدنِ الإعجازِ ومنجمِه ، فمظاهر الإعجاز البلاغيّ للقرآن إنّما استوجبها المعنى الإلهيّ ، ولذا لا يمكن لأي معنى غيرِه أن يستوجبها ، فكما أنّ المعنى في القرآن تفرَّد به الله ﷻ ، فإنَّ صورة هذا المعنى ، ومنهج الإبانة عنه ، ومنهج إفهامه العباد ممَّا تفرَّد به القرآن .

إلهيّة المعنى تعنِي أنَّ هذا المعنى متضمِّنٌ كلَّ معالم الصّفات الحسنَى لله تعالى ، وأن لك فيه نصيبًا من العرفان بكلّ صِفة من الصّفات الحُسْنَى ، وأنّ هذا المعنى لا يتناهَى عطاؤه لمنْ هو أهلٌ لأن يتلقاه ، وأنّ هذا المعنى صالحٌ في كلِّ زمان ومكانٍ ، ومصلِحٌ كلّ زمان ومكانٍ وإنسان ، فمن ابتغَى الهدى في غيرِه ومن غيرِه أضلَّه الله ـ تعالى ـ ؛ لأنَّه طلب الشّيءَ من غيرِ معدنه ومنجمه ، وبغير سبيلِه .

وآدمية الغاية يراد بها أنَّ مقاصد هذه المعاني الإلهيّة إنّما جاءت لصالح بني آدم ، ففيها ما يُبين لهم عن مراد ربهم جَلَّ جلاله منهم فعلاً وتركًا ، وفيها البيان

عن أصول علاقة بني آدم بالحياة ، وما خلقوا من أجله ، فالله ـ تعالى ـ في أوّل موضع ذكر فيه أمر خلق آدم ـ عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام ـ أبان عن رسالته ومحلّ تحقيقها ، فقال ﷻ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠) .

ولم يَرِدْ هذا النّبأ بهذا النّظم في غير هذا الموضع ، وهو نبأ يُعيّن حال هذا الكائن الخليفة ، ومحلّ رسالته ، ولذا لم يقل : إني جاعل من الأرض خليفة ، بل (في الأرض) وفي الإنباء بأنّه (خليفة) لعلّ فيه إشارة إلى أنّه سيخلف آخرين كانوا فيها من قبل على وجه من وجوه النّظر ، فهو خليفة : فعيلة بمعنى فاعل .

ولعلّ سؤالَ الملائكة الاستعلاميّ : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ (البقرة:٣٠) ما يشير إلى ذلك ، أي جاعل في الأرض من يخلفُ أولئك الّذين كانوا فيها فأفسدوا فيها وسفكوا الدِّماء . وسؤال الملائكة سؤالُ استعلام واستكشافٍ لا سؤالُ اعتراض ، وقولهم : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة:٣٠) من معانيه : ونحن نسأل هذا السّؤال مستعلمين مستكشفين لا معترضين حال كوننا نسبح بحمدك ونقدس لك ، فـ(الواو) في قوله (ونحن) حالية .

وكأنّ في تسمية أبينا عليه السلام باسم «آدم» إعلامًا للملائكة بأنّه ليس كمثل الذين يخلفهم ، إنه «آدم» من الأدْم أي الإصلاح ، فهو المصلح ، وليس المفسد في الأرض ، وليس السّافك للدّماء كما قالت الملائكة .

ولعل هذا يقوّى من أوَّل قوله : «خليفة» بأنّه خليفة الله ـ تعالى ـ في إنفاذ أحكام شرعه ، كما هو شأن الأنبياء ، فيكون هذا خاصًا به وبمن هم الأنبياء ـ عليْهم السلام ـ أو العلماء الرَّبانيون والحاكمون العادلون رضي الله عنهم من ذريته ، فهم

الخلفاء عن الله ﷻ في الحكم بشرعه (العلماء ورثة الأنبياء) . (سنن أبي داود : العلم) .

ويحتمل أن يكون قوله (خليفة) بمعنى يخلف بعضه بعضا فهو مخلوقٌ متناسلٌ ذو ذرية يخلف بعضها بعضًا ، وذلك لا يكون إلاّ إذا كانت هنالك رسالة متجددة متطوّرة ، تقتضي أن يكون لكلّ طورٍ جيل يخلف ما قبله ، فقوله «خليفة» ذو وجوه ممّا يمنح معنى الآية اتّساعًا .

كلّ ما في القرآن من معاني الهدَى القصد الرئيسُ به إلى إصلاح العباد ، وإرشادهم إلى تحقيق الاستفادة من نعمة تسخير الله ﷻ لهم ما في السّموات وما في الأرض جميعًا منه ليتمكنوا من الوفاء بما خلقوا له : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) .

والمجال الأوسع لعبادته ﷻ استعمار الحياة كونا وإنسانا وفق مراده الشرعي تعالى ، وفي هذا إقرارٌ منهم له ﷻ بالعبودية طوعًا ، كما هم مقرّون بها قهرًا ، فـ«اللام» في «ليعبدون» دالة على الإرادة الشرعية لا الإرادة القدريّة الكونية ، وإلاّ لما تخلف أحدٌ من العالمين عن عبادته .

آدميّة الغاية للمعنى القرآنيّ تهدِي إلى أنَّ من أراد الحقّ ، والخير في كلِّ شيْءٍ من شأن الإنسان وحاله وشأن الحياة جمعاء ، فإنَّ المعنى القرآنيّ متضمّن ذلك ، فمن ابتغَى الهُدَى في غيرِه أضلَّه الله ﷻ جزاءً له على اختياره غيرَ سبيل الله ـ تعالى ـ : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ (البقرة:١٠) .

* * *

محصل القول «أنّ استحضارَ هذه الخاصيّة في استنباط المعنى يجعلُ المستنبط مراقبًا تحقّق هذه الخصيصة فيما تلقاه قلبه من البيان الّذي هو قائمٌ لتدبّره ، ويجعله حريصًا على أن يضعَ يدَه على ما يحقّق له آدميتَه ، أيْ ينقله

من طور الإنسانية الآنسة بالنّعمة إلى الآدميّة الآنسة بالمنعم ، والفرق بيْن الطّورين جدٌّ عظيمٍ يدركُه مَن يرقب مواقع الكلمتين في البيان القرآنيّ .

* * *

الخصيصة الثّانية : حليته جلال الألوهيّة وجمال الرّبوبيّة .

ما من معنى مِن معاني القرآن إلاّ وهو قائمٌ فيه جلال الألوهيّة وجمال الرّبوبيّة ، سواءٌ كان معنى مجلاه ومشهده « جملة » أوْ آية وما فوق ذلك ... إلى السّورة .

هذان : الجلالُ والجمالُ حاضران معًا حضوراً كاملاً سابغًا ، قد يتفاوتان ظهوراً ، ولا يتفاوتان بتّةً حضوراً ، وهذا الحضور يتبدّى لك جَلِيًّا مصوراً في قول الله ﷻ : **﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾** (الزمر:٢٣) .

قوله تعالى : **﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾** هاد إلى الجلال والجمال ، ترى الجلال مشاراً إليْه بقوله تعالى : **﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾** اقشعرار الجلود إنّما هو مجلى ما يعتمل في القلوب من الخشية .

وفي هذا إبلاغٌ في تصوير ما أفعم هذه القلوب من الخشية ، وكان في اصطفاء فعل« الخشية » إعرابٌ عن أن ذلك الفعلَ مؤسَّسٌ على علمٍ بشأن من يخشونه سبحانه وتَعالى .

وكان بديعا اصطفاء اسم الرّبوبية في هذا المقام ، وهو اسم قد يستظهر أن الأليق به سياق الأنس ، وأن الأوْلَى أن يقال : يخشون الله ـ تعالى ـ لما بين مقتضى الخشية والجلال والإعراب باسم الألوهية من تنادٍ ، ولكن البيان

القرآني اصطفَى اسم الرّبوبية إشارة إلى أنّهم يخشونه متجليا بالإحسان والرّعاية ، فكيف بخشيتهم له متجليًا بالعظمة والمهابة .

وترى الجمال مشارًا إليه بقوله : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فمن جلال الخشية يتولّد جمال الشّعور بالأنس ، تبصر قوله : ﴿ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ لمْ يقلْ «مِن ذِكر الله» كما قال ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ ﴾ اخترْ ما شئت من آيات القرآن جميعا ، بل اختر جملة من جمل القرآن جميعا ، وتدبَّر ، فإنَّك لا بدَّ واجدٌ فيها جلال الألوهيّة ، وجمال الرّبوبيَّة ، وإن ظهر لك أحدهما قبل الآخر أو أجلى من الآخر وأقرب إدراكًا .

لتتبصَّر قوله ﷻ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:١-٤) ألا ترَى في قوله : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ جلال الألوهيّة ، فباسمه وحده ﷻ يكون ما تعلقت به «الباء» وهذا هو الجلال ، والعزة ، والعظمة ، والقهر ، وفي هذا من جمال الرّبوبيّة ما فيه ، فباسمه تتحقّق لك الأشياء ، وهذا من فيض الرّبوبية ، ومن فيض الرُبوبيّة أنّه لم يجعلك بين اثنين فتقع في الحيرة ، جعل ابتداء كلّ أمرك في حياتك باسم واحد ، باسمه هو ﷻ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٢) .

ولك أن تسترسلَ في التّأمل في قوله : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ ، وتبصر قوله سبْحانَه وَبِحمدِه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تبصَّر جمالَ الرّبوبيّة في رحمته العامّة (الرّحمن) وجلال الألوهية ، في أنّه يرحم من شاء رحمة خاصّة (الرّحيم) فترَى جمال الرّبوبية يظهر لك أولا في (الرّحمن) ممزوجًا فيه الجلال ، ويظهر لك أولا الجلال في (الرَّحيم) ممزوجًا فيه الجمال ، ثم تبصّر قوله : (الحمد لله) ألا ترَى كيف تحمل كلمة (الحمد) من جمال الرّبوبيّة ما يملأ القلب استبشارًا ،

أيكون حمدٌ من غيرِ ما تستبشر به النّفس ؟ ، ثمّ انظر هذه «اللام» المعرفة من (الحمد) الّتي ينطوي فيها الجلال ، فهو المستغرق كلّ صنوف الحمد ومستوياته ، أليس هذا من جلاله وعزّته وعظمته وقهره وسلطانه .

ثم هذه اللّام في (لله) ألا يملأ ذلك الاختصاص قلبك بجلال الألوهيّة ، الممزوج فيه جمال الرّبوبيّة ؟ فمن استحقّ الحمد لذاته هو ضرورة مستحقٌّ الحمدَ لصفاتِه وأفعاله وأفضاله ، فتستبشر النّفس المؤمنة بأنّه لن يكونَ لها منه إلاّ ما تعتكف حامدة له عليْه[1] .

ويأتيك قوله جلّ جلاله : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فيسبق إلى قلبك الشّعور بجمال الرّبوبيّة الوسيع الكميل ، فإن تحسّست أبصرت جلال الألوهية ، فمَن كان هو ربّ العالمين ، فلن يكون غيره إلهًا ، لأنّه لو كان معه إله آخر لكان له نصيبٌ من هذه الرّبوبية ، إنّه جلال الألوهية قائمًا في جمال الرّبوبية .

ويأتيك قوله جلّ جلاله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فيتوافدُ إلى فؤادِك ويترادف عطاء جمال الرُّبوبيّة على نَحْوٍ يتّسم بالإحاطةِ مِن وجهٍ والخصوصيّة مِن أخرَى .

ويأتيك قوله عزّ وجلّ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فيرَى أهل الانقياد لمراده الشّرعي إيمانًا واحتسابًا في ذلك جلال الرّبوبيّة أسبق إلى قلوبهم ، ويرى أهل العناد جلال الألوهية وقهرها أسبق .

جمعَةُ الأمر أنّ هذين : الجلال والجمال قائمان في كلّ معنًى من معاني القرآن الكريم ، أيًّا كان ذلك المعنى ، فكلّ تأويل لا يبرز هذيْن : الجلال والجمال في المعنى المؤوّل ما هو بتأويل للمعنى القرآنيّ .

وبهذا يتأتّى لك أن تميّز ما هو معنى قرآنيّ في الآية ، وما هو معنى بياني «لغويّ» .

---

(١) الاختصاص في (الحمد لله) ليس قصرًا اصطلاحيا عند البلاغيين ، بل هو اختصاص معنوي يقول به الأصوليون ، والفقهاء ، والمفسرون .

المعنى القرآنِيّ القائم فيه الجلالُ والجمال تدركُه في تأويلات الأعيان من أهـل العلم بالقرآن ، ولا تجـدهما في تأويلات غيرهم ، وإن كـانت تأويلاتٍ لا يُعترض عليها من جهة علوم العربية ونحوها ، فثم أسفارٌ في تفسير القرآن وتأويله لا يستشعر منها جلال الألوهية وجمال الرّبوبيّة ، فيما يذهبون إلى أنّـه المعنى لأنهم قد أغرموا بالتورك العقليّ في تأويلاتهم ، والاستهتار في المنازعاتِ العقلية الخلاء مِن استصحابِ أنَّ هذا الكتابَ هدًى ورحمةً وبشرى وشفاء .

* * *

الخصيصة الثالثة : التّكاثر في أفئدة المتّقين

للمعنى القرآني كما ذكرت قبلُ وجودان كليان :

- وجودٌ داخل النّصّ العليّ الحكيم العزيز الّذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢) وهو فضـاءٌ رحابٌ لا طاقة لأحدٍ قطُّ على الإحاطة بِه ، فهو يتسع حركة الإدراك لكل العالمين في لحظة واحدة ، فلو أنَّ العالمين أجمعين متظاهرين متناصرين عمدوا إلى ولوجِه لكانوا أشبه بحلقة في الفضاء .

- ووجودٌ في داخل المتلقّي الرّشيد ، وهو وجود يتنوع بتنوع قدرات المتلقّي وإمكاناته ومهاراته ، ومنها علاقته بمنزل الكتاب قنوتًا وتزلفًا ، وهذا الوجود وليد الوجود الأوّل ، وتنوعه مرتهن بسياقاتٍ خارج «النّصّ» ، تمنح الفؤاد المتقي طاقاتٍ ومهارتٍ تجعله في كلّ مرّةٍ هو الأقدر على أن يستطعم من النّصّ ما لم يستطعم منه قبلُ ، فيكون تلقيه المتكرّر للآية الواحدة في سياقها تلقيًا جديدًا غير مكرورٍ ، فكأنه يتلقّى الآية أوّل مرّة ، فيظلّ الدّهش الذي كان في أول مرة حاضرًا في كلّ مرة .

وهذا يفسّر لنا وجهًا من قيام بعضِهم الليلَ بآية يكرّرها ، هو في حقيقة الأمر لا يكرّرها .

هو يستطعمها في كلِّ مرّة على نحو آخر ، ولو أنّه كان له منها ما لم يكن له منها في المرَّة الّتي قبلها لما أطاق تكرارها ، الإلفَ في الحياةِ الدّنيا مهلكةٌ للإحساس بالأشياءِ .

الّذين يقومون ليلهم بتكرار آية هم في جنّةٍ الله في الدّنيا ، وشأن الجنّة أنّ النّعمة كلما كرّرت كانت كأنّها أوّل مرة ، فليس فيها ذلك الإلف الوائد الإحساسَ بالدَّهش الأوّل .

إذا قرأت قوله تعالى ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (محمد:١٩) مرةً فريدًا عن سياقه يكون لك معنى يتقارب النَّاس في إدراكه ، فإذا ما كررت ترتيلها مستحضرًا وجودها النّصيّ، ومستحضرًا حال المخاطَب به أوَّلا ﷺ ومستحضرًا سياق السّورة الّتي ورد فيها ـ وهو من فرائدها ـ فإنه سيكون المعنى منفتحًا في فؤادك مستوعبًا كلّ اجتهادات التلقي الزكية من الشبهات والشهوات .

علاقة ما يرتجَى تدبره بسباقِه ولحاقِه وسياقه البياني المديد والحضاريّ في زمن التنزيل ، وزمـن التلقّي الرّشيد تمنحـه اقتداراً على أن يفيضَ على فؤادك ما لا يمكنه أن يفيض بمعاشره وأنت غير مستحضر سياقَه .

إنَّ من المأمور به في الآية تحقيقَ العلم الشهوديّ بوحدانية الله ﷻ وهوعلم لا يتناهَى ، علمٌ متجدِّدٌ بتجدّد المشهودات والمشاهدات : كلّما جدَّ مشهودٌ تجدّد ذلك العلم وتكاثر ، وكلّما تجدَّد نظرٌ في المشهود نفسِه تجدَّد ذلك العلم وتكاثر .

في المرَّة الثَّانية من المشاهدة كانت قدرته على الرُّؤية أقوى وأنفذَ بما استحصله من المشاهدة الأولى ، وهكذا لا يتناهى تحقيق ذلك العلم ، وكأني بهذه الآية تتلاحظ مع قوله تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (العلق:١-٢) فهذه القراءة هي المحققة ذلك العلم الشُّهوديّ[1] .

فإذا ما كان المأمور بذلك العلم في المقام الأوّل هو سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ فإنّ العلم المطلوب هو العلم الذي يليق بمقامه

وهذا يعنى أنه اليوم في مقامه العلمي بالله خيرٌ من مقامه العلمي بالله ـ تعالى ـ أمس ، وهو غداً خيرٌ منه في هذا من اليوم .

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٤-٩٩) .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (طه:١١٤) .

ومن فوائد أمره ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ توكيد العلم بأنّه لا إله إلا الله ، وأنّ العلم بهذا أمرٌ جليلٌ ثقيل لا يبلغ عبدٌ كنهه ، وأنّه ﷺ عبدٌ مأمورٌ ، فلا يكون قطّ إلهًا من دون الله ﷻ ، وهو إنّما يأمره بما يقرّر أنّه ليس إلهًا ، ولا ابن إله ، ولا شريك إله .

ومن فوائده أن يحقّق كلُّ مسلم لنفسه علمًا بأنه لا إلهَ إلا الله ، ولا يستغني بتقليد ما ورثه عن آبائه ، فما هذا بداخل في طاعة الأمر (اعلم) في الآية ، لأنّ ما معك ليس موروثًا من أبيك وليس من علمك ، ولذا جاء في سورة «الإسراء» :

---

(١) القراءة المأمور بها هي القراءة المثمرة الفاعلة ، وهي تتمثل في استجماع دقائق لطائف معاني المقروء سواء كان كونًا أو بيانًا في الفؤاد ، وتمكينها فيه وتفعيلها لتفعل به ما يراد له أن يفعل ضبطًا لحركة صاحبه على وفق مراد الله ﷻ .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء:٣٦) .

تبصّر قوله ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أوجب أن يكون ما تَقْفوه من علمك أنت منسوبًا إليك ، لأنّه وليدُ تفكرِك وتدبّرك ، ولست بمقلّد فيه غيرك تقليدًا غير مؤسّس على بصيرةٍ ومفاتشةٍ ومراجعةٍ يُخلق بها في الفؤادِ يقينًا .

ومن فوائده أنّ كلّ شيْءٍ أدركته ولم ترَ فيه أنّه لا إله إلاّ الله فما أنت برائيه ، فكما أنّ في كل آية من آيات القرآن دلالةٌ على أنّه لا إله إلا الله ، ذلك أنّ معنى «لا إله إلاالله» هو عمود الأمر ، هو المعنى الأم لمعاني القرآن كلها ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) .

إنّ لله ﷻ في كلّ شيءٍ في الأكوان آيةً تدلّ على أنّه الواحدُ ، ولذا كثر في القرآن قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل:١٢)

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٣)

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ (طه:٥٤)

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ (الروم:٢٢) ولكلّ سياقه .

المعنى القرآنيّ معنى متكاثرٌ في قلبِ العبد الذي هو أهلٌ لتلقيه ، كلّما زاده تدبرًا زاده عطاءً متجددًا ، فهو معنى لا يخلقُ على كثرة الرَّد ، وإن عطاء المرء منه على قدر وعائه (قلبه) وطهارته وعلى قدر مهارته المعرفية في التلقّي .

وفي هذا حثٌّ للعبد على أن يهيّأ قلبه لأن يكونَ أهلا لتلقّي فيوض العطاءِ مِن القرآن .

ويستأنس في هذا بما رواه البخاريّ في كتاب «الاعتصام بالكتب» من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه

وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ : «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، إلاَّ مَنْ أَبَى» . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ : «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» ومن الجنة جنة معاني الهدى في القرآن . فإذا رأيت ما يَفِد إلى فؤادك من تدبّرك البيان القرآنيّ يزداد بحسن التّدبر وتنوّع أدواته ، وكلما أقبلت عليه بعد رأيت وفيرًا نميرًا ، فذلك من المعنى القرآنيّ ، فَهُو يزيد على السّبرِ والتّدبر ولا ينقض ، ولا ينقص ولا يختلف ، وغيره من المعاني كلّما أعدت فيه النّظر تكشفت له فيه مآخذ أكثر ممّا قد يتجدَّد لك من فضائله .

معاني البشر معانٍ يزيدها تجدّد النّظر فيها انتقاصًا ، هي أشبه بالّذي تبهرك رؤيته من بعيد ، فكلّما اقتربت رأيت النُّدوب والخطوب وما تكره الباصرة رؤيته . المعنى القرآنيّ شعاره مَع مَن يكون أهلا لتدبّره واستنباطه :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس:٢٦) .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩) .

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (الرحمن:٦٠) .

هذه الآيات من أحسن تدبُّرَها أدرك أنّ عطاءَ الله ـ تعالى ـ مترتّبٌ على موقفك من نفسِك ، فإن أحسنت رعايتها كان لك من خالقها ﷻ إحسانًا على قدره تعالى لا على قدرك ، فهو ﷻ إنّما يجازي العباد في إساءتهم على قدر إساءتهم ، ويعاملهم في إحسانهم على قدر إحسانه هو ﷻ .

وهذا ما يحسُن أن يكون لنا منه نصيبٌ في أخلاقنا ، ومنهاج علاقتنا بالآخرين ، ولاسيما من ابتلينا بالولاية عليهم .

* * *



الخصيصة الرابعة : مواءمته لأحوال المؤمنين به على تنوّع مقاماتهم الإيمانيّة .

لم يكن الَّذين آمنوا بالقرآن في مقامٍ واحدٍ مِن مقامات القرب الأقدس من الله ﷻ ، فهم في جنته في الدّنيا (معرفته ومحبته) درجات ، كما أنّهم سيكونون في جنّة الآخرة درجاتٍ ، يقول في حديثه القدسيّ : « وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُه هَرْوَلَةً » (متّفق عليه) .

فما يكون للذين آمنوا من المعنى القرآني ليس كَمثل ما يكون للمؤمنين منه ، وهكذا يتفاوتُ مستطعَم أهل الطَّاعة على قدر منازلهم إلى أن يبلغوا مقام « الصِّدِّيقيّة » ، فلكلّ غذاؤه وشفاؤه .

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٠) .

في المعنَى القرآني مستطعَم كلّ ثلّة من أولئك ، لا يُطِيقُ الأدنَى مستطعَم الأعلى إلاّ إذا تهيَّأ بصنوف الطَّاعات لِذلك .

لو أنَّك جمعت عشرًا مِن طلاب العلم وأهلِه وعرضت عليهم آيةً ، وسجَّل كلٌّ ما توافدَ على فؤادِه مِن تدبّرها ، لرأيتَ تفاوتًا بيّنا بيْن عطاءاتِ الآية لكلّ ، على أنّ كلاً مُنتزعٌ منها غير مسقط عليها ، ولكنّه لمّا تفاوتت المهارات والأدوات والدّربة والبصائر تفاوتت النتائج ، وهذا يبين لك عن وجه من معنى قوله ﷻ :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ (الأنعام: ٩٢) .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٥).

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٥٠) .

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(ص:٢٩) .

فالمبارك ما تكاثر خيره وثبت وتنوّع ، فكان فيه لكلّ مستطعِم ما فيه يرغب وما إليْه يتشوف .

وإذا كان النّاس في صُنعهم الحَسنات متفاوتين في مثوبة الله - تعالى - لهم عليْها ، فأدناهم مثوبته عشرُ حسناتٍ ، ثم تتضاعف إلى سبعمائة ضعف ، كما جاء في البيان النّبويّ .

«عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - : «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا» (متفق عليه). فإنَّ الأمر كذلك في تدبّر القرآن منهم من له بتدبّره معنى ، ومنهم من له بتدبره الآية نفسِها ألف معنى كلّ على قدر وعائه : (قلبه) .

وما تطلع أحدٌ إلى أمر حكيم فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بربه ﷻ بالحياة كونا وإنسانا إلاّ وهو واجدُه في معنًى من معاني القرآن الكريم ، فما على العبد إلا أن يشتدّ قربه من منزّل هذا الكتابِ ﷻ ، فإنّه يكون له منه ما لا يكون لمن دونه . وهذا ما لا يمكن أن تجدَه في معنى أيّ بيان بشريٍّ يتفاوتُ قدر ما يستطعَم منه على قدر قُربِ المستطعِم من صاحب المعنى .

* * *

الخصيصة الخامسة : امتزاج معاني التّثقيف بمعاني التّكليف

مِن خصائص المعنى القرآنيّ أنّك لا تجد فيه معنى يكلف الله ﷻ فيه العباد بأمرٍ عقديٍّ أو شرعيٍّ إلا وقد مُزج هذا المعنى بما يثقّف النّفس المأمورة بذلك ، بحيْثُ إذا ما أحسنت فقه ما تخاطب به كان لها من ذلك الفقه

ما يحفزها إلى أنْ تقومَ إلى ما أُمرت به قيامَ محبَّةٍ وتشوُّفٍ وتشرُّفٍ ، فتخلِص لله ﷻ فيه القصد وتُتقن الصّنع ، وتستطعِم فيوضَ العطاء ، وكلّ ذلك من فيض قوله ﷻ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:٢-٣) .

ولذا تجدُ البيانَ القرآنيّ من سنته البيانيّة أنّه غالبًا ما يصدر معاني التّكليف بقوله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (الأحزاب:٥٦) وهو نداءٌ يحفّزُ على حسن الامتثال وحسن استطعام الطّاعة في ما تؤمر به وما تنهَى عنه لما فيه من جميل التودّد ، والتّذكر بالعهد ، فما من معنًى من معاني التّكليف إلاّ وفيه وفي سياقه من التّثقيف القلبيّ ما فيه ، فإذا ما رأيت المستنبِط لم يلتفت إلى ما مُـزج به المعنى التّكليفيّ ، فاعلمْ أنّه ما وفّى لك ، وما قدّم لك إلاّ بعضًا من المعنى القـرآنيّ ، فعُـدْ إلى الآياتِ بنفسِك تستنبط منها شطـر المعنى الّذي تركـه ، وما حمله إليْك .

ولا تكادُ تجدُ معنًى تثقِيفيًا إلاّ في طياتِه ما يُمكنُ أن يستنبطَ منه معنًى تكليفيّ ، ففي القَصص القرآنيّ من الأحكام العقديّة والعمليّة الدَّقيقـة الطَّريفة ما يتشوَّف أهل القرآن لها .

ولو أنّك عمدت إلى قصة سيدنا يوسف أو موسَى ـ عليهما السلام ـ وأحسنت التّدبّر لرأيت فيهما من الأحكام العقديّة والعمليّة ما يتواءم مع مقام المسارعين في الزُّلفَى إلى الله ﷻ .

* * *

الخصيصة السّادسة :

أنّه معنى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يتفاوت في درجة بلاغته .

« الباطل » هو كلّ ما يبطله غيرُه ، ذلك أنّ محور معاني كلمات مادة (الباء ، والطاء ، واللام) تدور على أَصْلٍ وَاحِدٌ ، وَهُوَ ذَهَابُ الشَّيْءِ وَقِلَّةُ مُكْثِهِ وَلُبْثِهِ . اهـ كما يقول ابن فارس في« مقاييس اللغة » .

والقرآن لا تزول معانيه ولا تحول منْ أنّها الحقّ الثّابت ، فمهما تغيَّرت الأعصار والأمصار والثّقافات والحضارات ، فإنّ المعنى القرآنيّ يبقَى راسِخًا شامخًا مُصلِحًا كلّ زمانٍ ومكانٍ وإنسانٍ ، فإذا لم يتحقّق الإصلاحُ ، فلأمرٍ في ما يرادُ إصلاحُه بالمعنى القرآنيّ أي لفقدِ ما يراد إصلاحه القابليّة للإصلاحِ .

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (النمل: ٨٠-٨١) .

ولمّا كان المعنى القرآنيّ لا يأتيه الباطل بتةً كان لزامًا ألاّ يتناقض وألا يتخالف ، بل وألا يتفاوت في منازل الكمال ولايتفاوت في منهاج الإبانة عنها ، وإيصالها إلى أفئدة من هو أهل لأن يتلقّى .

والقول بأنَّ بلاغة القرآن لا تتفاوت هو ما عليْه جمهرة المتقدمين من أهل العلم ببيان القرآن :

أبان الباقلانيّ في فصل جملة وجوه إعجاز القرآن عن ثلاثة أوجه من إعجازه ، ونص على أنّ الوجه الثَّالث يتمثّل في أنّه بديع النظم ، عجيب التَّأليف ، متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه ، وأن « عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف إليه من الوجوه الّتي يتصرف فيها : من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ... » .

«وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها ، على حد واحـد ، في حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى الرّتبة الدنيا .

وكذلك قد تأملنا ما يتصرّف إليه وجوه الخطاب ، من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدٍّ واحدٍ لا يختلف .

وكذلك قد يتفاوت كلام النّاس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بيِّنا ، ويختلف اختلافا كبيرا ، ونظرنا القرآن فيما يعادُ ذكرُه من القصَّة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراع ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر ، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير ، عند التّكرار وعند تباين الوجوه ، واختلاف الأسباب التى يتضمن»[1].

فمن ذهب إلى أنّ المعانى القرآنيّة وصورها تتفاوت بلاغةً ، فإن أراد تفاوتها في تحقيق المطابقة ، والقدرة على الوصول إلى أفئدة السّامعين ، وتمكّنها منها ، فذلك غير قـويم ، وإن أريد تفـاوتهـا في عدد المقتضَيـات (بالفتـح) فذلك لا يسمى تفاوتًا ، وإنما هو تنوّع اقتضاه المقام والسّياق والمغزى ، وهذا هو كمال البلاغة عينها ، ولو جاء على غير ذلك ما كان البيان بليغًا ، فليست بلاغة البيان بكثرة المقتضَيات (بالفتح) فقد تكثر ولا يقتضيها المقام والمغزى ، فيكون ذلك هو القبح عينه ، وليس التّفاوت بأنّ هذا كلام في شأن الله ﷻ وحزبه ، وهذا كلامٌ في حال الشّيطان وحزبه ، ومَن جعل هذا عِيار التَّفاوت ، فما أصاب .

مَن ذا الذي يذهب إلى أنَّ البيانَ في «آية الكرسيّ» أبلغ من البيان في سورة «المسد» ؟

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانيّ ، ص ٣٦-٣٨ (بتصرف) .

بلاغة البيان عن المعنى القرآنيّ في «آية الكرسيّ» كمثله بلاغة البيان عن المعنى في سورة «المسد» في تحقّق خصائصه على كمالها كلّ هو كَميل البيان جلالاً وجمالا .

تفاضل السّور ليس في بلاغة بيانها : «مطابقة الكلام لمقتضَى الحال» بل في ثواب تلاوتها ، وذلك أمرٌ لا ينظر فيه العقل البلاغيّ لتعلقه بأمرٍ لا سبيل إلى تحقيقه العلميّ .

* * *

الخصِيصة السّابعة : حسن تلقيه مِن حسن العلاقة بمنزّله ﷻ

لستَ بواجد بيانا من عوامل حسن تلقيه واثقةُ المتلقّي بقائل هذا البيان وحسن تبتله وقنوته وتزلّفه إلَيْه .

صحيحٌ أنّ منهم من يستحمدُ أن يكون المتلقّي على قدر المتكلم في هذا الباب ، وإن اختلف فعلُ كلّ إفهامًا وفهمًا ، إلاَّ أنّـهم لا يشترطون حسن العلاقة والزّلفِى بالمبدع ، وهذا ما أنت تجده فريضةَ عينٍ في تلقّي بيان الوحي .

إذا ما تقارب متلقيان هذا البيان في العوامل الكَسبيّة من العلوم والذّوق ونحو ذلك ، وكان أحدهما لله ﷻ أكثر تزلفًا وقنوتًا ، ولرسوله ﷺ تأسّيًا ، كان لـه من العطـاء والفهم ما ليس للآخر ، فثَمَّ معان إحسانيّةٌ في بيان الوحي لا يستخرجُها إلاّ الإحسانُ في علاقة المرءِ بربِّه ﷻ مجموعًا إلى الأسباب الكَسْبِيّة الأُخَر .

وفي القرآن مواضع عدة تهدِي إلى أن الزّلفَى إلى الله ﷻ سبيلٌ إلى كريم العطاء فقهًا وفهمًا ، وأنّ هنالك عوائق تحاجز المَرء عن أن يكون له من الفهم نصيبٌ على نحوما تراه في قول الله ﷻ :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾

(الأعراف:١٤٦) .

ومن الصَّرفِ عَن آياتِه الصَّرف عن حسن التلقّي والفهم عنه ﷻ ، ذلك أنَّ التكبر عائقٌ فتيّ الأثر عن حسن التلقّي[١] .

والاستكبار من خفيّ ما يعلقُ بالقلوبِ ، وقد يقع المرء في شيءٍ منه وهو عنه غافلٌ ، فهو كالشرك أخفى من دبيب النّمل ، وكلّ من بطر شَيْئًا من الحقّ أيًا كان صَاحبه ، أوْ رأى لِنفسِه وذاتِه فضلاً وعلواً على غيرِه ، فقد مسَّه شيْءٌ منه ، فالخضوع للحقّ ، والتَّواضع للعباد احتسابًا رأسٌ في البراءة من الصَّرف عن حسنِ الفهم عن الله ﷻ .

وأنت لا تجدُ معنى بيانٍ غيرِ بيانِ الوحيِ مِن خصائص تلقّيه أن يكون المرءُ على هذا النَّقاءِ وهذه المكانةِ مِن الزّلفَى إلى مَن يريد الفهم عنه .

وأنت لا تجدُ معنى بيانٍ يجعله صَاحبه هدًى لقومٍ ، عمًى على آخرين ، أي أن يكون بيدِه هو إقدارُ متلقيه عن أن يفهم عنه ، أوْ لا يفهم ، وهذا ما يفهم من قول الله ﷻ :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٤) .

---

(١) ينظر كتاب : فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب : حاشية الطيبي على الكشاف . ٥٧٦/٦ ، ٥٧٧ شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت : ٧٤٣ هـ) تحقيق : جمع من أهل العلم . نشر مؤسسة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم . ط . أولى ، ١٤٣٤هـ .

وهذا يحمل على أن نفتّش في البيان القرآنيّ عن ذلك الّذي لا طاقة للقلب غير صفيّ على تلقيه ، فهذا الضربُ من المعاني هو زادُ المتسنّم مدارج القربِ الأقدسِ ، والعقلُ البلاغيُّ العربيُّ هو العقلُ المهمومُ بتحقيق استنباطِ هذه المعاني مِن رحمِ المعنى الجمهوريّ : « معنى المنطوق » .

* * *

تلك بعضٌ من الخصائص الكليّة للمعنى القرآنيّ المستنبط وفق أصول الاستنباط المنضبط بعواصم من قواصم الفهم ، ومن شاء أن يستنثر مِن كلّ خصيصة كلّية خصائص جزئية لكان ذلك منه قريبا.

وأنت ترى أنَّ الّذي قلت هنا إنّما هو في شأن المعنى الّذي حمله إلى القلب البيان أي في شأن المبان عنه ، لا في شأن منهاج الإبانة عنه ، وهذا غير الذي قرّره العلامة المتفرّد الأحوذيّ الشّيخ محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه العمدة الفاتح لما أغلق : « النّبأ العظيم » من خصائص أسلوب القرآن ، وجعل عمود أمرها أنّـه أسلوب « تلتقِي عنده نهايات الفضيلة كلّها ، على تباعد ما بيْن أطرافها » .

جمع بين القصد في اللّفظ والوفاء بحق المعنى .

جمع بين خطاب العامة وخطاب الخاصة .

وجمع بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة .

وجمع بين البيان والإجمال(1) .

فهذا منه نظرٌ في منهاج الإبانة (البيان / الأسلوب) ، ونظرٌ في خصائص المعنى المبان عنه بذلك البيان الذي تلتقِي عنده نهايات الفضيلة كلها ، على تباعد ما بيْن أطرافها .

---

(١) ينظر كتاب : النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن . ص ١٠٨ وما بعدها . محمد عبد الله دراز . دار القلم . الكويت . ط . الرابعة ، ١٣٩٧هـ .

ممّا يحقق التكامل بين ما سبق به العلامة وما ذكرت ، فاجمع بينهما جمع الله ـ تعالى ـ بينك وبين الذين أنعم الله عليهم من النّبيين والصّديقين والشُّهداء والصَّالحين وَحسن أولئك رفيقا .

* * *

مستويات المعنى القرآنيّ .

يتسم المعنى القرآنيّ بأنّه معنى متحرّك ينمو كلّما أضيف إلى معنى الجملة في الآية معنى جملة أخرى نما وتصاعد ، وكلّما أضيف معنى الآية إلى الآية ، والسُّورة إلى السُّورة ، فالقلب في تلقّيه ذلك المعنى يرتقي من منزل إلى منزل أسمَى : إلى أن يبلغَ شرف المعنى القرآنيّ وذروته وسنامه المتمثّل في سورة «الإخلاص» .

وهذا لا سبيل لأحدٍ أن يجده في كلام غير الله ـ تعالى ـ ، وقد هدت السُّنّة إلى أن صاحب القرآن يوم القيامة يقرأ القرآن ، فيرتقي بكلّ آية درجة .

روى أبو داود في كتاب «الوتر» من سننه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رَضِيَ الله عَنهما ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا» . (ورواه الترمذي ، وأحمد) .

هذا البيانُ النّبويّ المستولد من جمالِ ربوبيّة منزلِ هذا القرآن جَلَّ جَلَالُهُ ، يحملُ أهلَ القرآنِ على أن يتمثلوا في ترتيلهم هذا التَّصاعد في الجنة يوم القيامةِ ، وأن يستحضروه في ترقيهم وتصاعدهم في مدارج المعنى القرآني ؛ ليتحققَ لهم حسن الاستجابة لما في أمر الله تَعَالَى في الآيات الأول المستفتح بها الوحي : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:١-٥) فيتحقق له التّرقي إلى مقام ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (العلق:١٩) .

العبد المتدبّر آيات الذّكر العليّ الحكيم في نسق التّلاوة يترقّى ويتصاعد فؤاده في درجاتِ المعنى القرآنيّ ، نظير تصاعده في درجات الجنة يوم القيامة ، فصاحب القرآن هو في مسيره في الحياة الدّنيا مترقٍّ في جنة معاني القرآن ، كمثل ما سيكون له يوم القيامة من التّرقّي في درجات الجنة .

وهذا يهدي إلى أهمية ملاحظة المتدبرِ نمو المعنى وتصاعده ، وبملكك أن تجعل هذه المستويات للمعنى القرآنيّ مستويين كليين :

المستوى الكُلّيّ الأوّل :

« المعنى الجمهوريّ » وهو الذي يتلقاه كُلُّ مَنْ يَنْطِقُ العربية ويعقلُ عنها ، أيّا كان مستوى وعيه المعرفيّ وقدرته التأويلية ، ولذا جعلت نعته « الجمهوريّ » مريدًا أنّ جمهور السَّامعين النَّاطقين بالعربية يمكنهم إدراكه إن أرادوا .

وهو ما يعرف بـ« معنى المنطوق » أو « مدلول العبارة » ، وهو ما ثبت باللفظ وكان مقصُودًا إليْهِ قصدًا رئيسًا ، فهذان شرطان لابدَّ من تحققهما ، فليس كلّ ما ثبت باللفظ هو من مدلول العبارة ، بل لا بدَّ أن يكون مناط القَصد الأوّل الرَّئيس ، فالقصدُ عنصرٌ رئيسٌ في هذا .

وقولنا ما ثبت باللّفظ ، أي أن السّامع العارف بلسان العربيّة يعرف هذا المعنى بمجرّد سماعِه القولَ دون أن يتوقّف على شيْءٍ من خارج ظاهر القول وعبارتِه ، والنّاسُ الّذين يعرفون اللّسان في هذا سواء ، فقوله ﷻ : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:١٦٣) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (النحل:٥١) .

الخطاب في مثل هذا يدلّ على المعنى الجمهوريّ بذاتِه دون أن يتوقفَ على مستوَى معين من التلقّي لدى السّامع ليتمكن من الاستدلال بالخطاب عليه ،

فهذَا عِيار «المعنى الجمهوريّ» ، وإن شئت سمه «ظاهر القول» وكلمة ظاهر هنا لا أريد بها المصطلح الأصولي قسيم مصطلح «النَّصّ» و«المفسر» و«المحكم» بل أريد المعنى الظّاهر البادي لكلّ سامع ، فكأنّه خرج من بطن العبارة إلى ظهرها ، فصار مكشوفًا لكلّ ذي سمع .

هذا المعنى الجمهوريُّ لا يحتاجُ المرءُ معه إلى مهارَة الاستنباطِ ، وهو غير قليلٍ في القرآن الكريم ، ويغلبُ أن يكونَ في المعانِي الرّئيسة المتعلّقة بالعقيدة ولاسيما وحدانية الله ـ تعالى ـ ، والبعث ، وإثبات النّبوة والرّسالة ـ وكثير من أحكام الشّريعة أمرًا ونهيا لها من ذلك المعنى نصيب وفير .

وأبو إسحاق الشّاطبي (ت : ٧٩٠هـ) يسمي «المفهوم العربي» ظاهر القرآن ، وكلّ «مَا كَانَ مِنَ الْمَعَانِي الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي لا يَنْبَنِي فَهْمُ الْقُرْآنِ إلاَّ عَلَيْهَا ؛ فَهُوَ دَاخِلٌ تَحْتَ الظَّاهِرِ»[(١)] .

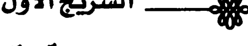
وعظم آيات القرآن لها معنى ظاهرٌ يمكن أن يدركَه كلُّ سامع ، إلا أنَّ بعضَ الآياتِ يفتقرُ السَّامع إلى ملاحظة السّياق ليضبط معالم هذا المعنى الجمهوريّ ، فالقراءة التّجزيئية (العِضين) الّتي تفصم الجملة أو الآية من سياقها (السّباق واللّحاق) قد تفضي إلى خطيئة في التلقّي .

إنَّ مخاطر فَصْمِ العبارة عن سياقها في التَّأويل جدّ بالغةٍ ، سواء كان ذلك عن غفلةٍ أو جهالةٍ أو قصدٍ .

* * *

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة ، لأبي إسحاق الشاطبي ، ٣٨٦/٣ تحرير وتعليق الشيخ عبد الله دراز ، نشر المكتبة التجاري الكبري .



والمستوى الكليّ الآخر :

هو ما أسمّيه «المعنى الإحسانيّ» ويدخل فيه ما يسمّى باطن البيان إذا ما كان هذا جارٍ على مقتضَى الظَّاهر المقرّر في لسان العربِ ، وله شاهدٌ نصًّا أو ظاهرًا في محلٍّ آخر يشهد لصحَّته من غير معارض[1] ، فهو معنًى مكنونٌ في باطن العبارة ، وليس في باطن المُتَقَوّل ، لا يتوصل إليه إلاَّ بطول تدبّرٍ ولقانةِ قلبٍ زكيّ مطهّرٍ من الشُّبهات والشَّهواتِ والغفلة والعصبية لغير الحقّ .

وهو ذو درجاتٍ في اكتنانه وبعده من ظاهر العبارة ، أو من ظهر العبارة ومتنها وسطحها ، وهذا هو الّذي يفتقر المرء إلى قدر من مهارة الاستنباط .

والعلماء في تحصيله متفاوتون جدًّا ، بل والعالم الواحد يتفاوت مقامه في هذا بتفاوت أحواله القلبية والنّفسية والعقليّة والعلميّة ... ممّا يحفز أهل العلم على أن يجتهدوا في أن يكونوا على حال هم بها متأهلون لفيضٍ من دقيق لطائف هذه المعاني الإحسانية .

أينا لم تمرّ عليْه آية في سياق نفسيّ وعقليّ وقلبيّ وروحيّ ، فيبصر فيها معانيّ لطيفة تجعله كأنّه يسمعها أوّل مرة ، وهو الّذي قرأها عشرات أو مئات المرّات ، وهو يحفظها ، وربّما فسَّرها ودرسها لطلاب العلم ، ولم تكن هذه المعاني قد كشفت عن وجهها له .

تلك المعاني هي من هذا المستوى الذي أسميته «المعاني الإحسانيّة» ، وآثرتُ تسميتَها المعاني الإحسانية لأمرين رئيسين :

الأول : الإشارة إلى ما به يمكنك تحصيل هذا المستوى من المعاني ، وهو إحسان الاستعداد للتلقّي فقهًا وفهما ، وذلك بالسّعي الحثيث إلى امتلاك مهارات التّلَقي وأدواته الحسيّة والمعنويّة ، والتّعرض لنفحات الله ـ تعالى ـ

---

(١) الموافقات للشاطبي ٣/٣٩٤ .

وفيوضاته ، بالتزلّف إليه بما يُحبّ أن يتزلف به إليه ، وهو التّنفل بما هو من جنس ما فرض عليك .

ومن كان هذا مقامه في محبة الله ـ تعالى ـ له ، فهو البصير السّميع لما هو مكنونٌ من لطيف معاني الهدى وطريفها ، وهو المتأدّب بها إيمانًا واحتسابًا . فالمعاني الإحسانيّة لن تكتسبَ إلاّ من هذا الطّريقِ ، فمن لم يسلك مستصحبًا زاده فلن يبلغ شيئًا منها قطّ .

والآخر : الإشارة إلى أنّ هذا الضّربَ من المعنى كلّما أحسنت في طلبه أحسن إليك في عطائه ، وهذا ما أنت تلقاه من نعت القرآن بأنّـه لا يَخْلق على كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلا يَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، ولا تشبع منه العلماءِ ، وقولهم فيه : إن هذا القرآن لا يختلف ولا يُسْتشنُّ ولا يَتْفَهُ لكثرة الرّدّ .

« المعنى الإحسانيّ » مستكِنٌّ في كلِّ جملة ، فلا تكاد تجدُ جملة أو ما فوقها في أيّ سورة من سور القرآن إلاّ وهي مترعة بالمعـاني الإحسانية الّتي تُعجز العالمين عن الإحاطة بها ، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا ، منها ما يدلّ عليه شيءٌ من سياق المقال ، ومنها ما يدلّ عليها شيءٌ من سياق الحال . ولهذا حثّ الله ﷻ على تدبّره : ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (ص:٢٩) .

هذه الآية جاءتْ في سياق سورة (ص) وهي سورة أقيمت للقول في المصادّة عن سبيل الله تعالَى والمحادَّة[1] .

وأقيمت هذه الآية في مقام يعترِض سياق قصة سيدنا « داود » وابنه « سليمان » ـ عليهما السلام ـ ، وكانت في أعقابِ مشهدِ القضاءِ في خصومة

---

(١) ينظر كتاب : الزمر ومحمد وعلاقتهما بآل حم . ص ٧ ، وما بعدها . دراسة في أسرار البيان . لشيخنا محمد محمد أبيموسى ، مكتبة وهبة . ط .الأولى ، ١٤٣٣هـ .

الّذين تسوّروا المحرابَ طالبين منه ما هو فريضةٌ على كلِّ ذي ولايةٍ : ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ (ص:٢٢) وذلك هو أساس الحكمِ العدلِ في كلِّ أمّة ، ثُمَّ جاء قوله ﷻ :

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (ص:٢٦) .

وفي أعقاب هذا الامتنانِ على سيدنا داود عليه السلام جاء البيان لأمّة الإسلامِ كيما تنظرَ إلى ما يقوم عليه الوجودُ الحقُّ الرّاسخ ، جاء البيان عن الحقيقة الكبرى : حقيقة أنّ الكون ما خُلق باطلا ، وأنه لا يستوي أهل الهدى وأهل الضلال ، وأنّ كتاب الله ـ تعالى ـ المبارك أنزل لِتتدبّره الأمّة ، فتهتدِي إلى ما يحقّق لها القيامَ بما عليها من تكاليف الخلافة الحقّة ، فبهذا التّدبّرِ يتمكن أولُو الألبابِ من أهل العلم من استنباط ما فيه صلاح الكونِ ، ومن الوفاءِ بحقِّ الله ـ تعالى ـ ، ثُمّ بحقِّ خلقِه ، وليتذكّروا تلك الحقيقةَ الّتي صَحِبتْ أبا البشر آدم عليه السلام حين أهبط : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:٣٨) .

جاءت هذه الآيات في أعقاب قصة سيدنا داود عليه السلام ، وفي صدر قصة ولده سيدنا سليمان عليه السلام الّذِي كان هبة الله ـ تعالى ـ لداود عليه السلام ، والذي قد أُوتى فهمًا في استنباط الحقيقة لم يؤتَ مثله داود عليه السلام : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (الأنبياء:٧٩) .

وهي إذ تنزل منزلة الاعتراض بين فصلين متلاحمين من فصول القصص القرآنيّ ، تُشيرُ إلى أنّه لا تستقيم الخلافةُ في هذه الأرض إلاّ بالعدل الّذي لا يسوِّي بين الذين آمنوا وعملوا الصّالحات والمفسدين ، ولا بين المتقين والفجّار ، ولن يكونَ ذلك العدلُ إلا إذا استنبطتْ أصوله وفروعه من وحى الله

- تعالى - إلى رسُوله - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - بالتّدبّر في آياته ، والنَّظر فيما يؤدى إليه ذلك التَّدبّر ويوصل إليه من دقيق العلم وعظيم الحكمة .

لا يكون تدبرٌ لما سميته «المعنى الجمهورى» ؛ لأنّه مستوًى واحد متعيّن ، لا يتفاوت طلاب العلم في تلقيه ، إنّما التدبّر لما هو مدارج متصاعدةٌ إلى أفق لا يتناهى .

وذلك هو المعنى الإحسانىّ ، فقوله ﷻ : ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ﴾ برهانٌ على أنَّ في هذا البيان القرآنيّ معانيَ إحسانيّةً لا تستطعم إلاّ بالتدبّر ، ومنْ ألطفِ هذه المعاني الإحسانيّة الّتي يفتقر في التّطواف حول حماها إلى اجتهاد وجهادٍ في تحقيق فريضة تدبر المعاني ، الَّتي تتولَّد من العلاقات بين المعاني وتناسبها وتراتبها على مستوى الآية وما فوقها إلى السّورة إلى القرآن الكريم كلّه .

وإذا ما كانت الآية قد جعلت التّدبر مدخول لام العلة أوالعاقبة ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ﴾ ، وكان التّدبّر هو استِمرارية فعل التفكّرِ والتّبصر في هذا البيان في سياقه مما يَهْدِى إلى أنّ هذين الفعلين : التَّفكّر والتّبصّر ، وما يتبعهما لا نهاية لهما - إذا ما كان ذلك ، فليس التّدبّر الغاية العظمى في ذاته ، بل هو خطوةٌ إلى غاية أبعدَ وأسمَى وأجدى : غاية تحصيل المعنى القرآنيّ من البيان ، وتحصيل ذلك ليس هو المنتهى في السّفر ، بل هو مرحلة إلى محطّ الرّحال : تحقيق عبوديتنا لله ﷻ للفوز بمحبته لنا .

وهذا يَهدِي إلى أنّ كلّ مدارسة لمعنى من معاني الهدى في القرآن في سياقه مهما بذل فيها منْ جهودٍ متظاهرة ، فإنّه يبقَى بكرًا كأنّه لم يستزرع من قبل شريطة أن يؤتَى المعنَى من جهةٍ غير الّتي أتي إليْه منها من قبل ، فإنّ مدخلَ الفؤاد في تدبّره إلى المعنى هو الَّذي يعينه على أن يبصرَ مالم يبصره من قبل ،

فليس مِن الحكمةِ أن تعِيد التَّفكرَ والتَّبصّرَ في المعنى القرآنيّ بالمنهج والأدوات والمهارات السّابقة التي دارسته بها ، بل على الدّارسِ أن يجتهدَ في تزكيةِ منهجِه وتذكيتِه وتكثيرِ أدواتِه وتنوعِها ، وتنميةِ مهارتِه وتفعيلِه ، ثُمّ يبحثُ عن مدخلٍ جديدٍ إلى هذا المعنى ، حينئذٍ سيحظَى منه بعطايا لم يكن له منها شيءٌ قبلُ .

وشأنُ المسلم المتأهّل للتلقّي عن الله ﷻ أنّه يزداد رصيده من الحسنات ، وتتقدم خطاه في طريقه إلى الله ـ تعالى ـ كلّ يوم ، فقدراته اليوم خيرٌ من قدراتِه أمسِ ، وهو غدًا خيرٌ منه اليوم ، وهكذا كلّما مضَى يوم كان إلى الله ـ تعالى ـ أقربَ ، فكان اقتداره على أن يتلقَى من هذه المعاني الإحسانيّة أقوى ، ولسان حالِه يهتف ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه:١١٤) ، فكيف إذا ما جمع إلى هذه المدارسة والدربة الرواية ؟

ألا ترَى أنَّ سيّدنا عبدَ الله بنَ مسعودٍ ﷺ يقول : « إِذَا وَقَعْتُ فِي « آل حم» وَقَعْتُ فِي رَوْضَاتٍ دَمِثَاتٍ أَتَأَنَّقُ فِيهِنَّ» (مسند ابن أبي شيبة : أثر رقم : ٣٠٢٨٥) أيْ أتتبّع حسنَهن ، فقد كنّ يسمين العرائس ، ويسمّين ديباج القرآن . وهذا يلحظ قولهم « لا يخلَق على كثرة الرَّد ولا تنقضِي عجائبُه» وهو بلا ريبٍ وجهٌ من وجوه إعجازه ، وإن لم يقع به التّحدّى عدلاً وفضلا ..

و« المعاني الإحسانيّة» هي ولائد المعاني الجمهوريّة ، فليس ثَمّ معنى إحسانيٌّ غيرُ خارجٍ من رحم « المعنى الجمهوريّ» ، فكلّ ما يسميه أهل العلم بالبيان « معنى المعنى» وإن توالَى هو من « المعاني الإحسانيّة» ، وقد يكون بيْن المَعنيين : « المعنى الإحسانيّ» و« المعنى الجمهوريّ» وسائط متعدّدة بعضها جليّ وبعضها خفيّ ، لكنَّ سلسلة النّسب وثيقة ، وإن كانتْ جدَّ مديدة. فمِن عواملِ علّوِ شأنِ « المعنى الإحسانيِّ» وثاقة نسبِه بـ« المعنى الجمهوريّ» ،

ثم إذَا ما امتدّت حلقات النّسب ولطفت العلاقة كانت الأفئدة إليه أشدّ تشوّقًا . وتلك فطرة في النفسِ الإنسانيه ، هي أرغبُ في ما بعدَ عنها تناوله ، وتفاضلَ العباد في تحصِيلهِ .

و « المعاني الإحسانيّة » ليستْ من قبيل ما يُسمى بـ« المعنى الباطنيّ » ، أو المعنى الإشاري بمفهومه عند بعضِ أهلِ النَّظرِ إن قلنا هو معنى باطنيّ ، فتلك نسبة إلى باطن البيان ، أما غيرُهُ فهو باطنيّ لأنّه خرج من بطن قائله لا من بطن البيان نفسِه ، فهو من سبيلِ « التّقويل » لا منْ سبيلِ « التّأويل » ، والعلاقةُ بينهما هي العلاقة بين الحق : « التأويل القويم » والباطل : « التَّقوِيل الأثيم ».

* * *

من حديث القرآن عن القرآن :

كان من فضل الله ـ تعالى ـ أن أبان لنا عن شأن القرآن وفاعليته في القلب السليم المعافَى من داء الشبهاتِ والعصبية الحمقاء ، والتقليد الأعمي ، وكان ممن قاله ﷻ قوله : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر:٢٣) .

من قبلِ أن نسعى إلى أن نقيم معتكفين قليلاً في محرابِ هذه الآية التي يعربُ لنا فيها الحق عن شأن كتابه نستحضرُ في أفئدتنا سباقها ، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر:٢١-٢٢) .

في القرن بين الإنزالين : إنزال الماء من السماء ، وإنزال القرآن ، وبيان حالِ الأرض وحال العباد في التلقي والتأثر ، ما يعين على حسن فقه حديثِ الله عن كتابِه .

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾

(البقرة:٢٢-٢٤) .

والقرن بين الإنزالين ذو دَلالة لفت إليها أبو الحسن الحرالّيّ (ت: ٦٣٨هـ) ، قائلاً : «اتسقت آية تنزيل الوحي بآية إنزال الرزق لما كان نزول ما نزل على الرسول المخصص بذلك ينبغي اعتباره بمقابلة نزول الرّزق ، لأنهما رزقان :

أحدهما : ظاهرٌ يعم الكافر في نزوله .

والآخر : وهو الوحي رزق باطن يخص الخاصة بنزوله ، ويتعين له أيّهم أتمهم فطرةً وأكملهم ذاتًا .

ولم يصلح أن يعمّ بنزول هذا الرّزق الباطن كعموم الظّاهر ، فتبطل حكمة الاختصاص في الرّزقين ، فإنّ نازعهم ريب في الاختصاص فيفرضون أنه عام فيحاولون معارضته ، وكما أنّهم يشهدون بتمكنهم من الحس عند محاولته عمومه ، فكذلك يجب أن يشهدوا بعجزهم عن سورة من مثله تحقق اختصاص من نزل عليه به»[(١)] .

---

(١) كتاب تراث أبي الحسن الْحَرَالّي المراكشي في التفسير ، ص ١٧٠ .

وحاجة العباد إلى القرآن أعظم من حاجتهم إلى الماء ، ففي الماء حياة أجسادهم ، إن مرضت فلا كبير مضرة ، وفي القرآن حياة قلوبهم إن مرضتْ فلا خير في شيءٍ بعدُ .

والأجساد أصبر على الماء من القلوب على القرآن ، فإن القرآن للقلوب روحها .

وكما أنَّ العباد لا يجترئ أحدٌ على أن يدعي أنه منزلٌ من السماءِ ماءً ، فإنه لا سبيل إلى أن يجترئ أحدٌ أن يقول إنه منزلٌ من السماء قرآنًا .

وإذا ما كان أثر الماء في الأرضِ ظاهرًا لا يدافع ، ولا يتوقف في أن من الأرض ما لا ينفعه الماء ، فكذلك القرآن أثره في القلوبِ النقية لا يدافع ، ولا يتوقف في أن من القلوب ما لا ينفعه شيءٌ من القرآن فهو عليهم عَمًى .

في قوله جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (الزمر:٢٣) الآية خمسةُ محاور حرّى التلبث استبصارًا لبعضِ ما فيها :

« اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .

« كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ .

« تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ .

« ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ .

« يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

المحور الأول :

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ .

أوّل ما يلقاك من عطائها استهلالُ الآية باسم الجلالة (الله) ، وهوالاسم الجامع كلّ ما في أسمائِه الحسنى الّتي علمها أحدٌ مِن العالمين أوْ استأثر الله

ـ تعالى ـ بعلمِها ، فشأن القلوب المعافاة من داء الغفلة وما فوقها أنَّها إذا ما سمعت اسم الجَلالة مستفتحًا به ، فإنّها تدرك أنّ ما هو مخبرٌ بِه عن اسم الجلالة قائمٌ فيه كلّ معاني أسماءِ الله الحسنى ما علمنا منها وما لَمْ نعلمْ ممّا يهدِي إلى خصُوصية ذلك المخبرِ به عن اسْمِ الجلالة ، فإنّ كلّ خبر يأخذ مِن خصائص الاسم المخبر بِه عنْه ، فقوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (الرحمن:١-٢) غيره لو قيل في غيرِ القرآن : الرّحيم علّم القرآن أو العليم علّم القرآن ، فإنَّ لمواقع أسماء الله الحسنى من الفقه ما لا يطيقه إلا الصّفوة .

ومِن شأنِها أيضًا أنّها إذا ما سمعته مسْتفتحًا بِه انصرفت عَن كلٍّ ما يمكنُ أن يشغلَها ، لتحقق كمال استقبال ذلك اسْمِ الجلالةِ وماتعلّق بِه ، تَهَيُّئًا لتلقّي فيوضاتٍ من عطاء ما سيخبر بِه عنه ، فالعظيم لا يمكن أن يخبرَ عنه في البيان البشريّ إلا بما هو عظيمٌ ، فكيف بالأمر في بيان الوحي ؟ هو ﷻ لا يورد الإعرابَ باسم الجلالة إلاّ في مقاماتٍ تنبىء عن أمرٍ جدّ عظيم مستقضٍ مستجمع معاني أسمائه الحسْنى ؛ لذا كان من الحسْنِ أن يفقَهَ المسْلم حكمة استفتاح ترتيلِه كتاب الله ﷻ بهذين الاستفتاحين : «أعوذُ بالله من الشّيطان الرّجيم بسْم الله الرَّحمنِ الرَّحيم» .

الأمر بهذا الاستفتاح فيه دلالة على أنَّ الشيطان متربّصٌ بمن قام إلى ذلك التّرتيل ، وهو لا يفعل ذلك إلا إذا علم عظيم أثر ذلك الفعل في مسير العبد إلى ربّه سبحانه وتعالى ، فكلّما كان الفعل جليلَ الأثر كلّما كان اجتهاد الشّيطان في المحاجزة عنه فتيا ، وهذا إن أحسن استحضاره يجعل المرء عليما بعظيم قدر ما هو قائم إليْه ، فلا يشغله عنه ما دونه ، وكلُّ شأن من شؤون العالمين دونه . إنّ الشّيطانَ المنبىء عنه الله سبحانه وتعالى أنّه :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦-١٧) .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص:٨٢-٨٣) .

يستفرغ كلّ جهده وإمكاناته ليصرفنا عن التَّرتيل ، فإن لم يستطع صرفنا عن التّرتيل صرفنا عمَّا يحقِّق له فيضًا من عطايا التَّرتيل المستَنزَلة بحسن التَّدبر ، ليبقينا على الأقل في المقام الأدنى حيثُ الحسنة بعشر أمثالِها .

وكان من كَميل جمال الرُبوبيّة للمرتّل أن أعرب الله تعالى عن ذلك العدّو المتربص القاعد لنا صراط الله المستقيم باسم «الشَّيطان» ليستحضر في أفئدتنا تهالكه ، فهو «شيطان» من الشيط ، أيْ الاحتراق من غضبِ الله ـ تعالى ـ أوْ من الشّطن ، أي البعد عن رحمةِ الله ـ تعالى ـ وعونه ، فكأنّ الله تعالى يقول لي استعذ بي منه ، فإنّه شاطنٌ عن رحمتي أو شائطٌ بغضبي ـ أو هما معًا على القول بأنَّ كلِمة «شيطان» من قبيلِ «النّحت» : منحوت من «شطن» وشاط «أيْ لمّا شطن عن طاعة اللهِ ـ تعالى ـ شاط واحترق بغضبه ، فجمع اسمه بين قميئ فعلِه ووبيل عقوبته عليْه ، ثم نعته بأنّه «رجيمٌ» والرَّجم «رمي الشّيْء بالاعتماد من غير آلة مهيأة للإصابة كالقوس ، فإنها للرّمي لا للرّجم»[1] .

وهو من أذل العقوبة ، وقد جعله الله ﷻ للزَّاني المحصن لعظيم ما اقترفَ ، فكان في هذا الاستهلال ما يهدي العبدَ إلى أنّ في إقباله على ترتيل القرآن حقّ ترتيله قنوتًا وتدبرًا ما يستنفرعدوَّه المبين في عداوته ، ممّا يجعلُه يستجمِع كلّ إمكاناته ، ليبطلَ عليْه عمله ؛ لما لِهذا العمل : «التّرتيل» من عظيم النّفع وجميله وكميله ، ولو أنَّا فقِهنا هذا كما فقه « الشّيطان» لما صرفنا عن هذا الفعلِ صارفٌ من الدّنيا .

---

(١) نظم الدرر ١١/٣٣ .

ويأتي قوله : «بِسْمِ اللهِ الرَّحمَن الرَّحيم» هاديًا لنا أنّ ما نحنُ مقبلون عليْه من ترتيل هذا الكتاب ترتيلاً يليق بِهِ خطابًا من ربّنا ـ تعالى ـ لنا لا سبيل إلاّ أن يكون باسم الله ﷻ ، فهو وحده المستحقّ بأن يبتدأ باسمه ، ويستعان بذكره في مفتتح كلّ أمر ، ولاسيما ترتيل كتابِه .

وكأنّ في هذا أنّ هذا الكتابَ لا سبيلَ لك أن تقومَ ببعضِ حقِه إلاّ إذا ابتدأتَ ترتيلَه بذكر اسم منزّله وحافظه ؛ ليكونَ لك من الاستفتاح بذكر اسمه ما يجعلك أهلاً لأن تُعان على حُسنِ ترتيله وتلقّيه .

وفي هذا من جليل عطاء رحيميته ما فيه ، حيث دلّنا علَى ما يحقق لنا ما يعيننا على القيام بهذا القول الثّقيلِ في قدرِه ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل:٤-٥) فلهذا التّقديم بالاستعاذة ، والبسملة من التّهيئة أولاً والتّشوف ثانيا للقلوبِ لتلقّي فيوضات عطاء البيان ما يجعل لهذه العطاءات من التّمكّن والتّوطّن في الأفئدة ، ثمَّ فاعليتها فيها ، وفي هذا من الرَّحيميّة وجمال الرّبوبيّة ما فِيه .

وفي بناءِ الجملة : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (الزمر:٢٣) على التقديم تقريرٌ هذا النَّبإ العظيمِ في القلـوبِ ؛ لتُقبلَ على هذا الحديثِ إقبـالا مستحضِرًا ثلاثة أشياء كليّة :

● مُسْتحضرةً جلالَ هذا الحديثِ وجماله :

جلالَه لتحقيقِ صِدق العهد في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (الفاتحة:٥) .

وجمالَه لِتحقِيقِ صِدقِ العَهد فِي ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) فتكون ممّن قال فيه الله ﷻ ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب:٢٣) .

وكلُّ مَعنًى يرِد إلى القلبِ عندَ سماعِ جملةٍ مِن القرآنِ وما فوقها فِي سياقِها لا يحقِّقُ في القلبِ هذا الجلالَ وهذا الجمالَ ما هو بِمعنًى قُرآنيّ؛ لأنَّ المَعنَى القُرآنيّ معنًى مزاجُهُ «جلالُ الإلهيَّةِ» و«جمالُ الرُّبوبية» ، فإذا خَلا ما وردَ على القلبِ عندَ سَماعِ شيْءٍ مِن القُرآن من هذيْن ، فما ذلك الَّذي وفد إلى القلبِ بِمعنًى قُرآنِيّ في شيْءٍ البَتَّة .

● ومستحضِرَة أنّ هذا المُنزَّلَ لا يُمكنُ أن يكونَ كمثْلِهِ حديثٌ ؛ لأنّ الَّذي نزّله جَلَّ جلاله هُو الّذي ليس كمثلِه شيْءٌ ، وهُو الَّذي لم يكنْ له كفوًا أحدٌ ، فكذلِك حديثُه ليس كمثلِه حديثٌ ، ولَمْ يكنْ له كُفوًا حديثٌ في كلِّ شأن مِن شُؤونه ، ومِنها شأنُ تناسبُ معانيهِ وصورِها ، وتناسبُه معَ شأنِ مُنزِله ﷻ ، وتناسبُه معَ شأنِ مَن نَزَّلـه الله ﷻ علَى قلبِهِ ﷺ ، وتناسبُه معَ شأنِ مَن نُزِّل إليهم ، وتناسبُه معَ شأنِ مَا نُزّل لتحقِيقهِ من البيان والهدَى الموعظة والذّكرى والرّحمةِ والبُشرَى والشّفاء .

● ومُستحضِرَةٌ أنّ الّذي نزّله وحيًا على رسُوله ﷺ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٦) . هو الّذي ينزّله فَهْمًا فِي قلبِ مَن كان لَه رسُولُ الله ﷺ أسوة وإمامًا ، وكان أيضًا مليكًا لمقتضِيات التَّلقّي والفهمِ ، ومن أهمِّها طهارةُ الوعاء «القلب» وعمقِه ورحابته وصدقُ العزمِ وفتوتِه ، وصفاءُ القصد .

ويأتي الخبرُ عن اسم الجلالة : ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (الزمر:٢٣) هذه الجملة الفعلية الماضوية الحاملة اليقين بالحدث على الصّفة التي ذكر بها : (نزّل) وفي التَّنزيل معنى علوّ المصدر ، ومعنى التَّيسير ، ولولا ذلك ما أطاق أحدٌ قراءته ، فكيف بفقهه .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧) .

ولم يَلفِت البيان إلى تعيين من نزل عليْه وإليْه ، فالسّياق ليس لذلك : السّياق لتبيين شأن الفعل وما وقع عليه المنزّل : ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ وأثره في من يحسن تلقّيه .

وفي إشعار هذا ما يملأ القلب بجلال منْ أُنزلَ عليْه ما نعت بأنّه ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ ، أَيمكن أن ينزل الله ﷻ أحسن الحديث على من ليس هو أحسن من نزّل عليْه ؟

وفيه أيضًا إشعارٌ بجلالِ المغزى والمقصد من التّنزيل :

أيمكن أن يكون تنزيل الله ـ سُبْحانَه وَتَعَالَى ـ ما نعته بأنّه أحسن الحديث إلا لمقصد هو أعظم وأجل المقاصد . ؟

وفيه أيضًا شعارٌ أيضًا برفعة مكان من نُزّل أحسن الحديث من أجلهم : أيمكن أن ينزل اللهُ ﷻ أحسن الحديث من أجل قوم ليسوا عنده بمنزل يليق بأن ينزّل إليهم ومن أجلهم أحسن الحديث ؟

إنّ من سنن الأكارم في هذه الحياة أنّهم لا يقدمون أحسنَ ما لديهم إلا لمن كان ذا منزل كريم عندهم « أنزِلوا النّاسَ منازلهم » (سنن أبي داود : الأدب) .

كذلك يطوي قوله تعالى : ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ أمورًا :

يطوي إنباءً عن مَنْزِل من أنزل عليْه ذلك المنزّل .

ويطوي إنباءً عن منزل المقصد الذي نزّل لتحقِيقه .

ويطوي إنباءً عن منزل من أنزل من أجلهم أحسن الحديث ، ممًّا يهديك إلى أن قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (الزمر:٢٣) من جوامع الكلمِ ، فَمن شاءَ أن يَقومَ ليحيط بتفصيل مجملها ضَاقَ عليْهِ زمانه وجهده وعلمه ،

فكان له من حاله هذا يقينٌ قطعيٌ بعظيم عجزه عن تفصيل مجمل جملةٍ من آيةٍ ، فأنـّى له أن يأتيَ بها من عندِ نفسِه ؟!!!

وفي الإعرابِ عن القرآن بأنّه (الحديث) وأنـّه أحسنه دون أن يقول : أحسن الكتابِ ، أو أحسن الذّكرِ ، أو أحسن البيان ، أو الهدى ... لفتٌ إلى أمورٍ منها :

= أنـّه يتجدّد نزوله على رسُول الله ﷺ ليثبت بِه فؤاده من جهة ، وليقعَ الدَّواء على الدّاء ، فيكون أنجعَ .

وهذا يَتناسبُ مع الإعراب بقوله (نزّل) الدّال على التَّنجيمِ دون (أنزل) ، وهذا بابٌ عريضٌ من أبوابِ تناسبِ بلاغة القرآن .

إنّ الالتفات إلى قولِه ﷻ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان:٣٢) لَيفتحُ لنا مجالاً بِكرًا من مجالات البحث العلميّ في بلاغة التناسُبِ القرآنيّ ، حرًى بنا أن نقومَ له للوفاء بعضَ حقِّهِ من تجلية منهاج تثبيت الفؤاد من خلال تتابع نزول ما ينزلُ منه ، وعلاقته بِما يجري في حركة الحياة عصرَ النزولِ ، ومدَى الاستفادةِ من ذلك فيما يتشابه معه مِن حركة الحياةِ في عَصر التلقّي في كلّ عصرٍ ومِصر ، فالقرآن كما أنـَّه صالحٌ لكلّ زمانٍ ومكان ، هو فِي الحقيقةِ العُظمَى مُصْلِحُ شؤون كلّ زمان ومكان وإنسانٍ .

اللّفتُ إلى ما يتحقّق من التّحديث بِه ، والمُشافهةِ ، فهذه المشافهة « التَّرتيل» والإصغاء إليها ، تَحملُ إلى القلبِ العَقولِ الفَهُوم من لطائف المعانِي الإحسانيّة ما لا يُمكنُ حسنُ تلقّيها من غيرِ الإصغاءِ ، فالاستماعُ إليه رافدٌ لبعضٍ من معانيه الإحسانيّة لا يتيسر تحصيلها من مسالك التّلقِي الأخر[1] .

---

(١) ينظـر : الحضـارة العربيـة . جـاك ريسـلر ، ص ٣٨ تعريـب : خليـل أحمـد خليـل . منشورات عويدات . بيروت ، باريس . ط . الأولى ، ١٩٩٣م . ==

« فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » . (متفق عليه)

« يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » (متفق عليه)

« لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ » (البخاري : التَّوحيد)

« مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ » .

(متفق عليه)

« زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » (سنن أبي داود: كتاب الوتر)

وفي التنزيل وفق ما يقتضِيه الحالُ عونٌ على حسنِ الفهمِ لما هو مكنونٌ فِيه من معانِي الهُدى ، ذلك أنَّ البيان إذا نزل حال قيامِ ما جاء هدًى فيه ، ينيرُ السبيل القلبِ لِيُبصرَ ما فيه من الدَّقائقِ واللطائف الّتي لا تَتناهى ، فنزولُ الدَّواء عند حضورِ الدَّاءِ من عظيم الحكمةِ .

وقد لفت أبو الحسنِ الْحرالّيّ (ت : ٦٣٨هـ) إلى ذلك ، ففسر « التنزيل » بأنّه : « التّقريبُ للفهمِ بتفصيلٍ وترجمةٍ ونحو ذلك »[(١)] .

وهذا مَلحظٌ لطيفِ مِن « الحرالّيّ » كأنه يستحضر معنى التنزيل في القلوب ، فهو لها غيثٌ ، وهي له الأرض النَّقيّة الخصبة ..

وهو رجلٌ له في تحرير دلالات الكلم القرآنية مشربٌ لطيف طريف ، يحسن بك أن تكون لك به عناية فائقة .

وفيه لفتٌ أيضًا إلى أنّ هذا المنزل يحدث في كلّ مرّة يمسّ القلب صقلا ، كما يقول المهايمي في « تبصير الرحمن » .

= ويُنظر معه كتاب « محاولة في أصل اللغات » ص ٧١ . جان جاك روسو ، ترجمة : محمد محجوب ، تقديم : عبد السلام المسدي . ط . دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد ـ الدار التونسية للنشر .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١/١٦١ .





وفي إضافة الصّفة «أحسن» إلى الموصوف «الحديث» العدول عن نحو : «نزّل الحديث الأحسن» لفتٌ إلى قيمة الصّفة وأنّها بالغة الكمال والتّمكن في الموصوف ، وتمكّنه فيها ، فإضافة الصّفة إلى الموصوف مشعرة بتمكّن الصّفة في الموصوف ، وتمكّن الموصوف في الصّفة .

وإطلاق قوله : ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ هادٍ إلى شمول الأحسنيّة جميعَ أمره ، فما مِن أمرٍ له علاقةٌ بالبيانِ إلاَّ كان هذا الحديث أحسنَه ، أيْ بالغُ الكمال في حسنِه ، فليس فوق حسنه حسنٌ في كتاب من عندِ غيرِ اللهِ ـ تَعالى ـ ، ولا في كتابٍ من عندِه ، فما مِن جهةٍ من الجهاتِ ومنها جهة بلاغةِ تناسُبه إلاّ هو كاملٌ في حسنها .

والبحث عن معالم هذا الحسن وملامحه هو طَلبة العقلِ البلاغي ومأمّه الأنفس ، ومَحجّه الأقدسِ .

وهو لا يكون «أحسن الحسن» إلاّ إذا كانَ الكميلَ الجليل الجميل في تناسب آياته وسوره وترتيبها على نهجٍ بديع منيع عزيزٍ عليّ حكيمٍ .

وقوله تَعالى : (أحسن) لا يفهم منه المفاضلة ، بل يُفهمُ مِنه الكمالُ في الصِّفة ، كالّتي في قوله تعالى جدّه : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ (الفرقان:٢٤) .

لا يستقيمُ البتة أن يقالَ إنَّ قوله ﷻ : (أحسن) هنا للمُفاضلةِ ؛ لأنّ المُفاضلة تقتضِي أن يكونَ في المُقابِل حسنٌ دُون هذا الحسن ، وهذا لا يكون ؛ لأنَّ المقابل هُوَ «النّار» ، وَهِي الخلاءُ مِن الحُسنِ كلِّه . فكذلك قوله تَعالى : ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ لا يُفهمُ منه أَنَّ غيرَه مِن الكتبِ حسن ، غيرَ أنَّ حسنه مِن دون حسنِ القرآنِ ، فليس لهذا يساق الكلام سوقًا أصليًا ولا سوقًا تبعيًا ، ومِنْ ثمَّ وَجَبَ أن يكونَ قوله تعالى جده (أَحسَنَ) مفهمًا معنَى «كامل الحسن» ،

ولَيْس ثَمَّ حُسن إلا وَهو مستولٍ عليه كلِّه ، ولو اجتمع أهلُ السموات والأرضين مِن العَالَمين على أن يأتُوا بحسْن في أَيٍّ بيان ليس القرآن مستولِ على كمالِ هذا الحسن لما اسْطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وهذا وجهٌ من وجوه إعجازِ بلاغتِه ، وهو يلحظ قوله تَعالى فِي فاتِحةِ سُورة «البقرة» : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) .

والّذي أعرب بقوله عن هذا الحديث بأنّه (أحسن) هو الله ـ تعالى ـ العليم الخبير ، وما أعرب الله ﷻ عنه بذلك لابدَّ أنْ يكون ليس من فوقه حسنٌ لأنه العليم الخبير من جهـةٍ ، ولأنّ هذا الّذي نعته بأنّه أحسن الحديث إنما هو حديثه ، وقيمة الحكم والنّعت يستمدان قدرهما من قدر شأن القائل بهما ، وكلّ ذلك عوامل من عوامل تقريرِ كمال هذا النّعت في المنعوت ، وكمال المنعوتِ في نعتِه ، فهو حديثٌ كميلٌ في جميع أمرِه .

وكلّ حديثٍ في القرآن عنه إنّما هو ذو نسبٍ عريقٍ وثيقٍ بفاتِحةِ سُورةِ «البقرةِ» ، ولا يكاد يخرج حديث القرآنِ عَن القرآنِ فِي أيٍّ سورةٍ مِن سورهِ عَن هذا المفتتح ، فهذه الآية الثّانية مِن سورة «البقرة» إنّما هي أمُّ الآياتِ في القرآنِ المنبئةِ عَن شأنِ القرآن الكريم ، وَهِيَ أمُّ الأحاديثِ النّبويّةِ المتحدّثةِ في شأنِ القرآن ، ولو استجمعنا ، وكشفَنا عن مساربِ كلّ آيةٍ وامتدادها إلى فاتحة سورة «البقرة» ومنهاج التّصريفِ البيانِيّ ، وما تلاقت عليْه الآيات ، وما كان لكلٍّ من الفضيلةِ الحَاملة زادًا من الهدَى اختصت به نوعًا أو كيفًا أو مقدارًا لكان هذا من جليلِ النّصح لكتابِ الله ﷻ وللنَّاسِ أجمعين ، وهو بابٌ من أبواب بلاغة تناسبِه متراحبٌ لا يحاط بِه .

ولمَّا كان هذا كان كلُّ مَن تبصَّرَ هذه الجملة اهتدى إلى أنّ مِن معالمِ أحسنيته كمال بلاغةِ تناسبِه ، ممَّا يَسْتوجِب القيامَ بحقّه في البحثِ العلمي عَن

معالِمها وملامِحها ، وصورِها ، وما يتوافد على القلبِ الفهيم من إحسانِ التَّبصُّر والتَّدبُّرِ فيها .

والمحور الثاني : كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ

أعرَب عنه بقوله تعالى : (كتابا) بدلاً من قوله تعالى : ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ وهو يستحضر في وعينا قوله في أول سورة «البقرة» : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ وكأنّي بقوله : ﴿ أَحْسَنَ ﴾ من بحرِ قوله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ لما في كلّ من الإبلاغ في الإعراب عَن كمال المتحدثِ عنه .

و«الكتاب» واحدٌ من أسماء ما نزّله الله ﷻ على رسوله ﷺ ، وهي أسماءٌ متنوعةٌ غير متطابقة مدلُولا ، وإن كان المسمّي بها واحدًا ، فالتّنوّع في الصّفة لا في الموصوف ، فكلّ صفة تشير إلى أمرٍ جليلٍ فيه ، فإذا استجمعت أسماءَه وصفاته في البيان القرآنيّ والبيان النّبويّ كنت قد استجمعت مداخل النّظر في خصائصِ هذا الكتاب .

ولكلٍّ اسمٍ من أسمائه موضِعه الذي لا يتأتّى لأحد أن يُقيم قرينه موضِعه ، فلكلّ اسمٍ من أسمائه مدلوله في سياقِه ، ممّا يدفع مظنّة التّطابق ، إن كانت منقبة التّقاربِ والتّشاربِ جد فتيةٍ وبيّنة .

وهذا بابٌ وإن بدا للنّاشئة أنّه يمكن القيامَ به ، إلا أنَّ الواقع يقضِي بأنَّ هذا يحتاج القائم إليْه أنْ يكون مليك مهاراتٍ ، وقدرةٍ فتيّة ، وصبرٍ جميلٍ وتلبّث مكين ، ورغبةٍ في الإحاطةِ والاستقراء ، وتتبع منابع الماء ، ومراقبةِ المعاني كيف تختلِف وتتفِق ، ومن أين تجتمع وتفترق ، وأدنى محاولة يدرك بها المرء صدق الّذي قلت .

وكلمة «الكتاب» معربةٌ عن جمعِه معاني الهدَى المتآخية الخارجة من بحرِ قَولِه تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) ؛ لأنَّ

«الكَتْبَ» ليس مطلقَ جَمع ، بلْ هو جمعُ النّظيرِ إلى نظيرِه بوصلة من جنسِه ، وبهذا يفارق معنى «قرآن» ، لأنَّ «القرآن» إن جعلناه من «القَرْن» أو «القَرْأ» ، فَهو ضمٌّ أشياءَ على سبيل الإحاطة ، والاستقراء . .

«الكتاب» منظورٌ فيه إلى تجانسِ المجموعِ .

و«القرآن» منظورٌ فيه إلى الجمع على سبيلِ الإحاطة ، فهو «كتاب» و«قرآن» .

والإعرابُ هنا بكلمة «كتاب» آنس بقولِه بعده «متشابها» لما قلته من أن «الكَتْبَ» جمع النّظائر إلى بعضِها بوصلةٍ من جنسها ، لا من غيرها ، وهذا هو جوهر معنى قولِه : «مُتشابها» فهذا آية من آيات تناسبِ كَلِمِهِ وتداعيها وتنادِيها ، وتلاحظِها ، وهو مبدأٌ محيطٌ بكلّ «القرآن» بدءًا من «الكلمة» في سِياقِها إلى «السُّورةِ» في سِياقِها .

وقوله : «متشابهًا» يلفتنا إلى أمرٍ جليلٍ : يلفتنا إلى الكلم النّظائر في «القرآن» ، أي يلفتُنا إلى أهميّة أن نستجمع النَّظائر من المعاني وصورها ، بل والسّياقات القريبة ، وأنْ ننظرَ في اقتضاءِ الغرضِ العامّ لكلّ في سياقِه ، وإلى استعمالِ بعضِها مع بعضٍ ، وإلى موقع بعضِها من بعض ، وإلى توزّعها على لاحب السِّياقِ القرآني المُمتدِّ مِن أوَّل سُورة «الفاتحة» إلى آخر سورة «النّاس» وبمثلِ هذا يَتبيَّن لك كيف أنَّ الغرض والمعنى الكليّ والمغزى الَّذي يُسَاقُ له الكلامُ هو الّذِي يَستدعِي هذا المعنَى في هذه الصُّورة على هذا النَّحو من الأداءِ ، دون ما يُشابهه ، أو يَستدعِي تكرارَه فِي صُورةٍ أخرَى أو تكريره معنى ومبنى ...

وهُو في جمْعِهِ هذه المتنوّعات المتآخيات يُقيم فيها ماءً واحدًا يجري في جذرها وساقها وفروعِها وأغصانِها وأوراقِها وأزهارِها وثمارِها ، فيكونُ لكلِّ سُورةٍ ما يُميِّزُها عَن ما سِواها مِن سائرِ سُور القُرآن ، وفيها ما يجمعُها مَع سائرِ سُور القرآن .

وهُو وجهٌ جِدٌّ جليلٍ من وجوه إعجازِ بلاغة القرآن .

وقوله : ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ من وجوه معانيه أنّ معاني الهدى يثنّي تبيينها مصرفة بيانيا ، فترِد في مواضع عدّة على نحو متناسبٍ مع سياقِها ومقامِها ، فهو أقرب إلى ما يعرف بالتّصريف البيانيّ للمعنى القرآنيّ .

ومن وجوهِ معانيه اجتماع المتقابلات : الحسنات والسيئات والجنة والنار ، والمؤمنين والكافرين ، الدّنيا والآخرة ...

يروَى عن سفيان بن عيينة معنى قوله تَعَالَى : «مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ» أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ في معنى واحد ، فهذا من المتشابه ، وتارةً تكونُ بذكر الشَّيْء وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ، ثم صفة النار ، وما أشبه هذا ، فهذا من المثاني»[1] .

هذه «المقابلة الموضوعية» أصـلٌ رئيسٌ من أصول النَّظمِ القرآني ، يمثّل ما يسمى بالإيقاع الموضوعي أو المعنوي ، فـ«التقابل» يبرزُ ما في كلّ من المناقب والمثالب ، ﴿ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد:١٠) ، فلا يكادُ البيان القرآنيّ يصوّر حالَ المؤمنين إلا ويصحبه بتصوير حال الكافرين ، ولا يذكر الدّنيا إلا ويذكر الآخرة ، ولا يذكر الجنّة إلا ويذكر النّار ...

ودراسة هذه المتقابلات في سياقاتِ سورِها من جهة ، ومناظرتها بموقعهَا في سياق سورة أخرى لتتبين لنا بلاغة مناسبةِ كلٍّ فِي موقِعِه من حيث البسط والإيجاز ، ومن حيث التّصريح والتّلويح ، والتّقديم والتّأخير..

وأنت تجدُ هذا على كلّ مستوياتِ البيان القرآنيّ بدْءًا من «الكلمة» إلى «السّورة» .

---

(١) تفسير القرآن . ابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) ٩٤/٧ تحقيق : سامي بن محمد سلامة . دار طيبة للنشر والتوزيع . ط . الثانية ، ١٤٢٠هـ .

ومن وجوه معنى قوله تعالى ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ ما لفت إليه أبو الحسن الحرالّيّ في «الباب الثّاني» من رسالة «مفتاح الباب المقفل في فهمِ الكتابِ المنزّل» وعنوان الباب : «في جمع القرآن لنبأي الإفصاح والإفهام» يقول : «اعلم أن الله تعالى أنزل القرآن مثاني ، بين إجمال وتفصيل ، وبين إفصاح وإفهام :

يفهم نبؤه عنه تعالى إفصاحا نبأه عن عبده إفهاما ، لمقابلة ما بين العبد والرّب .

ويفهم نبؤه عن عبده إفصاحا نبأه عنه تعالى إفهاما .

وكذلك فيما بين دنيا العبد العاجلة ، والأخرى الآجلة .

وكذلك فيما بين هداه وإضلاله ، وفتنته ورحمته ، وبين كل متقابلين من خلقه وأمره .

وكذلك فيما بين آيات الاعتبار من أمر الخلق ، ومعتبراتها من أمر الحق . ولا يكاد هذا النحو من البيان يقع شيءٌ منه في بيان الخلق ولا بلاغتهم ، إلا نادرا ؛ لمقصد اللحن به ، والإلغاز بإفهامه ، فمتى أنبأ عنه تعالى ، أخذ الفاهم مقابل ما يتلو إفصاحا في قلبه عن العبد مفهوما ، فيملأ القرآن قلبه بإفهامه ، ويملأ سمعه بإفصاحه ، فإفهامه إسراره للقلوب الفهمة ، وإفصاحه إعلانه للأسماع الواعية ، فيسمعه من ربّه سرا وعلانية . وهذا من أجل قوانين فهمه وإحصاء علمه...»[1] .

وهذا الّذي جعله الحرّاليّ معلمًا على الطريقِ لو شئت أنْ تَتبيَّن مواقعه في سورة «البقرة» مثلاً لضاق عليْك وقتك وجهدك وعلمك .

والحقُّ أنَّ بابًا من أبوابِ رسالة «مفتاح الباب المقفل» للحراليّ يصلُح أن يكون مشروعًا علميًّا يقوم له جمهرة من أهلِ العلمِ وطلبته ، وهو من المسكوتِ عنه أو المغفول أو المرغوب عنه إلى مكرورٍ أو مجترٍ من القول .

---

(١) تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير . (م ، س) ، ص ٣٢ .

المحور الثالث :

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر:٢٣) .

هذا المحور يكشف عن البعد التّأثيريّ لبلاغةِ القرآنِ الكريم الموصوف بالنّعوتِ السَّابقة ، فكونه أحسنَ الحديث ، وكونه متشابهًا ، وكونه مثاني ، ومن قبل ذلك كونه أن الله ﷻ هو الّذي نزّله على عبدِه ورسوله سيّدنا محمّد ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ .

كلّ ذلك يؤدِّي إلى هذا الأثر البالغ في من يحسن تلقّيه ، ويملِك أدواتِ التّلقي واستحقاقاتِه ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) .

وهذا التَّأثير المتمثّل في اقشعرار جلود الذين يخشون ربَّهم ، ثمَّ لين جلودِهم وقلوبِهم إلى ذكر الله ـ تعالى ـ مبتدأ أمره الرّهب والخشية المبنيّة على علم بمن يخشونه :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر:٢١)[1] .

---

(١) لعلّ هذه الآية حملت أبا سليمان حمد الخطابي (ت : ٣٨٨هـ) إلى ما ذهب إليه من أنّ «في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوما ولا منثورا ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها.....» .
(بيان إعجاز القرآن . ص ٧٠ تأليف : حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت:٣٨٨هـ) ، تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام . دار المعارف بمصر . ط . الثالثة ١٩٧٦م ، مطبوع ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة : ذخائر العرب (١٦)] .

ولم يعربْ عن نفسه باسمه الأعظم ، فيقول : (يخشون الله) فكلّ يخشى ذا الجبروت ، وليس كلُّ يخشى ذا الرّحموت إلا مَن أحسن الفهم . ومن ثَم أعرب باسم (الرّب) إلْماعًا إلى أنـّها خشية ليس مبعثها الرَّهب المحض ، بل مبعثها الحبُّ والاستشراف إلى وصلِه وذكره ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ (البقرة:١٥٢)[1] .

هي خشية محِبٍّ ، موقِنٍ بعظيم فضل من يخشاه ، وأولى النُّهى يخشون عقاب المحسن ، فأقلّ عِقابِه قطع وصلِه وإحسانه ، كما قيل ، وأوّل وصل المحبّ حبيبه في دنيا النّاسِ أن يذكره في قلبِه أوّلا ، ثمَّ في لسانِه ، فإذا غاب عند أحدِهما كان ذلك عنْد المحبّين جدًّ أليمٍ .

ومن خاف من ربّه ، وهو متجلّ له بالجمال كان خوفه منه وهو متجلّ عليْهِ بالجلالِ أولَى وأَشدّ ، فكان قوله تعالى : ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ (الملك:١٢) متضمّنا خشيةَ الله تعالى متجليًا بعزَّته وسلطانِه . وهذا مسلكٌ مِن مسالكِ توكيدِ المعاني . وهو مِمَّا يعرف عند الأصوليّين بـ« فحوَى الخطاب »[2] .

وهذا يبرزُ لك وجهًا من أنسِ الإعراب باسم (الرّبّ) في هذا الموضع ، وقد كثر في القرآن الإعراب باسم (الرَّب) مع الخشية :

---

(١) هذه الآية يبتهج بها أهل الفهمِ عن الله ـ تعالى ـ أيّما ابتهاج ، فليس هنالك مثوبة على ذكر العبد ربّه تعالى كمثل هذه المثوبة (أذكـركم) ، وهـذا مـن فـيض عطـاءات اسمـه (البَرّ) الذي لم يرد في القرآن إلا مـرّة واحدة ، وعلى لسان أهـل الجنّـة : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الطور:٢٨) .

(٢) فحوى الخطاب هو ما كان المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوقِ به .

ينظـر : البحر المحيط في أصول الفقه . ٣/٩٠ تأليف : بـدر الدين محمـد بـن بهـادر ابن عبد الله الزركشيّ (ت: ٧٩٤هـ) تحقيق : محمد تامر . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٤٢١هـ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (الرعد:٢١) .

﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴾

(الأنبياء:٤٩) .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (فاطر:١٨) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ ﴾ (الملك:١٢) .

وكثر أيضًا الإعرابُ باسم الربّ في مواقع التّهديد والوعيدِ والإنذار ، ممّا يتوهم العَجِل أنّ الإعراب باسم من الأسماء الّتي يتجلّى فيها معنى الرّهب كالقهار والمنتقم ... ونحو ذلك ، هوالآنس فِي هذه المَواقع من التّناسبِ .

وكلمة ﴿ تَقۡشَعِرُّ ﴾ من فرائد القرآن : لم ترِد في غير هذا الموضع ، وهي كلمةٌ مصورةٌ بِمادتها وصورتها وصوتها الحدثَ الّذي يكون من تلك الجلود الذّي هو ثمـرة حدث يكون من تلك الأفئدة ، فاقشعرار الجلد مَجلَى ومشَهد ما يكونُ في الفؤاد .

ابتدأ الإعرابَ عن تأثير أحسن الحديث بآياتِ الخشيةِ ومعالمها ، وهو المناسب لتقديم قوله تعالى في سورة «أم الكتاب» : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ (الفاتحة:٥) ، وهو أدخلُ في باب الخشيةِ واستقبالِ جلالِ الإلهيّة ، ثمَّ أردفه الإعراب عن تأثيره بالرّجاء ﴿ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ ، وهو المناسب لقولِه تعالى : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) ، وهذا من بالغِ الاستشراف إلى جليلِ نواله ، وهو لم يقل : تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بذِكْرِ اللَّهِ ، بل قال : ﴿ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ أي ساكنة إلى ذكر الله ﷻ ، أي ينتهي سكونُها واطمئنانها إلى ذكر الله ﷻ ، فكأنّ ذكر الله ـ تعالى ـ أي حضور جلاله وجماله في الأفئدة هو المآب والمآل والمثوبة التي تهرع إليه

الأفئدة السليمة ، فذلك كهفها امتثالا لقوله تعالى : ﴿ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ (الكهف:١٦) .

فهذا أدخلُ في باب الرَّجاءِ واستقبالِ جمالِ الرُّبوبيّةِ .

يقول الفخر الرازي (ت : ٦٠٦هـ) :

«السّؤال الثاني : كَيْفَ قَالَ : تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَمَا الْوَجْهُ فِي تَعَدِّيهِ بِحَرْفِ إِلَى ؟

وَالْجَوَابُ : التَّقْدِيرُ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ حَالَ وُصُولِهَا إِلَى حَضْرَةِ اللَّهِ وَهُوَ لاَ يُحَسُّ بالإدراك .

السُّؤَالُ الثَّالِثُ : لِمَ قَالَ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَقُلْ إِلَى ذِكْرِ رَحْمَةِ اللَّهِ ؟

وَالْجَوَابُ : أَنَّ مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ لأَجْلِ رَحْمَتِهِ فَهُوَ مَا أَحَبَّ اللَّهَ ، وَإِنَّمَا أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَهُ ، وَأَمَّا مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ لا لِشَيْءٍ سِوَاهُ فَهَذَا هُوَ الْمُحِبُّ الْمُحِقُّ وَهُوَ الدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ ، فَلِهَذَا السَّبَبِ لَمْ يَقُلْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ رَحْمَةِ اللَّهِ ، بَلْ قَالَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ»[1] . في قوله : «من أحبَّ الله لأجل رحمته فهو ما أحبّ الله» نظرٌ ففيه غلوٌ ، فرحمته صفته ، والإيغال في مثل هذا ممّا أرغب عنه .

وتلحظ أنه تعالى طوَى التَّصريحُ في جانب الخشية التّصريح بالقلوب ، ونَصَّ على الجلودِ : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (الزمر:٢٣) فلم يقل : «تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ وقلوب الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» ؛ ذلك أنّ اقشعرارَ الجلود لا يكون إلاّ إذا بلغت الخشية في القلبِ مبلغًا فتيًا يتجلّى أثره في الجلودِ ، فاقشعرار الجلود لازمٌ عن وجل القلوب الّذي تلزمه قشعريرة في

(١) مفاتيح الغيب للرازيّ ٢٦/٤٤٧ ، ٤٤٨ .

الجلد غالبًا ، فكأنَّ ذكرَه كنايةٌ عن ملزومه : (قشعريرة القلوب) ولم يسلك سبيل الكناية في باب «اللين» ، بلْ نصّ على اللازم والملزوم معًا فقال : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ لأن التّصريح أسبق حضورًا ، وأنجع في أفئدة كثيرٍ من التلويح ، فالتلويح طعام النّبلاء ، بينا الدّهماء أرغب في التّصريح ، فكان من قبيل البرّ بعباده والرّحمة بهم أن جاء في باب «الرّجاء» بهما معًا ترغيبًا لهم في الإقبال على ذكر الله ـ تعالى ـ ، وحضوره في الأفئدة ، ليكون لها من حضورِه فيها ما يعصِمها من أن تـزيـغ ، ولها مـنـه ما يذكّيها ويثورها ، فتنهض ، فإنَّ أكثر القلوبِ إلى الجمالِ أذهب وفيه أرغب .

ألا ترَى أنّه من فيض اسمه البَرّ الرّحيم استفتح أمّ القرآن بقوله سبْحانَه وتعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:٢-٣) فساقنا إليه بجمال ربوبيته ، وحذرنا من أن نفسق عن الفسطاط ، فقال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:٤) .

ومن السّنة البيانية للقرآن أنّه يذهب إلى الجمع بين الملزوم واللازم معًا تصريحا ، ليقررهما معا في الأفئدة على درجةٍ سواء كما تراه في مثل قولـه تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة:١٨٥) ، وكان يمكن في غير القرآن أن يقال : ما يريد بكم إلا اليسر .

ويـذهـب الفخر الرّازي إلى أنّه قَالَ فِي جَانِبِ الْخَوْفِ قُشَعْرِيرَةُ الْجُلُودِ فَقَطْ ، وَفِي جَانِبِ الرَّجَاءِ لِينُ الْجُلُودِ وَالْقُلُوبِ مَعًا ؛ لأَنَّ الْمُكَاشَفَةَ فِي مَقَامِ الرَّجَاءِ أَكْمَلُ مِنْهَا فِي مَقَامِ الْخَوْفِ ، لأَنَّ الْخَيْرَ مَطْلُوبٌ بِالذَّاتِ وَالشَّرَّ مَطْلُوبٌ بِالْعَرَضِ ، وَمَحَلُّ الْمُكَاشَفَاتِ هُوَ الْقُلُوبُ وَالأَرْوَاحُ»[1] .

---

(١) ينظر : مفاتيح الغيب للرازي ٢٦/٤٤٨ .

ولك أن تذهب مع الطاهر ابن عاشور إلى أنّه «إِنَّمَا جُمِعَ بَيْنَ الْجُلُودِ وَالْقُلُوبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ، وَلَمْ يُكْتَفَ بِأَحَدِ الأَمْرَيْنِ عَنِ الآخَرِ كَمَا اكْتُفِيَ فِي قَوْلِهِ : تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ لأَنَّ اقْشِعْرَارَ الْجُلُودِ حَالَةٌ طَارِئَةٌ عَلَيْهَا لا يَكُونُ إِلا مِنْ وَجَلِ الْقُلُوبِ وَرَوْعَتِهَا فَكُنِّيَ بِهِ عَنْ تِلْكَ الرَّوْعَةِ .

وَأَمَّا لِينُ الْجُلُودِ عَقِبَ تِلْكَ الْقُشَعْرِيرَةِ فَهُوَ رُجُوعُ الْجُلُودِ إِلَى حَالَتِهَا السَّابِقَةِ قَبْلَ اقْشِعْرَارِهَا ، وَذَلِكَ قَدْ يَحْصُلُ عَنْ تَنَاسٍ أَوْ تَشَاغُلٍ بَعْدَ تِلْكَ الرَّوْعَةِ ، فَعُطِفَ عَلَيْهِ لِينَ الْقُلُوبِ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لين خاص ناشئ عَنِ اطْمِئْنَانِ الْقُلُوبِ بِالذِّكْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨) ، وَلَيْسَ مُجَرَّدُ رُجُوعِ الْجُلُودِ إِلَى حَالَتِهَا الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الْقُشَعْرِيرَةِ .

وَلَمْ يُكْتَفَ بِذِكْرِ لِينِ الْقُلُوب عَن لين الْجُلُودِ لأَنَّهُ قُصِدَ أَنَّ لِينَ الْقُلُوبِ أَفْعَمَهَا حَتَّى ظَهَرَ أَثَرُهُ عَلَى ظَاهِرِ الْجُلُودِ»[1] .

وقدَّم القول في «الاقشعرار» على «اللّين» ، لأنّه الأولَى بالعَبد في مسيرِه في الدُّنيا ، ولُيناظرَ تقديمَ «العبادةِ» على «الاستعانةِ» في سُورة «الفاتحة» فهذا تناظر في الأسلوب .

المحور الرابع : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ (الأنعام:٨٨)

حين يلقِي القلبُ سَمعه إلى قوله تَعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ بما جاءت عليه الجملة من إعراب باسم الإشارة (ذلك) ، والإخبار بالمصدر(هدى) وإضافته إلى اسم الجلالة (الله) الجامع لكلّ أسمائه الحسنى ما علِمنا منها وما لم نعلمْ ، حين يُلقِي القلبُ السّمعَ إلى هذا البيان عن ما نزله الله ـ سبْحانَه

(١) التحرير والتنوير . ٢٣/٣٩٠ تأليف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر ـ تونس ، ١٩٨٤ هـ .

وتعالى ـ على عبدِه ورسُوله سيّدنا ـ محمّد صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ يدرك ذلك القلبُ عظيمَ ما يحمله هذا الحديث المنزلُه الله ـ سبْحانَه وتعالى ـ من صنوف الهُدَى التي ليس فوقها ، فقوله (ذلك) هاد إلى علوّ قدره ، وأنّه مهما بلغ المرءُ مِن تصاعدٍ وتغورٍ وتمدّدٍ في استدراك هذا الهُدى ، فإنّ من وراء ما بلغ آفاقًا ومرامًا لا قبلَ له بها .

وكأنّي ألمح في دلالة الإعراب بـ(ذلك) هنا ما ذكره ابن مسعود ـ رَضِيَ اللهُ عَنه ـ موقوفا في حلية القرآن من أنّ عجائبه لا تنقضي ، وأنّه لا يَخلَق عَلى كثرةِ الرَّدّ ، ولا تشبع منه العلماء ، فهو من بحر اسم الإشارة (ذلك) في هذه الجملة القُرآنية . وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ قرين قوله سبْحانَه وتعالى في فاتحةِ سُورةِ البقرة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢).

وفي الإعراب بالمصدر (هدًى) دلالةٌ على كمال الهدى فيه ، وفي إضافته إلى اسم الجلالة دلالةٌ على أنّه هدًى ليس كمثلِه هدًى ، ولم يكن له كفوًا هدًى ، فمن ابتغى الهُدَى في غيرِه أضلّه الله ـ سبْحانَه وتعالى ـ وفي إضافته إلى اسم الجلالة دلالة ـ أيضًا ـ على أنه الكامل في الهدى وأنه لا ريب فيه ، فإنه هدى الله ، وأنه لن يكون إلاّ للمتقين صراط المغضوب عليهم وصراط الضالين ، فإن الله أعلم حيث يجعل هداه .

المحور الخامس :

﴿ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر:٢٣)

هذا المحور يعلُو فيه جلالُ الإلهية ظهوراً ، فعِزّ الإلهية جدّ ظاهر ، بعثًا للعبادِ إلى العِرفان بالسَّبيل إلى تحقيق شيْءٍ من ذلك الهُدى الذي ليس كمثلِه هدًى . هداهم إلى أنّ مَن شاء شيْئًا منه ، فليس من سبيل إلى تحصيلِه إلا الالتجاء إلى المُتفرد به ، فهو تَعالَى الذي ﴿ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ الهداية هنا هـداية إعـانة وتوفيق ، لا هداية إبانة وإعـلام ، فذلك مبذولٌ للنّاسِ جميعًا :

﴿ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد: ١٠) ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت: ١٧) .

فمن تعرّض لهداية الإعانة صادقًا متهيئًا لذلك كان له مِنه جَلَّ جلاله نصيبٌ على قدر صِدقه وتعرّضِه وتهيئهِ ، ومن لم يفعلْ فلا سبيلَ له إِلَى أن يجدَ شيئًا من الهُدى عند غيرِه ، وبهذا حثّ على كمال إسلام الوجه لله ـ سبْحانَه وتعالى ـ ، وصرف كلّ العزائمِ إليْه ، والإعراضِ عن كل من دونه عَزَّ وَعَلا .

كذلك يتبيَّن لك ما في هذه الآية من دلائل ظاهرة جلية فتية على أنّ القرآن الكريم محيطٌ بكمال بلاغةِ تناسبِه ، وإنّ هذه البلاغة عَمودٌ من عُمد إعجازِه ، وأنّ من النّصِيحة لكتابِ الله ـ جَلَّ جلاله ـ الاعتناء بفقهِها وفهمِها ، ومن النَّصيحة للمسلمين بل للإنسانيّة جمعاء إبراز معالمِ هذه البلاغةِ وملامحِها ، لِما في ذلك من تَعبيدِ الطَّريقِ إلى اتخاذِ هذا الكتابِ منهاجَ حياة . وهذا لا يتحقَّق بالوقوف عند تلاوةِ كلماتِه ، وجعل تلاوته عملا ليس من ورائِه شيْءٌ ، ففي ذلك تعطيل للأمر بتدبره :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩) .

والتدبُّر لا يكون إلاّ لما هو مكنون في الكلم من المعاني ، ومن ثمّ كان المبتغى بالتدبر هو المعنى القرآني الكريم ، وهذا هو مناط البركة الرئيس . وهذا ما كان عطاء الله ـ سبْحانَه وتعالى ـ العبد على كل حرفٍ من حروف صورة المعنى يرتله عشر حسنات إلى سبعِمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة ، فكيف عطاؤه على فهم معانيه الّتي هي مناط الإعجاز ، ومناط الهدَى ، ومناط البركة .

* * *

المعقد الثالث
العواصِم مِن القواصِم
(المنقذ من الضّلال)

الأعمالُ الجِسامُ تُحيطُ بالقائم لها ما يُمكنُ لها أن تعيقَ سعيَه إلى تحقيقِ مقاصِده ، وهذا ما نفهمه من أمر الله - تعالى - مَن شاء أن يتلو القرآن أن يعوذ بِه من الشّيطان الرّجيم : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ (النحل:٩٨-١٠٠) ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

(الأعراف:٢٠٠-٢٠٢) .

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(فصلت:٣٦) .

في هذا الأمر هداية إلى أنَّ على المرْءِ أن يحتاط ، فيتّقِي ما يمكن أن يعرقل سعيه ، فليس المهم وحده أن تهيئَ الوسائل الّتي تبلغُ بها غايتك ، بل من المهمّ أيضًا أن تميطَ الأذى عن الطّريقِ ، وأن يكونَ لك ما يعصِمك ممّا يُعيقك أو يعرقل سعيك . فتعبِيد الطّريق كمثل إعداد الرّاحلة والزّاد .



ذلك هدى الله ـ تعالى ـ لعباده ، سواءٌ كان هذا في أمرٍ من أمور الدّنيا الصّرفة ، أو فِي أمرٍ من أمور الدّنيا المفضِي إلى أمرٍ في الآخرة ، أَو كان أمرًا منْ أمور الآخرة .

مِن ثَمّ كان حرًى أن أَلْتَفِتَ إلى التّذكير بالعواصِم من القواصم في سعينا إلى تلقّي المعنى القرآني فقهًا ، ثمّ فهمًا في سياقِ السّورة .

العواصِم من القواصِم في باب التلقّي عن الله ـ سُبْحانَه وَتَعَالَى ـ جدُّ عديدةٍ ، يُمكن إجمالُها في كلّياتٍ يُغنِي استحضارُها في الفؤاد مع التفكّر والتّبصّر عن تفصيل القول فيها .

« الكليّة الأولى : عواصِمُ تتعلّقُ بالقولِ في شأنِ مُنزِّلِ هذا الكتابِ سُبْحانَه وَتَعَالَى ».

« والكلية الثَّانية : عواصِمُ تتعلّقُ بالقولِ في شأن الكتابِ نفسِه ».

« والكُليّة الثّالثة : عواصِمُ تتعلّق بمقاصِد هذا الكتابِ ».

« والكُلّيّة الرَّابعة : عواصِمُ تتعلقُ باللسانِ الذي أبان بِه هذا الكتابُ عن معانيه ».

الكُليّة الأولى :

عواصِمُ تتعلق بالقول في شأن منزّلِ هذا القرآن .

كان من فيضِ رحمة الله ـ تعالى ـ بنا استفتاحه كتابَه المنزل على سيّدنا محمّد ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبه وسَلّم ـ ببيان صِفاتِه ، فقال ﷻ :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ١-٤) .

ذلك الاستهلالُ المبينُ عن صِفات الله الحُسنى ، فيه هداية إلى أنّ من شاء أن يقرأ معانِي الهدى من هذا الكتاب عَلَيْهِ أن يستحضرَ هذه الصّفاتِ ، حتى لا يرد على قلبه ما لا يتلاءم مع هذه الصفات ، استهلاله بأنه ﷻ مستحقٌّ للحمد لذاتِه ولصِفاتِه وأفعالِه ، فيه من عصمة الفؤاد المستحضر هذه من أن يخطر عليْه ما لا يليقُ بهذه الصّفات الحسنَى .

وأنت إذا ما تبصَّرتَ رأيتَ أنه ﷻ يستهلّ بيانه بما كان جمالُ الرُّبوبيّةِ فيه أجلى وأظهر وأسبقُ إدراكًا من جلالِ الألوهيّةِ تأنيسًا وتحببًا ، ليقبل الفؤاد المرتِّل المستطعِم إقبالَ محبة قانتة .

ومثل هذا الإقبال هو الأنجعُ ، يرَى أثره على من أنعم به الله ـ تعالى ـ عليه في علاقتِه بربّه ﷻ وبنفسِه وبالحياة كونًا وإنسانًا .

هذه الصِفاتُ الّتِي ذكرَها ﷻ هُنا هي جماعُ صِفاتِه الحُسنَى الّتِي ذَكرها في القُرآن الكريم ، لا تكادُ صِفة مِن صفاته ﷻ المذكورة بعد في سائرِ القرآن إلاّ وهي وثيقة العلاقة بصفةٍ من صفاتِه المذكورة في مستهل سورةِ «الفاتِحة».

وهذا يهدِي القارئ إلى أن يكونَ المرْءُ في تلقيه المعنى القرآنيّ في سياق السّورةِ القائم له مستحضرًا هذه الصّفاتِ استحضارًا فاعلاً آخذا بجِماع فؤاده المهيمن على كلّ مدركاته الحسيّة وغير الحسيّة ، فلا ينتجُ تلقيه إلا ما هو جدّ نسيبٍ لهذه الصّفاتِ .

وممّا يعينك على أن يتلقّى فؤادُك من معاني الهدَى ما هو حاملك إلى مقام (المعية الربانية) : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ (النحل:١٢٨) و﴿ **وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب** ﴾ (العلق:١٩) .

أن تستحضر ما يذكره الحقّ ﷻ من صفاته ، وهو ينبِئُ عن تنزيله القرآن : ﴿ **الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ**

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾

(آل عمران: ١-٤) .

أبانَ أن المُنَزِّلَ هذا الكتابَ هو الله الواحد الحيّ القيوم ، وبهذا يجعلك على معرفة بصفة المنزّل ، فلا يتأتّى منك في حالِ تبصُّرك وتدبرك آياتِه ما لا يليقُ بجلال مَن هذه صفاته .

وهذا يهدِي إلَى أنّ العلمَ بهذه الصّفاتِ : الواحد الحيّ القيوم في صدر هذا الكلام الحكيم مفاتحُ أبوابِ العلم بمعانيه في القرآن عامة ، وفي هذه السّورة : «سورة الاصطفاء « آل عمران » خاصّة ..

وفِي سُورةِ "هُود" يقول ﷻ : ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١) .

قوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ إعلامٌ بصفته ؛ لتكون واعيًا بما تقتضيه تلك الصّفة ، وأنت تقرأ هذا البيان وتفهم ما فيه ، ولاسيّما أنّه قال لك : ﴿ مِن لَّدُنْ ﴾ وهي كلمةٌ دالّة على عظيم غرابة ما فيه وعظمته ، فلا يقال « لدن » إلاّ لما كان غريبًا غير مألوف أو غير مبتذل ، بخلاف « عند » فإنّها تكون لما كان غريبًا وغير غريب ، فهي أعم من « لدن »[1] .

وفي سورة « السّجدة » يقول ﷻ : ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (السجدة: ١-٢) .

---

(١) يقُول الحراليّ مفرقًا بين مدلُول (عند) و(لدن) : «(عند)» كلمة تفهم اختصاص ما أُضيفت إلَيهِ بوجهٍ عامٍ ، وأخصّ منه (لدن) ، فلدن خاصتها ، و« عند » عامتها كالذي يملك الشيءَ ، فهو عنده ، وإن لم يكن في حضرتِه « (تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير ، ص ٢١٨ ، أو تفسير نظم الدرر فِي تناسب الآيات والسور . برهان الدين البقاعي (ت : ٨٨٥هـ) ١/١٣٥ .

فخصائص الرّبوبيّة العامة وهي ربوبية رعاية وحماية وعزّةٍ تستصحبُ في تلقّي المعنى القرآني في هذه السّورة خاصة ، وفي القرآن الكريم عامّةً .

وفي سورة «يس» يقول ﷻ : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (يس: ١-٥) .

جمع بين هذين الاسمين : «العزيز» و«الرحيم» ليستحضر في فؤادك جلال الألوهية وسلطانها : «العزيز» وجمال الربوبية وإحسانها «الرّحيم» ، وهو ما يهديك إلى استبصار معالم هذين في معانِي آيات السّورة .

وفي سورة «الزّمر» يقولُ ﷻ : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (الزمر: ١) .

جمع لك هنا بين اسمه «العزيز» واسمه «الحكيم» لِيُرِيَ فؤادك أنّ عزَّته ليست تسلطًا بل هي عزةٌ تستقيمُ بها حركة الحياة كونًا ، وإنسانًا ، فهو العزيز المقتدر الّذي لا ينازع ، ولا يسلّط ذلك على العبادِ ، بل هو يُخضِع العالمين لسلطان عزِّه بحكمةٍ تحقّق لهم ما ينفعُهم إن استقاموا لسلطانِه .

واسمُه «العزيز» أكثر ما يُقرن باسمه «الحكيم» واسمه «الرّحيم» ، والعلاقةُ بين اسْمِه «الحكيم» واسْمِهِ «الرّحيم» قويّة جليَّة قريبة الإدراك ، وهذا يهدِيك إِلَى ما بيْن سورة «يس» وسُورة «الزّمر» من مناطات اتفاق وافتراق اجتمعا فِي الإشارة باسِمه «العزيز» ثُمّ كان لكلٍّ معه اسمٌ على ما يُمَيِّز كلَّ سورة ، في «يس» ما يُشيرُ إليه اسمه «الرّحيم» ، وفي سورة «الزُّمر» ما يشيرُ إليْه اسمه «الحكيم» فلكلٍّ عطاؤه الحاضر فِي مضمون كلٍّ في سُورتِه ..

وفِي سورة «غافر» يقول ﷻ : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ

ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (غافر:١-٣) .

تأتي سورة «غافر» رأس السور المسماة بـ«آل حم» وقد جاء في فاتحتها الإنباء عن الله ـ تعالى ـ المنزّل كتابه بسبعة أسماء : اللهِ ، العَزِيزِ ، العَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنبِ ، قَابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ العِقَابِ ، ذِي الطَّوْلِ .

وهذا ما ليس له نظير في سائر القرآن ، مما يحمل المتدبر إلى أن يتلبثّ ، لعله يبصر شيئًا ممّا تحمله هذه السورة من معاني الهدى اقتَضى هذه الفرادة في الاستهلال .

ويحسن بك أن تتبصر ما جاء به شيخنا أبو موسى في تأويله فاتحة هذه السورة ، وخصوصية الإنباء بهذه الأسماء الحسنى فيها ، وليس يتسع المقام لأحمل إليك مقالته ، ولا يليقنَّ أن أوجزها لك[1] .

وفي سورة «فصلت» التالية سورة «غافر» جاء الإنباء باسمه «الرّحمن الرّحيم» : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت:١-٣) .

وهذا يلفتك إلى أنه لا بدَّ أن يكون في سورة «فصلت» ما ليس في سورة «غافر» اقتضَى الإعراب بهذين الاسمين : «الرحمن» ، «الرحيم» .

يقول شيخنا : «جاء الحديثُ عن الذي أنزلَ في سورة «فصّلت» بهذه الكلمات ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فذكر الرّحمة وكرّرها ، ولم يذكر ما هو من

(١) آل حم : غافر ـ فصلت : دراسة في أسرار البيان . ص ٢٠-٢٧ مكتبة وهبة ـ القاهرة ط . الأولى ، ١٤٣٠هـ .

جنسِ «شديد العقاب» ، فآذن ذلك بأن جذر السورة يغاير مغايرة ما جذر سورة «غافر» ، وإذا كنا نستطيع أن نرجع بكلّ ما في «غافر» إلى غورِ هاتين الكلمتين : ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (غافر:٢) فإننا نستطيع أن نرجعَ بكلّ ما فِي سورة «فصلت» إلى غورِ هاتيْن الكلمتين : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:٣) ....

ثُمّ يذكر مقالة «الرّازيّ» : «إنّ الفعل المقرون بالصّفة لابدّ أن يكونَ مناسبًا لتلك الصفة» ، ويبيّن الشّيخُ مقالةَ الإمامِ الرَّازي بأنّه «يعنِي أن تنزيل هذه السّورة مقرونًا بِصفةِ الرحمةِ يعني أن تكونَ السّورةُ مناسبة لصفةِ الرَّحمةِ ...»[1] .

وإذا ما كان ذلك فإنّه لَيهدِي المتلقّي إلى أن يستبصر خصائص الاسم المذكور من أسماء الله الحسنى في المعنى الّذي يتلقاه فؤاده بالتّبصر ، فذلك مفتاح من جهةٍ ومعيارٌ من أخرى .

وجاء في سورة «فصلت» أيضًا قوله ﷻ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(فصلت:٤١-٤٢) .

قوله تعالى ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ هادٍ إلى استبصار الحكمة وفيضِ النّعم المستوجب حمده ﷻ ومن أجلها تنزيل الكتاب العزيز .

وكذلك استبصار حمده الطّائعين من عبادِه بما تفضل به عليهم من المثوبة العاجلة في الدنيا ، والآجلة في الآخرة ، فالحميد المحمود لذاته وصفاتِه ، وهو الحامد بالمثوبة وحسين النعوت من أطاعه من عبادِه .

---

(١) آل حم : غافر ـ فصلت : دراسة في أسرار البيان ، ص ٣١١-٣١٣ .

يقول شيخنا أبو موسى : « قوله : ﴿ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ يعني أنه نزّله ﷻ بحكمةٍ ، وما كان مِن لدن حكيمٍ ، فليس فيه مدخلٌ لباطلٍ ، ولا يأتيه باطلٌ ، ولا يقدح فيه إلحاد ملحدٍ ، وإبطال مبطل ، و« الحميد » هو الذي يحمده خلقه على نعمه الّتي لا تحصَى ، وأجلّها وأعلاها نعمةُ تنزيل الكتابِ .

وموقعه هنا للإشارةِ إلى أنَّ الّذين يلحدون في الكتابِ ، ويكفرون بالكتابِ قابلوا النّعمةَ الموجبة للحمدِ والثناء بالكفرِ والإلحادِ ، وفيه لومٌ خفيٌّ وتشهيرٌ خفيٌّ ، وأنّ الأمرَ تجاوز فسادَ العقائدِ إلى فساد الطّباعِ والكفر بموجبِ الحمدِ . وقد جاءَ هنا قوله : ﴿ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ وفي « الشّعراء » : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٣) وفي « طـه » : ﴿ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه:٤-٥) وفِي أوّل السورة : ﴿ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (فصلت:٢) .

وكلّ هذا له مقاماتٌ تقتضِيه ، والكلامُ الموجز فيها سهلٌ ، والكشف عن حقيقتها يحتاج إلى مزيدٍ من المراجعةِ . وهذا بابٌ من أبوابِ فقهِ البيانِ القرآني لم نشبعه ... »[1] .

يتبيّن لك أهمية الاعتناء بفقه أسماء الله الحسني في سياقات الإنباء عن تنزيل القرآن أو عن خصائصِه . فاستحضارها في الفؤاد معينٌ على حسن فقه المعنى القرآنيّ الكريم .

كلُّ هذا يؤكّدُ وجوبَ العلمَ بحال المتكلم بهذا البيان وصِفاتِه ، ليسترشِدَ بالعلمِ بذلِكَ إلى فقه ما أودعَه ﷻ في بيانِه من دقيقِ المعانِي وجليلِها .

---

(١) آل حم : غافر ـ فصلت : دراسة في أسرار البيان ، ص ٤٤٩-٤٥٠ .

وهذا الذي قلت ليس أمرًا ابتدعته ، بل إن من أصـولِ الـنَّهج العربـيُّ المُسـلم في فقه البيان الوقوفَ على حالِ المُتكلم من بَعد التَّيقن بِنسبةِ هـذا البيـان إليـه ، فالدَّرسُ العربيُّ أو القراءة العربيّة لأيَّ بيانٍ لا تكونُ قِراءةً عربيّةً إذا مَـا تَغافَلَـتْ عَنْ مَعرفَةِ مَن ينسَب إلَيْه ذَلِك البيان ، فهذِه المعرفة مِفتاحٌ مِن مفاتحِ الإحسـانِ في الدَّرسِ والقراءةِ ، ذلِك أنَّ كلّ كلامٍ هوَ قائمٌ مِمّـن يَـتكلّم بِـه ، فهـو ولِيـده ، ونتاجه يحمله منه أكثر ممّا يحمله ولِيده وأعظم ، ومن ثَمّ يكون العرفان بحـالِ الوالدِ سبيلاً إلى حسنِ المعرفَةِ بحالِ الولِيدِ ، ليس ثَم فرقٌ جوهريّ بيْن تناسـلِ البيان من المتكلّمِ بِه ، وتناسلِ الولد منْ أبويْهِ .

وعلم الفراسَةِ في أنسابِ الإنسان يعادلُه علم الفراسة البيانِيةِ الـذي يـدركُ بِهـا صَاحبها المتكلّم قائمًا في كلامِه .

ومن ثَمَّ تجد أهل القُرآن تلاوةً وتدبّرًا ومنهاجَ حياةٍ يبصـرون جـلالَ الإلهيّـة وجمال الرُّبوبيّة فيما يتلون ، يشهدون صِفاتِ الله ﷻ في بيانِـه ، وهـذا هـو مِـن أعظم البراهين على أنّ القرآن كلمةُ الله ﷻ .

العلمُ بالمتكلم بالبيان الذي هو مناط الدّراسة والقراءة أصلٌ عظيمٌ من أصولِ الدّراسةِ والقراءةِ العربيّة ، وأحقُّ مَن يؤخذ بهذا الأصل في دراسة بيانـه إنّمـا هـو الله ﷻ ورسوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ .

وغيرُ قليلٍ من أولئك الّذين يُحرِّفون الكلمَ عَن مواضِـعه في تـأويلِهم كـلامَ الله ﷻ قـديمًا وحـديثًا ، كـان مـن عَوامـلِ تـردّيهم في هـذه الجَريـرةِ المُوبقَـةَ تغافُلُهم أوجهلُهم بصِفاتِ الله ﷻ أوالتحاجُز عن استحضـارِها حـال التّأويـل ، لأنَّ استحضار صِفاتِه عَزَّ وعلا حال التّأويـل تجعـلُ المـرء ينظـر : أهـذا الـذي انتهى إليه يتوافقُ مع صِفاتِ الله ﷻ وأسمائِه الحُسنى ؟ فإن لم ير هـذا التّوافـق فرّ من ذلك التّأويل فرارًا شديدًا .

وهذا ما يحملنا إلى الذهاب بوجوب البصر بأسماء الله - تعالَى - وصِفاته وأفعاله على مذهب أهل السنة والجماعة الأعيان ، وجعل ذلك أصلا من أصول التكوين العلمي والإيماني لكلّ باحثٍ في بلاغةِ القرآن الكريم .

والتقصير في هذا لا محالة يؤدي إلى التعرض لكثير من الغفلة البغيضة العقبى .

وعظم الانحرافات التأويلية لبيان القرآن كان مخرجها من التقصير في العلم بأسماءِ الله ﷻ وصفاته وأفعاله على مذهبِ السلفِ: أهلِ السّنة والجَماعة الذين كانوا على هدي سيّدنا رسول الله - صَلى الله عَلَيْـهِ وَعَلَـى آلِـه وَصَحبِه وسَلّم - وأصحابِه - رَضِيَ اللهُ عَنهُم - .

وإذا ما كان الإمام أحمد روى في مسنده بإسناد حسن عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ ، عَنْ عَلِيٍّ بن أبي طالب - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا حُدِّثْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحبِه وسَلّم - بِحَدِيثٍ ، فَظُنُّوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَهْدَى ، وَالَّذِي هُوَ أَتْقَى ، وَالَّذِي هُوَ أَهْيَا » (حديث رقم : ١٠٨٢) فذلك الأولى به كتاب الله ﷻ ، ولن يكون لك ذلك إلاّ إذا استحضر فؤادك أسماء الله الحسنى ، وصفاته المثلَى .

مُحصّل القول : العلم بالله ﷻ وما يجبُ له من الكمال جلالاً وجمالاً ، والعلم بما لا يجوز عليْه تقديسًا وإعظامًا أمرٌ هو فرضٌ على كلِّ مُسلمٍ ولا سِيّما مَن يقُومُ إلى فقهِ بلاغةِ القُرآنِ الكَريمِ .

وهذا الضّابطِ مِن ضَوابطِ الإحسانِ في فقهِ بلاغة القرآن مَن قصر في تحقيقِ استحقاقته فقد بنى أمرَه كلّه على أساس واهٍ ، وذلك الّذي لا يرضاه عاقل من غيرِه ، فكيف يرضاه من نفسِه ولنفسِه ؟!

الكليّة الثّانية :

عواصِمُ تتعلّقُ بالقولِ في شأن الكتابِ نفسِه .

إذا ما كان القُرآنُ الكريم قد استفتح سورة الفاتحة بما عرفنا بالله ـ تعالى ـ وصِفاته العظمى ، فاستنبطنا الكلية الأولَى لإحسانِ فقه المعنى القُرآنيّ ، فإنّه فِي مفتتح سورة «البقرة» الّتِي هِي مُفتتحُ تفصيلِ مَا أُحكِمَ فِي سُورةِ «الفاتحة» أبانَ لنا عَن ذلك القُرآن الكريمِ في جُمَل ثلاث :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) .

فكانتْ هذه الجملُ الثّلاث مفاتح المعرفة بالقرآن الكريم مِن جهةٍ ، ومبينة عَن المقصدِ الكليّ من تنزيلِه على رسول الله سيّدنا محمّدٍ ـ صَلّى اللهُ علَيْه وعلَى آلِه وصَحبِه وسَلّمَ ـ للناسِ :

الجملة الأولى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أنبأتنا بعلوّ كمال القرآن الكريم فيما يكون له ، وببُعدِ منزلته وقدره وببعدِه عن أن يكونَ كمثله كتابٍ آخر ، فهو الكتاب الكامل الجامع ما فيه تحقيق الهداية إلى الصّراط المستقيم المرغوب فيها في قولِه ﷻ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٦) ، فكأنّه لما قيل : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ استجيب هذا الدّعاءُ في فاتحة سُورة «البقرة» فَقِيلَ له : الصّراط المستقيم الّذي طلبت الهدايَةَ له هو ذلك الكتاب ، ففي اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إيماءٌ إلى ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ في سورة الفاتحة.

الجملة الثانية : ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾ في هذه الجملة إنباءٌ بأنَّ ذلك الكتابَ لمّا كان جامعًا ، عَلِيَّ الشّانِ ، بعيدَ المنزلةِ كاملاً في الصّفة المخبرِ بها عن اسم الإشارة ، كان هذا منتجًا عصمته من أن يكون فيه ما يمكن لمنصِفٍ إن فتّشه بموضوعيّة وتجرّد كامل أن يجِدَ فيه أدنَى شيْءٍ يمكن أن يرتابَ فيه .

هو لا ينفي بقولِه تعالى ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أن أحدًا لا يرتاب فيه ، كيف والّذين يرتابون فيه ، بل ينكرونه ، بل يسفهون المؤمنين به أضعاف أضعاف من يؤمنون بِه؟

قوله تعالى ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي : هو ليس فيه شيءٌ ما يمكن أن يرتابَ فيه منْصِفٌ ، ففي هذا دعوةٌ وتحدٍّ : دعوةٌ إلى أن يعمد كلُّ منصفٍ متجرِّدٍ باحثٍ عن الحقيقة متطهّرٍ من كلّ شبهةٍ وغرضٍ غير بلوغ الحقيقة إلى أن يفتّشه وأن يجتهدَ في ذلك ، وأن يدعوَ شركاءَه مِن الثقلين جميعًا ، فلن يجدوا البتّة أدنَى شيْءٍ يُمكن أن يرتابَ فيه ، وهذا وجه من وجوه التحدي تجتمع إلى التّحدّي بأن يأتي أحدٌ بسورة منه .

وغير قليل ممّن يتكلم في تحدّي القرآن الثقلين ، لا يلفتُ إلى مثل هذه الآية ، وهي من أقوى الأدلة على أنه كلمة الله ﷻ ومثلها قوله ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾

(البقرة:٢٤) .

ومَن شاء أن يستجمع من القرآن الكلمات والجمل والآيات الّتي يتحدّى بها الله ﷻ ، والدّالة على أنّ القرآن كلمة الله ـ تعالى ـ لاجتمع له من ذلك الوفير النّضير .

الجملة الثالثة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ جاءت تنبِئ بما جاء له ذلك الكتاب ، العليّ القدرِ ، البعيد المنزلة ، المنزّه عن أن يكون فيه ما يمكن أن يحرِّك أثارةً من الرَّيبِ فيه في صَدر أيّ مُنصفٍ باحثٍ عن الحَقِيقَةَ ، إنّما هو هُدى للمتقين صراطَ الفريقين الآخرين في سورة الفاتحة «المغضُوبِ علْيهم» و«الضالين» : الفريق الأول سلك سبيل العلْم بغير عملٍ بِه فغضِبِ اللهَ ـ تعالى ـ علْيه .

والفَريق الآخَر سلك سبيل العمل بغير تحقق علميّ بصَواب ما يَعمل ، فكان عمله هباءً منثُوراً .

منْ يتقّ هذين الصّراطين : العلم دونما عملٍ به ، والعمل بغير علْمٍ محقق ، يكون هذا القرآن هدًى لَه يهديه ، فيتسامى به إلى الدرجات العلى من الهداية ، فيبلغ به مقام الإحسان ويقيمه فيه ، فيعبد الله ﷻ كأنَّه يراهُ ، ثمَّ يرقى إلى مقام «الصّديقيّة» وهذا يُحقق له كمال المهابةِ في قلبِهِ ، يحجزه عن أن ينشغلَ بغيرِه ، فيكون محققًا ما أعلنه في مفتتحِ صَلاتِه " الله أكبر" ، وبهذا يكون محقّقًا كمال الإخلاص في العبادة ، وكمال الإخلاص في الاستعانة المقرّر في قلب سورة «الفاتحة : أم الكتاب» في قوله ﷻ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) ، فهذه الآية هي المحور الرّئيس الَّذِي ترتبط به كلُّ آيةٍ مِنْ آيات القرآن الكريم ، فمَا مِن آية من القرآن الكريم إلا معناها مِن مَعدِن معنى قوله ﷻ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

من الذي مَضَى يَتبيَّنُ لك أمران :

الأمرُ الأوّلُ : أن كلَّ معنى قرآنيّ إنّما معدنُه الذي يخرج منه ، ويرتبطُ به ارتباطًا وثيقاً محكمًا قولُه ﷻ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الذي جعله الحق تعالى بيْنه وبيْن عباده قسمين كما جاءت به السُّنَّة المطهّرة ، فمعيار قرآنيّة المعنى في تأويل أيَّة آية أوفهم أيّ حديث من أحاديث السُّنّة المطهرة بمعنى قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وتستطيع أن تقول : إنّ هذه الآية هي المفتاح العظيم لفهم أي آية قرآنية أو حديث نبوي .

الأمر الآخر : أنَّ كلّ معنى من معانى آيات القرآن الكريم فيه ما يحقّق شيئًا من ضروب الهدى إلى الصّراط المستقيم في إخلاص العبادة ، وإخلاص الاستعانة بالله ربّ العالمين والارتقاء بالعباد في مدارج الهداية ، فيبلغوا مقام «الصّديقيّة» ، وهو أعلى مقام يمكن لبشرٍغير نبيّ أن يبلغَه .

إنّ الوحي بيانًا وتبيينا له مقصدٌ كليٌّ متعيّنٌ هو هداية العباد على اختلاف

درجـاتهم إلى الصّـراط المستقيم في إخـلاص العبـادة ، وإخـلاص الاسـتعانة ليكونوا بحقٍّ عباد الرحمن ﷻ .

ومن ثَمَّ كَان القُرآن الكَرِيم الكتاب الخاتـم المهيـمـن عـلـى كلّ ما أنـزل الله ـ تعالى ـ لما فِيه تحقِيق مصالح العبادِ في معاشِهم ومعادِهم ، فوجبَ على كـلّ قـائمٍ لفقـه المعنَـى القرآنـيّ أن يضـبطَ حركتـه في تـدبّرِهِ ، لتجـري في سـياقِ المقصدِ الكليّ الأعظم لكتابِ اللهِ ﷻ .

وإذا ما كان اللهُ ﷻ في مفتتحِ سُورةِ البقرة قد أنبأ أنّ القُرآن هُدًى للمتّقين ، فإنه في آيات أُخر أنبأ أنّـه بيان وهدًى وموعظَةٌ ورحمة وبشرى وبصائر للنـاسِ وللمسلمين وللمؤمنين وللمحسنين ، وكلّ ذلك يستوجب على مـن قـام لتلقّـى معنى من معاني الهدى في كتاب الله العَلـي العظـيم أن يستبصـر في مـا قـام في فؤاده من تدبره معالم هذه الصّفات في ذلك المعنى ، فإن افتقدها فما الّذي قـام في قلبه من معاني القرآن ، فهذا معيار لا يضل صاحبه .

الله ﷻ يُصرّف البيان عن ما جـاء القُـرآن له ، ليتقـرَّر ذلـك في نفسِ كـلّ قارئٍ وسامعٍ ومتدبّرٍ ، فلا يرِد على قَلبِه معنًـى ممّـا يسـمع لا يكـون فيـه هـذه المقاصد : الهداية والبيانُ والموعظة والرَّحمة والبشرى والتبصرة .....

وليس من الإحسان أن يعمد المرء إلى التشوف إلى الارتقاء إلى مقـام تلقّـي المعنى القرآنيّ ، وهو لا يستوعي في فؤاده ترتيلاً وتبصّرًا واسـتطعامًا مـا قالـه الله ﷻ عن كتابِه ، وما قاله سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ عنه ، فليس ثمّ مبِينٌ عَن كتابِ الله ـ عَزَّ وجلّ ـ كمثل بيان الله ـ تعالى ـ عنه ، ثُمَّ تَبْيين سيّدنا رسول الله ـ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم ـ بيـانَ الله ـ تعالى ـ عنه وما بين البيانيين من إجمال وتفصيلٍ ، وتصريحٍ وتلويح .....

في الوعي بالبيانين عن القرآن : بيان الله ـ تعالى ـ وبيان رسوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ عونٌ بالغٌ على حسن التَّهيُّؤِ لتلقّي المعنى القرآنيّ تلقّيًا يدخِل صاحبَه في محبوبية اللهِ ـ تعالى ـ ، ولا تجدُ ما يفعل بك ذلك كمثلِ ما يفعله هذا الوعي بالبيانين عَن القرآن .

وحرًى بالعقلِ البلاغي العربيّ قبلَ أن يمارسَ الإبحارَ في تبصّر خصائص الإبانةِ القرآنيّةِ عنْ معانِي الهدَى أنْ يستفتِحَ أمرَه بتبصُّر خصائصِ الإبانةِ القرآنيّةِ عَن القرآن نفسِه ؛ لأنّ ذلك هو المُنير لفؤادِه السَّبيلِ .

* * *

الكُليّة الثّالثة :

عواصِمُ تتعلّق بمقاصِد هذا الكتابِ[1]

لا تجدُ متكلّما إلاّ ومِن وراءِ كلامِه مقصِدٌ يرمِي إليْه ، ومَغزى يغزو قلبَ السّامع لتقريرِه فيه وتفعيلِه ، ويتخذ مِن كلامِه وسيلةً إلى بلوغِه مقصِده ، وعلى قدرِ جلالِ المقصِدِ ، وأهمّيّةِ المَغزَى ، وشرفِ الغاية تكونُ العناية بالوسيلة : الكلامِ .

وفي هذا هدايةٌ للمتكلّم أن يجعلَ مِن نفسِه مليكًا لتلكَ الأدواتِ والوسائل الّتِي تحمِلُ إلى مقاصَده ، وأن يكونَ عليمًا بِمناهج توظيفِ هذه الوسائل ، واستخدامِها لبلوغ مقصدِه ومغزاه وغايتِه .

(١) يراد بالمقاصد ما يراعيه خطاب بيان الوحي قرآنا وسنة من المعاني والحكم تحقيقًا لمصالح العباد في معاشهم تيسيراً لطاعتهم ومعادهم تحقيقًا لفلاحهم فيه . ولعلمائنا نظر وسيعٌ متغورٌ في هذا الباب ، لا تكاد تجد له نظيراً عند غيرهم ، ولو أنّا أحسنا فقهه ، ونشره في ديارنا ، ثُم في ديار غيرنا لعلم الآخر قدرنا ، ولسعوا إلى الأخذ عنا ، لا أن نسعى إلى قَمّ فتاتِ موائدهم ، وإلى العبِّ من رجيع عقُولِهم .

وفي هذا ـ أيْضًا ـ هدايةٌ لِمن يُخاطب أو يستَمِع ، وعونٌ له على إدراك مرادات المتكلّمِ ومقاصده ، متى كان ذلك المتكلم قادرًا على أن يجعلَ بيانَه مبينًا عن تلك المقاصدِ إبانَةَ ظهورٍ وانكشافٍ ، أوْ إبانَة خفاءٍ واحتجابٍ ، فغير قليل لجوء المبِين إلى إخفاءِ مغازيه ومعانيه في أستار بيانِه لأمورٍ جليلةٍ يعرفها أهل فقهِ البيانِ .

وإذا ما كانَ فقهاء الشَّريعة قد عنوا بمدارسة مقاصدها في كليتها وتفصيلها ، فثَم مقاصد لمنهاج الإبانة عنْ معاني الهدَى أيًّا كان مجالها ونوعها ، وهذا ما يَجبُ أنْ يكونَ طَلِبَةَ العقل البلاغيِّ .

للبيان القرآني مناهج إبانة عن المعاني منظور فيها إلى شأن المعنى ، والمغزى من الإعرابِ عنه ، وهذا هو المستقضِي مناهج الإبانة عنه ، فحسنٌ أن نرصد منهاج الإبانة عن كلّ معنى كليّ ، ونبين عن مقتضيات هذا المنهج في الإفهام من واقع شأن المعنى ، فنحن ـ طلابَ العلم ببلاغة القرآن ـ عُنِينا باقتضاء شأن المتكلم ، وشأن المخاطب طريق الإبانة أكثر من اعتنائنا باقتضاء شأن المعنى طريقَ الإبانةِ عنه ، صحيحٌ أنهم يلتفتون إلى اقتضاء شأن الغرض من نحو المدح والتهديد ونحو ذلك ، لكنَّ المعنى المصوّر في باب الثناءِ ونحوه يحتاج إلى مزيد من الاعتناء باقتضاء شأنه منهاج إبانة ، ولو أنـّا عمدنا أولا إلى اقتضاء شأن الثَّناء على الله ـ سبْحانَه وتعالى ـ منهاج إبانة تصريحا أو تلويحًا ، بسطا أو قبضًا إقناعا عقليا أو إقناعًا نفسيًّا ... وَأَبَـنَّا عمَّا يقتضِي كلاًّ في سياقه من أمرٍ يرجعُ إلى طبيعة المعنى المثنى بِه على الله ـ تعالى ـ ، لكان لنا من وراء ذلك ما يطعم الفؤاد ما لم يكن قد طعمه من قبل ، ولكلّ مقام من مقامات الزلفَى إلى الله ـ تعالى ـ طعامه .

وكمْ من فؤادٍ له من تنغيم الأداء عطاءٌ قد لا يستشعره فؤادٌ آخر ، وكمْ من

فؤادٍ هو أطوع للإقناعِ النفسيّ منه إلى الإقناعِ العقلي ، وكمْ من فؤادٍ هو أرغب في عطاء التلويح منه إلى عطاءِ التّصريح ....

* * *

والعاصم الثّاني المندرج في الكلية الثّانية : العلمُ بكمال وتكامل بيان الوحي قُرآنًا وسُنّةً ، وما بينهما من قربى في منهج الإفهام .

من خصائص بيان القرآن الكريم أنّه لا يكتفي بذكر الشّيْءِ الواحد مرّة واحدة ، بل تراه يذكره أكثرَ من مرة وفي صور بيانيّة متنوعة ، يُسميها تصريفا : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (الإسراء:٤١) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الإسراء:٨٩) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف:٥٤) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (طه:١١٣) .

وهذا تجده يكثر فيما كان من الأصول الكليّة للإسلام كالتوحيد والبعث وغير ذلك ، بل إنّ حقيقة التّوحيد لتكادُ تجد بيان القرآن الكريم عنها قائما لك تصريحًا أو تلويحًا في أغلب آيات القرآن الكريم ، ممّا يجعلُ الإحاطة بآيات الوحدانيّة في دراسة واحدة أمرًا جدّ عسيرٍ .

ومن المعهود عند أهلِ القرآن تدبرًا وتأدبا أنّ القرآنُ الكريم ، وهو يصرّف بيانه عن المعنى الكليّ الواحد، إنّما يضيف جديدًا يتناسب مع سياق التّصريف، والمقام والمقصود الأعظم للسّورة الّتى يرد فيها ذلك التّصريف .

وهذا يستوجب أن يكونَ المتدبّرُ على وعي بمواقع التّصريف البيانيّ للمعنى الّذي هو بصدد تدبّره ، وأن يجمع صور التّصريف ، فينظر إليها نظرتين :

النّظرة الأولى : بحسب التّرتيب النّزولِيّ للآيات ، إذا ما أمكن التّحقق من ذلك ، وهو غيرُ متيقّن في كلّ آية .

والنّظرةُ الأُخرَى : بحسبِ ترتيبِ التّلاوة .

وأمرٌ آخرُ هو من كمال البيان القرآنيّ وتكامله ، أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضًا . « فما أُجمل في مكان فإنّه قد فسر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر »[1] .

وأنت إذا ما قرأت أول سورة « هود » سمعت الحقّ ذي الجَلالِ والإكْرَامِ يهدينا إلى ذلك : **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾** (هود:١) .

في التّفصيل تفسيرٌ لما أُحكم ، بل إنَّ سورةَ الفاتحة تجد ما جاءَ من بعدِها من السّور كالتّفسيرِ لما أحكمَ من معناها ، فكانت أمَّ الكتابِ .

فحريٌّ بمَن قام لفقه المعنى القُرآني أن تكُون له عناية بتتبع مواردِ هذا المعنى في سباقِهِ وفي لِحاقِهِ ، ليقف على ما جاء في كلٍّ وعلاقتِه بما هو قائم لفقهِهِ كيما يتحقّق له أمران كلّيان :

= الأوّل : اتقاءُ أن يفقهَ المعنى على نحو لا يتلاءمُ مع ما وردَ سباقِه أو لحاقِه . والقرآنُ جاءت معانيه متآخيةٌ (متشابهة) تشابهتْ فِي المقصدِ والمغزَى لا تَتناقضُ ولا تتعاندُ بل تجري إلى غايةٍ .

لِتنظر في قوله تعالى : **﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ**

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٦٣/١٣ ، وانظر في تفصيل ذلك : التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي . مكتبة وهبة ٤٠/١ .

وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٧) .

قوله ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ ﴾ يحتمل أن يكون على سبيل الصدقة نافلة ، وأن يكون على سبيل الزكاة فريضةً ؛ فلو أنّه قَال بالاحتمال الثّاني دون أن يمد بصره إلى لحاقِ الجملة ، ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ كان بهذا قد وقع في غير ما يليق بِهِ أن يقع فيه ، فقوله ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ قرينة لاحقة تهدِي إلى تحرير المعنى القرآني في ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ ﴾ ، سياق الآية كما ترَى قد هدى إلى المعنى المساقُ له البيان .

= الآخر : أن يستمدَّ من تلك المعاني السّابقة واللاحقة ما يمنحُه القدرةَ على أن يُبصرَ جوانبَ مِن المعنى ، ربّما كان سيغفُلُ عنها إذا لم يُراجع ما سبقَ ومَا لَحق ، ولذا نجدُ أهلَ العلم بالقرآن قد عُنُوا بعلمِ الوُجوه والنّظائر في باب معاني الكلم ، وهو علم سياقيّ في المقام الأول .

وحبذا مدّه إلى الوجوهِ والنَّظائر في مدلولاتِ التَّراكيب ، فذلك ممّا نفتقرُ إلى مزيد الاعتناءِ به فبه قد يبصر المرء جوانب قد يغفلُ عنها إن لم يهتدِ بما سبق وبما لحق ، وهذا يمنح اتساع المعنى القرآني في فؤاد المتلقي ، فأنت إذا ما عدت إلى الآية السّابقة ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ يتبيّن لك شيءٌ من اتّساع المعنى القرآني وتكامل وجوه تأويله .

أوّل ما يلقاك الاستهلال بتجريد الفؤاد من الرّؤية السّابقة للبرّ ، نفت الآية أن يكون « البر » تولية الوجه قبلَ المشرق والمغرب ، وأبانت عن تحقق حقيقته في أفعالٍ هي أبسط نفعًا ، وأنجع أثرًا في الأمّة .

بدأت بما هو الأساس الّذي يبنَى عليه كلّ عمل صالح، فلا يقبل الله ـ تعالى ـ عملا يجزِي عَلَيْهِ صاحبَه يوم القيامةِ مهما عظم نفعه النّاس إلا إذا كان مؤسَّسًا على هذا الّذي استهلّت به الآية : ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ (البقرة:١٧٧) .

وانظر كيف أنه لم يقل (الإيمان بالله) بل قال (مَن آمن) جعل المؤمن هو البَرّ، وكأنّ في وجوده مؤمنا برّ بنفسِه وبمن حوله، لأنّ رؤيته تدعو إلى البرّ .

عبر عن الفعل بفاعله، لبيان صيرورة الفعل متجسدًا في الفاعل من قوة تمكنه وكماله فيه، وهذا ضربٌ من الإبلاغ في وجوب الاعتناء بتحقيق الفعل وكماله، فأخبر عن المعنى (البِرّ) بالذّات (مَنْ آمن) وهذا عكسه قول الخنساء : (فإنّما هي أقبالٌ وإدبارُ) أخبرت عن الذّات (هي) بالمعنى (المصدر : إقبالٌ وإدبار) والأوَّل أوغلُ في الإبلاغ والتّمكين . وهذا ـ عندى ـ أعلَى وأولَى من تأويل : « برّمن آمن».

بدأ بالأصل الّذي تنْبى عَلَيْه الأعمال، فلفت بهذا إلى وجوب الاعتناء بتحقيق ذلك الفعل، والتوثق من كماله وحصانته ونقائه من كلّ شوبٍ، فهو أكثر أفعال العبد تعرّضًا لعبث الشّيطانِ، فإذا أمكنه النّفاذ فيه، وإيقاع ما يخدشه، فإنه من بعد يدع لك سائر الأعمال لا ينازعك فيها، لأنه استطاع أن يقوض الأساس الذي تبني عليه سائر الأعمال، فإيقاعه في صدر البيان هداية لنا ألا نتجاوزه إلى غيرِه من قبلِ أن نمكنه في أفئدتنا، وأن نطمئنّ إلى أنّه في عصمةٍ مَن أن يحومَ الشّيطان حولَ حماه، وأنّنا لا نفتأُ نتفقده بالرّعاية والحماية، فسائر الأعمال تقبل إن وقع فيها نقصٌ ما، بيْنا ذلك الفعل يردّ كلّه إذا ما وقع نقصٌ فيه أيّ نقصٍ . وهذا ما يغفلُ عنه كثيرٌ من النَّاسِ .

ويأتي بعد الإيمان ما هو أدلّ على كمالِه وتمكنه : التّطهر من عبودية القلبِ لما هو شقيق الرّوح « المال» ، والّذي من خصال العبد حبه حبًّا جمًّا متكاثرًا ،

فقال : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ (البقرة:١٧٧) .

تأمّل كيف أنّه عبر بقوله ﷻ ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ في جانب الصدقة النّافلة ، وعبَّر بقولِهِ تعالى ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فِي جانبِ الفريضة.

قوله : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ فيه إشارة إلى القوة الإيمانية لفاعل ذلك ، فعلى الرغم من أن هذا نافلة ، فإنّه يقوم به مقاومًا كلَّ العوائق التي يُمكن أن تصرفِه أو تثبطه ، ولكن قوة الإيمان في قلبِه دمّرت كلّ هذه العوائق ، وأقامتها مقامًا حميدًا ، وكان بملكِه ألا يفعل . إنّها نافلةٌ .

وعبر بقولِه ﴿ وَءَاتَى ﴾ إيذانا بأن خروج الصّدقةِ من قلبه قبلَ يده خروج سهلٌ لا يجد كدًى تعيقه أو تؤخّره ، وأنّ فعلَه لها نافلة في قوة فعله لها فريضة ، ولذا قال فيهما معًا ﴿ وَءَاتَى ﴾ دون (أعطى) ، وقوله : ﴿ ٱلْمَالَ ﴾ يُوحي بأنّه على قدْرٍ وصفةٍ تجعله جديرًا بأن يسمًّى مالاً ، فإذا ما آتاه كان هذا المَأتِيّ غير قليلٍ وغير حقير ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:٩٢) .

وجاء بقوله : ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ لِيبين عن عظيم محبته للمال ، ولكنَّ محبته إرضاء الله ـ تعالى ـ بإعانة عباده المحتاجين أعلى وأعظم ، ومحبة المرء المال تكون أعظم إذا ما ظنَّ أنّه يحتاج إليه يومًا ، فيكون استمساكه به أشدَّ ، فإذا ما آتاه غيرَه على هذا النّحو كان ذلك ثمرة إيمان فتيٍّ نقيّ جديرٍ بأن يسمّى الفعل برًّا ، والضمير في قوله ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ يحتملُ أن يعود على «المال» إشارة إلى مزيد محبته له ؛ لأنّه ما جاءه عفوًا وما جاءه من سبيلٍ غير مشروعٍ ، فالمرءُ السّوي حبّه لما يأتيه بجهدِه وبسبيل مشروعٍ أعظم من حبِّه غيره ، لما فيه من استشعارٍ بقيمتِه فاعلاً ، وبقيمته ملتزمًا بالأدب مع ربّه تعالى ، وكلُّ

ما يذكرك بقيمتك في ذاتك ، وبقيمتك في علاقتك بربك تعالى ، وبالحياة كونًا وإنسانًا هوأحبُّ إليْك ؛ فذلك يكسبك لسانَ صدقٍ في الآخرين ، وثمّ احتمال أن يعود الضمير على الإيتاءِ ، أي آتى المال محبًّا ذلك الإيتاء لبصرِه ما فِيه من عظيم الزّلفَى إلى الله ـ تعالى ـ ، فإنّ السّياق سياقُ حديثٍ عن البِرِّ ، وهذا الاحتمال يشير إلى قوة استشعاره ما في هذا الفعل من استطعامٍ لفعل الخير على صعوبته في نفسِه ، فإخراج المال من النّفسِ أولاً ومن اليد ثانيًا كما هو مشروط معنى « الإيتاء » ليسَ عملاً يسيرًا إلاّ على النَّفسِ المطمئنة بذكر ربّها ﷻ ، فالأنسُ بما من شأنِه أن يستوحش منه الآخرون آيةٌ على التّفرّد .

وثَمَّ احتمالٌ ثالث أن يعود إلى الله ـ تعالى ـ أي آتى المال على حبه لله ـ تعالى ـ ، فتكون « على » بمعنى « اللام » وعبّر بـ « على » دلالة على تمكن حبّه الله ﷻ وعلوه على جميع أمرِه .

وهذه الاحتمالات الثّلاثة ليس في البيان ما يمنعها ، بل إنّ بعضها متولد من بعضٍ ، ورأس ذلك حبّه الله ـ تعالى ـ .

كلُّ هذا وكثيرٌ غيره لا أسْتَوْعِيهِ الآن يستولده في الفؤاد استبصارُ البيان في سياقِه ، ممّا يبين فريضة الاستمساك بالاعتناء بقراءة أي بيان في سياقِه القريبِ والمديد .

وإذا ما استحضرت أنّ الآيةَ جاءت في سياقِ سورةِ « البقرة » ازداد وعيك بما في الآية من معانِي الهدَى ، فسورة « البقرة » بنيت على فريضةِ « الإيمان بالغيب » ، ولذا كان قوله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة:٣) رأس القول في سمات الذين أنعم الله عليهم .

ومن باب تفسير البيان القرآنيّ بعضه بعضًا القراءات ، هي قرآنٌ من عند الله ﷻ ليس لأحدٍ مِن الخلق فيه أثرٌ ما ، ونسبة القراءة إلى عالمٍ إنّما هي نسبةُ

تحملٍ وأداء ، فالقرءات القرآنية توقيفٌ ليس لأحدٍ من الخلق كافّة أيّ أثر في القراءة بها وليس لأحد أن يرجح قراءة متّصلة السّند بالله رب العالمين على قراءة أخرى متصلة السَّند بالله رب العالمين ، فضلا عن أن يردَّها زعما أنّها لغة أي لهجة رديئة أو غير فصيحة .

وبعض القراءاتِ أظهر معنًى من بعضٍ ، وأقرب إدراكًا ، وبعضها أعلى في مقامات القربِ ، فهناك قراءة يكون المعنى فيها أليق بحالِ ثُلةٍ من المسلمين هم أقربُ وأرقُّ قلوبًا ، ففِي تنوّع القراءاتِ تنوعٌ للمعانِي ، كلٌّ يأخذُ منها ما يتوافقُ مع حالِه .

فمنازل القراءات بعضها من بعض منظور فيها إلى حال تنوع مقامات العباد في الطاعة ، فمنهم من غذاء فؤاده ضربٌ من المعاني الإحسانية ، ومنهم من لا يطيق فؤاده إلا المعاني الجمهورية ، فلكل ثلة من أهل الإيمان طعام فؤاد .

المعنى القرآني غذاء الأفئدة ، وهي متنوعة في طاقاتها الإيمانية ، كمثل تنوع الأجساد في طاقاتها الصحيّة ، فكم من طعام حلالٍ هو غير صالح لجسد ، وهو في الوقت نفسه طعمة لجسد آخر ، ولذا اشترط الله ـ سبْحانَه وتعالى ـ مع الحلّ طيب المطعم ، فقال «حلالا طيبًا» يقول الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (المائدة:٨٧-٨٨) ، ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنفال:٦٩) ، ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (النحل:١١٤) .

فالحلال ما أباحه الشّرع كتابا وسنة ، والطّيب ما أحله الشرع ، ووافق حال المرء نفسًا وجسدًا .

* * *

إنَّ كلَّ قراءة لآية بِمثابة آيةٌ جديدةٌ بما تحملُه من المعنى ، فهي تضيف إلى المعنى القرآنيِّ في القراءة الأخرَى ما يؤكّدها وما يضيف إليها اتّساعًا وارتقاءً ، والمرْء لايكاد يطمئنّ لفهمِه معنًى من آية إذا لم يكن قد وقف على ما جاء فيها من القراءات الصَّحيحة الإسناد ومراجعة مذاهبِ العلماء في تأويلها ، ففي كلِّ قراءةٍ معنى يكون لطيفًا لا تدركهُ كلُّ القلوب ، فإنّ القرآنَ الكريم يجمع في بيانه ضروبا من المعانى الإحسانيّة التى لا يشعر بها إلا أهلُ القرب والإحسان في عبادة الله ـ سبْحانَه وتعالى ـ ، فكلّما ازددت علمًا بربك ﷻ وبكتابه الكريم ، كلّما كنت مؤهلا لأن تشعرَ بشيْءٍ من تلك المعانى الإحسانيّة التى تكون إفادة البيان القرآنيّ لها إلاحة وإشارة هي عند أهل الإحسان لها لذّة ما ليس للتّصريح ، فربّ إِشَارةٍ أكرم عطاءً من عبارةٍ .

ويبقى أمرٌ آخر جليل هو الاعتمادُ على السُّنة النّبوية في فقه المعنى القرآني ، فإنَّ السّنة تبيين للقرآن .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل:٦٤) .

وقد عُني بعض أهل العلم ببيان علاقة السّنة بالقرآن من حيثُ تبيين معانيه على تعدُّد أنواع التّبيين .

وفريضةٌ على العقل البلاغي والتفسيريّ أن يكونا معنيّين بالتّصريف البيانيّ للمعنى القرآني في السنة وأنواع الدلالة عليه في كلٍّ ومستوياتها ، ومقتضيات كلّ نوع ومستواه .

وممَّا أومنُ بِه وأُوكده دائمًا أنّه ليس في بيانِ النبوة حديثٌ واحدٌ يخالف

ما جاء بِه القرآن وينقضه ، وليس فيه حديثٌ واحدٌ يحمل معنًى لا يليق بجلال الله ـ تعالى ـ وجماله وكماله ، ولا يليق بكمال النبيِّ ـ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم ـ كمال نبوة وعصمةٍ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ له عن كلّ نقيصةٍ . فإذا ما كان أهل العلمِ بسنة سيّدنا رسول الله ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قد جعلوا صِحة السَّندِ ووثاقة النّسبِ معياراً لقبول الحديث ، فموافقة المعنى الّذي يحملُه الحديثُ النّبويُّ للمعنى القرآني أيضًا معيارٌ يسانده ، ولا أتصوّر أنّ حديثًا نبويًّا يُناقضُ معنًى قرآنيًّا .

إن تراءَى لعجلٍ متسارعٍ شيءٌ من ذلك ، فإنَّ علينا أن نراجعَ فهمنا للحديثِ أو فَهمنا للآية ، فالخلل حينئذٍ في فهمِنا المعنى في أحدهما ، وعلينا ألاَّ نتسارعَ في ردِّ الحديث بدَعوَى أنَّه مناقضٌ للقرآن ، لأنَّ من يؤخذ بحكمِه بالتَّناقضِ لا بدَّ أن يكون أهلاً أن يحكم ، ومِمَّن يوثق بعلمِه وعقلِه معًا ، وأن يكون ذلك معروضًا على جمهرةِ الأئمة من أهل العلم بالكتابِ والسُّنة ، فقد يغِيب الحقُّ عن كثير ، ولا يغيب عنهم جميعًا .

قد يبقَى الحقُّ محمولا عند قليلٍ محفوظًا عند نزير ، ولا يضير العلمَ شيءٌ كمثل التَّسارعِ في الحكمِ ، والصُّدور عن فطير النَّظر .

وإذا ما كان الله ـ سبْحانَه وتعالى ـ قد تكفّل بحفظ القرآن ، فقد جاء تبيين معانيه وحيًا بطريقٍ آخر : السنة النبوية وحثّ سيّدنا رسولُ الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ على حملها وحفظها : روى أبو داود في كتاب «العلم» من سننه بسنده عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ يَقُولُ :

«نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ

هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ» . فكان في هذا من التّحريض على الاجتهاد في هذا حفظًا وفقهًا وتأدبًا ما فيه .

* * *

الكُلّيّة الرّابعة :

عواصِمُ تتعلق باللسانِ الّذي أبان بِه هذا الكتاب عنْ معانيه

مِن هذه الكليّة العلمُ بخصائص الّلسان العربيّ الّذي نـزل بِه البيانُ القُرآنيّ إفهامًا وفهمًا .

في آياتٍ عدّة يقرّر اللهُ ـ سبْحانَه وتعالى ـ أنَّ القرآنَ بلسانٍ عربي مبين يتبيّن لك منها عظيم اعتناء القرآن بتصريف البيان عن عربية إبانته وإفهامه معانيه ، وتنوع سياقات إيراده هذا التّصريف ، وما ذلك إلا إنباءٌ بما يجب على من شاء أن يتلقّى ما فيه من معاني الهدَى المكنوزة ، ولا سيما معانيه «الإحسانيّة» ، إلا أن يكونَ مليك فقه بمنهاج العربية في الإفهام والفهمِ بها .

وفي كلٍّ هذه الآيات أيضًا دَلالة بيّنة على أنَّ عربية القرآن إنّما هي عربية منهج إبانة وليس عربية مصدر تنزّل ، ولذا كثر في هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢) ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٧) ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص:٥١) ...

وهذا كلّه إنّما يكون من منهاج الإبانة على معانيه ومقاصده ومغازيه ، ولذا قال الحقُّ سبْحانَه وتعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٤) .

وفي ذلك دَلالة بيّنة على أنّه لا يستطيع ناظرٌ في القرآن الكريم أيًا كان قدره أن يفقه شيئا من معانيه «الإحسانية» إلاّ من سبيل فقهه لسان العربية الّذي كان في أمّة العرب عند نزوله ، فذلك هو السّبيل الأوّل إلى الاقتراب من حمى المعنى القرآني الكريم .

وقد حرص أعيان أهل العلم بكتاب الله ـ تعالى ـ بتبيين تلك الحقيقة وتقريرها من واقع ممارستهم الاجتهاد في تلقّي معاني الهدَى المكنوزة في البيان القرآنيّ .

ما جاء عنهم دالٌ دَلالة بيّنة محقّقة على أنّه فريضة علمٍ ودينٍ على كلّ من قام إلى النَّظر في معاني القُرآن أن يكون العليمَ بلسان العربية عما يخرجُه عن الجهالة بمنهاج النّاطقين به زمن نزول الوحي في الإبانة إفهامًا وفهمًا ، فلا يتلبس بشيْءٍ من الجهالة بخصائصِ هذا اللّسان ، الّتى هي قائمة على كمالها في بيان الوحي كيما يتحقّق الفهم عن الله ﷻ وعن رسوله ـ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم ـ وقد هدى الله ـ تعالى ـ إلى أنّ مِن نعمِه على خلقِه أن جعلَ من أرسله إليهم من النّبيّين والمرسلين بلسانِ من أُرْسِلُوا إليهم في كلّ عصرٍ ومصرٍ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم:٤) .

وللعربية عامة من الخصائصِ المذهبيّة المنهجية الكليّة ما يندرج فيها وفيرٌ من الخصائص الجزئية الدَّقيقة الّتي لا سبيل إلى الإحاطةِ بها ، لارتباطها بسياق الإبانة إفهامًا ؛ فهي «أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلمه يُحيطُ بجميع علمه إنسان غير نبيّ ، ولكنه لا يذهب منه شيءٌ على عامتها»[1] .

---

(١) الرّسالة للشّافعي ، ص ٥١ تحقيق : أحمد شاكر .

فانظر قوله : «أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا» جاعلا الاتساع للمذهب ، وهذا يفهم منه أنّها لغةٌ لا تضيق على مراد متكلّم بها عن أن تكون عونَه على إفهام ما يعتلج في فؤاده إفهامًا صادقًا أمينا ماكان عليما بها ، فلن يُؤتَى مِن قِبَلِها قَطُّ متكلمٌ مهما بلغتْ به عبقريّته تفكيراً وتخييلا ، فهي لسان العلم ولسان الفنّ معًا . كُن كما شِئت عالمًا ، وكنْ كما شئتَ فنانًا مبدعًا ، ولنْ تخذلَك العربيّة البتةَ .

إنَّ لك منها ما يحمِل ما في فؤادك من دقيق علمِك وفريده ، ومِن بديع فنّك ومجيده حملاً صادقًا أمينا ، فما عليْك إلا أن تكونَ بها عليما خرّيتًا أحوذيًّا .

وجعل الشّافعيّ الكثرة للألفاظ ، وما ذاك إلا أن هذا اللسان يتسمُ بسِمةِ «التّوليد» الاشتقاقيّ ، فهو لسان لا يرهق أهله بكثرة مواده ، بل يجعلها في مقدور وعيهم واستيعابهم ، ثمَّ يضع في أيديهم أداة تكثر قليل المواد : الاشتقاق .

وهذا ما يهدِي إلى أنَّ الاشتقاق يجبُ أن يكون قياسيًّا لا سماعيًّا ، إنْ تكن «الموادّ» اللغوية سماعًا ، فإن توليد الألفاظ منها يجبُ أن يكون قياسيًّا ، ومن ذلك أيضًا الجموع والمصادر ونحو ذلك ، لا أرى أن يكون ذلك محكومًا بالسّماع النّصّيّ ، بل يكفِي أن يكون له نظيرٌ في مادة أخرى إلا إذا كان في المادَّة نفسِها ما يمنع من ذلك .

ومما تتسمُ به العربية أن ما يتولد من «المادة» الواحدة من الألفاظ على تعددها وتنوع صيغها إنما تدور معانيه على معنى رئيس هو «شيخ القبيلة» هو المعنى الأم ، لمفردات المادة ، هو «أمّ القُرَى» وهذا أمرٌ بالغٌ الإثراء لهذه اللغة من جهة ، والإحكام من ثانية ، وتيسير الوعي بالمعنى أو أصله من ثالثة ، ولذا كان كتاب «مقاييس اللغة» من أَجَلِّ معاجم هذه العربية فهو معجم فريدٌ .

وهو من المعاجم الّتي تؤسس لنظرية وحدة البناء النّصّي سواء في بيان الوحي أوبيان الإبداع ، فمركزية المعنى الأم وحاكميته حركة المعنى المتدفق في مجرى «النَّصّ» أمرٌ فريدٌ ، يجعل الرؤية النصيّة للبيان رؤية عربية الأصل ، لم تولد في الوعي البياني من خارج اللسان العربيّ .

وإذا ما كانت الإحاطة بالألفاظ جدًّ عسيرة ، فكيف تكون الإحاطة بالمذاهب المتسعة ؟! .

وإذا ما كانت المذاهب متسعةً وهي في بيان البشر ، وهم مهما علا علمهم وقدرهم ، وأطاق اقتدارهم عاجزون عن الإحاطة وعن التَّطهّر من الغفلة والإبهام في البيان عن المراد ، فكيف يكونُ الأمر حين يكون البيان بيانَ الله ﷻ الّذي لا تنفد كلماته : ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا** ﴾ (الكهف:١٠٩) .

يقول أبو الحسنِ الحَرَالِّيُّ (ت : ٦٣٧هـ) : «بيان كل مُبِينٍ على قدْرِ إحاطَةِ علمِهِ ، فإذا أبانَ الإنسانُ عن الكائِنِ أبان بقدر ما يُدرك منه ، وهو لا يحيط به علمًا ، فلا يصلُ إلى غايةِ البلاغةِ فيه بيانُهُ .

وإذا أنبأ عن الماضي ، فبقدر ما بقي من ناقص علمِه به كائنا في ذكره ، لما لزم الإنسانَ من نسيانه ، وإذا أراد أن ينبئَ عن الآتِي أعوزهُ البيانُ كلُّه إلاّ ما يقدِّره أو يُزَوِّرُهُ .

فبيانه عن الكائن ناقصٌ ، وبيانه في الماضي أنقص ، وبيانه في الآتي ساقطٌ» .

ثم يقول : «بلاغةُ البيان تعلُو على قدر علو المبين ، فعلوُّ بيان الله على بيان خلقه بقدر علو الله على خلقه»[1] .

---

(١) تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير : رسالة «مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل» ، ص ٣٩ .

وإذا ما كان الله ﷻ ليس كمثلِه شيءٌ ، ولمْ يكن له كفوًا أحد ، فكلامُـهُ جَـلَّ جلاله لَيْسَ كِمِثْلِهِ كلامٌ البتّة ، لا فِي مضمونِه ، ولا في بيانِه ، ولا في غايتِه الـتي نزلِ تحقِيقًا لها .

وكلُّ هذا الذي بسطت لك القولَ فيه دالٌّ دَلالة بيّنة محققّـة علـى أنّ العرفـان بخصائصِ العربية ضابطٌ حركةَ الناظرِ في كتاب الله ﷻ وسنة نبيّـه ـ صَـلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ يستخرجُ منهما معاني الهُدى إلى ما يرضي ربّنا ـ سُبْحانَه وَتَعَالَى ـ ، فإنّ في العلم المحقّق بمناهج العرب في الإبانة عن معانيـها عونًا عظيمًا على ذلك .

وإذا ما كان الله ذُو الجَلَالِ والإِكْرَامِ مـن سـنته أن يرسـلَ كـلّ رسُـول بلسـانِ قومــه ليفهمــوا عَنــه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم: ٤) ، فإنـه سُبْحانَه وَتَعَالَى اصطفَى العربية لكتابه من أمرين :

الأمر الأوّل : أنـّها لسانُ سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ليفهم عنه قومه ، ثم هم يُفهمون مـن لـيس مـن العـرب بلسـانهم . وفي هذا من التشريف لقومه العرب ما فيه .

والأمر الآخر : من أنّ لسان العربيّة ليس كمثلِـه أيّ لسـان بشـريّ مـنْ قبـلِ تنزّل القرآنِ الكريمِ بِه ، ومن بعـدِهِ ، فلـه مـن الخصّـائصِ مـا يجعلـه أهـلاً لأنْ ينأى بِه أهلُه تحدّثًا وتلقيًا أن يخضعوه لمناهج الإبانة تحدثًا وتلقيًا في مناخات الألسنة الأخرى ، وإن كانت عظيمة الجدَى ، وفيرة الجنى فِي مناخاتهـا ، لأنـّها خلقت منها ولها . وقد شهد لعلو شأن هذا اللّسان جمهرة أهـلِ العلـم ، ومـنهم من ليس بعربيّ ولا ليس بمسلم[1] .

---

(١) من أولئك : جان جاك روسو في كتابه «محاولة في أصلِ اللغـات . الفصـل الحـادي عشر : تأملات في هذه الاختلافات ، ص ٧٠-٧١ تعريب : محمد محجوب .

والقول في علو شأن هذا اللسان لا يتّسعُ له فسْطاط هذا الكتاب ، ولا العُمُر ولا الجُهدُ ، فكلّ مجتهدٍ مجاهدٍ في هذا الأمر مقصّرٌ معذور .

وممّا يندرج في هذه الكليّة الرّابعة المتعلقة بلسان البيان القرآنيّ ، العلمُ بالسِّياقِ المقَالِيّ للقرآن على تعدّده وامتداداته .

ليس هنالك بيانٌ من مفردات منثورة لاعِناج لها ، ولا سياق تجري على لاحبِه ، فالرَّابط (النَّظم) والسّياق والمغزَى هي المانحة الكلمةَ قُدرتَها على أن تؤدِّي عملَها في حملَ ما هُو مكنونٌ فِي الفؤادِ إلى أفئدةِ الآخرين ، فإذا كانتْ القيمة الوظيفيَّة لِبلاغةِ أيّ بيانٍ تتمثل في إيصال «المعنى» إلى قلبِ المُخاطَب فِي أحسنِ صورةٍ مِن اللفظِ : «التركيب» ، فإن هذا «المعنى» لن يخلقَ مِن كَلِمٍ تتابعت بغيرِ ما يجمعها ، وهو ما يُسمى بالنّظم ، سواء كان هذا النّظم قائمًا من عوامل ربط (سبك : عوامل لفظية) ، أو ارتباط (حبك : عوامل غير لفظية) .

النظم بين الكَلِمِ في عالم البيان هو الرحم بين العباد في عالم الإنسان ، وإذا كما بيان الوحي قرآنًا وسنة قد حثّ على عظيم الاعتناء بوصل هذه الرّحم والتنفير من تبتيرها ، فإنّ بيان الوحي يمثّل النموذج الأمثل على عظيم الاعتناء بهذه الرحم بين الكلم والجمل وما فوقها ، وهذا ما جعل عبد القاهر يذهبُ إلى أنَّ معالمَ الإعجاز أظهر ما تكون في نظمه .

والمعنَى المقصود الّذي يخلق النّظم بيْن الكلماتِ أوّلاً ، ثم يخلقُ النَّظمُ المعنى المدلولَ في قلبِ السّامعِ لا يبلغه إلاّ على لاحبِ سِياق له مبدأٌ ومنتهَى ، تتواردُ عليه المَعاني التي خلقها النّظمُ من الكلمِ ومِن الجملِ في غير ما قطيعةٍ .

هذه الثلاثة : النّظم والسياق والمغزى هي التي تمنح المعنى قبولا وإقبالاً ، فتفتح الأفئدة أبوابها ليلج فيها ولوج الآنس المأنوس ، وليتقرر ويتوطن فيملأ

الفؤاد ، ثُم يفعلُ فيه ما يجعله قادرًا على أن يقُوم بما خلقَ له من بعث الجوارح على أن تعمل ، فكلُّ خطاب غايته الكليّة الرئيسة بعث المخاطب على أن يفعل ما يراد منه أنْ يَفعلَ ، أو أن يكُفّ عَن فِعلٍ لا يُرادُ منه أن يفعلَ .

وهذا لا يكون إلا بِأنْ يحملَ القلب تلكَ الجوارحَ من خلالِ ما يتولّد في هذا القلبِ من العزم والإرادة ، وهذان : الإرادة والعزم إنّما يتولّدان ممًّا يفعله المعنَى الذي يَحملُه الخطاب إلى القَلبِ ويوطنه فيه فيفعل فيه ما يريد .

وكلّ نظم لا يخضع لسلطة السّياق والمغزى لا سبيل له إلى أن يحمل مراد المتكلم كما هومعتلج في صدره ، ممًّا يفقده حلية «الصّدق» و«الأمانة» .

فالتزام النّظم إفهامًا وفهمًا بالسّياق والمغزى يحميه من عادية الإبطال ، وهذا فريضة عين على كلّ متكلم ، فإنّ عصمة البيان من الإبطال حقٌّ للبيان على المتكلّم به ، والله ـ سُبْحانَه وتَعَالَى ـ قد نهانا أن نبطل أعمالنا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد:٣٣) .

ومن أعمالنا بيانُنا ، فحَقّ على كلٍّ متكلّم ألا يبطلَ كلامَه ، فإنّه مسؤولٌ عنه ، وممّا يسأل عنه حقّ البيانِ في أن يؤدّي رسالته التي كان لها : التّأثير في متلقيه المتأهل لذلك ، وإلا استحال البيان من كونِه كلامًا فاعلاً إلى كونه قولاً لغوًا .

والبيانُ لا يكونُ كلامًا إلاّ إذا أحدث كَلْمًا (أثرًا) في المخاطب ، وهو لن يحدثَ هذا الكَلْمَ (الأثر) إلا إذا كان منتجُه قد منحَه ما يجعله قادرًا على أن يتولّج في الفؤاد ، وأن يتمكن فيه ويتوطن .

ومن حقّ الكلام على سامعه ألاّ يبطله بأن ينحّيه في تلقيه عنْ سياقه القريبِ والمديد وعن المغزى المساق إليه ، فحقّ كلّ ما تسمع أنْ تسمعه وفق منهاج نظمِه أوّلاً ثمَّ سياقِه المندرج على لاحبه ، ثمّ المغزَى المُساق إليه ، فإن لم

يفعل السَّامع ذلك ، فإنّه يبطل هذا البيان ، ويحاجزه عن أداءِ عمله على النّحو الذي خلق له ، ممّا يرْدِي السَّامع في معرّة «التّقويل» ، وتحريف القول عن مواضِعِه .

ولذا جعل أهل العلم بالبيان حظّ الكلام في ألاّ يؤتى مِن قبل المتكلم بالتَّقصير في الوفاء بحقه إفهامًا ، وألا يؤتَى من قبلِ السّامع بالتَّقصير في الوفاء بحقّه أن يتلقّي وفق منهاج نظمِه وفي سياقِه ووفق مغزاه المساقُ إليْه ، وبالتَّقصير في أن يتهيّأ السامع ويتأهل للتلقّي .

إنّ حقوق البيان على منشئه وعلى متقليه جدّ كثيرة ، لا يُطيق المقام تفصيلَ القول فيها ، ولعلّك تفصله في فؤادك بتفكّرك فيما أشرت إليْه .

وقد كان لأهل العلم حديثٌ موفورٌ في فريضة العناية باستحضار السّياق في التلقّي على ما لا يخفَى[1] .

وليس يخفِى أنّ لِكلٍّ جملة قرآنية سياقًا قريبًا وسياقًا مديدًا ، يتمثل السياق القريب في سباقها ولحاقها في بنية «الآية» ، ويبدأ السياق المديد لها من سياق الآية إلى السياقِ القرآنيّ كلّه .

لك أوعليْك أيضًا أن تضيف إليه في فقه معناها سياق البيان النبويّ ، فهو سياقٌ تبيينيّ على تعدد أنواع التبيين ، كلُّ ذلك له أثرٌ في تحرير معنى الجملة ، فكيف بما فوقها ؟

وعلى الرَّغم من عظيم أهمية الاعتناء باستحضار السّياق المقالي القريبِ والمديد لإحسان تلقّي المعنى القرآنيّ ، فإنَّ ذلك وحده غيرُ كافٍ لتحقيق

---

(١) ينظر كتاب : الإمام في بيان أدلة الأحكام ، ص ١٥٩ العز بن عبد السلام (ت:٦٦٠هـ) تحقيق : رضوان مختار بن غربية .. ط . الأولى ، ١٤٠٧هـ . دار البشائر الإسلامية ـ بيروت .

كمال العصمة من الخطأ في الفهم ، أو العصمة من العجز عن الارتقاء في مدارج المعنى الإحسانيّ المتصاعدة .

يستوجب الأمر لجلاله ودقته أن يكون معه استحضار السياقِ المَقاميّ للنزولِ على النبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ، والسياق المقاميّ لتنزيله على واقِع الحياة تطبيقًا .

السّياق المقاميّ هو واقعٌ حضاريّ اجتماعيٌّ للبيانِ ماثلٌ في عالمه الخارجيّ الذي ينبعث فيه ، وهو ليس جزءًا من البنية اللغوية للنّصّ ، وإن كان أفقا حضاريا لتشكل البنية الّلغوية على نحو خاصّ يتناغى معه ، وقد جاء العقلُ البلاغيّ بمقولتِه الكلية الخالدة : «لكلّ مقامٍ مقالٌ» ما يجعل الوعى بهذا الأفق الحضاري رافدًا من روافد فهم المعنى واستنباطه من تلك البنية اللغوية .

والسّياق المقاميّ للبيان القرآني ضربان :

الأول : سياق النّزول : ما كان في سياقِ الزّمان والمكان والحال عند نزولِه على رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ .

وقد عني أهلُ العلم بكتابِ الله ـ تعالى ـ بما عرف بأسبابِ النزول .

وما هي إلا أحداثٌ كان النّزول عند حدوثِها ، فما هي بعلّة للنّزول ، إن كانت كان وإلا فلا . كلاً . السَّببية هنا سببية اقترانٍ ، لا سببية إيجادٍ ، وأهل العلم أكّدوا القيمة العلمية لفقه أسباب النزول «السياق الحضاريّ للنزول»[1]».

---

(١) عني أهل العلم ببيان فوائد العناية بأسبابِ النزول ، من أولئك البدر الزركشي في «البرهان في علوم القرآن» ١/٢٢ . دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه بالقاهرة ط . الأولى ، ١٣٧٦هـ .

ومن البحوث القيمة في هذا ما رقنه العلامة محمد عبد العظيم الزرقاني (ت:١٣٦٧هـ) في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن» ١/١٠٦-١١٤ ط . الثالثة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

الوعي البالغ بدقائق حركة الحياة زمن الوحي في الجزيرة العربية وما حولها ، وبفقه سيرة رسول الله ـ صلّى اللهُ عَليْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم ـ ومعرفة خصائصه الذّاتية والدّعوية ، وخصائص منهجه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ في تقويم حركة حياة الصحابة من حوله والأُمّة من بعدهم ، ودفع تلك الحركة إلى آفاق أسمى وأرحب ، وكذلك معرفة خصائص الصحابة من حوله ، وأدبهم في تلقي بيانه ، ولقانيتهم في إدراك دقائق ذلك البيان ولطائفه وحكمه بما جمعه الله ﷻ في صدورهم من بلاغة التلقي الأمثل ، وعزيمة الامتثال والتّسليم لما قضى به الله ﷻ ورسوله ﷺ له أثرٌ بالغٌ في حسن فقه المعنى القرآني .

وكذلك معرفة خصائص المناوئين للدعوة في الجزيرة العربية وما حولها ، فإن لهم في ولائهم وبرائهم خصائص يكون لمعرفتها أثرٌ ظاهر في فقه المعنى القُرآنيّ .

والآخر : ما كان سياق الزّمان والمكان والحال عند تنزيل المعنى القرآني على الواقع .

واعتبار المقام بروافدِه المتكاثرة في فقه النص وتدبره واستنباطه ، يجعل كشف ملامح التعلّق في بنية النّصّ التي هي جرثومة المعنى وجذمه مرتكزا على اقتدار القارئ على لحظ روافد هذا الوجه المقامِيّ وأثره في تشكيل وجوه التعلّق النظميّ للنّصّ ، فكلّما أمعن في استقصاء روافد السّياق المقاميّ ، كلّما كان استبصارُه دقائق المعنى وحقائقه ورقائقه أشدّ نفاذا وأكرم عطاء .

ويدخل في أفق السياق المقاميّ فقه الواقع القائم زمن التّدبّر والاستنباط ، فالذي لا يعي ما حوله من حركة الحياة الملقى في محيطها الموّار لا يمكنه أن يبصرَ دقائق الهدي في النّصّ ولطائفه ، فكثيرٌ من تلك الدقائق واللّطائف لا ينكشف سترها إلا بعمق الخبرة في الواقع المشهود والإحاطة بكثير من حركة الحياة فيه .

أكثرُ النّاس فقها للنّصّ من أئمة البيان هم أولئك الذين يعيشون في أنفسهم وأنفس الكائنات من حولهم ، تثقب بصائرهم حجب الغموض المتلبّد من حولهم في حياة النّاس ، فيبصرون في خطاب الوحى صنوفا من الهدى بها يبدِّد ذلك الغموضَ ، وبها يقوم العوج ، ويستكمل النَّقص ، فينقشع الضَّلال .

السّياق المقاميّ رُحاب يعتصم عن أن يحاط به ، وهو يكشف وجوه المعنى في النّسق اللّغوي ولا يحصرها ، يهدِي إلى دَلالات متعدّدة متنامية متصاعدة ، ولا يأسر البنية اللّغويّة والنّسق البيانيّ في دلالة ، فالعناية به قائمة إلى التَّفاعل مع السّياق المقاليِّ لفتح طاقاته الدَّلاليّة ، وليس لحبسها في سرادقات الموروث المعجميّ لعناصره الإِفراديّة والتَّركيبيّة ، فنحن بالسّياق المقاميّ ذي الأنحاء المتعدّدة نطلقُ النَّصّ ونحرّره من سطوة الإِسقاط الدّلاليّ ليتمتع بحرية الإيحاء وفاعليّته .

لا نعتنِي بالسّياق المقاميّ لنتحدّث عنه وإنّما لنفقهه ، والحديثُ إنّما يكون في النّصّ نفسِه ماثلا في بنيته اللغويّة ونسقه البيانيّ لنفقه ما هو مكتنَزٌ فيه من إشاراتٍ ، إذ النّصّ ليس وجودا لغويًّا منفصمًا عن سياقه الحضاريّ ، هو سليلُه مثلما هو قائم فيه .

* * *

المعقد الرّابع
مستويات بِنَاءِ صُورةِ المعنَى فِي الذكر الحكيم

إذا ما كان عبد القاهر الجرجانيّ (ت : ٤٧١هـ) قد عرَّف النّظم بأنّه «توخِّي معاني النَّحو في ما بيْن معاني الكلمِ على حسبِ الأغراضِ والمعاني التي يكونُ لها الكلامُ»(١)، فهل هذا يقضِي حتمًا بأنّ قوله : «معاني النّحو» ، وقوله : «فيما بين معاني الكلم» دالٌّ على أنّ الأمرَ محصورٌ فيما يَكونُ بِالْكلم «المفردات» وهو الجملة ، منْ أنَّ معاني النّحو تَقوم على العلاقات النَّحوية المُمثلة في العلاقات الإسناديّة والتَّقييديّة والتّقريريّة والتَّبيِيّنة ، أو أنّ لنا أنْ ننظر فيما وراء ذلك ؟

للنّظر في ما جاء بِه عبد القاهر في مفتتح كتابه «دلائل الإعجازِ» من قوله : «ولَمْ أزلْ مُنْذُ خَدَمتُ الْعلْمَ أَنظرُ فِيما قَالَهُ الْعُلماءُ فِي مَعنَى الْفَصاحَةِ وَالْبَلاغَةِ وَالْبيانِ وَالْبرَاعَةِ ، وَفِي بيانِ الْمغزَى مِنْ هذِهِ الْعباراتِ وَتفسِيرِ الْمرادِ بها ، فَأجِدُ بَعضَ ذَلِكَ كالرّمزِ والإيماءِ والإشارةِ فِي خفاءٍ ، وبعضُهُ كالتنبيهِ علَى مكانِ الْخبيءِ لِيطلبَ ، وموضِعِ الدّفينِ لِيُبحثَ عَنْهُ ، فَيُخرجَ ، وَكما يَفتحُ لك الطّريقَ إِلَى الْمطلُوبِ ؛ لتسْلكهُ ، وتُوضعُ لكَ الْقاعِدَةُ لِتبنِي عَلَيْها ، ووَجدتُ الْمعوّلَ

---

(١) دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني . ص ٨١ قراءة : محمود شاكر . ط . المدني ، الخانجي بمصر .

علَى أنَّ ها هُنا نظمًا ، وترتيبًا ، وتأليفًا ، وتركيبًا ، وصياغةً ، وتصويرًا ، ونسجًا ، وتحبيرًا»[1] .

قوله : «ووجدت المعول على أنَّ ها هُنا نظمًا ، وترتيبًا ، وتأليفًا ، وتركيبًا ، وصياغة ، وتصويرا ، ونسجا ، وتحبيرا» .

ألنا أن نفهم من نسق بيانه هذا :

نظمًا ، وترتيبًا ، وتأليفًا ، وتركيبًا ،

صياغةً ، وتصويرًا ، ونسجًا ، وتحبيرًا .

أنّ هذه الخصالَ الثّمانيَ الّتِي نسقت على نحو لا تجده في موضع من كتابه على هذا النّحو ، ولا في كتابِه «أسرار البلاغة» ليس من ورائه شيءٌ يرمِي إليْه؟

أهذا يليق بي أن أرمي به مثله أَمْ لي أن أحدس بأنّه قد يكون راميًا إلى شيْءٍ من وراء ذلك ، فقد عهدناه بلاغيًّا بليغًا في الوقت نفسِه ، وهو الّذي هدى في كتابه «أسرار البلاغة» إلى أنَّ أهل العلم قد يتسامحون في عبارتهم في مواضع إلا أنّهم عند ذكر القوانين ، وحيث تقرر الأصول يحررونها[2] .

هل لي أن أدعَي أن مقالة عبد القاهر هنا الّتي نسق فيها هذه المصطلحات الثمانية ممّا تقرر فيه الأصول ، وليس من قبيل إرسال العبارة ، والتّسامح في نسقها. ربما يكون هذا أنفع .

إذا نظرت في نسقها رأيت في توقيعها النَّغميّ توازنًا :

(أ) نظمًا ، وترتيبًا ، وتأليفًا ، وتركيبًا .

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٣٤ .

(٢) أسرار البلاغة . عبد القاهر الجرجاني . (ت : ٤٧١هـ) ص ٤٠١ ، ٤٠٢ قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر . مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة .

(ب) صياغةً ، وتصويرًا ، ونسجًا ، وتحبيرًا .

هل لنا أن نذهب إلى أنَّ هذِه الثَّمانيَ قسمان ، كلُّ قسمٍ أربعُ سماتٍ ، وكلُّ قسمٍ ضربان :

القسم الأول : «سمات البناء» بناء المعنى وصورته : النّظم ، والترتيب ، والتَّأليف ، والتّركيب . ضربان :

الضرب الأول من هذا القسم يشمل الأول ، والثاني : « النّظم ، والتّرتيب» وهذا فيما تكون صورة المعنى جملة ، وإن امتدتْ سطوراً .

والضرب الآخر من هذا القسم يشمل الثالث والرابع : «التّأليف ، والتركيب» وهذا فيما وراء الجملة على امتدادها .

القسم الثاني : «سمات التشكيل» : صياغة ، وتصوير ، ونسج ، وتحبير ، وهو ضربان :

الضرب الأول (صياغة وتصوير) وهو يمثل التشكيل المبني على المزج بين المكوّنات ، فالصّياغة لا يلزم أن يكون معها تصويرٌ ، بينا التّصوير مرحلة من الصّياغة هي أعلى ، فمبدأ التّشكيل مزجًا «الصياغة» ومنتهاها «التصوير» ، فهناك صياغة مصوّرة ، وصياغة غير مصوّرة .

الضرب الآخر : (نسج وتحبير) وهو يمثل التّشكيل المبني على «الجَدْل والحبك» بين المكونات[1] كما في أسلوب «المزاوجة» و«الاحتباك» والجمع والتّقسيم ، واللّف والنّشر ... فالنّسج لا يلزم أن يكون معه تحبيرٌ ، بينا التَّحبير مرحلة من النّسج هي أعلى ، فمبدأ التّشكيل جَدْل «النَّسج» ومنتهاه «التّحبير»، فهناك نسج غير محبّر ، ونسجٌ محبّر .

---

(١) ينظر في هذا «فصل : «في النظم يتحد في الوضع ، ويدق فيه الصنع» من كتاب «دلائل الإعجاز» ، ص ٩٣ فقرة : ٨٣ .

وليس يخفى أنّ طريقة التشكيل صياغة (مزجا) ليست هي طريقةُ التشكيل نسجًا (جدلاً) ، ولاسيّما في مستوى علاقات المكونات صياغة ببعضِها ، والمكونات نسجًا ببعضها .

في الصياغة تفاعل عناصر وتماهي ، ولا تبقى العناصر في وجودها الجمعيّ على شيْءٍ من خصائصها في وجودها الفرديّ ، وفي « النّسج » تناظر أجزاء ، ويبقى للعناصر في وجودها الجمعيّ شيْءٌ من خصائصِها فِي وجودها الفردِيّ ، وهذه الأنمـاط والفنون التّشكيليّة متنوِّعة وفق أنواعِ المعاني التي تُشكّـل ، فليس منهاج التّشكيل صياغة هو منهاج التّشكيل نسجًا ...

وعبد القاهر أشار إلى أنّ هنالك كلامًا مزيّته من نظمِه دون لفظِه ، وأنّ هنالك كلامًا مزيّته من نظمِه ولفظِه معًا ، فما كان من نظمِه وحده ، فهو صياغةٌ غيرُ مصوَّرة ، أو نسجٌ غيرُ محبّر وفقًا لعلاقة المكونات ببعضها مزجًا أوْ جدلاً وحبكًا ، وما كان من نظمِه ولفظِه ، فهو صياغةٌ مصوّرة ، ونسج محبّر وفقًا لعلاقة المكونات ببعضها مزجًا أوْ جدلاً وحبكًا .

ومن البيّن أنّ بناءَ صورة المعنى إنما هو انعكاسٌ لبناء المعنى في البيان البشريّ في الفؤاد ، فالصُّورة هِي مَجْلَى المعنى يُستخرج المعنى منها بالسّياسة التّأويليّة ، فالّذي في الصّورة إنما هو الّذي كان في النّفسِ الإنسانيّة المبدعة ، فما نقوله في بنية الصُّورة في اللِّسان هو ما يقال فِي بنية المعنى فِي الْجنانِ .

وهذا تجد له ما يساندُه من كلامِ عبدِ القاهرِ أيضًا ، يقُول : « لمّا كانتِ المعاني إنّما تتبينُ بالألفاظ ، وكانَ لا سبيلَ للمرتِّبِ لها ، والجامع شَمْلَها إلى أن يُعلمَك ما صنَع في ترتيبها بفِكره إلاّ بترتيبِ الألفاظ في نُطقهِ ، تَجوَّزوا ، فكنَّوا عن ترتيبِ المعاني بترتيبِ الألفاظِ ، ثم بالألفاظِ بحذفِ « الترتيبِ » ، ثم أَتبعوا ذلك منَ الوصفِ والنَّعتِ ما أبانَ الغَرَض ، وكشفَ عن المُراد ، كقولهم :

«لفظٌ متمكّنٌ» يُريدون أنه بموافقةِ معناهُ لمعنى ما يليهِ ، كالشَّيْءِ الحاصلِ في مكانٍ صالحٍ يطمئنُّ فيه . و«لفظٌ قلِقٌ نابٍ» يريدون أنه من أجلِ أنَّ معناهُ غيرُ مُوافقٍ لما يليهِ ، كالحاصل في مكانٍ لا يصلحُ له ، فهو لا يستطيعُ الطمأنينةَ فيه إلى سائرِ ما يجيءُ في صفةِ اللفظِ ، ممَّا يعلمُ أنَّه مُستعارٌ له من معناه ، وأنَّهم نَحلُوه إيّاهُ بسببِ مضمونه ومُؤّداه»[1] .

وهذا الوجه من التَّأويل يؤدّي إلى أنّ الصُّورة الدّالة على المعنى تكونُ بحسبِ المعنى إمَّا نظمًا ، وإمَّا ترتيبًا ، وإمَّا تأليفًا ، وإمَّا تركيبًا ، وما هي بمستويات مترادِفة أو متقاربِة بل يُبنَى الثَّانِي على الأوَّل ، والثالثُ على الثَّانِي ، والرَّابع على الثّالث ، فأدناها هو النّظمُ ، وأعلاها هو التَّركيبُ .

وفي التشكيل «الصّياغة» مبدأ ، و«التّصوير» غاية هذه الصّياغة وبديعها ، فهنالك صياغة غير مصورة ، وأخرى مصورة ، وهنالك نسجٌ محبَّرٌ وآخر غير محبّرٍ .

وكلّ مستوى منْ مستوياتِ البناء يمكن أن تجري فِيه الفنون التشكيليّة الأربعة وفقًا لطبيعة المعنى الّذي يحمله المستوى البنائيّ ، فالجملة أو المعقد يمكن أن يكون كلٌّ صياغة ... أو تحبيرًا ، فليس الأوّل تشكيلا مرتبطًا بالأوّل بناءً .... إلخ

وما ذهبت إليْه من أنَّ بناء صُورة المعنى ذو مستوَيَاتٍ أربعة ، يناصِره من وجه ما جاءَ عنْ عبْدِ القاهر من قولِه :

«أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمِه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائعُ راعتهم من مبادِي آيِهِ ، ومقاطعِها ، ومجاري ألفاظها ، ومواقعها ،

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٦٤ .

وفي مضربِ كلِّ مثلٍ ، ومساقِ كلِّ خبرٍ وصورةٍ ، وكلّ عِظة ، وتنبيه ، وإعلام ، وتذكير ، وترغيب ، وترهيب ، ومع كلّ حجّة ، وبرهان ، وصفةٍ ، وتبيان .

وبهرهم أنـهم تأمّلوه سُورةً سُورةً ، وعُشرا عُشرا [أيْ معقدًا وفصلاً] وآيةً آيةً [(1)] ، فلم يجدُوا في الجميع كلمةً ينبُو بها مكانـها ، ولفـظـة ينكرُ شأنُـها ، أو يرى أنَّ غيرها أصلحُ هناك ، أو أشبهُ ، أو أحرَى وأخلقُ ، بل وجدوا اتّساقا بهرَ العقولَ ، وأعجزَ الجمهور ، ونظامًا ، والتئاما ، وإتقانا ، وإحكاما ، لم يدعْ في نفسِ بليغ منهم وَلَوْ حَكَّ بِيَافُوخِهِ السَّماء موضعَ طمعٍ حتَّى خَرِسَت الألسنُ عن أن تدَّعِي ، وتقولَ ، وخذيت القُرومُ فلم تملك أنْ تصُول»[(2)] .

تأمّل قولَه : «وبهرهم أنَّـهم تأملوه سُورة سُورة ، وعُشرا عُشرا ، وآية آية» هذا دالٌّ على أنَّـهم يعرفون فَحصَ البيانِ في مستوياتٍ متعدّدة ، بدءًا من مستوى «الآية» إلى مستوَى «السُّورة» ، وهي مستوياتٌ متصاعدة ، ودالّك علَى أنَّ عبد القاهرِ ملتفتٌ إلى ذلك ، وقائمٌ فِي وعيِه وعقلِه البلاغيّ .

ولنا أو علينا أيضًا أن نتلبثَ عند قول عبد القاهرِ في فاتحةِ كتابِه «أسرار البلاغة» وهو يبين أنَّ الاختصاصَ في التَّرتيبِ هو الذي يجعل الكَلِمَ (الألفاظ) كلامًا .

يقول : «... المعنَى [أي العلّة والسّبب] الّذِي له كانت هذه الكلم بيْت شعرٍ أَوْ فصلَ خِطابٍ ، هو ترْتيبُها عَلَى طريقةٍ مَعلُومةٍ ، وحصُولها علَى صُورةٍ منَ

---

(١) قوله : «وبهرهم أنـهم تأمّلوه سُورةً سُورةً «معطوفٌ على قولـه : «أعجـزتهم مزايـا» والإبهار مستوى فـوق الإعجـاز : في الإبهـار مـا يشهـر بعجـزهم ، ويفضـحهم ، فـلا يملكون ستره ، لأن البهر تقطّع النَّفس من شدة ما يعتريهم من العجز ، والبهر انقطاع النّفسِ من شدة الإعياء .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ٣٩ .

التأليفِ مخصُوصة ، وهذا الْحكمُ - أعنِي الاختصاص فِي التّرتيبِ - يَقعُ فِي الألفاظِ مرتّبًا عَلَى المعانِي الْمُرتّبة فِي النّفسِ ، المُنْتظمة فِيها على قَضِيّةِ الْعقلِ . ولا يُتصوّر فِي الألفاظِ وُجُوبُ تقديمٍ وتأخيرٍ وتخصِيص فِي ترتيبٍ وتنزيلٍ ، وَعلَى ذلكَ وُضِعتْ المراتبُ والمنازِلُ فِي الجملِ المركّبة وأقسام الكلامِ الْمدوّنة ، فقيلَ : مِنْ حقّ هذا أن يسبقَ ذلك ، ومنْ حقّ مَا ههنا أن يَقعَ هُناك »[1] .

تأمّل قوله : «وَعلَى ذلكَ وُضِعتْ المراتبُ والمنازِلُ فِي الجملِ المركّبة وأقسام الكلامِ الْمدوّنة» تجده قولاً يَهدي إلى أنّ أقسام الكلام المُدوّنة يخضعُ ترتيبها تقديمًا وتأخيرًا لما يُساقُ له الكلامُ من المعنى ، وهذا هو التّرتيب والتّأليف والتّركيب ، وفقَ مستويات بناءِ أقسام الكلام .

من هذا يتبيَّن لك أنَّ مفهومَ «البِناءِ التّرتيبيّ» يطوي في رحمه «البناء النّظميّ» ، فما من ترتيب إلا وهو مبنيّ على نظم ، ومفهوم «البناء التأليفيّ» يطوي غالبًا في رحمه «البناء الترتيبيّ والنظمي» معًا ، و«البناء التركيبيّ» يطوِي في داخلِه - في غالبِ الأمر - بقيَّةَ المُستويات البِنائِيَّة : النَّظم والتَّرتيب والتّأليف ، فالمُتدبّر لهذِهِ المستوياتِ لا يتأتى له حسنُ الفهم وتمامِهِ إلا من خلالِ حسنِ الفهم للبناءِ التركيبيّ .

ذلك أنَّ عمودَ «البناء التركيبيّ» هوالعنصرُ القائمُ في كلِّ مكونات الخطاب/ النصّ ، وهو عنصر كليّ يُسميه أهل العلم مقصودًا أعظم ، ونعتُه بأنّه «أعظم» ملحوظٌ فيه ما في مادة (ع - ظ - م) من دلالة على الإحاطة ، «البناءُ التَّركيبيّ» هُو المرحلةُ النّهائيّة العُليا لبناءِ النّصّ ووجودِه البيانِيّ ، وحسن فهمِهِ هو الخطوةُ الأُولَى لحسنِ فهم ما دونه .

---

(١) أسرار البلاغة ، ص ٥ .

وحسن فهم الخواصّ النَّظمية في بنية الجملة لا يكون إلاّ فِي ضَوءِ الغَرضِ المساقِ لَه الكلامُ ، كما يقولُ عبدُ القاهرِ .

وهذا الغرضُ المساقُ له الكلامُ لا يعرفُ تحريرُه وضبطُه إلاَّ مِنْ خِلالِ حُسنِ النّظرِ فِي البناءِ التَّركِيبيّ للنَّصِّ .

والنَّظرُ المتدبّر في السّورة إذنْ يتخذ منهاج الحالّ المرتحل ، يتزَّودُ من كلِّ مرحلةٍ زادًا للأُخرى جيئةً وإيابًا .

ولكلّ نصّ بليغٍ سواءٌ كان من بيان الوحي قرآنا وسنّة ، أو كان منْ بيان الإبداع شعرًا ونثرًا أدبيًّا بِناءً نصّيًا (أي بناء تركيبيا) ولكلّ بناءٍ خصائصه ، فليست الأبنيةُ التركيبيّةُ في نتاج شاعر ما على نمطٍ واحدٍ ، بل تكاد كلُّ قصيدةٍ لبنائِها التركيبيِّ (النّصّيّ / الكلّيّ) خصائصُ تميزهُ عَنْ غيرِه في قصيدةٍ أُخرَى للشَّاعرِ نفسِه ، والفنِّ الشِّعريِّ نفسِه مدحًا أو افتخارًا .... وكذلك الأمرُ في البيانِ القرآنيّ المُعجزِ ، بلْ تميز السّورِ في بنائها التّركيبيّ (النّصّيّ) أعظمُ ، وخصائصُه أوفرُ .

تفصيل بيانِ مستويات البناء :

إذا ما كنت مصطفيًا أنّ مستوياتِ بناءِ صُورةِ الْمعنى فِي العقلِ البلاغيّ على أربعةِ مستوياتٍ ، نظرًا إلى طلاقة مجال «المعنى» بدءًا من معنى الجملة (وحدة نحوية) إلى معنى النّصّ (وحدة دلالية) ، فَبِي حاجةٌ إلى بسطةِ نظرٍ فِي كلّ مستوى .

المستوى الأول (النظم)

هو توخِّي معاني النّحوِ فيما بيْن معانِي الكَلِمِ فِي بِناء الجُملة عَلَى حسبِ الأغراضِ والمعاني الّتي يُقالُ لها الْكلامُ .

والكلمة التي تقُوم معاني النّحو بعقد أواصر القربَى بين معناها ، ومعنى أترابها في بناء الجملة لا اعتبار بكونِ معناها حقيقة أو مجازًا ، في مجالِ نظم الجملة ، فالمجاز عند عبد القاهر خاضعٌ لسلطان النَّظم شأنُه شأن أيّ كلمةٍ أُخرَى ، هو ناشِئٌ عن النَّظم ، وخاضع لسُلطانه ، خضوع النظم لسطان السياقِ والمغزَى ، وفوق كلِّ ذي سلاطة سليطٌ ، ومن ثمَّ تكون كلُّ فنون المجاز على تنوعها من النظم : «فلا يتصوّر أن يكوُن ههنا فعلٌ أو اسمٌ قد دخلته الاستعارة من دونِ أن يكون قد أُلّف مع غيرِه ...» [1] .

وكذلك كلُّ فنون البديع ، لأنَّ الأمرَ في بلاغتها وحسنها راجعٌ إلى المعنى الذي هو راجعٌ إلى النظم[2] ، فمن النّظم يكون المجاز ، ويكـون البديع ، كمثل ما يكون غيرهما من أساليب البلاغة . النظم في بناء الجملة مُهيمنٌ على كل مكوناتها على تعددها وامتداداتها وتنوعها ، وهذا من عبد القاهر إحكام نظرٍ ، وانفتاح رؤية ، وموضوعية تناول .

المهم أنّ النّظم باعتباره مستوًى من مستوياتِ البِناء يقُوم من علاقاتٍ إعرابيّة على تنوّعها قائمةٍ بيْن معاني الكلم في بناءِ الجملة على امتدادها .

وإذا ما كان مستوى «النظم» يكادُ ينحصرُ فِي ما هو وحدة نحويّة (جملة)، هي أصغرُ وحدةٍ لغويّةٍ مفيدةٍ قابلةٍ للتَّحليل ، فإنّ هذه الوحدة النحوية يُمكن أنْ تكـون نصّا (وحدة دَلاليّة) إذا لم تكن بحاجـة إلى غيرها ؛ ليفهم المراد منها ، وبهذا يبيّن لك أن تنوّع مستويات صورة المعنى ليس مرتبطًا بنصيّة البيان ، فقد يكون النّصُّ مقتصرًا على مستوًى واحدٍ ، أو مستويين ، أو أكثر .

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٣٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧ .

المستوى الثّاني (التّرتيب)

«التّرتيب» توخّي ما يكون بيْن معاني الجُمل من علاقات غير الإعرابية ، (أي ما يكون بيْن المعاني الجزئية القائمة في كلٍّ جملةٍ) في بناء الصّورة الكلية : (النّجم / الصورة الكلية / الفِقرة) عَلَى حسبِ الأغراضِ الّتي يقال لها الْكلام ، ويدخلُ في هذا ما يقع بيْن الجمل من كمال الاتصال ، وشبهه على اصطلاحِ البلاغيين ، وهذا المستوى وسيعٌ فسطاطه في بيان الوحي ، فعلاقات الجمل التي لا محلَّ لها من الإعراب المتوالية في نسق البيان عديدة ، وأثر الذَّاتيّة الرَّشيدة في استبصار تلك العلاقات وتحريرها جدّ عظيم ، ولو أنَّك نظرت في علاقات الجمل في مطلع سورة «البقرة» ، وفي آية الكرسيّ رأيت أنّ عُظمها قائمة على هذا المستوَى : «التّرتيب» .

المستوى الثالث : (التّأليف)

«التأليف» علاقةٌ تقومُ بين مكوناتِ بنية المعقد (الفصل) ومنْ ثَم ، فالتأليف هو توخّي ما يكون بيْن معاني (النُّجومِ أو الْعُشر كما يسميه عبد القاهر / الصُّورِ الكُليّة / الفِقَرِ) من علاقات في بناء المعقد / الفصل عَلَى حسبِ الغرضِ المرحليّ الّذي يُقالُ له الْكلامُ . كلّ معنى جزئيّ لصورةٍ ، أو نجمٍ ، أو فقرة يتآلف مع سِباقِهِ ، ولِحاقِه على لاحبِ السّياق وصُولاً إلى الفصل / الْمَعقِد ذي الغرضِ المرحليّ .

«الْمَعقِد» يتكوّنُ من مجموعِ صورٍ كلّيّةٍ (نجوم / فقر) وعمودُ بنيتِه هو «التأليف» ، فهو إذن يتمثّلُ فِيما بيْن معاني الصُّور الكلية من علاقات توجب نسقَها في بنية «المعقِد» .

ومَعنَى الصُورةِ الواحدةِ (النجم / الْعُشر / الفقرة) مكونٌ من معاني الجُمل المُكوّنة للصُّورة (النجم / الفقرة) ، كما أنَّ معنى «الْمعقِدِ» (الفصل) الوَاحِدِ

مكّونٌ منْ معانِي الصُّورِ ... ، وهذا التّناسقُ بيْن معاني الصُور أسمّيه تأليفًا ، لأنّـه أوغلُ فِي اللطفِ ، وذلك شأنُ التّأليف .

وهذا ما لم يكنْ من عبدِ القاهر مزيدُ اعتناءٍ به كما كان منه في مستوى (النظم) ثُمّ مستوى (التّرتيبِ) ، وهذا المستوى يندرج فيه المستويان السّابقان ، فما لحمته ، وسُداه ، فمدارسة التّأليف مدارسة للنَّظم والتَّرتيب .

معقد آيات أحكام العلاقات المالية في سورة« البقرة» من أول قوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦١) إلى آخر قوله تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٨٣) قائمٌ على « التّأليف» بين نجومه ، قيام نجومه على التّرتيب بين آياته ، قيام آياته على « النَّظم» بين جملها .

المستوى الرّابع (التّركيب) :

وهو توخّي ما يكون بيْن معاني « المعاقد» (الفصول) (أي الأغراض المرحلية / الجزئيّة للمعقِد) من علاقة في بناء النّصّ (السّورة ، القصيدة ، الخطبة ...) عَلَى حسبِ ما لهذا النّصّ من غرضٍ محوريّ رئيس ، ومقصودٍ أعظم ، ومغزى مركزيّ يُساق له الكلامُ كلّه ممًا يُحقّقُ للنصٍ وحدة المْغزَى ، وهي وحدة تؤلفُ بيْن الموضوعاتِ المتعدّدةِ المتنوّعةِ في أغراضِها المرحليّة .

وإذا ما كانت هذه المستوياتُ تنتهِجُ حركتها وجودًا على النَّسق التصاعدي ، بدءًا من نظم الجملة وانتهاءً بتركيب النّصّ ، فإنّ حركة مدارستها التَّأويليّة تنتهج النَّسق التَّنازلي : بدءًا من تركيب النَّصّ ، وانتهاءً بنظم الجملة .

أنت إذا ما أردت أن تدرسَ مجتمعًا ما دراسةً اجتماعية أخلاقية ، فلن يجدِيك أنْ تبدأَ بدراسةِ كلّ واحدٍ من أبنائِه ، بلْ الأعلى أنْ تبدأَ بمدارسةِ أحوال القَيِّمِ على هذا المجتمع منْ ملكٍ أو رئيسٍ أو أميرٍ ، وبطانته ، فذلك معينٌ لك على أن تَتَبَيَّن لك المنظومةُ الاجتماعية والأخلاقية لهذا المجتمع ، فالنَّاس كما قيل على سَنَنِ ملوكهم .

وكذلك ـ ولكلام الله ﷻ المثل الأعلَى ـ إذا ما أَردت مدارسة آيةٍ مدراسة تستحصد وفيرًا من معانيها الإحسانية ، فلا تبدأ بمدارسة نظم جملها ، بل عليك أن تنطلق من رؤية شأن السّورة تركيبًا لتدرك موقع الآية مناط النظر الرئيس منه ، حينئذٍ سيتبيَّن لك فيضٌ ممّا في الآية من المعاني الإحسانية .

* * *

المعقد الخامس
النَّصّ والخطاب وما إليهما

كثر في كتابات المحدثين سواء في باب البيان المعجز أو غيره استعمال مصطلحات يرَى جمعٌ أنّ بينها فروقًا دلاليّة ، وأنَّها ليست سواء ، وأنّ لكل موضعًا حرًى ألاً يتجاوزه ، وهي تراها قائمة في كتابي هذا وغيرِه ، وكان لزامًا أن أبِين عن حال هذه المصطلحات في بياني : أبينها فروقٌ في حديثي في شأن بيان الوحي قرآنًا وسنة أم أنَّ الأمرَ سواءٌ ، وهل حضورها في القول في شأن البيان البشريِّ كمثل حضورها في القولِ في شَأن بيان الوحي؟

لعلّ أكثر المصطلحات في زماننا هذا استعمالا في كتابات أصحاب النّظريات اللغوية ، والأدبية ، والنقدية هما مصطلح «النّصّ» و«الخطاب» ، فما الفرق بينهما عندهم؟

أظهر فرق بين «النّصّ» و«الخطاب» أنّ النّصّ قول مستقلٌّ بنفسِه مكتمل الدَّلالة «الذَّاتيّة» غير مرتبط بسياق استعماليّ ، أي لا يشترط فيه أن يلحظ حال مخاطبٍ ما . والخطاب هو «النَّصّ» الملحوظ فيه حال مَن يخاطب بِه لتحقّق التّواصل والتّـأثير ، فكما أنَّ التّكامل والاستقلاليَّة الذَّاتيّة عمود الأمر في «النّصّ» فإنّ «التَّأثيريّة» في «الخطاب» كذلك ، ولا يكون ما يستحقّ أنْ يسمَّى «خطابًا» إلا ما كان «نصًّا» .

الفرق متمثلٌ فِي اشتراط ملاحظة حال مخاطبٍ يساق الكلام ليفعلَ فيه

النّصّ ، ولذا كانّ العقل البلاغيّ حصيفًا في بيانه جوهر الفعل البلاغيّ بقوله : « مطابقة الكلام الفصيح لمقتَضى الحال» ، بكلّ ما تحمله كلمة « الحال» من تعدّد وتنوّع لا سبيل إلى إحصائه ، وفي صدر هذا حال المعنى والمغزَى ، وحال المتكلم ، وحال المخاطب بالكلام ، وحال مقام الكلام إنتاجًا وتلقيًا . وبهذا كان ما يفرق النّصّ من الخطاب عند المحدثين قائمًا في بيان جوهر الفعل البلاغي عند الأسبقين ؛ فلم يكونوا بحاجةٍ قطُّ إلى أن يصرّحوا بالمفارقة بينهما ؛ ذلك أنَّهم لا يعتدون بما هو « نصٌّ» أجرد عند المحدثين ، بل لا بدَّ أن يرقَى ما هو « نصٌّ» في عرفهم إلى ما هو خطابٌ عندهم أيضًا ، وإلا لم يك له من عناية العقل البلاغِيّ نصيبٌ .

الاعتداد عند البلاغيين ليس مناطه « قول» من حيثُ هو قولٌ ، بلْ من حيثُ هو كلامٌ ، أيْ من حيثُ هو بيانٌ متين في بنيته ، فتيّ في تأثيره في عقلِ من يتلقاه ونفسِه ، فيحقق منه الاقتناع العقليّ والاقتناع النفسيّ معًا ، ولذا كان أبو الحسن الرُّمَّانيّ فهيمًا في بيانه « البلاغة» بأنَّها إِيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ .

وعلى هذا ، فالقول المبين قد يكون « نصًّا» ولا يكون « خطابًا» و« الكلام» لا بدّ أن يكون خطابًا ، وكلّ ما جاء من بيان الوحي قرآنا وسنّة إنّما هو« كلام/ خطاب» وليس نصًّا أجرد لا يرقَى أن يكون خطابًا ، ولذا كان كلُّ ذلك مناطَ عنايةِ العقلِ البلاغيّ ، بخلاف البيان البشريّ ، فإنَّ بعضَه قولٌ ، وبعضَه بيانٌ (نصٌّ) وبعضَه كلامٌ (خطابٌ) .

وهذا يهدِي إلى أنّ العقل البلاغيّ كان ينظر في مناط عنايته إلى فعلِ القول من حيث هو كلامٌ لا من حيث هو قولٌ أوْ بيان ، فلدينا ثلاثة مصطلحاتٍ متصاعدةٍ : القول ـ البيان ـ الكلام» .

أمّـا «القول» ، فلا يشترط فيه البيان ، وعمود الأمر في المفردات المشتقّة من هذه المادة إنّما هو الخِفّة والحركة ، وعمود الأمر في الألفاظ المأخودة من مادة «البيان» إنما هو المفاصلة الَّتي يلزمها الظُّهور ، فالظهور معنى لازم ، وليس هو المعنى الوضعيّ لمفردات «بيان»، وعلى هذا فـ«البيان» قول أبان به صاحبه عمًّا هو مكنونٌ في فؤاده ، سواء تحقّق به تأثيرٌ في سامعه أوْ لم يتحقّق لأمرٍ يرجع إلى البيان نفسِه ، أوْ لأمرٍ يرجع إلى السَّامع ، أو لأمر يرجع إلى غيرهما ، المهمّ أنه أبان عمًّا في فؤاد المتكلم دون أن يحقق تأثيرًا في السّامع . أمّا الكلام فهو «قولٌ مبينٌ مكتملٌ في ذاتِه من شأنه التّأثيرُ البالغ في سامعِه» .

ما اشتق منه هذا المصطلح : «الكلام» هادٍ إلى هذا : هو مشتق من الكَلم (بفَتْحٍ ، فسُكون) ، والمفردات المشتَّقة مِن مادَّة «كلم» بتقلباتِها كما أبان «ابن جِنِّي» في «الخصائص : «القوة والشدّة»[1] ويلزم من ذلك التأثير .

يقول ابن يعيش «اشتقاق الكلام» من «الكَلْم» ، وهو الجرحُ ، كأنـّه لشدّة تأثيره ونُفوذِه في الأنفس كالجَرْح ، لأنـّه إنْ كان حَسَنًا أثّر سرورًا في الأنفس ، وإن كان قبيحًا أثّر حُزْنـًا»[2] .

وعلى هذا حين أستعمل كلمة «نصّ» أو «خطاب» أو «قول» أو «بيان» أو «كلام» فإنَّ الفروق بين هذه المصطلحات تتلاشَى في سياق حديثي في شأن البيان القرآنيّ .

---

(١) الخصائص ، لابن جني ، ١/١٥-١٨ تحقيق : النجار .

(٢) شرح المفصل للزمخشري . ٦/١٧ يعيش بن علي بن يعيش ويعرف بابن الصانع (ت:٦٤٣هـ) قدم له : إميل بديع يعقوب . دار الكتب العلمية ، بيروت ـ ط . الأولى ، ١٤٢٢ هـ .

وإكْثارِي من مصطلح «البيان القرآنيّ» من أنّ وصف القرآن بأنّه بيان قد جاء بِه القرآن في سورةِ «آل عمران» ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٨) .

وإكثاري من مصطلح «النّصّ» لفتٌ إلى الوجود الكليّ للبيان الذي هو مناط النّظر الرّئيس .

والالتفات إلى مصطلح «الخطاب» أحيانا استحضار لوعي ما لهذا البيان من التّأثير الفعيل في السّامع ، فإن القيمة التأثيرية للبيان القرآني وجه من وجوه إعجاز بلاغة القرآن ، بل إنّ القيمة البلاغية لأيّ بيان من عُمُدها ما يحدثه من تأثير في المخاطب بِه أو متلقيه ، ولذا أكّد أهل العلم بالبيان أن على المتكلم ألاّ يسوق كلامه إذا ما كان سامعه غيرَ ملقٍ له بالاً .

كان مُطَرّف بن عبد الله بن الشّخير بن عوف (ت : ٨٧هـ) يقول : «لا تطعم طعامك من لا يشتهيه»[(١)] . يقول : لا تُقبِل بحديثِك على من لا يُقبل عليه بوجهِه . وما هذا إلاّ من إكرام العِلم ، فحقّه أن يُعرِضَ باذله عمَّن عنه رغوبٌ ، وأولئك قد كثروا في زماننا .

وإذا ما كان من هدي القرآن قولُ اللهِ ﷻ : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ (النساء:٥) فالعِلمُ أحقّ بذلك ، وليس أسفه ممّن يبذل له العلم فرغبَ عنه ، بذل له دانقٌ لَهَشّ وَبشّ وأثنَى وأطرَى .

---

(١) الطبقات الكبرى . لابن سعد : أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي ولاء (ت:٢٣٠هـ) ١٤٥/٧ تحقيق : إحسان عباس . دار صادر ـ بيروت . ط . الأولى ، ١٩٦٨م .

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ : «حدِّث النَّاس ما حَدَجوك (قذفوك) بأبصارهم ، وأَذِنوا لك بأسماعِهم ، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك»(١) .

ذلك أنّ تأثير البيان الذي يستحيل به خطابًا ، في عرفِ المُحدَثِين إنّما هو الذي يجعل له لسان صدق في الآخرين ، وتلك التي يتشوف إليْها كلُّ مبينٍ عمَّا يعتلِج في فؤاده .

وقد كان من فرائض السَّامع أن يكون بليغًا في سمعه حتَّى يكون قاضيًا للبيان حقّه ، فكما يوجبون على المتكلم بلاغة الإفهام ، فإنهم يوجبون على المخاطب بلاغة الاستماع فهمًا ، فبكلٍّ يتحقق للبيان ما يجب له عند كلٍّ(٢) .

ونحنُ اليومَ أحوجُ ما نكونُ إلى اكتسَابِ مَهارةِ «الاستماع» مِنَّا إِلَى اكتسابِ مهارة «الإفهام» ، وقد رأيت كبارًا إذا تكلموا ، لايسكتون ، ولا يُسْكَتون ، لكنَّهم إذا تكلَّم غيرهم كانوا أعوزَ الناسِ إلى مهارة الاستماع وأدبه .

وقد كان من هدي سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ أنه إذا حدث أصغى . ألا ترى ما كان منه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ مع أبي الوليد عتبة بن ربيعة ، وقد حدثه ، لما فرغ قال ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : «أفرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم ، قال فاستمع مني ، قال : أفعل» . فهل لنا أن نجعل شأننا كله في مثل هذا «أفرعت أبا الوليد» .

* * *

---

(١) البيان والتبيين . للجاحظ ، ١/١٠٣ ، ١٠٤ تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي . القاهرة . ط . الخامسة ، ١٤٠٥هـ .

(٢) ينظر : محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء . مبحث : «الحث على حسن الاستماع والممدوح به». ١/٩٥ ، ٩٦ تأليف : الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ بيروت . ط . الأولى ، ١٤٢٠هـ .

الشّريج الثّاني

معـالم على الطّـريق

توطئـة تأصيليّة .

المعقد الأوّل : موقع السّورةِ من نسق التّلاوة المديد والحزبِ الذي تكون فيه .

المعقد الثّاني : الطّريق إلى استنباط المقصود الأعظم للسّورة وفقـه أثره في البناء النّصّي للسّورة .

المعقـد الثّالـث : تقسيم السُّـورة إلى معاقـد وعلاقتهـا بالمقصـود الأعظم وحركة المعنى .

المعقـد الرّابـع : تقسـيم المعاقـد إلى نجـوم وعلاقتهـا بـالغرض المرحليّ للمعقد وحركة المعنى .

المعقد الخامس : التّحْليلُ البَيَانيّ لنظم المعقد ومـا دونـه وعلاقتـه بالمقصود الأعظم وحركة المعنى في السّـورة .



تَـوْطِئَـةٌ تأصِيلِيَّةٌ
الْوَلَدُ لِلفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ

ليس خفيًا أن ليس المعنى في قولك : «صَلَّى محمّدٌ الفجرَ جماعةً» باعتباره نصًا قائما بنفسه لا يتحقّق بمجرّد تضامّ الألفاظ دون أن يكون هنالك مقتضٍ لهذا التّضام ، ولترتيبها على هذا النّحو ، فالمعنى فيها إنّما هو وليدُ تلاقح (نعم تلاقح) أمورٍ عدة منها معاني هذه الكلمات الأربع ، ومواقعها في التّرتيب ، وأمورٌ أُخر هي الَّتي تخلُق الفاعليّة الدّلاليّة لهذه الكلمات الأربع ، ولترتيبها على هذا النّحو فِي النّطق ، ذلك مبدأٌ عامٌّ في كلّ لسان .

وهذا منطق العقل الفطريّ فِي أيّ لسانٍ .

وهذا هو المبدأُ القائمُ أيضًا حاضرٌ إذا ما جعلنا مكانَ الكلمةِ في العبارةِ السَّابقة جملة ، فيكونُ القولُ من أربع جملٍ ، لن يتحقّق معنى مِن مجرّد التّضامّ ، ولن يكونَ هنالك ترتيبٌ إلاّ إذا كان هنالك مقتضٍ لهذا التّضامّ وذلك التّرتيب ، فالعقل الفطريّ في أيّ لغةٍ لا يجعلُ للعِبارةِ ذاتِ الجملِ الأربع قيمةً دَلاليّة «إخبارية» إذا لم يكنْ هنالك خامسٌ حاضرٌ بيْن كلّ مكوّن : «كلمة ، جملة ، فقرة ، فصل...» هو المقتضِي لهذا التَّوالِي بيْن هذه المكوّناتِ مِن جهة ، وهو النَّاسبُها .

«الْوَلَدُ لِلفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ» .

العقلُ الفطريّ قاضٍ بأنّه لا يمكنُ للأجزاءِ في حضورِها المجرَّد ، ومِن

تواليها مِن غير مقتضٍ لـه أن تنتج هـذه الأجـزاء الفائـدة ، بـل لا بـدَّ أن يكـون هنالك أمران هما اقتضاءٌ فطريٌ عامٌ :

الأوّل : أن يكونَ بين المكونات ما يحقّق لها أن تنتج « النّسب المديد».

والآخر : أنْ يكونَ هنالك مقتضٍ لنسق التَّوالي ، بحيث لا يتـأتّى لجـزءٍ أن يكونَ في غير موضِعِه الّذي هو فيه ، بحيث إذا حرّك مِن موضـعه خرجنـا ممّـا كنّا فِيه من القولِ .

وقد كان لسلفِنا تقريرُ هذا على مستوى شأن الكلمةِ في الجملة ؛ ليبنى عليه شَأن ما هو أكبر وأعظم : أنت إنْ قلت : « إنَّ محمَّدًا كالأسـدِ» فلسـت أنـت في قولك : « كأنّ محمدًا الأسد» مع أنـّك لم تحـذِفْ ، ولم تضِـفْ كلمـة في أيٍّ ، مجموع الأجزاء المنطوقة سواء ، وما كان منك إلا أن قـدَّمت الكـاف في « كـأنَّ محمدًا الأسدُ» عمَّا كانت عليْهِ في « إنّ محمدًا كالأسدُ» : أنـت في « إنّ محمـدًا كالأسد» إنّما تؤكد نسبةَ مشابهة محمـدٍ الأسـد ، وفي « كـأنَّ محمـدًا الأسـد» تصوّر عِظَمَ قدرِ مشابهة محمّد الأسـد . الأوّل طعْمَةَ مَن ينكر أو يتوقـف في أنّ ثَمّ مشابهة محمّدٍ الأسدَ .

والآخـر طعـمـة مَن يفتقر إلى العرفَانِ بمقدارِ ما بينهما من مشابـهـةٍ ، فهـو لا ينازع في وجودها بينْهما ، بل لا يتوقـف ، فـالأمران مختلفـان ، والمخاطـب بأيّ منهما غيره المخاطب الآخر .

يقول عبد القاهر : « لا يكونُ لإِحدى العبارتين مزيـةٌ عَلَـى الأُخـرى ، حتـى يكونَ لها في المعنى تأثيرٌ لا يكونُ لصاحبتها .

فإنْ قلتَ : فإذا أفادتْ هـذه مـا لا تُفيـدُ تلـكَ ، فليسَـتا عبـارتَيْنِ عَـنْ معنـى واحدٍ ، بل هما عبارتان عن معنَيَيْن اثنينِ .

قيل لكَ : إنَّ قولَنا «المعنى» في مثل هـذا ، يـراد بـه الغـرض ، والـذي أرادَ المتكلم أن يثبته أو يَنْفِيَه ، نَحْو أنْ تَقْصد تشبيهَ الرّجـلِ بالأسـد ، فتقـولَ «زيـدٌ كالأسد» ، ثمّ تريدُ هذا المعنى بعينهِ فتقول : «كأنَّ زيداً الأسد» ، فتفيد تشـبيهَهُ أيضاً بالأسد ، إلاَّ أنك تَزيد في معنى تشبيههِ به زيادةً لم تَكنْ في الأولِ ، وهـي أنْ تَجعله من فَرْط شَجاعته وقوةِ قَلْبه ، وأنه لا يَروعه شـيءٌ ، بحيـث لا يتَميَّـز عن الأسدِ ، ولا يقَصِّر عنه ، حتى يتوَّهم أنه أسدٌ في صورة آدميٌّ .

وإذا كان هذا كذلك ، فـانظرْ هـل كانـت هـذه الزيادة وهـذا الفـرق إلاَّ بمـا توَخِّيَ في نظمِ اللفظِ وترتيبهِ ، حيثَ قدِّم «الكاف» إلى صدرِ الكلامِ وركِّبتْ مع «أنَّ» ؟

وإذا لم يكنْ إلى الشكِّ سبيلٌ أنَّ ذلكَ كانَ بالنّظم ، فاجعلْه العِبْرَة في الكـلام كلّه ، ورض نَفْسَك على تفهُّم ذلكَ وتَتبُّعه ، واجعلْ فيها أنـك تـزاول منه أمْـراً عظيماً لاَ يقادَر قَدْره ، وتَدخلُ في بحرٍ عميقٍ لا يدْرَك قعره»[1] .

هذا الّذي قاله عبد القاهر على مستوى المناظرة بين جملـتين هـو قـائمٌ لـك على ما فوق الجملتين ، فأدنَى تغيير في مواقع مكونات البيان يحدث تغييرًا في المعنى والمغزى معًا ، فلن يكـون قـطُّ مـن عبـد القـاهـرمنازعة فـي هـذا إذا ما أجرِي ما ذهب إليه في ما هو فوق الجملة ، لأنَّ له مِن الحصافة مـا يعصِـمه من ذلك .

وخلو كتابيه «الأسرار» و«الدلائل» من التَّصريح بهذا لا يعـني أنـّه مدافعـة ومحاجزة ، فقد كان معنيًّا بالتَّأسيس .

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٢٥٨ فقرة : ٣٠٠ .

وظنّي أنّه كان على يقين أن أحفادَه مِن بعده سيكملون بناء الصرح ، فعلينا أن نكونَ عند حسن ظنّه ، فهو أهلٌ لذلك ..

* * *

وانسجامُ «النّصّ» مع حال كلّ مخاطب يُحيله من كونه نصًّا إلى كونه خطابًا ، من ثَمَّ يتبيّن لك أنَّ العقل البلاغيّ ما كان له أن يستوجب أمرًا فِي صناعة جزءٍ من كلّ ، ثمَّ لا يستوجبه فيما هو فوقه ، وإلاّ كان شتاتًا ، وما كانت الأمّة إلاّ مُحفَّزَةً إلى أن تكون جميعا .

أوَ ليس الإعراب عنها باسم «الأمّة» هادٍ إلى فريضة ما يجب أن تكون عليْه .

أو ليس عمود الأمر في ما يُشتَقُّ من هذه المادة «أ م م» القصد ، ولا يكون قصدٌ إلى شيْءٍ إلاّ إذا كان اجتماعٌ .

ما استوجب في كيفية أصغر وحدة كلامية : «الجملة» هو المستحضر في ما هو فوقها .

ما كان لهذا العقل أن يتغافلَ عَنْ استحقاقِ الكلّ ما استوجب في الجزءِ ، بل هو في الكلّ أوجب ، وإذا لم يكن منهم تصريحٌ بذلك ، فهذا مخرجُه أن هذا العقلَ معتدٌ بمبدإٍ عام في باب الدَّلالة هو مبدأ «فحوى الخطاب» ، وهو مِن دَلالة النّص عند الحنفية .

ودلالة «المفهوم» عند جمهور الأصوليين من سُبلِ توكيدِ الحكم على نحو ما قالت العلماء في قوله تعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (الإسراء:٢٣) .

النّهي عن قول «أفّ» أدلّ على النَّهي عن قول ما هو أعظم .

العقلُ البلاغيّ لم يصرّح بما هو المقتَضى في ما فوقَ الجملة ، كما صرّح به في الجملة توكيدًا للاستحقاق فيما هو فوق الجملة ، وهذا مسلكٌ عَلِيٌّ القدر والفعل مِن مسالك توكيد المعنى ، والوجازة في ما يعرب عنه ، وهي جد كثيرة بلْ متكاثرة .

والوجازة في المُعرِب هو الأصل في سنّة البيان بالعربية ، والبسط فيه عدولٌ عن الأصل يستوجب مقتضٍ ، ومن ثَمَّ كان مدّ القول القائم في بناء الجملة في موروث الأعيان إلى ما فوقه : بناء الفقرة إلى «النّصّ» (السّورة / القصيدة) إنّما هو ذو نسبٍ عريقٍ ، ولو أنّه عرض ما يقال في بناء السّورة والقصيدة منبثقًا ممّا قالوا في بناء الجملة لما كانوا بالرَّاغبين عنه ، بل كانوا هم الرَّاغبين فيه . فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلَفٌ (حَفَدَةُ صِدْقٍ) أقاموا الصَّلاةَ واصطنعُوا الحسنات ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ رشدًا ـ إن شاء الله تعالى ـ .

المعقد الأول
موقع السّورةِ من نسق التّلاوة المديد والحزبِ الّذي تكون فيه

ممّا هو حاضرٌ في فؤاد كلّ مسلمٍ حضورَ يقين ضابطٍ علاقته بالقرآن تلقيًا وتخلقًا قول الله ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) ، ومنْ عطاءات التّوكيد أنّه إذا ما كان التّنزيل عامًّا كلَّ شيْءٍ من الذّكر (القرآن) فإنّ الأمرَ كمثله حفظًا ، فكلّ ما هو من الذّكر هو أيضًا مناط حفظِ مُنَزّله ، فمَن لم ينازع في عموم تنزيله ، عليْه ألاّ ينازع في عموم حفظه تعالى ما نزّل ، وفي منهج الإبانة والإفهام في الآيةِ ما يقرّر ذلك .

كان يمكن عربية أن يقال في غيرِ القرآن إنّا نزلنا الذّكر ونحفظه ، أو إنا منزلو الذّكر وحافظوه ، ولكنّ البيان جاء على ما تسمع لفتًا إلى أنّ مقام حفظه عديل مقام تنزيله . ذلك أنّه جعل للإنباء بالحفظ جملة قائمة بجوار جملة الإنباء بالتنزيل ، كيما لا يجعل الإنباء بالحفظِ مندرجا في الإنباء بالتنزيل ، فلا يظنّ أنّ نعمة حفظه دون نعمة تنزيله استحقاقًا للشكر القلبي والعملي ، وإعلاما لمن جعله الله ﷻ من وسائل حفظ القرآن بأنّه ﷻ قد تجلّى له بأن اتخذَه من جنده في حفظِ كتابه ، فتلك نعمةٌ لا تعدلُها الدّنيا بما فيها إن وضعت في يمينه حلالاً طيبًا غيرَ مسؤول عنها ، ولامنزوعةٍ منه ، ولا منزوعٍ منها ، وحقًّا ما قاله سيّدنا عبد الله بن عمرو ـ رضِيَ اللهُ عنهما ـ : « من أوتِيَ القرآنَ فظنّ أنّ غيرَه قد أوتِي خيراً منه ، فقد حقّر ما عظم الله تعالى» (اهـ)

وقدَّم قوله (له) بيانا لخصوصية هذا الكتاب ، فما كان من حفظ الله ﷻ له لم يكن قطُّ لكتابٍ سماويّ سواه ، ولن يكون لكتابٍ من أهل الأرض ، وإن تظاهروا على حفظه بكلّ ما ملكت أيمانهم وشمائلهم ، وجاء مسلك التّوكيد في الإنباء بحفظه غير مسلك التَّوكيد في الإنباء بتنزيله : جاء توكيدُ الإنباءِ بتنزيله جملة اسمية عجزها فعلية ، وهذا عاملٌ فتي من عوامل التّوكيد والتّوطيد بما يحمله من تكرير الإسناد وتنوعه : جمع له بين الإسنادين معًا ، وهما جماع طرق الإسناد : إسناد خبرٍ لمبتدإٍ ، وإسناد فعلٍ لفاعلٍ ، وليس وراء ذلك سبيلٌ آخر .

وجاء الإنباءُ بضمير الفصل (نحن) مؤطدًا في السَّمع والأفئدة نعمةَ التَّلذذ باستماع ما يدلُّ على العظمة والجلالِ والعزّة ، فالسَّمع والفؤاد إذا ما تلقيا (إنّا نحن) أفْعِما بفيضٍ من لذة القنوت والخشوعِ .

وجاء إسناد (نزّلنا) إلى (نا) فكان في هذا عونٌ للفؤاد على أن يتبصّر بعض ما لهذا الفعلِ (نزّل) من الجلالِ ، ذلك أنَّ الأفعال إنّما تعرفُ أقدارها بأقدار فاعليها ، وهذا ما يغفلُ عنه غير قليل ، فيجعلون أفعال الله ﷻ في قدر أفعال العباد ، وهذا منهم ما يخالف أصول التلقّي ومنها عند البلاغيّين ما تستوجبه نظرية «النّظم» .

الفعل لا يدرك قدره معنًى إلا بحسن العلم بفاعلِه ، ولا تعرف كيفيته إن كان فاعله من العالمين إلا بالعلم بقدر فاعله ، فأثرُ العلم بقدر الفاعل من البشر في العلم بمعنى الفعل وكيفيته جدّ عظيم ، فإن كان الفعل من ربّ العالمين ، فلا سبيلَ البتة أن يكون للفؤاد ، وإن كان فؤاد وليّ بلْ نبيّ أن يعلم كيفية هذا الفعل ، ولذا كنا مكلّفين بالعلم بمعنى أفعالِ الله ﷻ ، ولسنا بالمكلفين بمعرفة كيفياتها ، فكان السُّؤال عن كيفية الفعل سؤالاً عمَّا لا سبيل

إلى علمِه . فالمعنى معلوم والكيف مجهولٌ ، أي : لاطاقة للعقل بعلمه لأنّه فوق طاقته ، ولذا سيبقى مجهولا ، فعبارة سيدنا الإمام مالك بن أنسٍ ﷺ : «والكيف مجهول» عبارة علية القدر ، فالإعراب بقوله «مجهول» معناها سيبقى مجهولاً لا سبيل إلى علمه ، ومن ثَمَّ كان قوله تعالى (نزّل) نعلم معناه بما يليق بفاعله ذِي الجَلالِ والإكْرَامِ ، ولا نعلم كيفية إيجاده ؛ لأنّه فوق طاقة عقولنا . ولا يكلّف الله العليّ العظيم نفسًا إلاّ وسعها ، وإلاّ ما آتاها .

من هنا تبقَى مهابة الكيْفيّة وجلالها مع جلال معنى الفعل متدفّقة في الفؤاد المُستَطْعِم ما يَستمِع من قوله ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ (الحجر:٩).

وفي إصفاء كلمة ﴿ ٱلذِّكْرَ ﴾ دون كلمة «القرآن» أو «الكتاب» الّلتين هما أكثر حضوراً من كلمة «الذّكر» في أغلب البيان القرآنيّ أمران جليلان :

الأمر الأوّل : استحضار العلم بأن يكونَ هذا القرآن مذكوراً في الأفئدة والألسنة ، ففيه ذكر ما يحبّ الله ـ تعالى ـ من عباده ولعباده ، وما لا يحبهم منهم ، فيكون لهم من ذلك عونٌ على أن يسلكلوا السبيل القويم الّذي طلبوا الهداية إليْه : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٦) ، فكان الجواب الرّبانيّ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) ، أي : ذلك الصّراط المستقيم الّذي طلبتم الهداية إليْه هو الكتاب . العلاقة بين آية «أمّ القرآن» وسورة «البقرة» وآية «الزخرف» علاقةٌ حميمةٌ .

والأمر الآخر : استحضارُ ما يكون لأهلِه تعلُّما وتعليما وترتيلا ، وتدبرًا وتخلقًا ودعوةً من لسان صدق في الآخرين .

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف:٤٣-٤٤) .

وجاء الإبلاغ في تقرير تكفله تعالى بحفظ «الذكر» بالإعراب بـ(نا) التي تقال تجلّيًا بالعظمةِ على قلوبِ المخاطبين ؛ لأنَّ المقام يقتضي إفعامها بها حال تلقّيها الخطاب ، فشعور الأفئدة ببالغ عظمة المتكلم ﷻ معينٌ لها على شيْءٍ من حسن التلقّي ، فإذا ما سمعت الله ﷻ ينبئ عن نفسِه بـ(نا) فاعلمْ أنّه يريدك أن تتلقى ما هو مخبرٌ به ، وفؤادك مترع بتعظيمه عَزوجلّ حتّى تتمكن منْ حسن التلقِي عنه ، وهذا من فيض ربوبيّته ورحمته ورحيميّته ، فاحمده لِذاته ولِما أنعم به عليك مِن تنبيهك إلى ما يعينك على حسن الفهم عنه ، أرأيتَ كمْ هو محبٌّ لك ؟ فقابل حبّه لك وهو الغنيّ الحميد ، وأنت الفقير الضَّعيف بحبّك له ، وإِنْ حرمَك منْ بعضِ ما تحبُّ نفسك ، فهو أعلمُ بمَا يُصلِحها ..

وبناء صورة النَّبإ جملة اسميّة الصَّدر والعجز ، ودخول لام الابتداء على الخبر ، والإعراب عن الخبر باسم الفاعل (حافظون) وفي هذا تقرير ثبات الحفظ وتمكنه وأنه لا يَعْتَرِيهِ انقطاعٌ .

ولفت بهذه المغايرة في سبيل التّوكيد والتّوطيد للنّبأين إلى أنّ منْ آمن بأنّ الحيّ القيوم هو المتكفل بتنزيله عليه أن يؤمن أنّه هو المتكفّل بحفظِه أيضًا ، لِما لهذا الكتابِ الذّكرِ من الفضل على ما سبقه من الكتب المنزلة على الأنبياءِ السّابقين من أنّه الكتابُ المصدّق ما فيها من الحقّ ، والمهيمن عليها ، وهذا يوجبُ له أن يكون محفوظًا حتى يبقَى مصدقًا ومهيمنا ، فتكفّل منزله ﷻ بحفظهِ ، ولم يَكلْ حفظَه لمن أنزل إليهم .

كلُّ هذا لفتًا للبصائر ، للتلبّث في فقه هذا النبإ العظيم ، وفي فقه المنَّة الَّتي يحملها ، وعظيم التّخفيف على الأمّة ، حيثُ لم يكل إليها حفظه كما لم يكل إليها تنزيله ، وكيف أنّه تجلّى على الأمم قبله بتنزيل كتبه ، ولم يتكفل بحفظها ، بل أَوْكَلَ هذا إليهم ، فما قاموا ، فحرفت كتبهم وبدلتْ ، وكان من رحيميته

بهذه الأمّة أن رفع عنها إصر الحفظ ، وتكرم عليها بأن يكون لها شرف حفظ نصّه برواياته التوقيفية المتواترة في الصدور وفي هذا من الإفضال ما فيه ، وهو مستحقٌّ لعظيم الحمد والثناء والشكران ، ولهذا عظيم وثاقة بما استفتحت به سورة (أم الكتاب) .

ومن هذا نفهم أنّ في الإبلاغ في التوكيد في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ما يلفت إلى أن حفظه أمرٌ بالغُ الأهمية ، وأنه أمرٌ جدّ ثقيل ، لا يكون إلاّ ممّن أنزله . فالمِنَّة في حفظه عديل المنّة في إنزالِه .

* * *

تنزّلات القرآن : الدّلالة وظواهر جمال الحكمة الرّبانيّة .

ممّا توارثه أهلِ العلم عن أصحاب رسول الله ﷺ أنّ للقرآن ثلاثةَ تنزّلاتٍ[1] .

التنزيل الأول : من الله ﷻ إلى اللوح المحفوظ :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ (البروج:٢١-٢٢) .

(١) ينظر : مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ . مبحث نزول القرآن منجما. ٢١٨/١ البقاعي : إبراهيم بن عمر ابن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى : ٨٨٥هـ) تحقيق : عبد السميع حسانين . مكتبة المعارف ـ الرياض . ط . الأولى ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م .
وكتاب « مناهل العرفان في علوم القرآن . ٤٣/١ .
وقد أفرد الأستاذ الدكتور : محمد أحمد عبد العزيز الجمل لذلك بحثًا ناقش فيه طعن الرافضين القول بالتنزل الثاني وردّ أدلتهم ، وقرر أنّ التنزلات ثلاثة. ينظر بحث: تنزلات القرآن الكريم . مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ـ تصدر عن جامعة الكويت مجلس النشر العلمي ـ العدد (٩٠) السنة (٢٧) (شوال : ١٤٣٣هـ . سبتمر : ٢٠١٢م ، ص ١٩١-٢٣٨ .

﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف:١-٤) [(١)] .

وقد نزل القرآن جملة في اللّوح المحفوظ ، وذلك اللّوح هو الذى أودع الله ﷻ كلَّ شيْءٍ فيه :

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ (القمر:٥٣) .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام:٣٨) .

التنزيل الثّانى : من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السّماء الدنيا جملة واحدة فى ليلة القدر :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ (القدر:١) .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة:١٨٥) .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (الدخان:٣) .

وروى الحاكم بسنده فى المستدرك في كتاب التفسير ـ أنزل القرآن جملة واحدة بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال : « فُصِلَ القرآنُ مِن الذِّكرِ فوضِعَ فى بيت العِزَّةِ من السَّماء الدُّنيا ، فجَعَلَ جبريلُ الطَّيْلا ينزل به على النبي ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ يُرتِّلة ترتيلا » (حديث رقم : ٢٨٨١/١٠) .

---

(١) جامع البيان للطبري ، ٥٦٦/٢١ تحقيق : أحمد شاكر .

وروى الحاكم فى المستدرك والبيهقيّ فى الأسماء والصّفات ، والطبرانيّ فى (الكبير) عن ابن عباس ـ رضِيَ اللهُ عَنْهَما ـ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ (القدر: ١) .

وقال : «أُنْزِلَ القرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ القَدْرِ إِلَى السَّماءِ الدُّنيَا وَكانَ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وكانَ ينزل على رسُولِه ﷺ بعضَه فى أثَرِ بعض ...» ، (كتاب التفسير ـ حديث : ٧/٢٨٧٨) .

وفي تفسير ابن جرير سورة (القَدْرِ) فيضٌ من الأخبار الموقوفة المؤكدة ذلك المعنى .

وإذا ما كان هذا موقوفا على سيدنا ابن عباس ـ رضِيَ اللهُ عَنْهَما ـ فإنَّ ما هو موقوف على الصحابى فيما لا مجال فيه للرأى كالمرفوع ؛ لأنَّه لن يقول صحابيٌ في هذا من عند نفسه ، بل لابدَّ أن يكونَ قد سمعه من النَّبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ [1] .

وهذان التنزيلان لا سبيل إلى العرفان بكيفية كلّ ، وليس من وراء العرفان بهذه الكيفية عملٌ يقوم له العباد ، ولذا طوى الله ﷻ عنا تكليف العلمِ بذلك ، فجعل إيماننا به من باب «الإيمان بالغيبِ المطلق» ، وهو معدن الإيمان . فشأن العبد ألا يبحث عن العرفان بما لا يترتب عَلَيْه عمل ، فالعرفان بعلم يترتبُ عليهِ عملٌ يستغرقُ العمر والجهد ، فليس من الكياسة في شيْء أن ننفق أعمارنا وجهدنا في العرفان بنافلة إن كانت ممكنة ، ولـم نفرغ من العرفان بفريضةٍ ، فمنطق العقل الفطريّ يحاجز صاحبه عن مثل هذا السّعي : السّعي إلى علم بنافلة ، ولم يفرغ من علم بفريضة ، وإنجاز ما يترتب عليه ، ولو

---

(١) ينظر : الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ١/٤٣-٤٧ .

أنـّك استجمعت الأسئلة التي تطرح ، وينفق من العمر والجهدِ في السعي بحثًا عن جوابها ، وهي أسئلة عن نافلة ، بل منها ما هو أسئلة ما يطيق العقل البحث عن جـوابها الصحيح ، لرأيتَ عظم هذه الأسئـلة المطروحة في الأسفـار ، من هذا القبيــل : أسئلة عن علـم بنافلة ، أو أسئلة عن علـم بما لا يترتب عليه عمل ، أو أسئلة عن ما لا طاقة للعقل بتحصيل جوابه إن قدّر ـ جدلاً ـ أن يكشف عنه ممّا يهديك إلى أنّ هنالك خللا بيّنا في منهجية التساؤل ، والبحث عن الأشياء كثيرًا ما نتساءل ونبحث عن أشياء لسنا بمكلفين بالعلم بها ، لذا وجب علينا أن نسأل أنفسنا قبل أن نسأل وقبل أن نقوم لنبحث :

أيمكن أن نجد لهذا السؤال جوابا ؟

وإن وجدنا أيطيق العقل تحصيله ؟

وإن أطاق أيترتبُ عليه عمل ؟

وإن ترتب أهو فريضة أم نافلة ؟

إن يكن نافلة أفرغنا من الوفاء بحق الفريضة؟

أرأيت كم أنا وأنت قد نبتعد كثيرًا عن الجادة ، ونحسب ضلالة أنـّا على ثبجها .

إنّ من عطاءات الإيمان بالغيبِ تقوية العبد في حسن القيام بما كلّف به ، فأنت حين تكلف بأمر تعجز عن العرفان بحكمته ، وأنت تؤمن أن هذا التكليف (الإلزام) من الله ـ تعالى ـ العليم الحكيم ، فتقبل مجتهدًا في الإخلاصِ والإتقان ، وأنت تجهلُ الحكمة ، والمثوبة ، فإنك حينئذٍ تكون قد طرقت باب مقام العبودية الصفاء ، فأقم ، ولا تبرح .

التّكليف بالإيمان بالغيب هو من أفقِ هدايةِ الإعانة لمن حرصَ على

استحقاقاته ، فاجعل منه زادَك واحرص على تمكينِ فؤادِك منه ، ومن تمكينه من فؤادِك ، فإنّه زادك في سفرك إلى ربّك ﷻ ، ولذا جعله الله ـ تعالى ـ في رأس الأعمال الصالحات :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (البقرة:١-٥) .

الإيمان بهذين التّنزيلين هو من أفق الإيمان بالغيب ، ولا سبيل إلى العرفان بكيفية هذا التّنزيل .

ولنا أن نستأنس بهذا الإيمان بالغيب في اليقين بأن نسق التلاوة الذي بين دفتي «المصحف» الذي لم يمسّه أدنى تحريف منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا إنّما هو المطابق لما جاء في التنزيلين الأولين ، فليس من الحكمة قطُّ أن يكون ما بين أيدي العباد يتزلّفون به ترتيلا ، وتعلما ، وتأدبًا ، وتعليما ، ودعوة إلى الله ـ تعالى ـ غير مطابقٍ لما في اللّوحِ المحفوظِ .

كأنّي أستشعر أن الله ﷻ يلّوح لي بهذا إلى أنّني حين أنظر في «المُصحف» بين يديّ ، إنّما أنظر في شيْءٍ من اللّوح المحفوظ ، وهذا ممّا لا يطيق العقل أن يتصور عظيم قدرِ التكريم لما استطعم.

التنزيل الثالث : من بيت العزّة إلى سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ فى ثلاثة وعشرين عامًا بدأ التنزيل ليلة القدر :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ



مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (القدر: ١-٥) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ حم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الدخان: ١-٦) .

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾

(الإسراء: ١٠٦) .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٢-٣٣) .

فالتنزيل الثّالث كان منجّما على حسب الأحداث والوقائع ، وفى هذا ضرب من ضروب التّربية للأمَّة ومعالجة لأحوالها ، وللعقل البلاغي بلْ عليْهِ أن يتبصر منهج القرآن في معالجة الأحداث بالآياتِ ، ليتخذ من هذا خبرةً في معالجة الأحداث بتنزيل الآيات عليها لتصلح شأن العباد وأحوالهم فيها ، فللعقلِ البلاغي مشغلة بالنَّظر في التَّنزيل على حسب الأحداثِ .

وهذا غيره النَّظر في الآيات على حسبِ النسق المديد للتلاوة ، فلكلّ من العطاءِ ما ليسَ للآخر[1] .

---

(١) لعله ممّا يحسن بالعقلِ البلاغي أن يقوم لمدارسة بلاغة التنزيل والتنجيم ، ويكشف عن معالم مطابقة ما أُنزل للحال التي اقتضت النزول، وكيف عالج البيان النازل ما نزله عنده ، فيبين عن وجهين من البلاغة : بلاغة ما نزّل وقد أفرد من سياقه المديد ، =

إذا ما نظرت ألفيت النُّزول الأوَّل والثّانى كان نزولاً جَمْعِيًا للقرآن الكريم ، وكان النُّزولُ الثَّالثُ نزولاً مُفرَّقا : قد تنزلُ آياتٌ من سورة ، فتَتْلوها آياتٌ من سورة أخرى قبل تمام السورة الأولى : ظلت سورة البقرة تتوالى آياتها نزولا سنوات عِدَّة ، وكان فى أثناء نزول آياتها تنزل آيات سور آخرى ، وكان جبريل - عَليه السلام - ينزل بالآية وموضعها من سورتها على النبيّ ﷺ ، وفي أمره ﷺ كتابَ الوحى بأن توضع آية كذا فى سورة كذا مُحَدِّدًا موضعها ، حتَّى إذا ما تم القرآن الكريم نزولاً كانت كلُّ آيةٍ فى كل سورة فى موضعها المحكم ، وكذلك كلّ سورة فى موضعها من النسق الكُلِيِّ للقرآن الكريم على النحو الّذي هو عليه فى الَّلوح المحفوظ وفى بيت العزة من السماء الدُّنْيَا (التنزيل الأوَّل والثانى) .

ولذا كانت العرضتان الأخيرتان للقرآن الكريم فى شهر رمضان الأخير من حياة النبي - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - مطابقتين فى ترتيب الآيات والسور لما هو عليه فى اللوح المحفوظ فى بيت العزة ، وبذلك تطابقت صورة الترتيب الكليّ للقرآن الكريم فى أطوارها التنزيليّة الثلاثة ، فما بين أيدينا من صورته التَّرتيليَّة آياته وسوره هو ما عليه القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ وفى بيت العزة[1] .

ولعل هذا بعض من معنى قول الله ﷻ : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١) .

=وبلاغته وقد أقيم في سياقه المديد ، ليشير إلى ما أضافه نسقه في سياق التَّرتيل المديد إلى ما لم يكن حين كان في سياق النزول المنجّم ..

(١) مقدمتان في علوم القرآن : مقدمة كتاب المباني في نظم المعاني ، ومقدمة تفسير ابن عطية ، ص ٣٩ صححهما : آرثر جفري . مكتبة الخانجي ١٩٥٤م .

لهذا كان للمعنى القرآنيّ سياقٌ كُلّيٌّ تقع كُلُّ سورةٍ من سُوَرِه على مَدْرَجَةٍ من مدارج هذا السّياق القرآنيّ ، يبدأ هذا السّياق بأمّ الكتاب الّتى تجمع معاني القرآن الكريم كلّه فيها ، فكانت جديرةً بأن تكون أمّ القرآن ، وبذلك جاءت السُّنة مؤكِّدة أنـّها (أمّ القرآن) وأنـّها السّبع المثاني والقرآن العظيم .

هذا التّنزيل الثّالث آية قطعيَّة الدَّلالة عند أولي الألباب على أنَّ هذا الكتاب إنَّما هو كلمة الله ﷻ ، ذلك أنـَّه ما يكون لبشرٍ قطُّ في أي عصرٍ أو مصرٍ أنْ يوردَ مع أحداث الزَّمان ووقائعه الَّتي لا يملك هو نسق وقوعها وتناسقها أن يأتي معها بقولٍ من عندِه ، ثمَّ يأمر بوضع هذا القول في موضع كذا من قبله كذا ومن بعده كذا ، حتَّى إذا قارب زمانه كان قوله المتفاوت إنشاءً وفق أحداث الزَّمان متسقًا بعضه مع بعض يعجز النَّاس عن أن يحدِثوا فيه تغييرًا بتقديمٍ أوتأخيرٍ ، ذلك لا يكون قطُّ في طاقة أحدٍ من الخلائق ، بل ولا في طاقتهم أَجمعين .

ومن هنا كانت مدارسة مواقع الآيات والنّجوم والمعاقد في بنية السُّورة ، ثمَّ في نسق السّور وترتيبها فريضةً على القائمـيـن للوفاءِ بحقّ النَّصيحةِ لكتابِ اللهِ ـ تعالى ـ ولعامَّة النّاس ، ففي هذه المدارسة تبيينٌ وتقريرٌ بالحجّة المتينة والبرهان الفتيّ حقيقة إعجاز القرآن في بلاغته ، بدءًا مِن بناءِ الجملةِ فِي سياقها إلى نسقِ السُّور فِي السِّياقِ التَّرتيليّ المَديد للقرآن كلّه .

يقول الشَّيخ دراز : « إذا ما كانتْ السورة القرآنية من نتاجِ هذه الظروف ، تكون وحدتها المنطقيّة والأدبيّة في نظرنا معجزة المعجزاتِ ... » (١) .

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم حقائق تاريخية . ص١٢١-١٢٤ تأليف : محمد عبد الله دراز . نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . وزارة الأوقاف المصريّة ـ القاهرة ١٤١٤هـ .

ولهذه السُّورة ذات الوحدة المنطقيّة الأدبيّة كما يسمّيها «دراز» موقعٌ على مَدْرَجَة سياق المعنى الكُلِّيِّ للقرآن الكريم وهى مدرجة متصاعدة ، فإذا المعنى القرآني فى حركة نمَاءٍ متكامِلٍ ، فكلُّ سورة تتلو أخرى يكون فيها من المعانى الكلية والجزئية ما هو مؤكِّدٌ ما سبق تأسيسه فى السّابق ، وتأسيس ما هو مُكْمِلٌ ما سبقه حتى يصل المعنى القرآني إلى ذروته فى سورة (الإخلاص) و(المعوذتين) ، وقد نصَّت السنّة المطهرة على أنَّ منزلة سورة «البقرة» من القرآن الكريم منزلة السَّنام .

روى التّرمذيّ في كتاب فضائل القرآن من جامعه بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ عنِ النبي ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قال : «لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ ، وإنَّ سنام القرآنِ سُورةُ البقَرَةِ ، وفِيها آيَةٌ هِيَ سَيِّدةُ آيِ القرآنِ هي آيةُ الكرسيّ» .

في هذا هداية إلى أنَّ سورة «البقرة» أيضًا فيما هو ممتدٌّ أثره في سائر السُّور بعدها ، فكما أن «سنام» البعير فيه ما يمدّ سائره بالغذاء ، كذلك في سورة «البقرة» ما يمدّ معاني الهدَى في سائر السور بعدها ، وفيها أيضًا ما يمدّ المتدبر بما ينير له الطريق إلى طَلِبته ، فهو يمكنه أن يستكشف شيئًا في سورة «المؤمنون» مثلا ، بآية من سورة «البقرة» وهكذا[1] .

وفي قوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : «وفِيها آيَةٌ هِيَ سَيِّدةُ آيِ القرآنِ هي آيةُ الكرسيّ» ما يهدِي إلى أنّ هذه الآية منزلها من آيات

---

(١) يذهب الشيخ سعيد حوّى (ت : ١٤٠٩هـ) في كتابه «الأساس في التفسير» إلى أن سائر سور القرآن بعد سورة «البقرة» كُلُّ سورة منها تفصيل لآية فيها . ينظر : الأساس في التفسير ، ٢٤٠٨/٥ تأليف سعيد حوّى ، دار السلام ـ القاهرة . ط . السادسة ، ١٤٢٤هـ .
هذا الذي ذهب إليه الشيخ من حقه أن يُعمد إلى مراجعته ومفاتشته تحقيقًا وتحريرًا .

التوحيد في القرآن كمثل منزل سورة «أم القرآن» من سائر سور القرآن ، فلو أنّا استجمعنا الآيات الدَّالة على وحدانية الله تصريحًا ، وأرجعنا كل آية لجملةٍ من جمل آية الكرسيّ لكان هذا عملاً بليغ النّفع في هذا الباب ، أمَّا الآيات الدالة على وحدانية الله ﷻ تلويحًا ، ولا سيَّما المدركة بطريق الإفادة: «مستتبعات التراكيب» فهي تكادُ تجمع آيات القرآن ، فتحت كلِّ آيةٍ من آياته معنى «لا إله إلا الله» وإن تنوعت مستويات الدَّلالة والإفادة .

ومن يقرأ قول الله ـ تعالى ـ فاتحة سورة «الزّخرف» ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف:١-٤) يرى أنَّ من حقٍّ نفسِه عليه أن يتساءل : ماذا يعنى قوله ﷻ : ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ ؟

أمِنْ شأن ما هو عليٌّ حكيمٌ أن يُوصم بالفوضى في نسق آياته في سوره ، وبالفوضى في نسق سوره في سياقه المديد[1] .

ومن حقها عليْه أن يتساءلَ : ما أمّ الكتاب ؟ وما معنى أنّه في أم الكتاب ؟

أيمكن أن يكونَ فيه وهو موصوم بالفوضى كما ذهب إليْه واحد من أكابرِ المجترئين على كتاب الله ـ تعالى ؟ وما شأن الإعراب بقوله ﴿لَدَيْنَا﴾ ؟

أليس من حقّ مَن يتوقّف عن التّسليم بأن آيات السّورة توقيفية في ترتيبها ونسقها ، وأن سوره توقيفية في ترتيبها ونسقِها ، وأن أحزابه توقيفية في ترتيبها ونسقِها أن يتساءل أمن وراء هذا النّسق حكمة ؟ أليس كلّ ما هو مِن الله ﷻ من ورائه حكمة ؟

---

(١) ينظر كتاب : نحو تاريخ آخر للفكر الإسلام . ص ٧٦ محمّد أركون ، ترجمة : هاشم صَالح . دار السّاقِي . بيروت . ط . الثالثة ـ ٢٠٠٧م .

أسئلة إذا ما واجه المرء نفسَه بها فزع إلى أنْ يسعى مجتهدًا إلى البصر بما في نسق آيات القرآن في سياق السورة ، وما في نسق السّور في سياق التّرتيل المـديد للقرآن كلّه من حكمـة هو أحوج إلى أن يرتشـف منها ، فكيف إذا ما أوتي ذَنوبًا منها : ﴿ **يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (البقرة:٢٦٩) .

وليس نفيعًا رفيعًا أن يستغني المرْء عن أن يطعم من عمله بأن يحمل عن غيرِه علمًا استخرجه بنفسِه لنفسِه ، ولمن هو عاجزٌ عن أن يفعل ، فإن أهل العلم ينشرون العلم لينتفع بثماره من كان غير قادرٍ على أن يصنع مثلهم ، لـضعفٍ أو ضيق حالٍ أو خرقٍ . أمّا من كان مقتدرًا على أن يصنع لنفسِه ولمن عجز معذورًا ، فإن ما يكون من أهل العلم لا يصلح أن يستغنى به ، وإن كان أهلاً لأن يسترشد بِه ، وفرق بين الاستغناءِ والاسترشاد . الاستغناء للدّهماء ، والاستهداء للسائرين إلى مرضاة ربّ العالمين اجتهادًا وجهادًا ، فانظرْ أيّ الثّلتين أحبُّ إليْك ؟

كلّ هذا يقيم في قلبك أنّ كلَّ أمرِ هذا الكتابِ فيه ما يقتضِي الاعتكاف في محرابِ تبصره ، فليس شيءٌ فيه إلا وهو جديرٌ بأن يفرغ المرء عمره لتبصره والاهتداء بما فيه من معاني الهدى ، ومن هذا ما يتعلّق بإعجاز ترتيبه : كلمًا في جمل ، وجملا في آيات ، وآياتٍ في نجومٍ ونجومًا في معاقد ، ومعاقدَ في سور ، وسورًا في أحزابٍ ، وأحزابًا في سياقه الجمعيّ ترتيلاً . فمن شاء أن يفقهَ معنى في آية من سورةٍ ، فحرًى به إن كان ينشد أحسن ما أنزل إليه عطيةً أن يتبصر موقع هذه السّورة من حزبها ، وموقع حزبها من نسق القرآن المديد .

* * *

أثر تحزيب القرآن :

في الوعي بموقع السّورة من حركة المعنى القرآني المديد

كلٌّ مسلم عليم بأنَّ القرآن الكريم له فاتحة وخاتمة ، ومن بينهما السُّور المفصلة ما أجمل في الفاتحة ، وكرَّس هديه في الخاتمة . فاتحته هي «أمّ القرآن» وخاتمته هي سورة «قل هو الله أحد» ، والمعوذتان ، وما بين الفاتحة والخاتمة بدءًا من سورة «البقرة» إلى آخر سورة «المسد» تفصيل لما في سُورة أم القرآن «فالسّور المفصلة عدتها عشر ومئة سورة (١١٠ سورة) نسقت على نحو خاصّ». ولما كان هذا من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان يقينًا أن من وراء ذلك حكمة ، وأن لنا في تدبره عطايا لا تتناهى .

ولما كانتْ هذه السور المفصلة فوق المئة سورة ، كان من فيضِ الرحمةِ أن جعلت هذه السور المنفصلة أحزابًا :

إنَّ ممّا نحمله من عطاء سيّدنا رسول ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ما رواه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في مسْندِه بسنده عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ ـ رضِي اللهُ عنه ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ :

«أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ» .

منطوق العبارة النّبويّة هادٍ إلى أنّ سور كلّ حزب لها خصوصية تمتاز بها عن سور الأحزاب الأخر ، وفي هذا دعوةٌ نبوية صريحة إلى أهل العلم بالقرآن أن يقوموا ليتبينوا ما تتّسم به سور كل حزبٍ ، وتمتاز به عن سور الأحزاب الأخر. فما كان النبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ لينبئَ عن هذه العطية الربانية إلا ليحملنا إلى أن يكون لنا منها عطاءٌ جليلٌ ، فإنّ من شأنه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ أن يكون لأمته من عطاء الله ـ تعالى ـ



له نصيبٌ ، أوَ ليس هو القائل : «أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا» . (رواه الترمذي في كتاب «الزهد» من جامعه ، وحسنه الألباني) .

ما جاءنا عن رسول الله ـ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم ـ من حديث واثلة بن الأسقع ـ رَضِيَ الله عَنه ـ يساعدُنا كثيرًا على تبيّن موقع السّورة ، وطابع البيان فيها عن مضمونه الّذي ينمِيها إلى حزبها .

وهذا أيضًا يهدينا إلى الطّابع العامّ لسور كلّ حزب ، فإذا فرضنا هذا الفرْضَ وجرينا عليه سبرًا واختبارًا ، فإنّا إذًا كنا مثلا بصدد دراسة سورة «المائدة» ، وهي من الطّوال ، فإنَّ النَّظر في موقعها مِن سور هذا الحزب الّذي أعطيه سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ مكان التّوراة يساعدنا على حُسن البَصر بخصائص هذه السُّورة على مستوى الموضوع والمضمون ، وهذان في معهود العرب في الإبانة والإفهام ممّا له أثرٌ في منهج الإبانة نظما (النّسق النَّصّيّ) وفصَاحة (النّسق الجزئيّ) ، لأنّ منهج الإبانة منظورٌ فيه إلى أشياءَ منها الموضوع والمقصود . وهذا يوجب أن يكونَ البصر بموقع السّورة في سياقها التَّرتيلي مشغلة العقـل البلاغيّ فكـلٌّ فاعلٌ في سياقِه ، وسياقُـه فاعـلٌ فيه .

وقد عُني شيخُنا أبو موسَى في دراسته سـور (آل حم) بأن يلفتنا إلى عـلاقة هذه السُّور بسياقها ، وعلاقة كلّ سورة بما قبلها : تراه يذهب إلى أنّ سورة «غـافر» أمّ ما جـاء في سـائر سور «آل حم» : كلّ ما سيأتي في سور «آل حم» منسولٌ ممّا تقوم عليْهِ سورة «غافر» المكنوز في قول الله ﷻ :

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ (غافر:٤) [1] .

---

(١) ينظر كتاب : آل حم الشورى ـ الزخرف ـ الدخان : دراسة في أسرار البيان . ص٢٥٢ مكتبة وهبة القاهرة .

ومثل هذا يحملني إلى أن أزعم أنّ في ما أنبأ به حديث واثلة بن الأسقع عن سيدنا رسـول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ، دعـوةً إلى أن نتبين ما بين سور كلّ حزب من علاقاة التناسب والتآخي والتناغي مضمونا ومنهاجَ إبانةٍ وإفهـامٍ ، وأن نتبين علاقة سور كل حزبٍ بما جعـل مكـانه من التوراة أو الزبور أو الإنجيل؟

أيكون لديّ ما أفرض فرضًا علميًّا أنَّ للقرآن أربعَةَ معانٍ كليّة كلّ معنى هو المعنى الأم لسور كلّ حزب .

وهذه الأربعة تهودُ إلى المعنى الأم للقرآن كلّه ، وعلى هذا يكون لدينا معنى أم للقرآن كلِّه ، تتفرع منه أربعةُ فروع كلّ فرع هو معنى أمّ لكّل حزبٍ من الأحـزاب الأربعـة وفق حديث واثلة بن الأسقع ، ثم في كلّ حـزبٍ معنى أمّ بعدَد سورِه لكلٍّ سورة معنى أمّ .

هل لـي أن أذهب إلى هذا ، كيما يساعد على أنْ أضبطَ حركة تبصّر العلاقات بيْن السّور ، وموقع كلّ سورة من ذلك .

هذا بابٌ مِن العلم ما يزال القائمون له جدًّ نزيرٍ ، لما يتّسمُ به مِن الوعورة التي لا يعشقُ العمل فيها إلا الرّجال ، الّذين نشّؤوا على أن يَنحتُوا من الجبال قصوراً .

ليس مِن شكٍّ في أنّه ليس بيـن يديْنا مـن «الـتـوراة» أو «الـزَّبـور» أو «الإنجيل» ما نثق به لنتبيَّن المعالم الكبرى لما حمله كلٌّ من معاني الهُدَى ، فلم يبق مِن هذه الكتب في الأيدي الآن ما يُمكن لأيّ مجترئ ممَّن يتعبَّد به أنّـه هذا هو النَّصّ الّذي نزل مِن السّماءِ .

هذه كُدْيةٌ لا سبيل لمثلي أن يجتازها سالمًا ، فهل لي أن أسترشد إلى ذلك بأن أستجمع المعالم الكبرَى الّتي اجتمعت عليها السّور الّتي جعلت مكان

كتاب منها من الكتب الثلاثة ، أي أستجمع المعالم الكبرى لما اشتملتْ عليه «السّبع الطُّوال» من معاني الهدَى ، لأبصر شيئًا ممًّا اتسمت به التّوراة المنزلة على سيدنا موسَى عليه السلام ، وهكذا سور المئين ، وسور المثاني .

وهلْ لـي أن أتبصّر ما في سور«المفصل» التي فضّل بهـا سيدنا رسـول الله ـ صَلَى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ وليس منها على نحوٍ خاصّ ما قابل التّوراة والزّبور والإنجيل مِن سور . أيْ أنْ أبحثَ عن الخصوصيّات الّتي امتازتْ بها سور «المفصل» ، وليس منها على نحوها قدرًا ومقدارًا ونوعا وكيفية في سائر سور السبع الطوال والمئين والمثاني .

أليس هذا من حقه أن تنتدبَ المؤسسات العلمية للقيام لها ، وأنْ يتعاون الأعيان من أهلِ العلم على رسم المعالم الكبرى ، ثمّ الملامح الدّقيقة لمنهجيّة النظر في شيءٍ من هذه الفريضةِ ؟

وإذا ما كان تحزيبُ القرآن أربعة أحزابٍ أمرًا توقيفيًّا بيَّنته السُّنَّة النَّبويّة ، فهذا يُفهمُ أنّ لِكلّ حزبٍ من الأحزابَ الأربعة خصوصيَّةً في الرّسالة الّتي يحملها بيان سور كلٍّ ، وهي خصوصيّةٌ لابدّ أن يكون لها أثرٌ بالغٌ في خصوصيّة منهج الإبانة إفهامًا لهذه الرّسالة المحمولة ، ذلك أنّ المحمول أيّ رسَالةٍ : (المعنى والمغزى) ذو أثر في اصطفاء منهج الإبانة ، وأدواتها .

وهـذا يحـمـل مَـن شاء أن يتلقّى المعنـى القرآنيَّ ، فـقـهًا ثُمّ فهمًا عن الله ـ تعالى ـ أن يسعى إلى أن يتبيّن موقعَ السّورة الّتي أراد تلقّي المعنى القرآنيّ المكنوزِ فيها ، فكلُّ سورةٍ في كلّ حزبٍ هي لا شكّ تقومُ بثلاث مهامّ كبرَى :

المهمّة الأولى : التّهيئة لما هو آتٍ فيها .

والمهمة الثّانية : تأسِيس معان جديدة لم يسبق إيرادها نوعًا أو كيفية .

والمهمة الثّالثة : تقرير ما تمَّ تأسيسه والتهيئة لما هو آتٍ في السّورة اللاّحقة .

وهذا يهدِي إلى أنّ المعنى القرآنيَّ يَرِد على الفؤادِ المعافَى ثلاث مرَّات ، كلّ مرة يرِد عليها في صورة مختلفةٍ عَن غيرِها ، فهذا مِن تصريفِ البيان عَن المعنى ، وهذا من فيض ربانيته العالمين ورحيميته فمِن النّاس ما لا يدرك المعنى إلاّ مِن المهمة الثّانية ، ومنهم منْ يدركه بأنماط إيراده الثّلاثة . فيتقرر في النفسِ أيما تقرّر . وممّا هو جدير بِالاعتناءِ به أنّ كلَّ سورة لها موقع من أمرين :

الأمر الأوّل : موقعُها من سُورة « أمّ الكتاب » .

والأمر الآخر : موقعها من سور حزبها .

أمَّا الأوّل : موقعُها من سُورة « أمّ الكتاب » ، فقد جاء فِي بيانِ النّبوّةِ تسمية سُورَة الفاتِحةِ : « أمَّ القرآن » و« أمَّ الكِتاب » فكانتْ تسميةً توقيفِيّة لها دَلالاتُها ، رَوَى البُخاريّ في كتاب (التفسير) من صَحيحِهِ بِسندِهِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضِي اللهُ عنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : « أُمُّ الْقُرْآنِ هِىَ السَّبْعُ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ » .

وروَى أبوداود في كتاب (الوَتر) مِن سننِه بسندِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضِيَ الله عَنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : « ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي » .

وهذا يحملُ أهلَ العلم بكتاب الله ﷻ على أن يستبصروا ما جمعته هذه السّورة (أمّ القرآن) من معاني الهدى في سائر سورة القرآن ، بحيثُ يضعون أيدينا على كلّ معنى من معاني « أمّ القرآن » في سائر سور القرآن ؛ ليكونَ في هذا بيانٌ لعظيم وثاقة علاقة كلّ سورة ، بلْ كلّ معنى مِن كلّ سورة بما في سـورة « الفاتحة » ، ولنتبين أي معاني سـورة « أم القرآن » أكثر حضوراً في

القرآن ، وأيُّها أكثر تصريحًا بِه ، وأيُّها أكثر دلالة عَلَيْهِ تلويحًا ، ومقتضيات ذلك كلّه ، وليتجلّى لنا منهاج القرآن في التّصريف البيانيّ للمعنى ، ولنتبيّن ما بين السّور من تنوع في منهاجيّة التّصريف ومستويات الدّلالة جلاءً وخفاءً ، قربًا وبعدًا ، إحكامًا ، واحتمالاً ، وعلاقة ذلك بسياق القول فيها ، ومغزاها (مقصُودها الأعظم) .

(التفصيل) : يمكننا أن نجعلَ أصولَ المعنى القرآنيّ المجملة في سورة «أمّ القرآن» على النّحو التّالي : (الْحَمْدُ لِلَّهِ) (رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الرَّحْمَنِ) (الرَّحِيمِ) (مَالِكِ) (يَوْمِ الدِّينِ) (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (اهْدِنَا) (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) (الضَّالِّين) .

كلُّ أصلٍ مِن هذه الأصول المجملة في «أمِّ القرآن» له تفاصيله في سائر سور القرآن .

نَعمد إلى ما يتعلق بمعنى (الحمد للهِ) مِن الجمل والآيات والنُّجوم ، والمعاقد (الفصول) في كلّ سورة ، فنرجعه إليه ، ونبيّن مستوَى التَّعلّق، ونوعه، وكهذا حتى نفرغ مِن كلّ معنى في كلّ سورة له علاقة ما بمعنى «الحمد لله» ، أيّما كان مستوى التّعلق جلاء أوخفاء ، قربًا أو بعدًا ، إحكامًا أو احتمالا ...

نبدأ بسورة «البقرة» إلى آخر القرآن ، ثم نستقرئ المعاني المفصلّة لكلّ أصل في سورة «أمّ القرآن» ، ثمّ نعمدُ إلى أنْ نجمعَ كلاً في فصلٍ ، وهكذا حتَّى نفرغَ مِن إلحاق كلّ معنى من معاني السّور المفصلة ؛ لما في سورة «أمّ القرآن».

وهكذا يكون لدينا بابان :

الباب الأوّل : استقراء علاقات معاني كلّ سورة بأصله من «أم القرآن» على نسق التّلاوة .

والباب الآخر : استقراء علاقات المعنى الواحد بأصله في «أم القرآن» على مستوى القرآن كلّه .

الأوّل : القصد فيه إلى استقراء علاقات معاني كلّ سورة بأصله من «أم القرآن» على نسق التّلاوة ، ونرصد ما حضر وما لم يحضر منها في السورة ، وما بينها من تفاوتٍ في مستويات الحضور ، وفي مستويات الدلالة عليه ، فإذا فرغنا عُدنا ، فنسقنا القول في كلٍّ سورةٍ ، لنتبيّن نسق معاني سورة «أمّ القرآن» ومواقع بعضِها من بعضٍ في كلّ سورة ، ولنرى أرتّبت في سورة «البقرة» مثلاً قريبا من ترتيبها في «أم الكتاب» أم اختلف الترتيب ، وما مقتضِيات هذا التَّنوع ؟ وهكذا في سائر السّور ، ليتبين لنا خصوصية كلّ سورة ، ونجتهد في استبصار مقتضيات ذلك ، وعلاقة هذه المقتضيات بسياق القول في السّورة ومقصودها الأعظم .

والآخر : استقراء علاقات المعنى الواحد بأصله في «أم القرآن» على مستوى القرآن كلّه .

فمن شاء أن يقرأ المعاني الَّتي تنتمي إلى «المالكية» مثلاً في القرآن كلّه أيًّا كان نوع العلاقة ومستوى الدَّلالة عَلَيْه كان له ذلك ، فيرجعها إلى قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:٤) فمن ملك هذا اليوم لابدّ أن يكون إلهـا واحـدًا لا ينازع ، فتدخل تحته كلّ الجمل والآيات والنّجوم الدَّالة على وحدانيته تعالى ، وأن يكون عزيزًا ، وأن يكون محيطًا علمه بكلّ العالمين ، وأن يكون كميل اقتدار عَليْهِ ، وأن يكون عادلاً ، وأن يكون رحمانا ، وأن يكون رحيمًا ، وأن يكون قيومًا ... وهكذا تندرجُ كلّ آية تحمل شيئًا من هذه المعاني تحت قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:٤) .

وهذا يبين لك أنَّ الآية الواحدة يمكن أن ترتبط بأكثر من أصل من الأصول المكنوزة في سورة «أمّ القرآن» على تنوّع مستويات الارتباط ، وعلى تنوّع الدَّلالة ومستوياتها ...

وهذا يستوجب كثيراً من المراجعة والمفاتشة ، والتّفرس والتَّدسّس ، لإبصار العلاقات الخفية والبعيدة ، فإنّ من المعاني ما يكون الإعراب عنه من سبيل «الدَّلالة» بكلّ درجاتِها ، ومنها ما يكون سبيل الإعراب عنه من سبيل «الإفادة» لا «الدَلالة» ، ولعلماء أصولِ الفقه وعلم البلاغة وعي بالغٌ بذلك يستعان به في تحقيق ذلك .

من مثل هذا سيتبين لك أن كثيراً من الآيات لها علاقة وثقَى بكثير من أصول المعنى في« أمّ الكتاب» على تنوع مستويات التّعلق وأنواعه .

ونحن إذا ما علمنا موقع معاني الهدى من سورة «أمّ القرآن» في أيّ سورة نحن بصدد تفقه معانيها ، كان ذلك أعون لنا على أن نعيي طابع هذه السّورة من حيث ما غلب عليْها من المعاني ، وأثر ذلك في منهاج الإبانةِ والإعرابِ والإفهام ، ونسق المعاني وتناسلها وتلاحظها ، فإنَّ لكلّ سورة خصوصيتها . فالله ـ سبحانه وتعالى ـ الّذي له الخلقُ والأمرُ ، لمْ يجعل اثنين في عالم الخلق متطابقين ، وإن كانا توأمين ، وفي عالمِ الأمر والقرآن الكريم منه لم تأتِ سورة من سور القرآن متطابقة مع سورة أخرى في مكوّناتها وتكوينها ، وبنائها النَّصّي .

وهذا يستوجب على منْ يقوم لدراسة سورة من سور القرآن أن يستولد منهج دراستها منها ، وألاَّ يستجلب لها منهاجًا استُولـد من ســورة هي سباقها أوْ لِحاقها ، فينزله على تلك السّورة ، ويخضَع تأويلَه لها لهذا المنهج وهو المستولَد من غيرها .

وعلى هذا يمكِن أن تقولَ إنّ لدينا بعدَد سور القرآن عددَ مناهجِ مدارسةٍ لبناء السّورةِ القرآنيّةِ ، ومنهاجِ إبانتِها وإعرابِها وإفهامِها .

وهذا من « المسكوت عنه » ومن الفريضة الغائبة ، وهو حملٌ ثقيل لا يُمكن لواحدٍ مهما عظم جهده وامتد عمره ، وتكاثرت معارفه ، وتوقد ذهنه ، وافتأد قلبُه ، وانطلق لسانه أن يوفي سورة واحدة حقهّا من ذلك ، فهو عمل مؤسسيّ يقوم به أعيان من أهل العلم ببيان القرآن ، ويبقَى تحت المفاتشة والمراجعة ، والتّنقيح والتّكميل والتّهذيب والتّثقيف ما بقيت الحياة .

ومثل هذه المدارسات هي من « المسكوت عنه » بل هو من الفريضة الغائبة التي يجب أن تتجه الدّراسات البلاغية للقرآن خاصّة ، والدّراسات القرآنية عامة ، وأن ندع القولَ فيما كثر القولُ فيه إلى ما سكت عنْه أو قلّ القولُ فِيه . وكذلك تكون الأعمال الجسام .

أمّا الأمر الآخر : موقعُها من سُور حزبها ، فإنّه إذا ما كان سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قد جعل القرآن أربعة أحزابٍ ، فإن هذا يهدِي إلى أن يكون لكلّ حزبٍ خصوصيته ، من حيثُ المعنى الذي تحمله كل سورة ، ومن حيث منهاج تصوير ذلك المعنى وإيصاله وتمكينه في قلبِ المتلقّيه . وهذا يفرضِ علينا أن نعنْي بتبيين موقع السُّورة الّتي نقوم لتلقّي معناها هي في مفتتحه أم في ثبجه أم في مختتمة ؟

لا شك أنّ موقع سورة « البقرة » ، وموقعَ سورة « يونس » وموقعَ سورة « لقمان » وموقعَ سورة « ق » كلّ في مفتتح حزب ، وعلاقة كلٍّ بسائر سور هذا الحزب غير موقع سورتي « الأنفال والتوبة » ، وموقِعَ سورتي « العنكبوت » ، و« الرّوم » ، وموقِعَ سور « محمد » و« الفتح » و« الحجرات » وموقِعَ سورتَيْ « النصر » و« المسد » في خاتمة كلّ في حزبِه ، وكذلك موقع السّور الّتي تقع في ثبج كلّ حزبٍ .

موقع السورة تحدّده رسالتها وما تحمله (المعنى والمغزى) مثلما تحدد الرسالةُ منهجَ الإبانة الإفهامية ، ومنها منهاج البناء النَّصّي للسّورة ، وما إليه من تكوين ، ومكونات بدءًا من الكلمة إلى المعقد .

اسْتجلاء موقع السورة في حزبها ذو أثرٍ في العلم بعلاقتها بسباقها ولحاقها من جهة ، والخصائص العامة لسور الحزبِ من أخرى ، وما لها من تلك الخصائص ، وما تضيفه السُّورة إليها من تهيئة ، وتأسيس وتوكيد ، وما هو أكثر حضورًا فيها ، وما هو أكثر جلاءَ دَلالةٍ ، وما نَدَر من تلك الخصائصِ حضورًا فيها ومقتضِيَات ذلك كلّه مِن مضمونها ومساقها المقالي والمقاميّ .. وكلّ ذلك معينٌ علَى حُسن تلقّي معاني الهُدَى المكنونةِ في هذه السّورة .

وهذا الضَّربُ مِن العلمِ يمكنُ أن نسْلِكَه فى الغرضِ الأعظم الذى أقام عليه « عبد القاهر » كتابه العظيم « أسرار البلاغة » يقول الإمام :

« واعلم أنَّ غرضي فى هذا الكلام الذى ابتدأْتُه والأساسِ الّذى وضعتُه أن أتوصَّل إلى بيان أمر المعانى :

كيف تختلف ، وتتفق

ومن أين تجتمع ، وتفترق

وأفصّل أجناسَها وأنواعها

وأتتبعُ خَاصَّها ومُشاعها

وأبيّنُ أحوالَها فى كـرم مَنْصِبِها من العقـل ... أو بعدهـا ـ حين تُنسب ـ عنه ... »[1] .

فدراسة مـوقـع السّورة القرآنيّة على مدرجة السّياق الكليّ للمعنى القرآنيّ بـهـا يتبَيَّن أمرُ المعاني من جهةٍ كيفية اختلافها واتفاقها مـوضـوعًا ومـغـزَى

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٦ .

لا من حيثُ صدقُها ، فكلُّها حقٌّ مطلقٌ وصدقٌ لا ينقض ، وتبيّن أمر المعانِي من جهة اجتماعها وافتراقها ... إلخ .

وقد كان لأهل العلم عناية ببيان علاقة السّورة بما قبلها ، وكانت جهودهم متفاوتةً ، فمنهم مَن يكتفى ببيان علاقة ظاهر فاتحة السّورة بخاتمة ما قبلها ، وكثيرًا ما يقفُ عند التَّشابه اللُّغويّ ، ومنهم مَن يتجاوز ذلك في لطفٍ قد لا يتبين لمتعجِّل .

وبعضُ طلاَّب العلم يظنّ أنَّ مَن عمَد إلى الاكتفاءِ ببيانِ علاقةِ فاتحةِ السُّورةِ بِما قَبلَها ، كما فعل السيوطي في «مَراصِد المَطالِع في تناسب المَقاطِع والمطالع» إنّما سلك سبيلاً يَسيرًا ، وهذا غير صَحيحٍ ، ذلك أنَّه قد علم أنّ فاتِحةَ السورة إنّما هي مستهل ما بثَّ تفصيلُه فيها ، ويغلُب أن يكونَ في فاتحتها كلمةً أو جملةً هِي المفتاحُ الّذِي يمكنُه أن يلِجَ به إلى عالَم المَعنَى القرآنيّ فِي السّورةِ ، وأن خاتمةِ السُّورةِ هُوَ تَخلِيص وتكريسٌ لما فُصّل مِن معناها فِي متنِها المدِيدِ ، وهذا لا يكونُ إلاَّ إذا ما كانت الفاتحةُ والخاتمةُ ذاتَ علاقةٍ وثيقةٍ بالمعنَى الأمِّ فِي هذه السّورةِ ، ممَّا يعنِي أنَّ علاقةَ فاتحةِ السّورةِ بِخاتمةِ الّتِي قبلَها إنَّما هِيَ عَلاقةٌ بَيْن المَعنَى الأمِّ فِي كُلِّ سُورَةٍ .

فَمَنْ أرادَ أن يَستبِينَ مَنهجَ السِّيوطيِّ فِي كتابِه «مَراصِد المَطالع» فإنَّ عَليه أنْ يستكشف منهجَه فِي تَبيين علاقة فاتحَة السّورة بمقصودِها ، والمعنَى الأمّ فيها ، ثُمَّ يستكشِف علاقةَ خاتمةِ الَّتي قبلَها بِمقصودِ هذِه السُّورةِ الَّتِي هِيَ خاتِمتُها ، ثمَّ يستكشِف علاقةَ المعنَى فِي هذِه السّورةِ والمعنَى الأمّ فِي السُّورةِ الَّتِي قَبْلَها ، وهكَذا مِمَّا يَجعلُ كتابَ «مَراصِد المَطالع» مَتْنًا بالِغَ الوَجازَةِ يَحتاج كثيرٌ من القرّاء إلَى جهدٍ وسيعٍ لتفصِيلِهِ .

* * *

المعقد الثاني
الطريق إلى استنباط المقصود الأعظم للسورة وفقه أثره في البناء النّصّي للسورة

أشرت فيما سبق إلى أنّ القرآنَ الكريم نزلت آياتُه منجّمة فى ثلاثةٍ وعشرين عَامًا ، وأنَّ الوحى كان ينزلُ بالآيةِ أوْ ما دونَها أوْ ما فوقَها ، وينزلُ بتحديدِ موضِع ما نزل به فى سورتِه ، فكان المُنَزَّلُ وموضِعُه من السورةِ وحيًا مِن اللهِ ﷻ ، فليس لسيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ولا لأحدٍ مِن العالَمين أثرٌ في ذلِك إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى .

ذلك موضعُ اتفاقٍ بيْن أعيانِ أهلِ العلمِ بكتاب الله ﷻ ، وقد أضحَى بديهةً ومسلَّمةً لا ينازِع فِيه منْ هُو ذو حِجًا .

وإذا ما كان موضع النَّجم النَّازل محدَّدا توقيفا ، فهذا يعنِي أنَّ علاقتَه بما قبلَه وَما بعدَه لا تتأثَّر بتقدّمه أوْ تأخُّره عَنه فِي النُّزول ، فتنجيمُه لا يقتضي قطعَ علائقِ آياتِ السُّورةِ الواحدةِ ، ذلك أنَّ القرآنَ الكريم فِي تنزُّلِه الأوَّل إِلَى الَّلوحِ المَحفوظِ ، وفِي تنزّله الثَّانِى إِلَى بيتِ العِزّة إنّما كان فِي صورتِه الكاملَةِ وكان فِي عرضتِه الأخيرةِ علَى سيّدِنا رسولِ اللهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ إلاّ آياتٍ قليلةً جدًّا نزلت ما بيْن شَهرِ رمضانَ وشَهرِ ربيعِ الأوّل فِي عامِه الأخير من حياتِهِ ، وكانَ فى صدرِ رسولِ الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ كمثلِه فِي الَّلوحِ المحفوظِ وبيتِ العِزَّة ، وكذلك كان

عِند رحيلِ سيّدنا رَسولِ اللهِ - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - إلى الرَّفيقِ الأعلَى عِند كثير مِن الصَّحابة - رَضِيَ اللهُ عَنهُم - مُستظْهِرين آياتِهِ وسورِه كَمَا تلَقَوْه مِنْه - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - [1] .

وإذا ما كان تقسيمُ القرآن الكريم وتفصيله إلى سورٍ عدتها أربع عشرة ومائة سورةٍ توقيفًا من قبل الحق ﷻ ، فإنَّ من فوائد هذا التّفصيل كما يقول جارُ الله الزّمخشري أنّـه «سببُ تلاحق الأشكال والنظائر وملائمة بعضِها لبعضٍ ، وبذلك تتلاحظُ المعاني ويتجاوب النظم»[2] .

في قول الزّمخشري : «تتلاحظ المعانى ويتجاوب النّظم» من الدّلالة على أن آيات كلّ سورة إنَّما يكون بينها من التّناسب والتَّجاوب والتّآخي والتّناغِي ما يحقِّقُ لكُلِّ سورة وحدة بيانيّة معجزة مُدْهِشةً ، بل إنَّ تسمية كلٍّ قسم من هذه الأقسام باسم «سورة» - وهى تسمية توقيفية - أيضًا - تدلُّ على أنَّ كلَّ قسمٍ سُمِّيَ باسم «سورة» إنَّما يجمع آياته غرضه الرئيسيّ وتربطها علائقُ جوانِيَّةٌ وثيقةُ ، فإنّ مأخذ كلمة «سورة» يحتمل عدّة أمور : أن تكون من سُور المدينة ، وهذا يحمل معنيين : الإحاطة ، والارتفاع ، أو من السؤر البقية ، وخففت الهمزة ، فهي بعضٌ من كلٍّ[3] .

يقول أبو الحسن الحَرالّيّ (ت : ٦٣٧) : «السّورة تمامُ جملة من المسموعِ محيطٌ بمعنى تامّ بمنزلةِ إحاطة السُّورِ بالمدينة»[4] .

---

(١) تفسير الطبري ، ٣/٤٤٥ تحقيق : شاكر ، والبرهان في علوم القرآن . ١/٢٢٨ ، ومناهل العرفان . الزُّرْقاني ١/٣٦- ٤٢ .

(٢) الكشاف : ١/٢٤١ .

(٣) راجع تفسير الطبري ، ١/١٠٤ تحقيق : أحمد شاكر ، والكشاف للزمخشري عند تأويل الآية ٢٣ من سورة البقرة . والمحرر الوجيز لابن عطية . ١/٤٦ .

(٤) تراث أبي الحسن الحراليّ ، ص ١٧٠ .

ومعنى ذلك أنّه كما أنَّ سور المدينة يحيط بجَمْع من البيوت فى بلدٍ إحاطةً جامعة يكون لكلٍّ ما في داخلِه ما يَنْسِقُه ويربطه مع غيره ، ويكون كُلّ ما فيها تحت سلطانٍ بيده تصريف أمر ما في المدينة ، كذلك الآيات والجمل والكلمات التي هي أجزاء السورة وعناصرها يحيط بها سور عام ، ويكون لكُلٍّ ما ينسِقُه ويتوخى بينه وبين ما اجتمع فيها ، ويكونُ كُلُّ ما فيها تحت سلطانٍ واحدٍ مهيمن عليه .

وإذا كانت السُّورة من «السُّؤْرِ» الَّذِي هو بقية مِمَّا يشــرب ثم خُفِّفَتْ همزتُه ، فإنَّ فى ذلك دِلالةً على تجانس آياتها من جهة وتجانسها مع سائر السور الأخرى ؛ لأنَّ سؤرَ الشَّرابِ يجانس سائرَه .

مجمل الأمر أنّ الإعراب بمصطلح «السُّورة» عن طائفة من الآيات جمعت فكان لها مفتتح ومختتم ، وكان ما بين المفتتح والمختتم تفصيل ما أجمل في المفتتح ، وما في المختتم تخليص ما في المفصّل يهدِي إلى أنّ هذه الآيات جمعت على وشيجة تجمعها وعناج يربطها وسلكٍ ينظمها ، ممّا يحقق لهذه الآيات على تعددها وامتدادها مؤانسة من جهةٍ ، ومؤازرة في تحقيق ما كانتْ له الآيات من جهة أخرى .

وإذا ما كانتْ هذه التسمية «السّورة» تسميةٌ توقيفية لم تكن العرب تتداولها في عالم البيان ، فإنّ العرب حين سمعتْ آيات التحدّي ، وكان فيما سمعت قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة:٢٣) .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس:٣٨) .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (هود:١٣) .

لم يعهد أن تساءلوا : وما السُّورة ؟ فكأن في مصطلح «السّورة» ما يهدِي إلى أن له علاقة بالسّورِ الّذي هو محيط بطائفةٍ من البيوت ، هذا فيه ما يهدِي إلى السَّعي إلى استبصار الوشيجةِ القائمة بين آيات كل سورة .

والّذين يعكفون على تبصر شأن بناء القصيدة في الإبداع الأدبي لدى العربي في زمن التّنزيل ، ثم تبصّر شأن بناء «السُّورة القرآنيّة» في ضوء العرفان بمنهج بناء القبيلة العربيّة ، يلحظ شيئًا بالغ الأهمية يتمثل في أنّ لكلٍّ واحدٍ من هذه العوالم الثلاثة : «القبيلة ـ القصيدة ـ السّورة» مركز يجمعها هو «شيخ القبيلة»، «المعنى الأمّ» ، «المقصود الأعظم» .

وفي مصطلح «القبيلة» ما يهدِي إلى أنّ أبناء كلّ قبيلة مقبلون على شيخهم في الأمر العام ، وأنَّ لكلِّ فردٍ ما يجمعه مع أبناء القبيلة ، وله ما يميزه عن كلّ واحدٍ منها ، ممّا يحقق لأبناء القبيلة حلية «الوحدة في التنوع» . فما هم بمتشاردين ، وما هم بمتناسخين .

والقصيدة مصطلحٌ منسولٌ إمّا من القصد (الاعتناء) ، وإمًّا من القصد (القطع) فهي «قصيدة» أي مقصود ما حملته من المعاني ، أو «قصيدة» أي اقتطعت من ذات قائلها ، وهو «الفري» الذي منه «الافتراء» (يفري فريّة) فهي قطعةٌ منه تصور ما يعتلج في فؤاده ، وليس ثمَّ ما يمنع عندِي أن يكون الأمران معًا .

وما كان كذلك لا يمكن أن يكون متشاردًا متفارقًا ، فإن كل ما تحويه القصيدة نسيل ذات الشاعر ، وتحت إرادته وقصده مما يستوجب أن يكون فيها ما تجتمع إليه أبياتها ، وهذا ما يؤكد قولهم «بيت القصيد» فهذه الكلمة «المصطلح» كلمة عالية جدًا دالةٌ دلالة بينة محكمة على أنّ ما يسمونه «بيت

القصيد» هو مركز المعنى ، وأن معاني القصيدة إنّما هي تدور عَلَيْه ، فهو شيخُ القبيلة ، وهو المعنى الأمّ ، وهو المقصودُ الأعظمُ .

وهل لي أن أذهبَ إلى أن كلمة «بيت» في مصطلح «بيت القصيدة» لا يراد به ما يطلق على البيت ذي الشَّطرين ، بل يلوح به إلى البيتوتة أي بيتوتة المعنى المركزيّ ، فهو قصر الأمير أو المليك .

وقد يكون بيت القصيد في «القصيدة» كلمة واحدة أو شطرًا وقد يكون صورة شعرية ، المهم أن هذا المصطلح آية على ما أذهب إلَيْه من أن الوعي الشعري لدَى العربيّ الأوّل قائمٌ على حقيقة أن بناء القصيدة العربية مؤسسٌ على أنّ هنالك في القصيدة «بيت القصيد» .

وكذلك «السّورة» كلّ سورة فيها كلمة أو جملة أو آية هي بيت القصيد الأعظم ، يقيم فيه المعنى المحويّ للسورة جمعاء ، واستبصار المعنى المحوري (المعنى الأمّ : المقصود الأعظم للسورة) أمرٌ بالغ الدقة والوعورة ، فعلى قدر أهميته في حسن تلقّي المعنى القرآني في سياقِ السورة على قدر وعورة تحقيقه .

* * *

موقع المقصود الأعظم من أغراض السّورة :

المقصود الأعظم للسورة ليس هو مضمونها أو موضوعاتها ، على نحو ما تراه في بعض أسفار التَّفسير المتقدمة التي تعنى ببيان مضامين (موضوعات) السّورة .

السّور الطّوال والمئين يغلب أن تكونَ ذاتَ موضوعاتٍ ، ولكلّ موضوع غرضٌ مرحليّ ، وهذه الموضوعاتُ (المضامين) على نحو ما تراه عند «الفيروزباديّ» في كتابه : «بصائر ذوِي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز»

وما تراه في تفسير الطّاهر ابن عاشور : «التّحرير والتّنوير» وما تراه في كتاب «النّظم الفنّيّ» لعبد المتعال الصّعيديّ ، وما تراه في كتاب «أهداف كلّ سورة» لعبد الله شحاته ، فمثل هذه الكتب إنما تعرض لموضوعات السّورة ، وهو عمل نفيعٌ ، إلا أنَّ هذا غيره القول في شأنِ «المقصود الأعظم» لكلّ سورةٍ .

المقصود الأعظم هو المعنى المحوريّ المركزيّ الّذي تقوم عليه كلّ معاقد السُّورة ، ونجومها ، وآياتها ، هو لها بمثابة «الرُّوح» لجسد الإنسان ، يسرى فيه جميعِه ، وبمثابة العصارة الخضراء في الشَّجرة ، تسري في جذرها ، وساقها وفروعها ، وأغصانها ، وأوراقها ، وأزهارها ، وثمارها جميعا ، فهو حاضر فيها جميعًا ، وهو يتنوَّع ظهوراً وخفاءً ، لكنَّه لا يتنوَّع حضوراً وغيابًا .

أغراض السُّورة هي أغراضٌ مرحليَّة لموضوعاتها ، وهذه تخضع لسلطان المقصود الأعظم «الغرض المحوريّ» : «المعنى الأمّ» .

والإعراب عنه باسم «المقصود الأعظم» هاد إلى أنَّ جميع أغراض الموضوعات مندرجةٌ فيه ، فالنَّعت بالأعظم هنا كمثل نعت سورة الفاتحة بأنّها القرآن العظيم ، ونعت اسم الجلالة بأنّه الاسم الأعظم ، ونعت آية الكرسيّ بأنّها أعظم آية في القرآن ، فالنّعت بالعظيم متضمّنٌ الإشارة إلى اشتماله على ما هو منه بسبيل ، مندرجٌ فيه على الإجمال ـ فمفردات هذه المادة (ع . ظ . م) تدور على الإحاطة والاستغراق .

وقد كان لبرهان الدين البِقاعي (ت : ٨٨٥هـ) اعتناء خاص بتبيين المقصود الأعظم لكلّ سورة ، فهو الّذي أخضع علم «التَّناسب» لعلم المقاصد ، فكان له بذلك الفضل على سابقيه فيما ظهر لي ، وهو يقرّر أنّ «كلَّ سورة لها مقصدٌ واحدٌ يدار عليه أوَّلُها وآخرها ، ويستدلّ عليها فيها ....» [(١)] .

---

(١) مصاعد النّظر ١/١٥٥ .

قوله «مقصدٌ واحدٌ» ميّزَه عن الأغراض المرحليّة لموضوعات السّورة .

أقام تفسيره «نظم الدّرر» على هذا المبدأ ، فكاد بصنيعه هذا في تفسيره الّذي لم يغفـل عنه في أيّ سورة من سور القرآن يحيله إلى حقيقةٍ علميّةٍ .

وقد عمد إلى تخليص هذا من تفسيره : «نظم الدرر» في كتاب أفرده ، وجعل عنوانه : «مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ» مع إدراج بعض من قضايا علوم القرآن[1] .

وجعل علم المقاصد أساسَ علم التفسير بالغ الأهمية ، لا يتأتى للمفسّر أن يُحسن تبيين معاني الآيات إلاّ إذا تحقّق من المقصود الأعظم للسّورة ، فهو معرفة تفسير كلّ سورة إجمالاً معرفةً تؤدّي إلى الحقّ من تفسير كلّ آيةٍ من تلك السّورة[2] .

وليس يخفى أنَّ بعضًا مِن سابقي «البقاعيّ» التفت إلى القولِ بمقصود السّورة ، كالرَّازيّ ، وأبي جعفر ابن الزّبير ، ولكنَّ البقاعيّ امتاز على سابقيه بأمور منها :

أنَّ المقصود الأعظم عنده ليس معاني متعدّدة ، بل هو معنى محوريّ .

أنّـه أجراه في جميع السُّور ، وهذا ما لم يفعله أحدٌ من سابقيه فيما أعلم .

أنَّـه أخضع علم التناسب لعلم المقاصد .

الأهم هنا أنّ المقصود الأعظم هو المعنى الحاكم حركة المعنى وتشعباته وعلاقاته ، ومواقعه ، ومن ثَم هو الطِّلِبة الأولى والرئيس لمن عني بفقه البناء النَّصّي للسّورة .

---

(١) كما استخلص البقاعيّ كتابه «مصاعد النّظر» من كتابه «نظـم الـدّرر» وأضـاف إليـه قضايا ومسائل من علوم القـرآن ، فإنّـه استخلص مِـن تفسـيره «نظـم الـدّرر» أيضًـا تخليصا له ، لدي نسخة مصورة (غير جيدةٍ) من مخطوطتـه مـن الجـزء الأول عنوانـه «دلالة البرهان القويم على تناسب آي القرآن العظيم» وفيه إضافاتٌ نافعةٌ .

(٢) مصاعد النظر ١/١٥٥ .

ومن شأن هذا المقصد الكلي أنّه حاضرٌ في كل مكونات «السّورة» ، وهو متفاوتٌ الظهور في مكونات السورة ، فحينا يكون جليا ، وحينا يكون بالغ الخفاءِ ، لا يبصره إلا ذو فراسة بيانية نافذة .

وبرغم من هذا يغلب أن يكون في مستهل السورة أو مقدمتها ما يشير إليْه من كلمة أو جملة ، أو آية على نحو ما تراه في قوله تعالَى جدّه :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ (البقرة:٣) في سورة «البقرة» .

أوقوله تعالى جدّه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (آل عمران:٢) من سورة «آل عمران»

أوْ قوله تعالى جدّه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١) .

أوْ قوله تعالى جدّه : ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ (المائدة:١) من سورة «المائدة»

أوْ قوله تعالى جدّه : ﴿ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ (الكهف:١٦) من سورة «الكهف»

أوْ قوله تعالى جدّه : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت:٢) .

أوْ قوله تعالى جدّه : ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ (فاطر:١) .

أو قوله تعالى جدّه : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ (ص:٢) .

أو قوله تعالى جدّه : ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ (الزمر:٢-٣) ...

والمستبصِر ما يدلّ على المعنى الأمّ في السّورة عليْهِ ألا يركن إلى النّظر الأوّل ، بل عليه أن يتحلّى بحلية الحال المرتحل ، فيديم المراجعة ، والسّبر

والتّدقيق ، ومناظرة ما انتهى إليْه هو بما جاء عن بعضِ أهل العلمِ ، ولا يضرّ المرء في هذا كمثل العجلة ، والاستسهال ، فإنَّ الأمر عبادة ، وشأن العبادة اصطبار عليْها :

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم:٦٥) .

المرءُ قد يذهب في وقت إلى تبيين المعنى الأم في سورة ، ثم من بعد مراجعة يتبين له أن المعنى الأم شيءٌ آخر ، هنا عليه أن يوازن بين الأمرين من حيث مستوى الحضور لكلٍّ ، ومستوى الظّهور لكلٍّ .

العيار هو مستوى الحضور لا مستوى الظهور ، فكلما كان الحضور أشملَ كان الأقربَ إلى الحقيقة . فالشأن في المعنى الأمّ ألا يكون في السورة ما لا ينتسب إليه ، ولو من طرف خفيّ .

ولذا تجد «برهان الدين البقاعي» (ت : ٨٨٥هـ) من بعد أن يبين عن المقصود الأعظم لسورةٍ ما تراه يذهبُ إلى أن أحسن من هذا كذا ، وكان يمكنه أن يضرب عمّا ذكر أولاً ، وينشئ القول من أول السورة على ما تبين له بأَخَرَةٍ ، كما نفعلُ نحن في مراجعاتنا لما نكتب ، ويتبين لنا ما هو خيرٌ منه ، نطوي ما سبق ، ونستغني بما استحدث ، هو لم يفعل ، كأنّه يغرينا بأن نتبصر ما كان منه أولاً ، ونناظره بما كان له بأَخَرَةٍ ، فنتبين ما غاب عنه أوّلا ، وتبين له آخرًا ، وأسباب ذلك ، وما تحقّق له من وسائل الإدراك الحسية والمعنوية ، فحملته إلى ما كان له بأَخَرَةٍ .

ومثل هذا يساعدنا على أن نكتسِبَ رؤيةً منهجية النَّظر لدَى الأعيان من أهل العلم ، فذلك هو الطلبة الرئيسة للنّبلاء من طلابِ العلمِ .

ولما كان المعنى المركزي «المقصود الأعظم» أمرًا بالغ اللطافة في كثيرٍ

من السور كان من شأن أهلِ العلم تنوّع رؤاهم ، كلٌّ على قدر ما يملك من وسائل استبصارِه ومنهجه ، وخبراته واصطباره ، وهذا ما يجعل تفاوتهم في تبيين «المعنى الأمّ» في سورة ما ليس دليلا على أنّ القولَ بالمعنى الأمِّ ليس حقيقةً علميَّةً ؛ لأنّـه لو كان لاتفق العلماء عليْه ، كما يحسب بعضهم .

اتفاق العلماء واختلافهم ليس شرطًا في أنَّ هذا حقيقة أو غير حقيقة ، اختلافهم أمرٌ راجعٌ إليهم لا إلى الحقيقة ، قد تكون حقيقةٌ علميّةٌ ، ويبقَى العلماء عقودًا أو قرونا ولا يصلون إليها ، ثمّ يصل إليها عالمٌ .

قلت هذا ؛ لأني رأيت من يرفض القول بالتناسب من أنّ العلماء يختلفون في تبيينه في السورة الواحدة ، فجعل ذلك دليلا على أنّ التّناسب قولٌ متكلّف ولا يليق القول به في القرآن ، ومنهم من حكم برفض القول بالتناسب ؛ لأنَّ العلماء القائلين به متكلفون في تطبيقه ، فجعلوا من تكلّف العالم دليلاً على انتفاء الأمر ، مثل هذا لا يؤخذ به ، أشبه بالحكم على الإسلام من خلال النَّظر في أحوال المسلمين .

وهذا بعيد عن النّظر العلميّ .

* * *

ملاحظة المعنى الجامع بين مكونات البيان إنما هو ذو نسب عريق في الفكر البلاغي ، فهم منذ قرونٍ يؤكدون أن يكون بين مكونات البيان عناجٌ ، وإلا كان متشاردًا ، حتى أنهم شبهوا البيان الذي لا عناج له ببعر الكبش ، على نحو ما جاء عن أبي البيداء الرياحي :

وشِعْرٌ كَبَعْـرِ الكَـبْشِ فَـرَّقَ بَيْنَـهُ   لِسَـانٌ دَعِـيٌّ في الْقَـرِيضِ دَخِيـلُ

تبصر قوله : «كبعرالكبش» استخرج الصورة من واقع حاضر في البصر والبصيرة ، ممّا يقوى الإحساسَ بقبح ذلك الشّعر ، وأنه ينتج في النفس نقيض ما شأن الشِّعر أن ينتجه فيها ، ولذا نعت من اقترف هذا الشعر بأن لسانه لسانٌ

دعِيٌّ ، وأنه في القريض دخيل ، وهـذا أنكى ما ينعت بها مدعي الشعرَ ، لم يجعل آية هوانه في إبداع الشعر أمـرًا متعلقًا بسطحية معانيـه ، أوْ ابتذالـها ، أوْ قرب خياله وفجاجته ، أو بشيْء ما راجع إلى نغمه أوْ إلى معجمه . كلاّ .

جعل عمود أمر القبح عنده راجعا إلى ما بين معانيه وصوره من تدابر وتقاطع وتفرقٍ وتشارد ، فلم يجد له في ما شأنه التَّفرق مثالا إلا بعر الكبشِ[1] .

كلّ ذلك يصور لك ما للأمر الجامع بين المعاني القائم فيها قيام أبينا «آدم» ـ عليه الصّلاة والسَّلام ـ في الجنسِ البشري «النّاس لآدم ، وأدم من تراب» من أهمية بالغة ، لا قيمة لأيّ شيْءٍ في الكلام إذا فقد ذلك الجامع ، فالعناية بحسن تحقيقه مقدمة على جميع مكونات البيان الأخر .

ولما كان استبصار المقصود الأعظم للسورة : «المعنى الأمّ» أمرًا بالغ الأهمية في منهج التلقّي ، وهو في الوقت نفسِه بالغ الدّقةِ واللّطفِ ، وأكثر جوانب القول عرضة للاختلافِ بين أهلِ العلمِ ـ لمّا كان ذلك رأيْت أنّه من الحسن أن أسعَى إلى بيان شيْءٍ عن روافد استبصار المقصود الأعظم للسورة ، أستجمعها من مقالات أهل العلم قديمًا وحديثًا ، وعليْك ألاّ تستغني بما تراه هنا ، فإني إنما جمعته لنفسِي لتبصره لا لأنّ تحمله أو تقلّده ، فنحن إنّما نعرض تجاربنا لتقوَّم ، وليضاف إليها لا لأن تحمل وتقلد ، إنّ عليك لنفسِك أن تقبلَ وأن تردّ ، وأن تضيف ، وأن تقوّم ، وأن تفصل ، وأن تحقّق وأن تحرّر فهذا حقّ عقلك عليْك أولا ، وحق العلم عليْك ثانيا .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء:٣٦) .

* * *

(١) ينظر : البيان والتبيين . ٧٦/١ .

الرَّافد الأوَّل
اسـم السُّورة

حين يقرأ المرْء قصّة أبينا آدم ـ عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام ـ في أوّل موضِع وردت فيه: سورة «البقرة» المبنية على تقريرِ «الإيمان بالغيب» في جميع علاقة الإنسان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وبالحياةِ ، يجد أنَّ هذه القصّة على الرّغم من أنها ذكرت في سورٍ أخر إلاَّ أنّ بعضَ مشاهد هذه القصّة لم يرِد البيان عنها إلاّ في هذا الموضِع من سورة «البقرة» ، وكأنَّ له علاقة وثقَى بأمر «الإيمان بالغيب»: «المعنى الأمّ» للسورة .

استهل الله ـ تعالى ـ البيان بقوله تعالى جدُّهُ :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠) ممَّا لم يرد في غَيرِ هذا الموضع .

عطف قصة خلق آدم ـ عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام ـ على خلق الأرض والسماء :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٩) .

وفي كل برهانٌ على وحدانيته سُبْحَانَهُ ودحضًا لشركهم ، وكأنّه سُبْحَانَهُ من بعد أن امتن بِخلق السَّماوات والأرض ذكر مَن خُلقت له السَّماوات والأرض ، فما فيهما جميعًا إنّما سُخِّر لبني لآدم ؛ ليكون في ذلك عونٌ لهم على تسخير أنفسِهم لله سُبْحَانَهُ .



﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٢-١٣) .

استهل البيان بقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ (البقرة:٣٠) آمرًا بتذكر هذا القول ، وكأنّ في تذكره من الهدَى ما ليس في غيرِه ، وفي هذا طيّ إنباءٍ بالحدث ، ولم يجعل الإنباءَ به مناطَ القصدِ الرَّئيس ، وكأنّ ذلك ليس هو القصدَ الرَّئيسَ ، بلْ ما يرتب على ذلك الإنباءِ ، في هذا تعليمٌ لنا أنّه ليس الأهمَّ الإنباءُ بالخبر ، بل بما يترتَّب عليه ، فعلينا ألاَّ نقف عند العلمِ بالنّبإِ ، علينا تبصّر ما سيق إليه النّبأ والقيام بحقّه فهما وتأدبا ، ذلك مناطُ القصد ، وفي هذا من التّربية في حسن الفهم والتزلّف ما فيه ، فكَم مِن منشغل بالخبر والعلم به مستغن بذلك عمّا هو الأهمُّ المترتّب على العلم به ، فليس الأهمّ أن تعلم بالشَّيْءِ . الأهمُّ الأتمّ أن تُبْصِرَ ما يترتَّب عليه ، وأن تَفِيَ باستحقاقاتِه عليْك ِ.

أعرب ﷻ عن نفسِه بقوله : (ربّك) ولم يقل : وإذ قلت أو قلنا للملائكة ، بل لفت سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ والذين آمنوا به إلى ما في هذا النّبأ من جليل عطاءات التّربية ، وهو ﷻ إذ يقول : (ربّك) معربًا باسم الرُّبوبيّة ، مضافًا إلى كاف خطاب سيد ولد آدم ﷺ إنما يلفِتُنا إلَى وسِيع عطاء الرُّبوبية وثَرائها وجليلها وكميلها ، فهو ﷻ ما تجلّي بعطاءِ الرُّبوبية الأجل الأعظم والأكمل على أحد من العالمين كمثل ما تجلّى بِه على سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ :

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء:١١٣) .

تبصَّرْ قوله ﷻ : ﴿ جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ لم يقل (من الأرض) كما في المواضع الأخرى التي أنبأ فيها عمّا خلق منه آدم ﷺ .

في سورة «البقرة» أنبأ عن موضع الجعلِ ، وهو يتضمن البيان عما جعل منه ، ثمّ إنّه قال (جاعلٌ) ولم يقل (خالق) والجعل الأصل فيه أن يكون من بعد الإيجاد ، ولا سيما «جعل» التي تنصب مفعولين ، كما هنا[1] .

الذي هو مناط العناية هنا قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:٣١) .

أنبأ جَلَّ جَلالُهُ بأنّه علَّم آدم عليه السلام الأسماء كلّها ، وهذا يحمل إلى أن يتساءل المرْء :

يتساءل عن كلمة «أسماء» أهي جمع «اسم» : ما يطلق على الشّيءِ تمييزاً له عن غيرِه ، سواء كانت هنالك علاقة بيْن هذا الذي يميزه وحقيقة ما يدل عليْه كما نفعل نحن مع تسمية أولادنا ، وأشيائنا ، ويدخل في هذا ما يطلق على الأحداث ، فهذا حبٌّ ، وهذا خوفٌ ، وهذا قولٌ ، وهذا سمعٌ ... فلكل حدث اسم يدلّ عليه .

لِمَ الأسماء هي مناط التعليم ؟

وما مدلول«كلها» : أهو العموم المطلق بحيث لا يبقَى ذو اسم في العالمين إلا وقد عُلمهم سيّدنا آدم عليه السلام ، وما الدليل من بيان الوحي كتابا أَوْسنَّةً على ذلك ؟

ما مفهوم «علم» أهو تعليم تلقين أم تعليم تمكين؟ أي جعله قادرًا على أن يضعَ للأشياء حين يراها اسما (سمة) تدلّ عليها يستنبطها بفراسته الرّبانية من

---

(١) يقول الزمخشري في تأويل الآية في كشافه : «وجاعِلٌ من جعل الذي له مفعولان ، دخل على المبتدأ والخبر وهما قوله : ﴿ جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠) فكانا مفعوليه ، ومعناه مُصير في الأرض خليفة» .

تفرسه في الشّيْءِ ، فيطلعه الله عَجَلَّ على كنه ذلك الشيءِ وحقيقته ، فيضع له من الكلمِ ما يدل على ذلك ، فيكون اسما له .

تساؤلٌ يبقَى المرءُ معه حالاً مرتحلاً في استبصاره .

أغلبُ الظن عندي أن قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ أي أقدره على أن يضع للأشياءِ ما يدلُّ عليْها ، وأنّه إنّما يفعل ذلك بالنّظر فيها ، فيكشف الله ـ تعالى ـ له ما يميّزها في حقيقتها أو وظيفتها أو أثرها ، فيكون كمثل قوله جَلَّ جَلَالُهُ :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:١-٤) .

أي أقدره على ذلك .

ومن هنا يمكِن أن أذهبَ إلى أنّ «الاسم» الأصلُ فيه أن يكونَ دالاً على السِّمة المائزة للمسمَّى عَن غيرِه ، وأن هذه السّمة لا تكون أمرًا عرضيًا في المسمّى يمكن أن يتحقق في غيره تحققه فيه قدرًا ومقداراً ، بل لا بدّ أن تكون هذه السّمة أمرًا ذاتيًا جوهريًا لا يتحقّق في غير المسمّى على النّحو المتحقّق فِيه على نجو ما نراه من تسمية الله ـ تعالى ـ أبانا «آدم» ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ باسم «آدم» فهو اسمٌ دالٌ على رسالته ووظيفته في الأرض وليس لأنّه خلق من أديم الأرض أو لأنه «آدم» البشرة كما يقال .

* * *

وممّا هو حاضرٌ في فؤاد كلّ مسلمٍ أنّ الله تَبَارَكَ له من الأسماء ما استأثر هو بعلمه ، فلم يطلع عليه نبيًا ولا ملكاً ، وإذا ما كان ذلك فقد نَدَبَنا سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ إلى أن نعنى بإحصاء تسعة وتسعين اسمًا من أسماءِ الله جَلَّ جَلَالُهُ (١) .

---

(١) ليس أحصاؤها مجردَ عدّها ، أو حفظها في الذاكرة . قد رُتّبَ على إحصائها أمرٌ جد عظيم ، ولا يكون ذلك بمجرد وعيها في الذاكرة ، وشقشقة الألسنة بها . =

وفي القرآن تقريرُ أنَّ له ﷻ الأسماءَ الحُسنَى ، وعظم آياتِ السّور الطّوال والمِئين والمثانِي اشتملت على اسم من أسمائه ، وأكثر أسمائه حضوراً هو اسم الجلالة : (الله) ، ولكلّ اسم معنًى يدلّ على صفة من صفات الله ﷻ ، وفقه أسمائه ﷻ مِن العلم الشّريف .

ولكلِّ اسم سياقُه الَّذي يحسنُ ذكرُه فيه ، وقد التفت إلى ذلك من الأعراب من لا يحفظ القرآن ، وليس له في العلم خطوات .

كلّ هذا يهدِي إلى أنّ «الأسماء» دوالٌ على أمورٍ ، وأنَّ كثرة المدلولات تفضي إلى أن يكون لكلّ مدلولٍ ما يدل عليه «اسم» وإن كان بينها من التلازم ما لا يخفَى ، فإن من خصائص اسمه تعالى أن الاسم يتضمن الدلالات الثلاث «المطابقيّة ، والتضمنيّة ، واللزوميّة» : اسمه «الرّحيم» يدلُّ بالمطابقة على الذات وصفة الرّحمة معًا ، ويدلُّ على صفة الرحمة وحدها أو على الذات وحدها بالتضمّن ، ويدلُّ على الحياة والعلم والقدرة والحكمة ... باللزوم .

= هو إحصاءُ حضور في السّلوك ، أيْ أن يكونَ لك في سلوكك نصيبٌ من معاني هذه الأسماء بما يلائمك عبدًا لله ربّ العالمين

الإحصاء المعتدُّ به لدخول الجنة قائمٌ من أمور ثلاثة رئيسة :

« تحقيق العلم بمعانيها

« تمكين الإيمان بها في الفؤاد إيمانَ تنزيه عن التشبيه والتعطيل

« التأدب بمقتضياتها في الأقول والأفعال والأحوال .

هي أسماء ليست لشقشقة الألسنة ، بل لِتفقّه الأفئدةِ ، وتأدّبِ الجوارحِ وانضباطها .

يحسن النّظر في ما جاء به الخطابي في معنى «أحصاها» في كتابه «شأن الدعاء» ص ٢٦-٣٠ تحقيق : أحمد يوسف الدقاق . ط . الأولى ، ١٤٠٤هـ ، دارالمأمون للتراث . دمشق .

وكتاب : اللوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات لفخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ) ص ٥٦-٥٨ ، ط . الأولى ، ١٣٢٣هـ ـ المطبعة الشرقية بمصر ،.

أهل العلم على أن للقرآن أسماءً عدَّةً منها ما جاءت فيه ، ومنها ما جاء في بيان النُّبوة ، ولكلّ موقعه الذي اقتضاه ، لعلاقة معناه بمقصد القول ، وقد جمع الفخر الرّازيّ له اثنين وثلاثين اسمًا ذكرت فيه[1].

وأنت تجد في أسماء القرآن التي وردت فيه ، ما يهديك إلى أمر جوهري فيه ، عليك أن تتبصره ، وأن تستحضر معناه في فقه المعاني الواردة في السياق الذي وردت فيه هذه التّسمية ، فلكلّ اسم منها موضعُه فيه ، لا يتأتّى لنا أن نقيمَ أحدها مقام الآخر ، ولا أن نُقدّم منها ما أخر إذا اجتمعا كما تـراه في قول الله تَعَالَىٰ :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾

(الحجر: ١) .

وقوله جَلَّالَهُ : بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴾ (النمل: ١) .

كلّ اسم يدلّ على سمة ذاتيّة جوهريّة فيه لا تتحقّق على النّحو المتحقّقة فيه فِي أيّ كتابٍ غيرِه أنزله الله ـ تعالى ـ على أي رسولٍ قبله .

ولولا أنَّ للتسمية أثرًا في العرفان بشأن المسمَّى ، ما كان لسيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ أن يعنـى بإعلامنا بأسمائه ، روَى الشَّيخان البخاري في كتاب «المناقب» وكتاب «التفسير» ومسلم في

---

(١) ينظر : مفاتيح الغيب للرازي : المسألة الثالثة عند تأويله قول الله جَلَّالَهُ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ في أول سورة «البقرة» ٣/٢٦٠-٢٦٥ .

بل إن أبا الحسن الحرالي (ت : ٦٣٨هـ) جعلها أكثر من تسعين اسمًا على ما صرح الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن» ١/٢٧٣ .

كتاب «الفضائل» فِي صحيحيهما بِسندهما عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ :

«لِى خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاحِى الَّذِى يَمْحُو اللَّهُ بِى الْكُفْرَ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِى يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِى ، وَأَنَا الْعَاقِبُ» . وفي رواية لمسلم : «وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِى لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ» . وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ رَءُوفًا رَحِيمًا . اهـ .

كلُّ اسم من أسمائه هادٍ إلى سمة جوهرية فيه يجب على كلّ مسلمٍ أن يكون عليما بها ، ليضبط حركة علاقته به ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ :

اسْمه «محمد» يُبين لنا أنّه قد بلغ من السُّموّ والنّبل والجلال ما جعله أعظم من حُمِد في العالمين ، فليس ثَمّ مَن كان أهلا لأن يُحمد حمدًا جليلاً كميلا كمثلِه ، ومن كان كذلك كان أهلاً لأن لا يُتّخذ غيره أُسوةً ، فليس للنّاسِ قطُّ مثلا أعلى سواه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ .

واسمه «أحمد» يَهدي إلى أنّه ليس في العالمين مَن هو أحمدُ منه لربّه ﷻ ، لما لله تعالى عليه مِن نعم لم تكن لغيرِه ، ولولا أنه الأعلى في العالمين عند الله ـ تعالى ـ لما جعله أحمدهم له ﷻ ، فكل نعمةٍ أنعَم بها الله ـ تعالى ـ على أحدٍ ، فإنَّ لسيّدنا رَسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ما هو أجلّ منها وأكرمْ [1] .

---

(١) ينظر : «كتاب الرّوض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام» . ٩٦/٢ السهيلي . تحقيق : عمر عبد السلام السلامي . دار إحياء التراث العربي ، بيروت . ط . الأولى ، ١٤٢١هـ .

واسمه «الْمَاحِي» بيَّنه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ بأنـه الَّذِى يَمْحُو اللَّهُ بِى الْكُفْـرَ ، وهذا يهدينا إلى أن منهاج محـو الكفران لا يكون إلا ما سنَّه رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ لذلك ، فـمن اتخذ منهاجًا للدَّعوة غير منبثقٍ من هديه ، فإنّه لن يؤتي فعله ما يُرجّى ، وكلّما ابتعدنا عن هذا المنهج في الدَّعـوة كلّما كنّا أعون على تكاثر الكفران واستفحاله .

وَاسمه «الْحَاشِرُ» بيّنه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ أيضًا بقوله «الَّذِى يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِى» ، وهذا يعني أنـه المقدّم على العالمين يوم القيامـة ، ومن كان المقدم على العالمين في مثل هذا المقام ، فهو الأحقُّ أن يكون المقدم فيما دونه ، فمَن قدم غيره عليه في أيّ شيءٍ من شؤون الحياة ذات العلاقة بالله ـ تعالى ـ واليوم الآخر ، فهو في خسران مبين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١) .

وَاسمه «الْعَاقِب» ، بيَّنه ﷺ في رواية «مسلم» بأنّه الَّذِى لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ ، فهذا يهدِي إلى أن ما جاء به صالح لأن تقام عليه حركة الحياة في كلّ عصر ومصرٍ وجنسٍ ، وأنـه مصْلِحٌ هذه الحركة على امتدادِها وتنوعِها ، ومتطلباتِها .

= وكتابِ «جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام» الْفَصْل الثَّالِث : فِـي معنى اسْم النَّبِي ﷺ واشـتقاقه» ، ص١٢١ لابـن القـيم . مكتبـة ابـن تيميـة ـ القـاهرة (د.ت) .

وكِتابه : «تحفة المودود بأحكام المولود» الْفَصْل التَّاسِع فِي بَيَان ارتباط معنى الاسْم بِالْمُسَمّى من الْبَاب الثَّامِن فِي ذكر تَسْمِيَته وأحكامها ووقتها ، «وكتـاب فـتح البـاري شرح صحيح البخاري (بَاب مَا جَاءَ فِي أَسْمَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْـهِ وَعَلَـى آلِـه وَصَحبِه وسَلّم ـ) ٥٥٥/٦ . لأحمد بن علي بن حجـر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) . دار المعرفة ـ بيروت ، ١٣٧٩هـ .

وقد كان لسيّدنا رسول الله ـ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم ـ هدي بالغ في «التّسمية» ممّا يفهم منه العلاقة بين الاسم وشيءٍ ذاتي في المسمّى .

ذلك يهدِي إلى أنّ «الاسم» الأصل فيه إذا ما تفرّس أن يهدِي إلى ما هو ذاتي جوهريّ في المسمّى ، فإذا ما كان ذلك ، فهل لنا أن نسلك إلى استبصار ما هو ذاتيّ في البيان من خلال اسْمه سواءٌ كان سورةً أو قصيدةً ، ونحو ذلك؟

* * *

تسمية السُّور بين التوقيف والاجتهاد

العربُ قبل الإسلام لم يَكنْ شعراؤها يسمُّون قصائدَهم ، وبقي الأمر كذلك قرونًا من بعد الوحي ، ولكنَّ القرآن جاء ، فكان لكلِّ سُورةٍ منه اسمٌ تعرف به بين أصحاب القرآن الكريم منذ عصر النّبوة الماجد .

ولا أعرف أنّ أحدًا من أصحاب سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ أو غيرِهم في مكة أو المدينةِ سأله عن سبب تسمية سورة كذا بهذا الاسم ، ولا أعرفِ أنّ أحدًا منهم اعترضَ على تسمية سورة باسم كسورة «البقرة» أو «النّحل» أو «النّمل» أو «العنكبوت» مثلاً .

أكان هذا إدراكًا منهم أن هذا ليس له كبير أهميةٍ ؟ كيف ، وهم الّذين علموا من هديه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ أنّه كان يحدثُ تغييرًا لأسماء بعضِ أصحابه ﷺ ، وهو لا يغيّر إلاّ إذا كان هنالك تأثيرٌ سلبيٌّ لا يرتضيه ، أمْ كان ذلك منهم وعيًا بحكمةِ التّسميةِ الّتي تطلق على السُّورة ؟

أغلب الظنّ عندِي أنّ ثلةً من أصحاب سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ كانوا على وعيّ بحكمةِ التسمية ، ولمّا كان هذا أمرًا لا يترتب عليْه عملٌ هو فريضةٌ ، لم يكن مثار مراجعة ومدارسة في حقبة



تأسيس الدولة المسْلِمة ، في هذه الحقبة علم ما يترتب عليه عمل هو فريضة في علاقة العبد ربّه ﷻ ، أو بنفسِه أو بالحياة كونًا وإنسانا هو مشغلة كل بصيرٍ ، وما هو دونه لا يلتفت إليه حتى يفرغ منه أو يتمكن منه .

وإذا ما كان غير خفيٍّ أنّ بعض السور قد جاء ذكر اسمها على لسان رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ من ذلك اسم سورة «الفاتحة» : «أم القرآن ، وأم الكتاب» واسم سورة «البقرة» واسم سورة آل عمران :

روى مسلمٌ في كتاب «صلاة المسافرين» بسنده عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِىُّ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ يَقُولُ :

«اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آل عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ» .

وروى مسلم في كتاب «الفرائض» بسنده عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِى طَلْحَةَ أَنَّ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ : إِنِّى لاَ أَدَعُ بَعْدِى شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِى مِنَ الْكَلاَلَةِ مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ فِى شَىْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِى الْكَلاَلَةِ وَمَا أَغْلَظَ لِى فِى شَىْءٍ مَا أَغْلَظَ لِى فِيهِ حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِى صَدْرِى وَقَالَ : «يَا عُمَرُ أَلاَ تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِى فِى آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ» .

ومما رواه مسلم في كتاب «صلاة المسافرين» من صَحيحِهِ بسندِهِ عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ ﷺ أَنَّ النَّبِىَّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ : «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ» .

ومنها ما جاء على لسان الصّحابة ﷺ كما في ما رواه البخاري في كتاب «التيمُّم» بسنده عَنْ شَقِيقٍ قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِى مُوسَى الأَشْعَرِىِّ فَقَالَ لَهُ أَبو مُوسَى لَوْ أَنَّ رَجُلاً أَجْنَبَ ، فَلَمْ يَجِدِ الْمَاءَ شَهْرًا ، أَمَا كَانَ يَتَيَمَّمُ وَيُصَلِّى فَكَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهَذِهِ الآيَةِ فِى سُورَةِ الْمَائِدَةِ ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ (النساء:٤٣) ....» الحديث .

وما رواه أيضًا في كتاب «الخصومات» بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَبْدٍ الْقَارِىِّ أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ : سَمِعْتُ هِشَامَ ابْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا ...» الحديث وما رواه أيضًا في كتاب «المناقب» من صحيحه بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ : إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلاَثِينَ وَمِائَةٍ فِى سُورَةِ «الأَنْعَامِ»: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام:١٤٠) إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾(الأنعام:١٤٠).

ولو أنك شئت الاستقراء لامتدّ بك القول ، وما اتّسع المقام .

ومن الأسماء ماجاء على ألسنة التابعين والأعيان من أهل العلم ، وهنا يَجبُ اتخاذ موقِفٍ منهجيٍّ يتمثلُ في التّمييز بين ما هو توقيفي من الأسماء ، وما هو من الصحابة ﷺ أو التابعين أو الأعيان من أهل العلم : ما كان توقيفيًا هو المقدَّم في النظر : نظر دلالة الاسم على مقصود السورة ؛ لأنّه لا شكّ أحكم وأنفذ ، وأوعب وأعرب ، ثمَّ ما جاء عن الصّحابة ﷺ وهم ليسوا سواء ، فمنهم من هو المقدّم في شأن العلم بالقرآن ، فما جاءك عن ابن عباسٍ ـ رضِيَ الله عنهما ـ من تسمية هو المقدم على ما جاءك عن غيرِه من الصحابة ﷺ ، ذلك أنَّ تسمية الصّحابي إنّما هي عن استبصاره المعنى المركزيّ في السُّورة ، وهم في ذلك متفاوتون .

وهكذا تُنسقُ أسماء السورة بحسب منازل من تنسب إليْه التّسمية من الصحابة ﷺ من العلم بكتاب الله ﷻ تأويلاً ، ثم نفعل ذلك في ما ورد عن التّابعين ثُمّ الأعيان مِن أهل العلم .

ومن هنا يُمكن أن يكونَ من علوم القرآن علم «التّسمية» وله قضاياه المتعدّدة المتنوّعة ، ومنها مناظرة ما جاء عن سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ، والصحابة ﷺ والتّابعين ومقتضى التّسمية عند كلٍّ ، واستخلاص منهج كلٍّ صحابيّ أو تابعيّ في التّسمية ، وقياس مدى نفاذ بصيرته في استدراك المعنى المركزيّ الّذي على أساسه كانت تسميته السُّورة ...

ولا يظنّن أنّ الأمرَ هينٌ في صنعته وهيّنٌ في عطاءاته ، إنّه لأمرٌ بالغ الدّقة صنعةً بحثيّة ، ووافر العطاء تأويلا ، وعلاقة هذا بعلم البلاغة الفهميّ جدّ وثيقة : هو يعالج قضايا في ميدان الرُّؤية الكليّة إحاطة ، وتغوراً .

* * *

تفاوت أهل العلم في توجيه أسماء السُّــور:

من أهل العلم من ذهب إلى أن تسمية السور لأمرٍ متعلق بذكره فيها ، إمّا لندرته أوغرابته ونحو ذلك . يقول ابن الزبير (ت: ٧٠٨هـ) : «العرب (تراعى) فى الكثير من المسميات (أخذ) أسمائها من نادر أو مستغرب يكون فى المسمى من خلق أو صفة تخصه ، أو تكون فيه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك (الرّائي) للمسمّى .

ويسمُّون الجملة من الكلام والقصيدة الطويلة من الشّعر بما هو أشهر فيها أو بمطلعها إلى أشباه هذا . وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز ، كتسمية سورة «البقرة» بهذا الاسم لغريب قصة البقرة المذكورة فيها ، وعجيب

الحكمة فى أمرها ، وتسمية سورة «الأعراف» بالأعراف لما لم يرد ذكر الأعراف فى غيرها ، وتسمية سورة «النّساء» بهذا الاسم لما تردد فيها من أحكام النساء ، وتسمية «الأنعام» لما ورد فيها من تفصيل أحوالها وإن كان قد ورد لفظ الأنعام فى غيرها ، إلا أن التفصيل الوارد فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ (الأنعام:١٤٢) إلى قوله ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ﴾ (الأنعام:١٤٤) لم يرد فى غير هذه السورة ، كما ورد ذكر النساء فى سور أخرى ، إلاّ أنَّ ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد فى غير سورة «النساء» ، وكذا سورة «المائدة» لم يرد ذكر المائدة فى غيرها ، فسميت بما يخصها»[1] .

وهذا الّذي قاله ابن الزبير بعضه حسنٌ وبعضه غير مسلّمٍ ، ليس بمطردٍ ، فكم من أشياء لم ترد إلا مرة في سورة واحدة ، ولم تسم السورة به ، كالطامة في «النّازعات» ، و«الصاخة» في سورة «عبس» ، وكم من أشياء مستغربة لم تسم السورة الوارد فيها به ، وأنت إذا تنظر سورة «الحجر» ترى أنها قد ذكرت فيها قصة آدم ـ عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام ـ وقصة إبراهيم ، ولوط ـ عليهما الصلاة السّلام ـ ، وقصة أصحاب الأيكة (قوم شعيب) ، ثم قصة أصحاب الحجر (قوم صالح) فلم اختصت قصة أصحاب الحجر؟ أليس من الأقرب أن تسمى سورة «الحفظ» لما أنه قد جاء فيها قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) .

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل. ٢٨/١ ، ٢٩ تأليف : أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي. (ت:٧٠٨هـ) تحقيق : محمود كامل أحمد . دار النهضة العربية . بيروت ، ط . ١٤٠٥هـ .

هذا لم يذكر إلا فيها ، وهو بالغ الأهمية ، وله علاقة وثقى بقوله فيها﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر:١) ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر:٢١) ، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (الحجر:٨٧) ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾

(الحجر:٩٥) .

وبرغم من ذلك ، فما قاله ابن الزبير أعلى عندي ممًا ذهب إليْه الطاهر ابن عاشور من أنّ «الْمَقْصُود مِنْ تَسْمِيَتِهَا تَيْسِيرُ الْمُرَاجَعَةِ وَالْمُذَاكَرَةِ ..... وَفَائِدَةُ التَّسْمِيَةِ أَنْ تَكُونَ بِمَا يُمَيِّزُ السُّورَةَ عَنْ غَيْرِهَا»[1] .

ليس دقيقًا أن تكون التسمية لمثل ما ذكر ، فالتمييز وتيسير المذاكرة يتحقق إذا ما سمينا سورة «النّمل» سورة «الهدهد» مثلا ، فالعلة تتحقق بالاسمين ، فلم اختير اسم النمل ، وترك اسم الهدهد؟ من وراء التسمية أمرٌ متعلقٌ بمقصدها القائم فيها جميعا على تنوع في مستويات الظّهور لا الحضور ، وهو الّذي يجري البيان بتحقيقه في الأفئدة ، وتفعيله فيها ، وتكون السّورة بمجموعها جارية لذلك .

وجه تعدّد أسماء السّورة

قد يقال إن كان ذلك فما بال السّور التي عرفت بأكثر من اسمٍ ألها أكثر من مقصد ، بعدد أسمائها التوقِيفيّة على الأقل ، والأصل أنّ لكلّ سورة مقصودًا أعظم واحدًا ؟

حقًّا إنّ ممًّا هو ملحوظٌ مِن النّظر في كتب السّنة ، وفي أسفارِ أهلِ العلم أنّ بعض السّور لها أكثر من اسم ، منها ما هو توقيفِيٌ جاء على لسان سيّدنا

(١) التحرير والتنوير ٩٠/١ .

رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ومنها ما جاء على لسان بعض صحابته ﷺ ومنها ما هو اصطلاحى[1] .

وأهل العلم على أنّ «كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمى»[2] .

تعدّد أسماء السّور التّوقيفية أو ما شابهها فيه دَلالة على عظيم فضل هذه السّورة من أنّ فيها معاني كلية متعدّدة ، وتعدّد هذه المعاني الكليّة آيةٌ على وفرة ما يمكن تفصيله منها ، فهي ذات إجمالٍ ، فتعدد الأسماء لا يعني أنّ لها أكثر من مقصود أعظم ، بل هذا له وجه : بعضُ الأسماء كالمترادفة أو المتكافئة في مدلولها مثل اسم «أم القرآن» ، «أم الكتاب» ، و«القرآن العظيم» ، و«الأساس» ، و«الكنز» ، و«الكافية» ، و«الوافية» ، فهذه الأسماء ذات مدلولات متقاربة . هذه الأسماء متكافئة في مناسبتها ودلالتها على مقصود السورة وموقعها الوظيفي من سائر السور . ولها أسماء أخر منها «الحمد» ، و«الدّعاء» ، و«المثاني» ، و«الرُّقية» ، و«الشكر» ، و«الصلاة» .

ألا ترى أن السيف والأسد ، لكل أكثر من اسم إلا أن واحدا منها هو «العلم» والآخَر دالة على صفات وأحوال ، فكذلك السورة ذات الأسماء العدة ، وكذلك سورة «التوبة» من أسمائها فوق ذلك : «المبعثرة» و«المقشقشة» ، و«البحوث» و«الفاضحة» ، و«المثيرة» ، و«الحافرة» ، و«المخزية» ، و«المهلكة» ، و«المشردة» ، و«المرشدة» ، و«المنكلة» ، و«المدمدمة» ، و«البعوث» ، و«العذاب»[3] .

وليست هذه الأسماء على درجة سواء في شمول إشاراتها إلى المعنى المقصود «منها ما هو أقربُ إلى الغرض المرحلي الكلي وأظهر وأقرب منه

---

(١) تفسير الطبري . ١/١٠٧ تحقيق : أحمد شاكر .

(٢) مفاتيح الغيب ١/١٥٦ .

(٣) ينظر : مفاتيح الغيب للرازي : ١/١٥٦-١٥٩ ، مصاعد النظر للبقاعي ١/٢٠٩ .



إلى الغرض المحوري «المعنى الأمّ» : المقصود الأعظم ، فلمّا كان «اسم كلّ شيْء تلحظ المناسبة بينه وبين مسماه ، عنوانه الدّال بالإجمال على تفصيل ما فيه . فإنَّ هذا يهدي إلى أنّ «اسمَ كلِّ سورةٍ مترجمٌ عن مقصودِها»[1] .

«وعلى قدر المقصود من كل سورة ، تكون عظمتها ، ويعرف ذلك ممّا ورد في فضائلها ، ويؤخذ من ذلك أسماؤها ، ويدل على فضلها كثرتها» .

وهذا لا يقال دون نظرٍ مستقرئ ، لأنّه أشبه بقاعدةٍ كلّية .

كلّ ذلك فيه عونٌ على حسن استبصار وثاقة دلالة «الاسم» على مقصود السّورة ، واستبصار مقصود السورة الأعظم مفتاح الباب المقفل ، من أحسن فتحه سلك سبيلاً مديدًا رحيبًا إلى حسن الفهمِ عن اللهِ ﷻ .

محصّل القول تأصيلاً :

سُمِّيَتْ كُلُّ سُورةٍ باسم كاشفٍ عن مقصودها الأعظم ، فهي لا تسمَّى إلاَّ بما هو أهمُّ ما فيها في علاقته بالروح المهيمن على جميع كَلِمِها وجُملها وآياتها ومعاقدها ، وليس بما كثُرَ ذكره فيها ، أو بسط القول فيه ، أو اختصت بذكره دون غيرها أو غلب ذكره فيها ، فكُلُّ هذا ممًّا جاء عن بعض أهل العلم إنَّما هو غير معتبر ، ألا ترَى أنَّ سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّمٍ ـ ذكر في أربع سور (آل عمران ـ الأحزاب ـ محمد ـ الفتح) ولم تُسمَّ به إلاَّ سورة واحدة : (محمد) ، وكان مقتضى الظّاهر أن تُسمَّى باسمه سورة (الأحزاب) أو سورة (الفتح) .

مفتتح القول تأويلا :

إذا ما كان هذا العامل في تحرير مقصود السّورة بالغ الأهمية ، فإنَّ تحرير دلالة الاسم على مركز المعنى والغرض الرّئيس يحتاج إلى مصابرةٍ ومراجعةٍ ، ونفوذٍ إلى ما وراء ظاهر الدّلالة

---

(١) مصاعد النظر للبقاعي ٢٠٩/١ .

وإذا ما نظرت في سورة «البقرة» ألفيت أنّ في كلمة «البقرة» في سياقها رمزًا إلى ما تقوم عليه السُّورة ، فجعلت عنوانا دالاً على ما تضمّنته السّورة من أغراضٍ مرحلية كلية ، وغرضٍ محوري مركزيّ .

قصة «البقرة» ظاهرة الدَّلالة على تحقّق البعث ، وهو أصيلٌ في شأن الإيمان بالغيب الّذي أذهب إلى أنه مقصود سورة «البقرة» ، وأن الجملة المفتاح الحاضرة في السّورة على امتدادها هي جملة ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة:٣) رأس خواصِّ الثُّلَّةِ الَّتِي أنعم الله ـ تعالى ـ عليها المذكورة في آخر سورة «أمِّ الكتاب» ، المصرَّح بها في خاتمة سورة «البقرة» ، وإذا ما تتبَّعت آيات سورة «البقرة» ، وجملها على امتدادها ، رأيت أنَّ معنى الإيمان بالغيب حاضرٌ فيها ، على تفاضلٍ في مستوياتِ الحضورِ ، فمِن آياتِها ما تراه فيها بالغَ الجلاءِ ، ومنها ما تراه بالغَ الخفاءِ ، وهو أيضًا بالغ الأثرِ في تناسبِ معاقدِ القول فيها ، ألَا تراه هو ما يربط القولَ في أَحكام العلاقاتِ الماليّة من أولِ قوله ﷻ :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(البقرة:٢٦١).

إلى آخر قوله ﷻ : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾(البقرة:٢٨٣).

الذي هو تفصيل لما أجمل في قوله ﷻ : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة:٣) وثيق العلاقة بقوله ﷻ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦٠) .

العروة الوثقَى هي «الإيمان بالغيب» فكيفية الإحياء غيبٌ مطلقٌ ، والإنفاق القويم ابتغاءَ مرضاةِ الله ـ تعالى ـ عماده «الإيمان بالغيب» ، والإنفاق الهَديم عمـاده الكفران بالغيب ، فالمنَّان ، والمـرابِـي إنّما خـلا قلب كلٍّ مِن ملاحظةِ ما يكون له إنْ أحسنَ والتزَمَ بما شرع الله ـ تعالى ـ مِن مثوبةٍ عن الله ﷻ .

وأنت ترَى قوله ﷻ ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:٢٧٧) جاء في أربعةِ مواضع من سورة البقرة» ، ولم يرد قطُّ في أيّ سورةٍ أخرَى على هذا النَّظم الجامع بيْن ثلاثةِ عطاءات : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الآية : ٦٣، ٢٦٢ ،٢٧٤، ٢٨٧) .

وقوله ﷻ : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ حضور الإيمان بالغيب فيه جدُّ جليّ كما هو جدّ جليٌّ في قصّة «البقرة» .

وهذه السُّورة قد كثرت فيها الكلمات المتولّدة من مادة «التقوى» على تنوّعِ صورِها ، فقد وردت في خمسةٍ وثلاثين موضعًا ، وهذا ما لم يكن في غيرها ، وجاء الأمر بقوله ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ ثلاث عشرة مرة ، وهذا أيضًا لم يكن في غيرها ، بهذا العدد ، وجاء قوله تعالى جدّهُ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا ﴾ ستَّ مرات ، وهذا لم يأتِ قطُّ فـي غيرها بأيّ عدد ، وجاء قـولـه تعـالَـى جدّهُ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ في موضعين : الآية (٤٨ ، ١٣٢) وهذا لم يأت في غيرها قطُّ ، وجاء قوله ﷻ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٨١) .

وهذا لم يرد في غيرها ، وهو آخر ما أنزل ، وهو وثيق العلاقة بالإيمان بالغيب .

قلت إنَّ تحت كلِّ آيةٍ من آياتِ السُّورة معنى «الإيمان بالغيب» ، قد يكون جليًّا وقد يكون بالغَ الخفاءِ ، وللجلاء عطاؤه وقومه ، وللخفاء عطاءٌ وقومه .

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء: ٢٠-٢١) .

والنّاظر فى السّورة التى سميت باسمه ﷺ وسميت بـ «القتال» يرى أنها معقودةٌ للمواجهةِ بين الحق والباطلِ ، وما بينهما من صراعٍ ، وقد سبقها بيان حال المعاندين في سور (آل حم) ، وما كان من مجادلة في آياتِ الله وسعي إلى تعطيل الحقِّ واستئصال الخير ، فكان صدر سور(آل حم) قوله ﷻ :

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾

(غافر: ٤-٦) .

وآخرها قوله تعالى جدّه ُ: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (الأحقاف:٣٥) فكان آخر الأحقاف كما قال شيخنا يلحظ أول سورة «غافر»[1] ، لتأتي سورة «محمّد» لتبين ما على أهل الحق ، وما لهم ، وتبين مآل أهل الباطل ، وكأنّ سورة «محمد» تفصيلٌ لآخر

(١) الزمر ـ محمد وعلاقتهما بآل حم : دراسة في أسرار البيان . ص ٥٠٥ ، مكتبة وهبة ـ القاهرة . ط . الأولى ، ١٤٣٣هـ ».

سورة «الأحقاف» ، ومن ثَمَّ كانت هذه السُّورة جـديرة بأنْ تسمى سورة «القتال» :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (محمد:٤) .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (محمد:٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد:٧) .

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد:٣٥) .

سورة «محمّد : القتال» بينت ما على أهل الحق فعله ومالهم من المثوبة في الدارين ، وبينت ما لرسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ من شأن أوجزه ربه تعالى له في أول البعثة في سورة «والضحى» ، وفي سورة «الكوثر» ، فالعلاقة بين سورة «محمّد» وسورة «والضّحى» و«الكوثر» أيضًا بالغة الوثاقة .

﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ (الضحى:٤-٥) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر:١-٣) .

وكذلك علاقة «والضحى» و«الكوثر» بآخر سورة «الأحقاف» .

والجمـع في تسـمية السـورة بـين اسـم «القتـال» واسـم «محمـد» كاشـفٌ مقصديّة «القتال» في الإسلام :

إنه قتالٌ ممّا يُحمد فاعله ، إنّه قتال لمنع الّذين يصدُّون غيرهم عن سبيل الله ﷻ من ذلك الصدّ ، هو ليس قتالا لمن كفر وسالم ، بل لمنْ كفر وصدَّ غيره عن أن يتّخذ لنفسه بنفسِه قراره ، فمن كفر ولم يصدّ فإنّه لا يقاتل ، لأنّه اتّخذ لنفسه بنفسه قراره ، وترك الآخرين يفعلون لأنفسهم ، أمَّا مَن كفر وصدَّ غيره عن أن يتخذ لنفسه قرارها ، فذلك يقاتل لا من أجل كفره ، بل من أجل منعه الآخرين أن يتخذوا لأنفسهم بأنفسِهم قرارهم .

هو قتال لحماية حقوق الآخرين ، وليس قتالا لإرغام النَّاس على الدّخول في الإسلام ، إنَّ دخولهم الإسلام مرغمين لن ينفعهم ، ولن ينفع الإسلام وأهله ، بل سيقيم في الدَّولة المسلمة طبقة من المنافقين ، وهم أشد ضرراً عليها من المجاهرين بكفرهم .

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٦) .

من هنا تدرك وجه اجتماع الاسمين : «القتال» و«محمد» لهذه السورة .

هو ﷺ كما أنّه نبيّ الرَّحمة ، هو نبيُّ الملحمة ، فملحمته ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ مرحمة ، وهكذا يتبين لك دلالة اسمَيْ هذه السورة على مقصودها .

وإذا ما كان أولو العزم من الرّسل قد سمّيت ثلاث سور بأسماءِ ثلاثة منهم : «نوح» ، و«إبراهيم» ، و«محمد» ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ فإن سيدنا «موسَى» ـ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلام ـ لم تسم سورة باسمه على الرغم من أنّ قصته هي أكثر قصص الأنبياء ورودًا فى عديد من السّور ، وقد بسطت فى سور كثيرة ، وقد سميت سورة «الإسراء» بـ«بني إسرائيل» وكذلك سيدنا عيسى عليه السلام لم تسمَّ سورةٌ باسمِه ، وسمّيت باسم أمه ـ عليْها السّلام ـ ،

و« موسى » كليم الله و« عيسى » كلمة الله أيضًا ففى كلٍّ منهما ما ليس فى غيره من الأنبياء ، وسيدنا « موسى » عليه السلام قد ورد اسمه فى القرآن الكريم ستًّا وثلاثين ومائة مرة ، وسيدنا « عيسى » عليه السلام ورد اسمه خمسًا وعشرين مرة ، وكان ظاهر الأمر أن تسمَّى سورة « القصص » باسم سيدنا « موسى » عليه السلام ، فقد أفردت السّورة لقصته منذ ولادته إلى انتصاره وهلاك أعدائه : « فرعون » و« هامان » و« قارون » ، وحين ذكرت قصة « قارون » كانت لاحقة بقصة سيّدنا « موسى » عليه السلام : ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (القصص:٧٦) .

وكان إفراد سورة « القصص » لقصة « موسى » عليه السلام أشبه بإفراد سورة « يوسف » عليه السلام لقصته .

وكان مقتضى الظَّاهر أيضا فى سورة « النَّمل » أن تسمَّى سورة « سليمان » عليه السلام أو سورة « الهدهد » ، ولكنْ لمَّا كانت سورة « النّمل » مقصودها الأعظم إظهار العلم والحكمة ، وفى قصة « الهدهد » : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل:٢٢) وفى قصة « النّمل » ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل:١٨) ترى فى مقالتها الحكمة ممزوجة بالعلم ، ولا ترى فى مقالة « الهدهد » إلاَّ إظهار العلم فى ثوب فخر ، فكانت مقالة « النملة » أعلقَ بمقصود السُّورة .

وكذلك سورة « يونس » عليه السلام تراها سمّيت بذلك مع أنَّ قصة سيدنا « يونس » عليه السلام جاءت فى سورة « الصَّافَّات » فى عشر آيات ، وفى سورة « الأنبياء » بينما لم يأت ذكره فى سورة « يونس » عليه السلام إلاَّ فى آيةٍ واحدةٍ :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس:٩٨) .

وكانت هذه السّورة أحقَّ باسم «يونس» عليه السلام فإنَّ قصّته فيها «هي المثل الوحيد البارز للقوم الّذين يتداركون أنفسهم قبل مباغته العذاب لهم ، فيتوبون إلى ربّهم سبحانه وتعالى ، وفى الوقت سعة ، وهم وحدهم فى تاريخ الدعوات الذين آمنوا جملة بعد تكذيب ، فكشف عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم ـ عليه السلام ـ قبل وقوعه بهم كما هي سنة الله جل جلاله فى المكذبين المُصِرّين»[1].

ومطلع السّورة هادٍ الى ذلك :

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ (يونس:١-٢).

ولم يرد هذا المطلع فى مفتتح سورة أخرى ، ولا فى غير مطلعها ، ففيه دَلالة على أنَّ القرآنَ الكريمَ وحيٌ من عند الله جل جلاله ، وليس من عند غيره ، وأنَّ غيره لا يقدر على شيْء من ذلك ، ولذلك استنكر تعجّب النّاس أن يوحِي الله سبحانه وتعالى إلى رجل منهم بإنذار المعاندين وتمكين المؤمنين ، إذ كيف يعجبون ولا يستطيعه أحد سواه .

وكذلك كشف العذاب وتمكين قوم لما آمنوا لا يستطيعه أحد سواه ، ففى تفرُّد قوم « يونس» عليه السلام بالإيمان الجَمْعِيّ وكشف العذاب عنهم دون غيرهم من الأمم آية صادقة على أنَّ القرآن الكريم من عند الله عز وجل وحده ، أوحاه إلى رجلٍ من العرب عبده سيدنا «محمّد» ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ دون غيره من العرب .

* * *

(١) في ظلال القرآن . ص ١٧٥٢ تأليف : سيد قطب .



يلفتنا شيخنا إلى الحكمة من تسمية سورة «فصّلت»، تسميتها «فصّلت» اقتضتها علاقتها بسورة «غافر» ، فهي تسمية هادية إلى صنيع هذه السّورة بما جاء في التي قبلها ، في غافر جاء الإجمال في أمورٍ عمدت سورة «فصّلت» إلى تفصيلها ، فالوظيفة الأسلوبيّة لها هي التي اقتضت هذه التَّسمية ، فكأنَّ في التَّسمية هداية إلى منهاج الإبانة فيها ، وهو منهاج فيه من الرّحمةِ العامّة والخاصّة ما فيه ممًّا يلفت إلى حكمة الإعراب باسمه ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في استهلالها :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾
(فصلت:١-٢) .

يقول : «إنَّك واجدٌ سِرًّا بيانيا جليلاً وراءَ تسمية هذه السّورة «فصّلت» ، من هذا السّرِّ أنـّك تجد تفصيلاً لقوله في «غافر» ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (غافر:٤) فقد ذكرت في «غافر» أنـّهم يجادلون ، وكرّرت هذا في مواضع من السّورةِ ، ثم تأتي «فصّلت»، وتفصّل هذه المجادلة ، وهي قوله : ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾
(فصلت:٥) .

ثم إنّك تجد في«غافر» أخذَ اللهِ للذين كفروا من قبلهم قوم «نوح» و«عاد» ، وتكراركلمة «الأخذ» أو كلمة «البأس» من غيرِ أن يكون هناك بيان لهذا الأخذ ولهذا البأس ، وتأتي«فصّلت» وتفصّل هذا وتبيّنه ....

وإذا راجعت تسمية السّورة بـ «السّجدة» وجدتَ سِرَّ ذلك وقوع السجدة فيها ، وليس هذا كافيًا ؛ لأنَّ السَّجدات وقعتْ في سورٍ كثيرةٍ ، ولم تسمَّ هذه السُّور بـ«السّجدة» ، فلا بدَّ لِهذه السّجدة خصوصية أهَّلتها لتسميةِ السّورةِ بِها ، وهذا فيما نعلم ـ والله أعلم ـ راجعٌ إلى أنّ موقع «السّجدة» في السّورةِ ممسكٌ بخيوط الحقيقةِ التي دارتْ عليْها السّورة بوجهيها ، وهي الذين سَجدوا للمعبود بالباطلِ ، والذين سَجدوا للمعبود بِحقٍّ :

﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ (فصلت:٣٧-٣٨) »[١] .

من كلّ الَّذي مضى ندرك أنَّ الاعتدادَ في التسمية ليس في قلة ذكر ما سُمِّيَ به ، أو كثرته . الأمر مرجعه إلى إنباء الاسم عن وَسْمِ السورة[٢] .

* * *

(١) آل حم : غافر ـ فصلت ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

(٢) يمكن أن تتزود بخير من بعض الدراسات التي أجريت في شأن أسماء السور منها : دراسة «من قضايا أسماء سور القرآن الكريم : دراسة لغوية وصفية الأستاذ الدكتور عبد الله أحمد إسماعيل ودكتور عبد الله عبد الجليل المناعمة . جامعة الأزهر ـ غزة ـ فلسطين . مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الثامن عشر ، العدد الأول ، ص٦١٣-٦٢٨ يناير ٢٠١٠م ، ورسالة : أسماء سور القرآن وفضائلها ، تأليف منيرة محمد الدوسري ، دار ابن الجوزي ـ الدمام . ط . الأولى ، ١٤٢٦هـ وكتاب دلالة أسماء السور القرآنية على محاورها وموضوعاتها ، تأليف : عمر علي حسان عرفان . مؤسسة الرسالة . وكتاب دلالة أسماء السور من منظور حضَارِيّ . تأليف مُحمّد خليل جيجك . مؤسسة الرسالة . وانظر كتاب : علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم . دراسة بلاغية نظرية تطبيقية . ص ٥٦٩-٥٧١ تأليف : دكتور إبراهيم صلاح الهدهد . مكتبة الإيمان . ط . الأولى ، ١٤٣٢هـ .

الرافد الثّـاني
مطلع السّورة ومقطعها تلاوةً

قلت «تلاوة» إشارة إلـى أنَّ مطلع كلّ سورة هو وثيق النّسب بمقطع الّتي قبلها ، فهو ليس مطلع معنى منقطع عن سباقِه ، بل هو مطلع مرحلة من مراحل تصاعد المعنى القرآنيّ ، فهو مفتتح تلاوة .

وهذا أمرٌ قد عُني به أهل العلم كثيرًا في ما عرف بـ«براعة الاستهلال» ، و«حسن الختام» ، و«ردّ المقطع على المطلع» .

إذا ما كان القرآن الكريم سورًا عديدةً تتفاوت في عدد آياتها وكلماتها ، فإنَّ المرتّل له يدرك أنّ لكلّ سورة مطلعَ تلاوة ومقطَعها ، أفيمكن أن يفرضَ حينئذٍ أنّ ثَمَّ علاقة بين مقصود السّورة الأعظم وفاتحتها وخاتمتها ، وإلا لما كانت ثَمَّ حكمةٌ من أن تكون هذه فاتـحة ، وتلك خاتمة ؟

فالبيان العاليّ البديع بَلـه العليُّ المعجزُ يوجب أن لا يكونَ شيءٌ منـه فاتحته ، وشيءٌ منه خاتمته إلاّ إذا كان هنالك حكمةٌ اقتضت ذلك ، فإذا كان عالم الخلق قائمًا على أنَّ كلّ شيءٍ له مقامه الّذي لا سبيل له إلى أن يتجاوزَه ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (الصافات:١٦٤) فإنَّ الأمر كذلك في عالم الأمر الّذي منه القرآن الكريم ، كلُّ حزبٍ له مقامُه ، وكلّ سورة فيه لها مقامها الّذي لا تصحُّ إلاّ فيه ، وكلّ معقد فيها وكلّ نجمٍ وكلّ آية لها مقامٌ معلومٌ ، فما يجعل فاتحة وما يجعل خاتمة هذا مقامه الذي اقتضته حكمةٌ عليّةٌ يستطعم منها الأعيانُ فيوضًا مِن العطاءِ .

وفي شأن ما نحن بصدده : «بناء السّورة» نتبصَّر شيئًا من الحكمةِ بالتّدبّرِ في أمريْن كلّيّيْن :

الأمر الأوّل : علاقة فاتحة سورةٍ وخاتمتها بالمتن الّذي يجري عليْه البيان من فاتحته إلى خاتمته ، ولاسيما المعنى المركزي فيه ، «المعنى الأم : المقصود الأعظم» .

والأمر الآخر : علاقة الخاتمة بالفاتحة موضوعًا ووظيفةً .

وهذا ما أسعَى إلى تبصُّر شيْءٍ منه تأصيلاً وتـأويلاً :

أوّلا: الفاتحة والمطلع

من شأن كلِّ مخلوقٍ أنّـه مكونٌ من أجزاء متسقةٍ متفاعلة يحتاج بعضها إلى بعضٍ ، فسمة كلّ مخلوق «الافتقار» : كلُّ ذرة فيه تفتقر إلى أختها لتتمكَّن من أداء عملها ، ولذا قال الله ﷻ عن نفسِه ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١) ، فَمِن وجوه المعنى في قوله (أحدٌ) أنـّه الّذي لا يتركب من أشياء ، فيحتاج بعضها إلى غيرها[١] .

والشّأن في ما تركب من أشياء ألاَّ تكون مواقع الأشياء من بعضها سواء ، فلا بدّ أن يكونَ ما هو مقدّم في سياق غيره وهو مؤخر في آخر ، فعمل المقدم على غيرِه ليس كمثل عمل ما أخر عنه ، والأشياء ليست بذواتها فحسب ، بل

---

(١) بين قوله تعالى (أحد) و(الصمد) مقابلة، فـ «أحد» مَن لا يحتاج إلى شيْءٍ ، و«الصمد» من يحتاج إليه كلُّ شيْءٍ ، ومن بابه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ (الأنعام:١٤) من قول الله ﷻ : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام:١٤) .

راجع ما جاء به الخطابي في كتابه «شأن الدّعاء» في تبيين معنى اسم الله ـ تعالى ـ «أحد» ، واسمه «الصمد» . ص ٨٢-٨٥ ، تحقيق : أحمد الدقاق ، وكتاب «لوامع البينات» للرازي ، ص ٢٣٠ ، ٢٣٤ .

بموقعها أيضًا ، فقد يتغير موقع الشّيءُ نفسِه في سياقٍ عمًّا كان عليه في سياق آخر ، فيتغيَّر شأنه .

هذا سنةٌ قائمةٌ في عالم الإنسان وعالم البيان .

ومن شأن ما هو فاتحةٌ ، وما هو خاتمةٌ أنّه أسرعُ الأشياءِ تذكّرًا ، لأنّه الأكثر تقررًا ، ففاتحةُ كلّ شيْءٍ هي ما يحظَى بِالعنايةِ ؛ فهو أوّل ما يُدرك ، ومِن ثَمَّ كان مِن سنّة العربيّة فى بيانها أن تجعلَ فى الصّدر دَلالة على المراد وإنباءً بالمقصود ، لتحقيق أمرين كليين :

الأول : أن يكون السَّامعُ على بصيرة بما هو متلقٍ له ، وهذا وفاءٌ بحقّه على مَن يحادثُه ، فهومن حُسْنِ القِرَى .

والآخر : أن يكونَ له مِن الفاتحةِ الّتي هِي أمكنُ تقررًا فِي الوَعي وأسرعُ استدعاءً ، وأيسرُ ما يستدرجُ به ما يتضمّنه القولُ من بعده .

وهذا فيه مع إكرام المخاطَب عنايةٌ بالمعنى الّذي هو منْ ولائدِ صَدرِ المُتكلّم في بيان البشرِ .

وبهذين يكون مِن المتكلم رعاية لمعانيه في وَعي السَّامع ورعايته ، ويكون منه أيضًا عونٌ للسَّامع على الرُّؤية الكلية لما يسمع ، فلا يغيبُ عليه منه شيْءٌ ، ولا يتقدم شيْءٌ على شيءٍ ، ومن ثَمَّ لا يؤتَى السّامع مِن قِبَلِ المتكلم ، فإنَّه ضيفُه ، ومن حقّه حسنُ القِرَى وتعجيله .

وشأنُ العربيّ فِي حياتِه الاستدلال بما كشف له على ما غاب عنه ، وقد علمته حياة الصّحراء الاستدلال والفراسة ، فكانوا يستخدمون الدّليل فى أسفارهم ؛ ليكشفَ لهم ما غاب عنهم ، ولِيهديَهم ما اشتكلَ فى مناهج أسفارِهم .

وهم فى بيانِهم من قَبْلِ نزول القرآن الكريم يتَّخذون مِن صدور قصائدِهم هوادِىَ إلى مضامينِها .

وجاء الذِّكرُ الحكيمُ على ما كان مِن سَنَنهم في الإنباءِ بمطالع البيانِ على مقاصدِهم ، فكان مطلعُ كلِّ سورةٍ مضمَّنًا معالمَ هادية إلى مقاصدِها .

ولذا كان مِن أصول التلقّي الأخذُ بمعهودِ العربِ فِي الإفهامِ والفهمِ ، وليس من الحِكمة في شيْءٍ إسقاطُ منهج إفهامٍ وفهمٍ خاصين بلسان غيرِ عربيٍّ على صناعة التلقي للقرآن ، أمَّا ما كان عامًّا البيان الإنسانيّ : أيْ ما لا يختلف باختلاف نوع اللسان ـ إن وجد هذا في عالم البيان ـ فهذا مشترك إِنساني يصلح لتلقّي أي بيان .

إذا ما كانت سورة «فاتحة الكتاب : أمِّ القرآن» هي مطلعه وفيها إجمالُ تفصيلِ القرآنِ مِن الأصولِ والفروعِ تشريعًا ومِن المعارفِ واللّطائفِ تثقيفًا ، فيحصلُ لِمن تدبَّر «مِن معانى الفاتحة ـ تصريحًا وتضمينًا ـ علمٌ إجماليٌّ بِما حَواه القرآنُ مِن الأغراضِ ، وذلك يدعو نفسَ قارئها إلى تطلّبِ التَّفصيلِ على حسب التَّمكُّن والقابلية ، ولعلّه لَهذا فُرضت قراءةُ (الفاتحة) فى كلّ ركعة من الصَّلاة حرصًا على التَّذكر ممّا فى مطاويها»[1].

وكأنَّ المُصلِّي ـ إنْ كان مِن أهلِ التّلقّي ـ قد استذكَر المعاني القرآنيَّة على سبيل الإجمالِ والإحكام في كلِّ ركعةٍ .

إذا ما كان هذا فِي إنباءِ مطلعِ القرآن الكريمِ بما حواه تفصيلا فى سُوره ، فالأمرُ كمثلِه في كلِّ سورةٍ ، إذْ ينبِئُ مطلعُ كلِّ سورة على مضمونِها ومقصودِها .

وأهلُ العلمِ بالبيان على أن يكونَ مبتدَأ البيانِ مناسبًا لقصد المتكلم مِن جميع جهاتِه ، ففي ذلك إكرامٌ للمعنَى وتوطينٌ له في فؤادِ السّامع ، وإكرامٌ

(١) التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور . ٨٩/١ ، ٩٠ .



للسَّامع بالاقتصادِ في الجُهد لِلتَّوفُّر على الوفاءِ بحقِّ التلقّي ، ومِن ثَمّ كان استبصارُ مقصودِ المتكلّم مِن مفتتح كلامه نهجًا قديمًا وسَنَنا تليدا أخذ به الأقدمون ، وهو فى باب التدبُّر القرآنيّ أسمق وأوسق .

يقول ابنُ النّاظِم : البدرُ بن مالك (ت ٦٨٦هـ) : « وإذا نظرت إلى فواتح السور جملها ومفرداتها رأيت من البلاغة والتفنّن وأنواع الإشارة ما يقصر عَنْ كُنْهِ وَصِفَةِ العِبارَةِ »[(١)].

وليس في قول ابن النّاظم : « مِن البلاغةِ والتَّفنّن وأنواع الإشارةِ » ما قد يفهم أنّ التّفنن والإشارة ليسا من البلاغة لعطفهما عليْها ، فذلِك مِن عطفِ الخاصِّ علَى العام ، لِما للتّفنّن والإشارة من فضيلة تتحقق في كثيرٍ من أساليب البلاغة .

في التّفنّن مِن التّنوع والتّجدّد الطّريف الّلطيف ، وفِي الإشارة مِن التَّلميح والتّخفِي الّذِي تستلذّه الأنفس[(٢)].

واختياره هذَين الأسلوبين في هذا المقام من لقانَته ، فإنّهما أكثر حضوراً في أسلوب براعةِ الاستهلالِ في القرآن ، وهذا من دقّة ابنِ النَّاظم في عبارته ، فإنّك تستطيع أن تستنبِط مِن منهجِه في الإبانةِ بعضًا ممًّا لم يصرِّح به مِن آرائه فِي البلاغةِ ، فليست آراء العالم في قضية منحصرةً فيما يصرّح به ، بل إنّك لتجدُ بعضَها ، ولا سيَّما الطّريفُ الّلطيفُ فِي منهجِ الإبانةِ الّذِي يَسْلُكُ ، فحرًى بطالبِ العلمِ ألاّ يقتصِرَ تفهّمه علَى ما صرَّح به العالمُ ، بل عليه أن يتفقّه مِنهاجَ إبانتِه عَن معانِيه .

---

(١) المصباح في المعاني والبيان والبديع . ص ٢٧١ ابن الناظم : بدر الدين بن محمد ابن عبد الله ابن مالك الطائيّ الأندلسي (ت : ٦٨٦هـ). تحقيق : حسني عبد الجليل ، مكتبة الآداب ، بالقاهرة ، ط . الأولى ١٤٠٩هـ .

(٢) ينظر : منهاج البلغاء لحازم ، ص ٦١، ٢٠٦، ٢٤٥، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١٠، ٣٦١ .

ويقول الخطيبُ القزوينيُّ (ت : ٧٣٩هـ) : «وأحسنُ الابتداءاتِ ما ناسبَ المقصودَ»[1] .

تأمّل قوله «ناسب المقصود» أيريد بالمقصودِ الغرضَ العامّ : (الشّعري) من نحو «المدح» و«الفخر» ... ، وهو ما يغلُب علَى الظَّنِّ أنّه يريده أمْ يريد به مقصود الإبانة الّتي يراد غزو المتلقّي بها لِتحقيقه فيه ، فإنّ لكلّ بيانٍ مغزًى يُصوِّب المتكلّم سهامَ بيانِه إليه ، فإنْ أُريدَ ذلك ، فهذا يعنِي أنّ الغرضَ المِحوريّ للبيانِ هُو مركز الرّعاية فِي منهاجِ الإبانةِ بدءًا من الفاتحةِ ، ليكونَ فِي الفاتحةِ ما يستهدَى به إلَى الوعي بمجرَى حركةِ المعنَى ، فيتخذُ القارئُ أو السّامعُ مِن المدركات ما يُعينه على أنْ يُحسِنَ التلقّي . قد يَحتمِل قولُه ذلك ، وإن كنت لا أحسِب أنّه يرمِي إليْه ، ومِن ثمّ لا أذهبُ إلَى نِسبةِ هذا المعنَى إلَى عبارتِه .

ولعلّك تقول : إن كنتَ كذلك ، فَلِمَ ذَكَرْتَ هذا المَعنَى ، أَمَا كان الأَوْلَى أَنْ تَطْوِيه ؟

قُلْتُهُ إشارَةً إلَى أنَّ العبارةَ قَدْ يُمْكِنُ حملُها علَى وجْهٍ ، لكنَّك لا تسطيعَ القطعَ أوْ التّرجيحَ أنَّ قائلَها يَرمِي إليْه لِعِلْمِكَ مِنْ حالِ قائلِها ، فَأَنْتَ مَحكُومٌ فِي نِسبةِ المعانِي إلَى عباراتِ القائلِ بِما هُو شأنُ القائلِ وحالُه .

هذا عِندِي أَصلٌ مِن أُصولِ التَّلقّي والتّأويل ، وَليس معنَى هذا أنَّك لا تُشِيرُ إلَى معنًى تحتملُه العبارةُ ، لأنّه ليس لدَيك ما يقطعُ بأنَّ قائلَها يُريدُه ، بَلْ لا تفعلُ إذا ترجَّح لدَيك أنّ التّكوينَ العقليّ والثّقافيّ وَمقاصد الإبانةِ عنده لا يكونُ مِنها ما أنتَ تحسِبُ أنَّ العبارةَ تحملُه .

---

(١) الإيضاح ، بغية : ١٣٠/٤ .



فرقٌ بيْن مَن تكونُ عبارتُه يمكنُ أنْ تحملَ معنًى ، وحالُه يُحاجِزُك أن تنسبَ المعنَى إليها ، وبيْن مَن تكون حالُه لا تمنعُك مِن ذلك ، وإنْ كنتَ غيرَ واثِقٍ مِن أنّه يقصِدُ إلى ذلك ، وأنّه يَرمِي بها إلى قلبِك .

لِذا أفرّق فِي الموقفِ بيْن عبارةٍ يقولُها مِثلُ الخليلِ ، وسِيبويهِ ، والقاضِي الجرجانيّ ، وعبد القاهر ، وابن جنّي ، وأبوسعيدٍ السّيرافيّ ، وأبِو عليّ الفارسِيّ ، والرّمّانيّ وعبارةٍ يقولها الخطيبُ القزوينِيّ ، وعبدُ الحكيم ، والخَلخاليُّ ، وأمثالُهم .

ويقول الخطيبُ القزوينيُّ فى آخرِ عبارةٍ له فى «الإيضاح» : «جميعُ فواتِحِ السُّورِ وخواتِمها واردةٌ علَى أَحسنِ وجوهِ البلاغةِ وأكملِها ـ يظهَرُ ذلِك بالتَّأمّلِ فِيها مَعَ التَّدبُّر لِما تقدَّم مِن الأُصولِ» .

هِي مقالةٌ كثيفةٌ متّسمةٌ بالإشارةِ إلَى أنَّ استبصارِ دَلالة المُطّلع علَى المقصودِ إنَّما يكونُ بالتَّأمّل والتَّدبّر وفقًا لِأصولِ علومِ البلاغةِ : المعانِى والبيانِ مِن خصائصِ أنماطِ التّراكيب وضروب التصوير وصنوف التّحبير ، فهذا إيماءٌ إلى وجوب التّدبر البيانيّ لمطلع السّورة لاستكشاف دَلالتها على مقصودِ السّورة .

ذلك يعنِي أنّ دَلالته على المقصود ذات خفاءٍ لا يستبصِره إلاّ أهلُ العلم .

نَصَّ برهانُ الدّين البِقاعِيّ على أنّ فاتحةَ السُّورة دالّة على مقصودِها : «فإنّ كلَّ سورةٍ لها مقصدٌ واحدٌ يُدار عليه أوّلُها وآخرُها ، ويستدلُّ عليْه فِيها ، فترتّبُ المقدّمات الدّالة عليه علَى أتقنِ وجهٍ ، وأبدع نهجٍ»[1].

تبصر قوله : «لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها» فهذا مؤسس عنده على أنّ هذا المقصد قائمٌ في السّورة جمعاء ، فهو عمود الأمر فيها ، تراه

(١) مصاعد النظر ١/١٤٩ .

بصيرتك النافذة في أولها كما تراه في آخرها ، وكما تراه في ثبجها ، هو سرٌّ يسْرِي فيها جميعًا ، فكل السورة معاقد ونجوم ، وآيات وجمل وكلِم إليه ، كما أن كلّ إنسان إلى آدم ﷺ .

وتبصّر قوله : «ويستدل عليه فيها» فهذا هاديك إلى أنّ هذا المقصود يحتاج المرء إلى أن يجتهد فيطلب استدراكه والاستدلال عليه أن يبحث في السورة ما يدله عليْه ، فإنما هو خبيءٌ ، ثم انظر قوله : «فترتب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه ، وأبدع نهج» فهذا يستفزّك إلى أن لا ترضَى بيسير الجَهد في الاطلاع عليه ، فإنّ ما يدل عليه إنّما رتب على أتقن وجه وأبدع نـهـج ، وما كان كذلك فإنّه لا يستدرك إلابما هو وليد إتقان وإبداع .

لذا تجد تفاوت العلماء في هذه المسألة بالغًا لتفاوتهم في مهاراتهم وخبراتهم وأدواتهم ، وعزائمهم ، وصبرهم على الإتقان والإبداع ، والتّطهر من معرة التّقليد والاجترار اللّذين هما آخذان بخِناقي وخناق كثيرٍ من أقراني فِي طلب العلم[1] .

* * *

ثانيا : الخاتمة والمقطع :

إذا ما كان فى مطلع تلاوة كُلِّ سورة دلائلُ على مضمونِها وقرائن هداية إلى حسن استبصار معالم مقصودها الأعظم ، فإنَّ من سنن بناء الكلام فى أدب العربية أن ينعطفَ آخرُ الكلام على أوَّله ، ويكون فى آخره ما يتآخى مع أوله ويتناغى مع مفتتحه .

وقد جعل شبيب بن شيبة البصري (ت: ١٧٠هـ) عنايتَه بجودة الانتهاء عديل

(١) ينظر : علاقة المطالع بالمقاصد ص ٥٥٨-٥٦٦ ، دكتور إبراهيم الهدهد .

عنايته بمفتتح القولِ ، يقول : «الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه»[1] .

وهذه منه لفتٌ إلى أن يكون من شأنك أن تستكمل ما لم يستكمل ، وليكن هذا شأنك في جميع أمرك ، ولا يكن همك الاجترار ، والجري على ما جرى عليه أو إليْه الآخرون وفي الأمر ما لم يستكمل .

لمَّا كانَ المرءُ فِي مفتتحِ فعلِه أقوَى وأعْنَى ، وكان في منتهَى سعيِه أضعفَ ، كان حسنًا اللَّفت إلى أنَّهما سواء الفعل والفضل ، فكلّ إنّما هو إلى تمكين ما له يكونُ القول ، وتفعيل وعَي المتلقّي وتثويره ، وهو فِي الوقت نفسِه من العناية بمتن القول ، فإذا ما كان في المستهلّ والمَطلع ، إسهامٌ ، وإرصادٌ ، وإنباءٌ بما يتضمنه الكلام من مقاصد ، ممّا يجعل المتلقّي يتّخذ له مِن وعيه ومهاراته وخبراته في التلقّي ما يجعل هذا البيان فعيلاً معصومًا مِن الغفلة عنه ، وعن محاجزته عن الفعل الّذي أقيم من أجل تحقيقه ، فيكون أحق بأن يسمّى «كلامًا» ، من بعد أن كان «بيانًا» ، فإنّهما منزِلان : «البيان» ، و«الكلام» أولّهما مبتدأٌ ، والآخرُ منتهًى ، وكَم من بيان بشَريٍّ لا يرقَى أن يكون كلامًا ، والأصل في كلّ كلامٍ أن يكون بيانًا ، فإن يكنْ هذا في شأن المفتتح ، فإنَّ فى مقطع التلاوة ، ومختتمها استجماعَ معانى الكلام ، واكتنازَ مقاصده ، فهو آخر ما يسمع ، فوجب أن يكون كنزا جامعا لمعانيه ومقاصده ، ومن ثَمَّ عُنِيَ أهل الأدب به .

وأهل العلمِ بكتابِ الله ـ تعالى ـ على أنَّ « إنَّ اللهَ ﷻ خَتمَ كلَّ سُورةٍ مِن سورِه بأحسنِ ختامٍ ، وأتمَّها بأعجبِ إتمامٍ ختامًا يطابقُ مقصِدها ، ويؤدِّي معناها»[2] .

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٣ .

(٢) الطراز للعلوي : ٣/١٨٣ .

عبارة العلويّ : « ختامًا يطابقُ مقصِدها ، ويؤدِّي معناها » يهديك إلى أنّك بملكك أن تستبصِر مِن الخِتام ما يعينك علَى تحريرِ مقصود السُّورةِ لِما أنه تكثيفٌ وتكريسٌ كليّات السُّورة ، فالفاتحة إنباءٌ خفيٌ بهذه الكليات ، والخاتمة تكريسُ هذه الكليّات ، وكأنّ كليات كلّ سورة منبأٌ بها ثلاث مرات كلّ مرةٍ على نحوٍ خاصٍ .

هو ضربٌ مِن ضروب التّصريفِ البياني للكليّات ، وهذا ما يحسن الالتفاتُ إلى تثويرِ العلم به في الدّرس التّأويلي لمعاني الهدي في كلّ سورةٍ .

ومن بعدِه البقاعي يهدِي إلى أنّه « إذا وصل الأمر إلى غايته ، ختم بما منه كان ابتدأ »(١) .

وهذا فيه إشارةٌ إلى أنّ في الخاتمةِ ما يؤكّد ما هَدتْ إليه « الفاتحة » من الاستدلال على « المقصد » ، فلا يحسُن بالمتدبّر أن يكتفِيَ بدلالة « الفاتحة » على المقصد ، فلا بدَّ أنْ يؤكّد ما استبصر بما دلت عليه « الخاتمة » ، وليس بلازم أن تكون الدّوال في الخاتمة على ما دلّت عليه « الفاتحة » من المقصد دوالّ لسانيّة ، بل قد تكون أمرًا معنويًا خبيئًا .

وفي هذا ـ أيضًا ـ إشارة إلى أن كلَّ سورة كالدائرة يلتحم آخرها بأولها .

* * *

قلت قبلُ إنّ مصطلح « المقطع » إنّما يراد به مقطع التّلاوة ، لا مقطعَ المعنى القرآنيّ المديد ، فإنّ مفتتح المعنى القرآني التفصيليّ لما في « أمّ القرآن » يبدأ

(١) مصاعد النظر : ١/١٤٩ .

بمفتتح سورة «البقرة» ويمضي إلى منتهى سورة «المسد» ، فذلك متن القول التفصيلي ، لتأتي الخاتمة «سورة الإخلاص» ، و«المعوذتان»[1] .

فكما أنّ للسّورة مطلعَ تلاوة ومقطعًا ، فإنّ للقرآن مطلعَ تفصيل ومقطع تلاوة ، كلٍّ سورة يقابل مطلعها وظيفيًا ، وكما أنـًا لم نستطع أن نضع معيارًا كميًا عامًا لمطلع السّور كلها ، فالأمر قائمٌ في شأن «المقطع» (الخاتمة) :

لا سبيل لي أن أضع معيارًا كميا لمقطع السور ، وكما أنّ مطلع السورة (مستهلها) قد يكون مقدمتها أو بعضها فالأمر كذلك قد يكون ذلك المقطع هو خاتمة السّورة وقد يكون بعضَ خاتمتها .

محصل الأمر أنَّ البقاعيَّ يجعل مطلع السّور ومقطعها طرفي الدّائرة الكبرَى مشتملة على دوائر صغرى في كل سورة : موضوعات السورة تدور كلّ دائرة صغرى (موضوع) على غرض مرحلي خاضع للغرض المحوريّ «المقصود الأعظم» .

يقول : «صارت كل سورة دائرةً كبرى ، مشتملة على دوائر الآيات الغُرِّ ، البديعة النظم ، العجيبة الضم ، بلين تعاطف أفنانها ، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها»[2] .

ومثل هذا على مستوى القرآن كله ، فهو دائرة كبرى لها مركز (مقصود أعظم) ، وكلّ سورة بمثابة دائرة كبيرة لها مركز (مقصود أعظم) خاضع لمركز

---

(١) من يستبصِرَ العلاقة بين سورة «أم الكتاب» باعتبارها فاتحة القرآن ، وسورة «الصمد» و«المعوذتين» باعتبار الثلاث خاتمته يجد تلك العلاقة بالغة الوثاقةِ والظّهورِ أيضًا . وكأنّ بناء القرآن جميعًا من سوره كبناء سوره من آياته ، وكأنَّ كلَّ سورة منه بمثابة آية من السّورة . وكما أنَّ ترتيب آيَاته في السورة توقيف ، فترتيب سورة فيه توقيف .

(٢) مصاعد النظر ١٤٩/١ .

الدائرة الكبرى (المقصود الأعظم للقرآن) ، وكل دائرة كبيرة (السورة) متضمنة دوائر صغرى (الموضوعات) لها مركز (غرض مرحليّ) خاضع للغرض المحوري للدائرة الكبيرة (السورة) ، وكلّ دائرة صغيرة (الموضوع) مشتملة على دائرة صغرى (النَّجم) لها غرض جزئيّ (مركز الدَّائرة) يخضع للغرض المرحليّ للموضوع الخاضع للغرض المحوريّ للدَّائرة الكبيرة (السُّورة) ، الخاضع للغرض المركزيّ (المقصود الأعظم) للدَّائرة الكبرى (القرآن كلِّه).

وإذا ما كانت سور القرآن الكريم ليست على درجة سواء فى طولها وقصرها وعدد آياتها ، فإنَّه لمن العسير أن يكون ثَمَّ معيار كَمِّيٌّ للمطلع ، وليس هناك تلازمٌ توافقي بين مقدار المطلع ومقدار سورته طولا وقصرا .

الَّذى هو أقرب أنَّ المطلع هو مجموع ما انتظم به تمام المعنى المُستفتَح به ، ولهذا تستطيعُ أن تستأنسَ فى هذا بهَديِ النُّبوة .

روى الدَّارميُّ في « فضائل القرآن » من سننه بسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقفا :

« مَنْ قَرَأَ أربعَ آياتٍ من أوّل سورةِ البقرةِ وآية الكرسى وآيتين بعد آية الكرسيّ ، وثلاثًا من آخر سورة « البقرة » لم يقربْه ، ولا أهلَهُ يومئذٍ شيطانٌ ، ولا شيءٌ يكرهه ، ولا يُقْرأَنَّ على مجنون إلا أفاق » .

ومثل هذا وإن كان موقوفًا على سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ فإنَّه ممَّا لا يقوله الصحابى من عند نفسه ؛ لأنَّه من الغيب الذى لا يعلم إلاَّ عن طريق الوحى ، وما كان لصحابي قط أن يقول في شأن الغيب من ذاته ، فهم أجلّ من أن يفعلوا .

لعل عدم رفع سيدنا « ابن مسعود » ـ رَضِيَ الله عَنه ـ مقالَه هذا إلى سيِّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ مخافة أن يكون فى مقاله ما هو على غير يقين من منطوقه ، وإن كان على يقين من مضمونه ، فحين

يقوم فى ظنِّ الصحابيّ مخافة أن يتجاوز المنطوق ولو بكلمة تقارب أوبحرف معنى يماثل كـ «الواو» ، و«الفاء» فإنّه يروى المضمون ولا يرفع ، وهذا من عظيمِ ورعهم ، وصدقهم ، وأمانتهم .

وهذا الأثـر الموقوف قد جاء مرفوعا من السيدة عائشة ـ رَضِيَ الله عَنْها ـ إلى النبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ فى «مسند الفردوس» مثله : «مَنْ قرأَ من أول البقرة أربع آياتٍ وآية الكرسى والآيتين بعدها والثلاث من آخرها كَلأَهُ الله فى أهله وولدِه ومالِه ودنياه وآخرته» .

* * *

مقاربة في مطلع بعض السُور ومقطعها :

وإذا نظرنا ألفينا أنَّ مطلع سـورة «البقرة» من أولها إلى آخر قولـه ﷻ :
﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة:٥)
وختامها من أول قوله ﷻ :

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَـٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٨٤-٢٨٦) .

وقلب السورة الآيات : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة:٢٥٥-٢٥٧) .

استهلال سورة البقرة « هو الآيات الثلاث الأول ﴿ الٓمٓ ﴾ (البقرة:١) ﴿ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:١٨٠) ومقدمتها تبدأ من أوّلها إلى نهاية قول الله ﷻ : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (البقرة:٢٠) فمقدّمة السورة أبسط وأمدّ من مستهلها .

وكذلك فى سورة (آل عمران) فإنَّ مستهلها هو قوله ﷻ :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ (آل عمران:١-٢) ومقدمتها تمتد إلى نهاية قوله جل جلاله : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ (آل عمران:٩) .

وقد يكون الاستهلال هو المقدمة ، كما فى سورة (النساء) : مستهلها هو الآية الأُولَى منها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ (النساء:١) وهى أيضا المقدّمة وما بعدها موضوعها .



وسورة المائدة مستهلها ، ومقدّمتها قوله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ (المائدة:١) .

واستقراء مقدمات سور القرآن ومستهلها عمل شريفٌ يحتاج إلى بسطة وقت وجهد ومراجعات عدة ، حسنٌ أن يفرغ له ثلةٌ من أهل العلم وطلبته .

* * *

والسنة البيانية للقرآن أنه يقيم في مستهل السورة أو مقدمتها ما يهدِي إلى مقصودها الأعظم الذي تدور عليه الأغراض المرحلية لموضوعات السورة ، ولا سيما سور حزب «السبع الطوال» و«المئين» ، فالغالب أن تكون سور هذين الحزبين ذات موضوعات عدة ، ولكلّ موضوع غرضٌ مرحلي مرتبط بالغرض المحوري للسورة (المقصود الأعظم / المعنى الأم) [(١)].

واستبصار مكونات المستهل أوالمقدمة يعين على استكشاف ما يهدِي إلى الغرض المحوري (المقصود الأعظم) ، فقد يكون كلمة وقد يكون جملة ، واستدراك ذلك ليس أمرًا سهلا ، وإنما يسلك المتدبر منهج «الحال المرتحل».

* * *

ومن الحسْنِ ممّن هو مقتدرٌ أن ينظر علاقة ما استهلت به السورة ممّا سمي بالحروف المقطعة «أداءً» ، فبعض أهل العلم يذهب إلى أن هنالك علاقة وثقى بين ما استهلت به سورة بمثل ﴿ الٓمٓرۚ ﴾ ومقصودها وموضوعاتها ، وما استهلت به ﴿ الٓرۚ ﴾ ومقصودها ، وموضوعاتها ، فاصطفاء «الميم» في

---

(١) تعدّد موضوعات السورة وأغراضها المرحلية عمود الأمر فيه دوران هذه الموضوعات والأغراض على معنى مركزي واحد «المعنى الأمّ : (المقصود الأعظم) وسريانه فيها معلمٌ من معالم إعجاز القرآن يبقَى حاضرا زاهرًا مع ترجمة معاني القرآن ترجمة أمينة إلى غيرِ العربية ، ممّا يهدي إلى أن ذلك وجه من وجوه تحدي غيرِ العرب بلاغة نظم القرآن «النّظم» : هيئة السورة وبنيتها النّصّية ..

البقرة وما شاكلها ، واصطفاء «الرّاء» في سورة «يونس» وما شاكلها ، ليس أمرًا عن غير حكمة ، فالقرآن إنّما هو من العليّ الحكيم ، فإذا لم يتبيّن لِي وجه الحكمة ، فقد يتبين لآخرين ، وليس لي أن أنكر ما لم أبصرْ ، وليس لي أنْ أتوقف في شأنه ، فإن «استخراج مناسبات هذه الحروف وأحوالها إلى مقاصد السور وأغراضها يحتاج إلى مزيد من التوفر والفهم والصفاء ، ووراءه علم دقيق ومعرفة لطيفة شريفة»[1].

ومذاهب العلماء فى استبصار دلالات هذه الاستفتاحات كثيرة ، وقليل منها منْ سعى أصحابها إلى استخراج ما بينها وبين مقاصد سورها ومعانيها من تناسب ونتائج ، وهي محاولات لا تسلم من المناقشة شأن كلّ ما هو من أفعال العباد ، يؤخذ منها ويردّ ، ليبقَى لكلّ واحد قيمته وحقه أن يفكر ، وأن يتخذ لنفسه بنفسِه قراره وفق رؤية نافذة ، وعلمٍ محقق ، فلا يبقَى الإنسان إلا عبدًا لله تعالى وحده ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء:٣٦) .

ولعل في تقارب مطالع السُّور وفواتحها ما يهدِي إلى ما بينها من تقاربٍ في مقاصدها وموضوعاتها ، فأنت ترى سور «آل حم» تقاربت مطالعها لتقارب مقاصدها ، وقد بين لنا شيخنا أبو موسى في ما صنع من تلقٍّ لما في هذه السور «آل حم» ما لا قبلَ لطالب علمٍ بكتاب الله ـ تعالى ـ أن يتشاغل عن تبصر منهجِه في التأويل واستكشاف مقاصد السور ، وتبيين المعنى الأمّ في كلّ سورة ، وعلاقته بمطلعها وما تجري فيه السّور ، وكأنّي به قد رضيَ لنفسِه أن يكون له نصيبٌ مما كان لسيّدنا عبد الله بن مسعود ﷺ إذا يقول عن سور «آل حم»: «إذا وقعتُ في «آل حم» وقعت في روضات دمثات ، أتأنّق

---

(١) الإعجاز البلاغي : دراسة تحليلية لتراث أهل العلم . ص ٢٣٦ ، مكتبة هبة ـ القاهرة ط . الأولى ، ١٤٠٥هـ .

فيهن . « (مصنف ابن أبي شيبة) ، وكان ابن عباس - رَضِيَ الله عَنهما - يسمي سور « آل حم » لباب القرآن[1] .

واتفاق بعض السّور المستفتحة بالحروف المقطّعة أداء فيما استفتحت به منها قد يشير إلى شيْءٍ من التّقارب في المقصود والموضوع : كما في السور المفتحة بـ (الم) : (البقرة - آل عمران - العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة) ، أو المفتتحة بـ ﴿ الٓر ﴾ : (يونس - هود - يوسف - إبراهيم - الحجر) .

أَفي ذوات « الراء » ما ليس في ذوات « الميم » فـ« الراء » تشير إليْه ؟

وما الذي في« الميم » يُشار به إلى ما في السُّور المفتتحة بها ؟

أشيْءٌ في خصائِصها الصَّوتيّة أمْ ماذا ؟

أيمكن لنا أن نحدس حدسًا نقيمه مقام المفاتشةِ والسّبر: أَلنا أن نحدس أن ما كان فاتحة مطلعه ﴿ الٓمٓر ﴾ في « الميم » إشارة إلى أنّها سورة جُمْعَةٌ لكليات ، لما يفهم من حرف « الميم » إشارة إلى الضّم والجمع[2] .

هل لنا أن نفترض البحث عن الكليات العقدية والعملية في السور التي جاءت فيها « الميم » في بنية الافتتاح بالحروف المقطعة تلاوة (الم) (المص) (المر) .

---

(١) ينظر : آل حم : الجاثية والأحقاف . دارسة في أسرار البيان ، ص ٣٤ ، ٦٣٣ ، مكتبة وهبة - القاهرة - ط . الأولى ، ١٤٣٢هـ .
والزمر - محمد وعلاقتهما بآل حم : دراسة في أسرار البيان ، ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٤ مكتبة وهبة ، ط.الأولى، ١٤٣٣هـ .

(٢) ينظر : جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، ص١٤٧ وما بعدها . تأليف : ابن قيم الجوزية : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت : ٧٥١هـ) المحققان : شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط ، دار العروبة - الكويت . ط . الثانية ، ١٤٠٧هـ .

وهل لنا أن نحدس أنَّ ما جاءت فيه «الراء» في بنية الافتتاح بالحروف المقطعة تلاوة «عمود الأمر فيه» التكرار والتصريف والتفصيل ؟

تساؤلات عدّة لا يمكن القطع بالجواب عنها .

وهذا من العلم الَّذي لا يترتبُ عليْه عملٌ من أعمال الجوارح شريعةً ، ولكن يترتَّب عليه عملٌ من أعمال الأفئدة : تعزيز إيمان ، وتمكين يقين ، واستطعام عطاءٍ وتشربه واسْتلذاذه ، فمن عجز عن أن يكون له من ذلك فليس بضارّه في أصل إيمانه أنّ هذا من كلام الله ـ تعالى ـ الذي وصفه ﷻ بأنـه عَلِيٌّ حكيمٌ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ (فصلت:٤١-٤٢) .

* * *

وأنت ترى خمسَ سورٍ استفتحت بالحمد : «أم القرآن ـ الأنعام ـ الكهف ـ سبأ ـ فاطر» وللعلماء حديثٌ في هذا ، وبيان أنّ كلّ سورة إنّما جاءت حمدًا على نعمةٍ من النعم الكلية الأربع : نعمة الإيجاد الأول (الأنعام) ، ونعمة الإبقاء الأول (الكهف) ، ونعمة الإيجاد الآخِر : البعث (سبأ) ، ونعمة الإبقاء الأخير (فاطر) ، بينما سورة «أم القرآن» حمدٌ على النّعم كلّها . وتحقيق القول بهذا وتفصيله علمٌ شريفٌ لايقوم له إلا ماجدٌ .

وهي كما ترى مرتبة في التّلاوة وفق ترتيب الوقائع : الإيجاد الأوّل : الإنعام ، الإبقاء الأول : الكهف ، الإيجاد الثَّاني : سبأ ، الإبقاء الآخر : فاطر .

ثمّ النظر في علاقة السّور التي تقع بيْن كلّ سورتين بهما تفصيلاً لسابقتها ، وتمهيدًا للاحقتها .

وهذا موضعٌ مِن النّظر لا يُطيقه إلاّ صَفيّ القَصدِ ، فتيّ العزمِ ، مَليك مهاراتٍ وَخبراتٍ وأدواتٍ ووسائل عديدة متنوعة .

* * *

وإذا كان العلماء على أنَّ اتفاق السّور في مطالعها واستهلالاتها ما يهدي إلى تقارب مقاصدها وتلاحظها ، فإنَّ منهم من يذهب إلى مثل ذلك في خواتم السُّور ، فاتفاقها أو تقاربها في خواتيمها فيه آية على أنّ مقاصد هذه السّورِ متقاربةٌ متلاحظةٌ[1] .

ويؤكد شيخنا إشارة حضور كلمة «بلاغ» في آخر سورة «إبراهيم» وسورة «الأحقاف» بأنّ «هذه الكلمة تقول لنا عودوا إلى مقاطِع السور ونهاياتها ، وماتشابه منها ، وحققوا وجود هذا التشابه في المقاطع والنهايات بدراسة التشابه في المقاصد ، لأنكم ستجدون ذلك التشابه لامحَالَة»[2] .

محصل الأمر : أنّ في مطلع السورة من المعالم ما يهدي المستبصر إلى أن يستدرك «مقصود السورة» الذي تدور عليه موضوعاتها الكلية ، ومعانيها ، ممّا يعدّ عند الأعيانِ مفتاحا من مفاتح الباب المقفل إلى حسن فهم الكتاب المنزل .

وكذلك في ختامها ما يحصل مقصودها وماجرى في معاني موضوعاتها ، فحرًى بطالب العلم أن يحاول التجريب ، والتبصّر ، وألا يقلّد عن غير بصيرة محكمة نافذة متجددة ، فلكلّ سورة ما هو بها أخصّ ، فليس هنالك طريقةٌ واحدةٌ تُطبَّق على كلِّ سورةٍ ، وإن اتفقتْ السُّورُ في بعضِ المَعالمِ الكُبرَى للوصول إلى ما تقوم عليْهِ وبِه .

* * *

مقاربات تأويلية عجلى :

فى مقدمة سورة «البقرة» هداية إلى أنّ ما تقوم عليه السّورة جميعها هو قوله ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة:٣) ، فهذه العبارة دالة على الغرض

---

(١) نظم الدرر : ١٤٦/٧ ، ١٤٧ .

(٢) آل حم : الجاثية والأحقاف : دراسة في أسرار البيان ، ص ٦٢٧ .

المركزيّ ، فجميـع آيـاتـها ونجومها ومعاقدها قائمة على وجوب أن يكون ما تتناوله كلّ آيةٍ أوْ نجمٍ مؤسسًا على الإيمان بالغيب ، أو أنْ تكونَ الآيةُ مبينةً عن افتقار ما تتكلّم فيه إلى الإيمان بالغيب ، كمثل حديثِها عـن الّذين كفـروا أو المنافقين .

والتّشريعات الّتي ذكرت في السورة أساسها «الإيمان بالغيب» فبغير تقرّره في الفؤاد لا يمكن أداء هذه التشريعات أداء صحيحًا متقبّلا ، ولذا تجد ختام السّورة قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ ـ ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ كلّ هذا تخليص لهذا الأساس : «الإيمان بالغيب» .

وجميع قصص السّورة مبنيّة على أثر الإيمان بالغيب حضوراً وغيابًا ، وهذا يكادُ يكون بالغ الظهور .

مقدّمة السُّورة هنا مجموعُ ما انتظم به تمامُ الدَّلالة على أمّ المعنى القرآنىّ فى السّورة ، ففيها ثلاثةُ مرتكزاتٍ :

(الكتاب ـ المتقين ـ الإيمان بالغيب وما بعده)

الثّانِي والثَّالث (المتقين ، الإيمان بالغيب) من الأوَّل : (الكتاب)

ولذلك جاءت العبارة عنه فى قوله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) وجيزة لمعنى جدّ مديد بسيط لا يحاط به ، ولأهل العلم من المفسرين والبلاغيين مقالات فى بيان التعريف فِي ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ وفى النفى فى قوله تعالى ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ ثُمَّ فى ما تعلق بقوله ﴿ هُدًى ﴾ فإن قوله ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي المتقين صراط المغضوب عليهم من اليهود ، ومن اتخذ منهاجهم في نبذ الحقّ بعد علمه تكبّرًا وجحدًا ، وصراط الضَّالين من النصارى ، ومن اتخذ منهاجهم في العبادة على جهل بما يعبد وكيفية العبادة

التي ترضيه ، وهذا المعنى أساس الإيمان وما يبنى عليه من منازل الطاعة والقرب .

وقد شاع فى هذه السّورة الحديث عن شيئين بهما تأطيد معنى كمال ذلك الكتاب : الأول : الإيمان بالغيب والآخر : (التّقوَى) .

وقد ذكرتُ أن كلمات مادة «التقوى» فى سورة «البقرة» على نحوٍ لم يك فى غيرها .

وفى مطلع كل سورة تكون مفردةً مِن مفردات القرآن الكريم تذكر من بعد ذلك فى السّورة على نحــو لافت بمادتها وصيغتها ، أو مادتهــا فقط ، وعلى نحو لا يكون مثله مقدارا وكيفية فى أى ســورة أخرى ، وكذلك يتوارد فى السورة ما كان من الأسرة الدلالية لهذه المفردة ، وفى هذا آية على أنَّ دلالة هذه المفردة عنصر رئيس من عناصر المقصود الأعظم للسورة ، فليس بقية السورة من بعد ذلك عمل عقيم أو عابث لا يجدى ، فإنَّه تنزيل من عزيز حكيم عليم حميد ، فمن النصح للقرآن الكريم تدبُّرا ملاحظة ذلك فى استبصار عناصر المقصود الأعظم للسورة .

ولما كانت التقوى أساسها ملاحظة الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى هو الغيب المطلق ذاتا ، والشهود الحاضر فى الكون صفة وفعلا ، كانت التَّقوى قائمة على يقين راسخ بالغيب .

ولوأنك اعتكفت في الآيات العشرين الأُول من سورة «البقرة» لتبين لك أثر حضور «الإيمان بالغيب» ، وأثر غيابِه ممّا يرسم لكل قارئ ما يفصل له بين النجدين ، ليكون عاقبة أمره من الذين تكلم في شأنهم قولا وفعلا وحالا آخر سورة «البقرة» .

لهذا كان لسورة البقرة عنايةٌ خاصَّة وظاهرة بأمر الغيب والإيمان به ، وبكلٍّ ما هو من سبيله ، وعلى رأسه الإيمان بالبعث ، وقد انتشر ذلك فى السورة على نحو ظاهر :

فِي قصة أبينا « آدم » عليه السلام إبراز لمعنى الإعلام بالغيب على نحو لا يتكرر فى هذه القصة فى سورة أخرى :

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠) .

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٢) .

﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٣) .

وفى غير هذه القصة جاء قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٧٢)

﴿ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ (البقرة: ٧٧)

﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: ٢٨٤) وغير ذلك كثير .

وعنيت السورة بأمر البعث وهو من أمر الغيب والإيمان به ، واستحضاره في الأقوال والأفعال والأحوال حافظ من التردي فيما لايرضي الله ـ تعالى ـ ، فلا تجدّن مقترفًا معصية ، وهو متذكر البعث .

روى الشيخان بسنديهما : البخاري في كتاب « المظالم » وغيره ومسلم في كتاب « الإيمان » بسنديهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضِيَ اللهُ عنه ـ قَالَ النَّبِيُّ

ـ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم ـ : «لاَ يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، ولاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهْـوَ مُؤْمِنٌ ، ولاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، ولاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهْوَ مُؤْمِنٌ».

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة:٢٨) .

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة:٤٦) .

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة:٤٨) .

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة:١٢٣) .

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (البقرة:٢٠٣) .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة:٥٦) .

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:٧٣) .

ومن أبرز هذا قوله ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة:٢٤٣) .

وقوله ﷻ فى محاجة سيدنا إبراهيم عليه السلام وقد تفردت السورة بذكرها :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ

ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨) .

وكذلك فى مخاطبته ربه ﷻ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٠) .

وكان فيها آخر آية أنزلت : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٨١) فجمع فيها بين التقوى والبعث وتوفية الجزاء وعدالته .

وكثيرٌ ممّا جاء من التشريعات في هذه السورة لا يقبل إلاّ ممن آمن بالغيب ، وأيقن بالبعث من نحو تشريعات الإنفاق صدقة أو قرضًا ، وتشريع حرمة الربا وتشريع فريضة الصيام والحج ، بل إنَّ الحديث عن أركان الإسلام : (الصلاة والزكاة والصيام والحج) لم يجمع القول فيه مبسوطًا فى سورة كمثل جمعها هنا .

وهى أركان مبنية على الإيمان بالغيب والبعث ، ومثل ذلك ما اعتنت السورة بذكره من أمر الجهاد ، ولا يُقْدِمُ عليه إلاَّ من آمن بالغيب والبعث وأيقن بهما .

أنت تجد أنَّ مطلع السّورة قد جعل الإيمان بالغيب الشامل كلَّ هذه الفرائض من خصال الّذين كان الكتاب الحق الكامل لهم هدى ، فكانوا على هدى مِن ربّهم ﷻ (تأمل قوله : من ربهم) ، وكانوا من المفلحين ، كما أنَّ المَطْلَعَ قد عُنِيَ بصفة إيمانهم بما أنزل من قبل وإيقانهم باليوم الآخر .

كلُّ هذا دال على المقصود الأعظم لهذه السورة كما أعرب عنه البقاعي : « إقامة الدليل على أن الكتاب هدى يتبع فى كلِّ حال وأعظم ما يهدى إليه

الإيمان بالغيب ، ومجمعه الإيمان بالآخرة ، ومداره الإيمان بالبعث الذى أعربت عن قصة البقرة التى مدارها الإيمان بالغيب ، فلذلك سميت بها السورة ...»[1].

وإذا ما كان استهلالها ومقدمتها على ما رأيت من الهداية إلى المقصود الأعظم منها ، وكان مطلعها جزءًا من مقدمتها ، فإنّ آياتِ مقطعها هو كلّ خاتمتها .

مقطعها وخاتمتها من أوّل قوله ﷻ : ﴿ **لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (البقرة:٢٨٤) إلى آخر السورة .

وأنت إذا ما تأملت هذه الخاتمة ألفيتها دالة على ما يتآخى مع ما دلَّت عليه مطلعها ، فإنَّه «لما ابتدأ السّورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذى لا ريبَ فيه على الوجهِ الّذِي تقدّم ، ختمها بعد تفصيلِ الإنفاق الّذِي وصفهم به أولها على وجه يتصل بما قبله من الأوامر والنَّواهى»[2] .

فى الخاتمة تلحظ استظهار الإيمان بالغيب الّذِي هو صدر صفات المتقين الّذين كان القرآنُ الكريم هدًى لهم فاتخذوا العلم به أساسًا لأعمالهم ، فعملوا عن علم محقق ، فكانوا من الّذين أنعم الله ـ سبْحانَه وبِحمدِه ـ عليهم الّذين ذكروا في خاتمة «أم الكتاب» .

وتلحظ التلاحظ البديع بين قوله سُبْحانَه وَتَعَالَى فى المقدمة :

﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ (البقرة:٤).

---

(١) نظم الدرر : ٢٤/١ ، ومصاعد النظر : ٩/٢ .

(٢) نظم الدرر : ٥٥٣/١ .

وقوله ﷻ في الخاتمة : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة:٢٨٥) .

وكذلك بين قوله ﷻ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة:٥) في مقدمتها ، وذلك الدعاء البديع فى آخرها ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٨٦) ، فمن كان الله ـ عَزَّ وَعَلا ـ مولاه وكان منصوراً على الكافرين كان يقينا على هدى من ربه وكان مفلحا .

وكذلك التناسب بين قوله ﷻ : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة:٣) فى مقدمتها ، وحديثه عن أحكام الإنفاق فى سبيل الله ـ عز وجل ـ صدقة ، وحديثه عن الإقراض فى الآية السابقة على ختمها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ (البقرة:٢٨٢) فكان فى هذا ضربٌ من التآخى جد بديع ، مما جعل رد المقطع على المطلع المُنْبِئ عن المقصود الأعظم ردًا جدَّ وثيق ، دلَّ على أنَّ فى ختمها اكتنازًا لمقصودها ، وهكذا الشأن فى كلِّ سورِ القرآن الكريم .

* * *

الرَّافد الثَّالث

تدبّر الفروق البيانيّة بيْن المعانِي الكُلّيّة المُصرَّفة فِي السّورِ .

تشتمل سور حزب «السبع الطُّوَال» وحزب «المئين» وبعض حزب «المثاني» على معان كلية مكونة من معان جزئية .

وممّا هو حسنٌ الالتفات إليْه أنَّ منهج التّصنيف الكليّ للمعاني ثم تفصيلها منهجٌ يحقّق تيسير عقل المعرفة وإحكامها ثم منهج تفصيلها ، فيتحقّق للمتلقي الرشيد مهارتان :

- **مهارة الإجمالِ والإحكام والكليّة** : وهي مهارة يبصر بها المَرْءُ ما عليْه تلتقي الأشياء ، ممّا يجعله المقتدِرَ علَى أنْ يجمعَ ما تفرَّق ، وأن يحوطَ ما تشارَدَ ، والأمَّة الإسلامية هي المفتقرة في زمانِنا هذا إلى هذه المهارة ومنتجاتها ، والله ﷻ قد ندبنا في سورة «الاصطفاء : اصطفاء أهل التوحيد : «آل عمران» إلى ذلك :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٠٣-١٠٥) .

في الآية كما ترى ترغيب فتي في البحث عمًّا يجمع ويوحِّد ، والنّفرة من ما يوقع الفرقة بين المجتمعات لما في هذه الفرقة من وأد فاعلية الأشياء لأن

قوى الأشياء إنّما تستمد تجدّدها بعضها من بعض ، فهي ما خلقت متنوعة إلا لتتكامل ، لا لتتناقض وتتهالك ، فإذا ما كانت متعددات متنوعات حرًى بفؤادك أن يستبصر ما يجمعها ، وما بينها ممًا يُمَيِّز بعضها عن بعضٍ ، فتتكامل ، والبصر بكيفيات الاختلافِ والاتفاق ، وجهةِ الاجتماعِ والافتراق ، وأيها أصلٌ وأيها فرعٌ كما قال عبد القاهر في فواتح كتابه «أسرار البلاغة» .

ونحن طلابَ العلم في عوزٍ بالغ ، كما أن الحياة بحاجة إلى أن يكون أهلها أرغب في هذا وأتقن له ، وأعداؤنا إنما ينفذون إلينا من ضعف ملكتنا في هذه الفضيلة ، وما ينتصر عدونا من قوته ، ورأسهم الشيطان الذي بداخل كُلٍّ واحدٍ منا ، بل من ضعفنا وتفارقنا وتخاذلنا واسْتخذائنا .

ولدينا علوم قوامها هذه الفضيلة من أهمها علمان : علم أصول الفقه ، وعلم التناسب القرآني ، عمود الأمر في هذين البصر بما عليه تتلاقى الأشياء وتتقابل وتتناظر وتتلاحظ ، والماهر فيها هو الذي يبصر الجامع الذي تدور على محوره ومركزه الأشياء ، فإذا هو الحاضر فيها ، وإن تفاوت ظهورا ، إلا أنها جمعاء تتنادَى وتتلاحظ وتتآخذ أيضًا .

• ومهارة التفصيل والتحليلِ :

وهذه المهارة تمنحُ المتلقّي اقتدارًا على أن يثور المكنون ، وتثوير المكنون يفضِي إلى حسن الاستثمار ، فلا يدعُ ما يُمكن استثماره خاملاً ، وتلك مهارةٌ يتفاضل فيها النّاس على نحوٍ ظاهرٍ .

المعاني الكلّيّة قد يتشابه بعضها فى سورة مع بعض فى سورة أخرى ، لما يتسم به الذّكر الحكيم من التصريف ، وهذا يثْمِرُ فروقًا بيانيَّةً فى بناء آيات تلك المعانى الكلية فِي السّورتين .

وتشابه المعاني الكلية في السورة لا يعني أنّ مكنوناتِها واحدة أو متقاربةٌ جدًا . بل إن مهارة التثوير تكشف لك تقارب الإطار وتنوع المحتوى مما يُغريك بأن تحرصَ على هذا المتنوع بعد الإحاطة بالإطار .

وليس يخفَى أن تصريف المعاني فى القرآن الكريمِ وجه من وجوه بلاغة المعجزة كما نص على ذلك الأقدمون[1] .

وهذا التّصريف للمعاني ينفى عنها وصف التّكرار والإعادة ؛ لأنّـه تصريفٌ منبثِقٌ عن المقصود الأعظم لكلّ سورة .

وأكثر ما يكون جلاءً ذلك التّصريف فى القصص القرآنيّ حتى كان القول بالتّصريف البيانيّ فيها ممّا شاع ذكره فى أسفار أهل العلم .

وقد أرانا شيخنا أبو موسَى كيف أنَّ قصة سيدنا موسى عليه السلام قد اختلف بناؤها القصصيّ والبيانيّ في كلّ مِن سورة (الشُّعراء) و(النّمل) و(القصص) ، وهى سُورٌ متواليةٌ فِي التَّرتِيب التَّرتيليّ .

وكذلك ترى التّصريف جليًّا فى وصف أعمال الّذين آمنوا وثوابهم يوم القيامة ، ووصف أعمال الّذين كفروا وعقابهم ، وكذلك فى وصف مشاهد اليومِ الآخر ، وغير ذلك كثير .

وفى تدبّر بناء كلّ معنى مِن المعاني الكليّة المصرَّفة فى السّور استكشاف للمقصودِ الأعظمِ لكلٍّ سورةٍ ، وهو استكشافٌ يملِك به المتدبّرُ بعض مفاتح خزائنِ المعنَى القرآني فى السّورة .

والنّظر البيانيّ فِي مثل هذا مصروفٌ إلى ملاحظة بناء المعنَى الكليّ مِن المعانِي الجزئيّة الماثلة فِي الجملة القرآنيّة على اختلاف مقاديرها إيجازًا وبسطًا .

---

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني ، ص ١٠١ .

هو نظرٌ لا يَرَى فِي هذا تكراراً بل يراه مِن قبيلِ التّتميم والتّكميل الّذى هو وجهٌ مِن وجوه التصريف ؛ لأنَّ كلَّ معنى كليٍّ من تلك المعاني مكمّلٌ ومتممٌ لما قاربه فى سورة سابقة على سورته ، وهذا التتميم إنَّما يكون بجديد يتناغَى مع السياق الذى أقيم فيه .

من هنا كانت الفروق البيانية شكلا ومضمونا مما اقتضاه تشابه سياقات المعاني الكليّة فى بعض سور القرآن الكريم ، ويغلب أن يكونَ في كلّ موضعٍ صرِّف فيه البيان عن معنى كليّ شيءٌ جديدٌ لم يسبق أن صرح بِه ، وإن سبق التلويح به ، كما هو الشّأن في السّنة البيانيّة للقرآن أن يصرّح بالمعنى في موضعٍ يكون قد سبق التلويح به أو سيأتي التلويح به ، فعظم المعاني الكلية قد ثنّيت تصريحًا أو تلويحا ، وفي كلٍّ ما ليس في الآخر من العطاء ، وإلا لما كان مقتضٍ للتثنية .

ليس يخفى أن التصريح طعمة ثلة من المتلقين ، والتَّلويح طُعمَة ثُلّة منهم ، فكلّيّة القرآن لِكُليّة المتَّلقِين ، فلا تجد متلقّيًا ذا قلبٍ شهيدٍ يَطعم عَيْنَ ما يَطْعَم الآخرُ مِن الآية الواحدة ، فعطاءتها تتنوَّع بتنوّع طاقاتِ الأفئدةِ فِي التَّلقّي :

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٢٠-٢١)[1] .

---

(١) يعد علم التفسيرالموضوعي للقرآن رافدًا رئيسًا من الروافد المهيئة العقلَ البلاغي للوفاء ببعض ما يجب من التّبصر في مقتضيات التّصريف البيانيّ للموضوع الواحد في السياق الترتيلي المديد ، وعطاءات هذا التصريف ، ومستويات الدلالة عليه ، وأثر السياق والمغزى السُّوري في ذلك . وهذا حملٌ جليل ثقيل على العقل البلاغي أن يفزع إليْه متخذا له عدّته العلمية والإيمانية معًا .

والتَّفرُّس والتَّدبُّر لما بيْن المعانِي الكليّة فِي سورة ما وما بين المشابه لها فِي أخرَى رافدٌ من روافدِ تحرير المقصود الأعظم للسورة وما فى استبصار تصريف المعانى الكلية المتشابه فى السور من حزونة لا يتغلب عليها إلا بطول الصحبة ونفوذ الرؤية والمثابرة .

ودراسة التصريف البياني للمعنى الكلي في السور لاستكشاف مقاصد السُّور التي وردت فيها يقتضِي أمورًا :

- يقتضِي الاعتناء الوافر بمنهج التحليل البيانيّ لصورالمعاني .
- ويقتضِي تبصّر كيفيات الاختلاف بين المعاني وكيفيات الاتفاق .
- ويقتضِي تبصر جهات الاجتماع والافتراق .
- ويقتضِي تبصر أيّها أصلٌ وأيّها فرعٌ .

وهذه من أصول النظر البلاغي في البيان الذي بها يمكنه أن يرى معالم الإحسان ومقتضياته وآثاره في نفوسِ المتلقين .

وعبد القاهر قد لفت إلى أَنَّ الفطرة الإنسانية جبلت في باب المعرفة على أمرين كليين :

أ- التَّـوق إلى أَن تقَرَّ الأُمورُ قَرارَها ، وتُوضَعَ الأشياءُ مَواضِعَها؟

ب ـ والنزاعَ إلى بَيانِ ما يُشْكل ، وحلِّ ما يَنْعَقِد ، والكَشْفِ عمَّا يَخْفَى ، وتلخيصَ الصفةِ حتى يزدادَ السامعُ ثقةً بالحُجة ، واستظهاراً على الشبهة ، واستبانة للدليل ، وتبينًا للسَّبيلَ .

هذان إنّما هما شيءٌ في سُوس العَقْل ، وفي طباعِ النَّفس إذا كانت نَفْساً[1].

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ، ص ٣٤ قرأه : شاكر .

ولذا جعل تحقيق طلبة العقل البلاغي إنما تتحقق له بالعمل على خمس كليات :

١- بيان أمر المعاني في كيفية اختلافها واتفاقها تختلف وتتفق .

٢- وبيان أمر المعاني في جهة اجتماعها وافتراقها

٣- وتفصيل أجناسها وأنْواعها

٤- وتتبّع خاصّها ومُشَاعَها

٥- وبيان أحوالها في كرم مَنْصبها من العقل ، وتمكُّنَها في نِصَابه ، وقُرْب رَحِمِها منه ، أو بُعدها حين تُنسب عنه ...[1] .

* * *

(١) ينظر : أسرار البلاغة ، ص ٢٦ قراءة : شاكر .

الرّافد الرابع
تَدبّر المعاني الكلية الخاصّة

إذا ما كان كثيرٌ من المعاني الكليّة الّتِي هي معاقد بناء المعنى فى السّورة قد صار مصرفًا فى أكثر من سورة ، فإنَّ بعضَ المعانِي الكليّةِ قد خصَّت به سورةٌ دون غيرها من سور القرآن الكريم .

وفى تدبُّر هذا ما يُعينُ على استبصار الغرض المرحليّ الّذي تقوم عليه هذه المعاني الكلّيّة ، للاستبصار ما يقوم هو عليه من المعنى المحوريّ المُهَيمِنِ على تلك السورة ، ذلك أنَّ معالم ذلك الرّوح ستكون باديةً فى ذلك المعنى الكليّ المخصوص به تلك السّورة[1] .

* * *

المعاني الكلية الخاصّة في سورة « البقرة »

اتّسَمتْ سورة « البقرة » بوفرة المعاني الكليّة الخاصَّة التي لم تردْ في غيرها مِن ذلك أمورٌ عدّة :

منها تمثيلُ المنافقين بالمثلين المذكورين في مقدمة السّورة .

ومنها قِصّةُ « البقرة » ، وقصّة « هاروت وماروت » ، وقصّة « تحويل القبلة » ، وقصّة « طالوت وجالوت » ، وقصّة « الذين خرجوا من ديَارِهِمْ وهُم أُلوفٌ حذرَ الموتِ » ، وقصّة « الذي حاج « إبراهيم » عليه السلام في ربّه » ، وقصّة

---

(١) ينظر : علاقة المطالع بالمقاصد ـ ص ٥٧٨ تأليف : دكتور إبراهيم الهدهد .

«الّذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها» ، وقصّة سيّدنا «إبراهيم» عليه السلام والطّير».

ومنها فريضة الصّيام ، وبيان أحكامها «أحكام المداينة ، والرهن» ....

وفي هذا دَلالةٌ علَى أنَّ فى هذه المعاني ما هو أعلق بمقصود سورة «البقرة» من غيرها ، فلم تصرّف هذه المعانى فى ما دونها من السّور . فهذه الكليّات الخاصّة قائمٌ فيها معنى «الإيمان بالغيب» قيامًا مكينا ، وقد سبقت الإشارة إل ذلك .

المعاني الكلية الخاصّة في سورة «آل عمران»

وفي سورة «آل عمران» جاء البيان عن غزوة «أحد» على نحو لم يكن في غيرها ، وأحداث غزوة «أحد» أنسب بسياق سورة «آل عمران» المؤسسة على تقرير وحدانية الله ـ تعالى ـ وقيوميته فهي تفصيل لما في «آية الكرسي».

فِي غزوة «أحد» من التّربية والتّثقيف والتّصفية ما يدفع بالأمّة على مدرجة الارتقاء الّذي هي أهلٌ لأنْ تحققه ، فهي الأمّة الصّفوة ، فإذا ما كان الله تبارك وتعالى قال في سورة «آل عمران» :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٣٣) .

فإنّه جل جلاله قد اصطفى هذه الأمة بأن جعل رسولها خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ وجعل كتابها القرآن ، فهي المصطفاة برسولها وبكتابها ، ثم بأنّها الأمة الخيرة والخاتم ، والأمّة الشاهدة :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ (البقرة:١٤٣) .

فما كان في غزوة «أحد» إنّما هو عاملٌ من عوامل التّصفية والتّطهير ممّا قد يعيق تأسيس الأمّة وتمكينها لتكون جديرة بالاصطفاء ، ولو لم يكن من

الابتلاء للمسلمين في هذه الغزوة لاستفحل خطر المخالفة لأمر الله ﷻ ولرسوله - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - ولحسِب كثيرٌ أنَّ هذه المخالفة لا يترتَّب عليها ضرٌّ ، فأراهم ﷻ بما ابتلوا به في هذه الغزوة أنَّ المخالفة يترتب عليها من الضُّر ما لا يطاق ، تخلّى الله - تعالى - عنهم لحظة ، فكان ما كان ، فكيف لو أدام عليْهم تخليه إن أدْمَنوا المخالفة كما نحن الآن فيه متساقطون .؟

فغزوة « أحد » فيها من التربية ما تفتقر إليه الأمة لتكون الأمّة المصطفاة ، فكانت نعمة الله - تعالى - على الأمـة بالابتلاء في غزوة « أحد » عديل ما كان منه من الفضل في غزوة « بدر » فإنّ الله ﷻ يزكّي ، ويذكي بالسّراء وبالضّراء إنه الحي القيوم ربّ العالمين الرّحمن الرّحيم .

جاء البيان في شأن غزوة « أحد » بدءًا من قوله ﷻ :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(آل عمران: ١٢١) .

وقد نسق في بيان شأنِها ما يعزّز اليقين فِي نفوس المؤمنين ، ويطهّرهم من العوائق ، فكان حديثه في خلالها عن غزوة « بدر » ، ونهيه عن الرّبا ، ونحو ذلك بيانًا لما يحقّق لهم استحقاق الاصطفاء ، الّذي كانت أحداث غزوة « أحد » وما كان فيها من ضُرّ عاملَ تطهير وتمكين وتهيئة للاصطفاء .

وقد ختمت السُّورة بالكلّية الّتي من اتخذها كان أهلا للاصطفاء :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) .

فهذه الآية هي خلاصة ما جاء من معاني الهُدَى في سورة « آل عمران » .

* * *

المعاني الكلية الخاصّة في سورة «النّسـاء»

وسورة «النّساء» أقيمت لبيان منهاج بناء الأمّة المسلمة على القيمة العليا في الإسلام المكونة من ثلاث قيم متلازمة : «العدل» و«الرّحمة» و«التّسامح» لتكون أهلا للقيادة والرّيادة ، ولذا جاءت سورة «النّساء» بعد سورة «آل عمران» لتكون الأمّة قد أعدّت بما في سورة «آل عمران» لتأسيس مجتمع مسلم يتحمل مسؤولية الرّيادة والرّعاية للحياة المسلمة في الأرض جميعا إلى قيام الساعة ، وهذا ما جاءت سورة «النّساء» لِتبيِّن دعائمَه : «العدل والرّحمة والتَّسامح» ، فكان من خصائصها الإعراب عن أحكام «الميراث» ، وهذا ما لم يكن في غيرها من السُّور .

وتشريع الميراث قائمٌ أيضًا على تحقّق العدل والرَّحمة والتّسامح ، بغير هذه القيم الثَّلاث المتلازمة لا يتأتَّى قطُّ تحقيق ما يرضي الله ﷻ في شأن الميراث ، وهو ما يزال من المشكلات المعضلة ولا سيَّما في المجتمعات المرتبطة بالأرض .

وأنت ترى هذه القيمة العليا في الإِسلام متجلِّية ، ولا سيَّما قيمة الرّحمة والتَّسامح في صدر البيان عَن أحكام «الميراث» ، يقول الله ﷻ :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ (النساء: ١١)[1].

---

(١) من المفارقة أنّ آية الميراث هي نموذج أمثل ظاهرٌ لقيمة العدل أن ثلّة من الذين رضُوا بالحياة الدنيا يرون في نظام الميراث في الإسلام ما يكرّسُ التمييز ضد الأنثى ، وأن العدل في مفهومهم الضّليل أن تتساوى الإناث مع الذكور في الميراث .
وجهلوا ، فهم يُلحقون بالمرأة في هذا الباب ضُرًّا بالغًا ، فإنَّ مساواة نصيب المرأة من الميراث أو علوه على نصيب الرجل في حالات هي أضعاف أضعاف الحالات التي يكون فيها للذكر مثل حظ الأنثيين ، ولكن الله ﷻ لا يهدي الفاسقين .

أرأيت إلى قوله : ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾ كم يَحمِل من جمال الرُّبوبيّة المعربِ عَن الحثّ على المسارعة إلى الأخذ بما في تلك الوصية ، لما فيه من العطاءات المعينـة علـى تحقيـقِ التـآخي والتّسامح ، وكيف أنّـه لـم يـقـلْ : « كـتب » أوْ « فرض » الدافق بفيوض جلالِ الألوهية حثًا على أن نقبل على ما هدَى إليْه في الوصِيّةِ إقبالَ تشوّفٍ وتشرّف بإنفاذها ، فالشّأن فـي العربيّ أنـه أحـرَص ما يكون إنفاذًا لوصية أبويه له ، فكيف إذا ما كانت الوصيَّة من ربّه سُبْحانَه وتَعَالَى ، وفِي مَنْ ؟ في أولادِه !!!

ثم انظر قوله ﷻ : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء:١١) هو حاملٌ من الإِعراب عن وجوبِ الرّحمة والتّسامح في أمر التّوريثِ ما لست بواجدِه في قولنا : « للأنثى مثل نصف حظِّ الذّكر » أوْ « للأنثيين مثل حظّ الذكر » .

هاتان العبارتان ، وإنْ كانتا محققتين العدلَ إلاّ أنّه العدل الأجرَد مِن الرّحمة ، والتّسامح ، أمّا قوله ﷻ : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ فقد جاء بالحكم في صورة « تشبيه » ، وجعل حظَّ الأنثى هو الأصل : « المشَبّه به » لنقيس الفرع على الأصل ، كما هو الشّأن في أسلوبِ « التَّشبيه » في منطق الفهمِ والإفهامِ في لسان العربية ، دلّنا على أنَّ نكونَ أرحم بالأنثَى ، وأن نتسامح معها : أن نجعل حظّها من الميراث هو الأصل ، وأن نقيس عليْه حظّ الذَّكر ، فالشّأن في الرّجلِ أنـّهُ يجمــع من طيبِ الكسبِ ليورّث الضّعيف : « الأنثى » ما يحميه ، أمَّا الذكْران فهم أحقّ بِأن يعملوا لأنفسهم ، ولغيرهم ، لا أن يعْمَـل لهم ، ليس أضرَّ على الذكران من أن يجمع لهم أبواهم من المال ما يحملهم على أن يكونوا مستهلكين لا منتجين ، فذلك يقتل فيهم عزيمة صناعة الخيرِ ونشره في النّاسِ ، فالشّأن فِي المسلم أن يكتسبَ وإن لم يكن بحاجـةٍ للمال ، ألا ترَى إلى ما جعله الله ـ تعالى ـ من شأن المؤمنين المفلحين في مفتتح سورة « المؤمنون » يقول ﷻ :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ (المؤمنون:١-٤) .

قال ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ وهذا هوالموضع الفريد الذي قال فيه ﴿ فَٰعِلُونَ ﴾ ولم يقل يؤتون أو مؤتون ، وفي هذا إشارة إلى أنّ يفعلوا الخير ليحققوا الزكاة أي أنه ينتج ، وإن لم يكن هو نفسه بحاجة إلى ما ينتجه ، إلاّ أنّـه يعمل لِينفقَ على من لا يستطيع أن يعملَ .

وهذا يفسره ما رواه الشيخان : البخاري في كتاب (العتق) ومسلم في كتاب (الإيمان) من صَحيحيْهما بسندهما عَنْ عَنْ أَبِى ذَرٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - قَالَ : سَأَلْتُ النَّبِىَّ - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - أَىُّ الْعَمَلِ أَفضَلُ ، قَالَ : « إِيمَانٌ بِاللَّهِ ، وَجِهَادٌ فِى سَبِيلِهِ». قُلْتُ : فَأَىُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ قَالَ « أَغْلاَهَا ثَمَنًا ، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا» . قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ . قَالَ : «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ» . قَالَ : فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ . قَالَ : «تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ» .

أرأيت إلى قوله ﷺ : «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ» هذا تفسير لقول الله - تعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾.

أرأيت إلى التثقيفِ النَّفسيّ في أمرٍ بالغ الأهميَّة ، أمرٌ قلَّما تجد مجتمعًا عربيًّا لا يتظالم أولو الأرحام فيه ، فثقفنا بهذا السَّنَن في الإبانة والإفهام .

وانظركيف ختم الآية بقوله ﷻ : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:١١) .

بل انظر كيف جاءت فاصلة الآية الأولى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١) على نحو مَن يستحضِرُها في جميع أمرِه ولا سيَّما العلاقاتُ القائمةُ

بيْنه وبيْن ذوِي الأرحامِ فإنّه يكونُ بمنجاةٍ ، ويكونُ المُحققِّ للقيمةِ العُليا في الإسلام : « العدل والرّحمة والتّسامح ».

* * *

المعاني الكلية الخاصّة في سورة « الكهف »

اختصت سورة « الكهف » بقصة « أصحاب الكهف » و« قصة العبد الصالح » مع سيّدنا موسى ـ عليه الصّلاة والسَّلام ـ وقصة « صاحب الجنتين » وقصة « ذى القرنين » .

وفى هذا دلالــة على أنَّ فيما بين هذه القصص ما يُوحّـد بينها من جهة ، وما يجعلها أشدَّ تناسباً بمقصودها الأعظم المعرَبِ عنه بقوله تعالى ﴿ **فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ** ﴾ (الكهف:١٦) .

هذه الجملـة هي مركز المعنى في السّـورة ، وكهف هذه الأمّـة إنّما هــو ما استفتحت السّورة بحمد الله ـ تعالى ـ على إنزاله على عبده ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : « القرآن » فمن دخله كان آمنًا ، كما أَمِنَ أصحاب الكهف ، وأصحاب السفينة ، وأبو الغلام القتيل ، والغلامان صَاحبا الكنز ، وكما أَمن أصحاب الرَّدْم . ومن لم يدخله هلك كما هلك صاحب الجنتين ، و« الغلام القتيل » . فهذه القصص وثيقة العلاقة بمركز المعنى الكليّ للسورة كما رأيت .

فـي كـل معنى كليّ من هذه المعـاني علَيْنا أن نتبصّر المعنى الذي تدور عليه ، وعلاقته بالمعنى المحوري الذي تدور عليْه السورة ، مثل هذا ينمّي مهارة جمع المتفرقات الّذي به يتحقق للأمة عصمتها من الهلاك ، فمهارة التركيب بعد التحليل حين تمارس في قراءة النّصوص ذات أثر بالغ في الاستعداد لتحقيقها

في قراءة المجتمع قراءة تحيل المجتمع نصًّا ، ونحن أحوج ما نكون اليوم إلى من يسعى إلى أن يستبصر العامل الذي يجمعنا ، فيزكيه ، ويذكيه ؛ لنتمكّن من الوقوف المكين في وجه ما يراد بهذه الأمة من شانئيها .

* * *

والسّور السّبع الطوال ، وغير قليلٍ من السُّور المئين ... فيه من المعاني الكليّة الخاصّة ، مثلما تجد في كلّ سورة من الطوال والمئين معنى هو تصريف معنى في سورة أخرى ، فهاتان سمتان حاضرتان في السبع الطوال والمئين : سمة المعاني الكلية الخاصة ، وسمة المعاني الكلية المصرفة .

دراسة مثل هذا يكشف لنا عن بعض معالم الرُّوح المهيمن على السّورة ، وبه يتبين لنا الوجه فى عدم تصريف هذه المعانى فى سور أخرى ، فلولا أنَّ فى تلك المعاني الخاصة ما يميّز بين الرّوح المُهيمن على سورة كلٍّ ، لكانت جديرة بالتَّصريف الّذى هو سَمْتٌ غالب على كثير من المعانى الكليّة فى القرآن الكريم .

* * *

الرَّافد الخامس

تدبُّر الفروق البيانية بين المعاني الجزئية المصرفة في السّور

لست هنا بصدد دراسة هذا التَّشابه الّلفظي والنَّظمي دراسة تأويلية مستقرئة أو منبسطة فذلك لا أطيقه ، ولا يطيقه المقام .

القصد إلى اتخاذ هذا سبيلاً إلى استكشاف المقصود الأعظم للسور التي توارد فيها هذا التشابه ، وتحرير العبارة عنه فهذا التشابه عاملٌ من عوامل الإبانة عن ذلك المقصود ، ذلك أنَّ هذا المقصود إنّما هو المقتضِي أمرين : التَّشابه ، والإبانة على منهاج التشابه لا التَّطابق ، فأدنّى تغيير في صورة المعنى هو بالضرورة وليد مغايرة في المعنى الذي اقتضاه المقصود الأعظم .

المقصود اقتضَى مغايرة ما في المعنى ، والمعنى اقتضى مغايرة في صورته .

المعاني الكلية المصرَّفة فى السّور مكوَّنة من معانٍ جزئية تمثلها الجمل القرآنية على اختلاف مقاديرها ، وأكثر سور القرآن الكريم فيها غير قليل من المعانى الجزئية المصرَّفة المتشابهة فى بعض وجوه النّظم مع معان جزئية فى سورة آخرى .

وما بين هذه المعانى وصورها من وجوه اتفاق وافتراق كثيرًا ما تستجلى معالمه فى ضوء السياق الجزئيّ القريب الذى هو امتداد السياق الأكبر ممًّا يجعله أقرب إدراكاً ، ومنه يتوصل إلى الروح المهيمن على السياق الكليّ للسورة الّذى هو المهيمن على السّياق الجزئيّ الذى هو أظهر سلطاناً على مشتبه النظم فى المعانى الجزئية .

وهذا يستوجب المناظرة بين مناهج التفصيل للمعانى المصرَّفة مناظرةً تتجاوز الاكتفاء بتسجيل ظواهر الاتفاق والافتراق فى مشتبه النّظم إلى السعي إلى استبصار أثر السياق الجزئيّ أولاً ، ثُمَّ الانتقال منه إلى السياق الكلى للسورة الذى به تُستبين معالم المقصود الأعظم الذى هو الروح السارى فى السورة كلّها .

إذا ما كان مشتبه النظم قد لقى عناية بالغة من أهل العلم قديماً وحديثاً ، فقد غلب على كثير منهم ملاحظته واستبصاره فى سياقه الجزئيّ الّذى هو خطوة إلى أمدً أبعد ، وقليلٌ من أولئك من مدَّ استبصاره وتدبره مشتبه النظم فى ضوء السّياق الكلىّ للسُّورة ملاحظًا سلطان المقصود الأعظم ، وما ذلك إلاَّ لخفاء ذلك السّلطان على مشتبه النَّظم فى المعانى الجزئية الّتى يغلب أن يكون نظمها نظمًا تركيبيًا بخلاف سلطان المقصود الأعظم على سياق المعانى الكلية ومشتبه النظم الترتيبي فيها ، فإنَّه أجلى منه فى التركيب .

بهذا يتبين لك أنَّ مشتبه النَّظم فى المعانى الجزئية غيره مشتبه النّظم فى المعانى الكليّة التى هي معاقد السورة ونجومها الكبرى .

ذلك أنَّ النَّظم القرآنيّ عند البقاعي (ت : ٨٨٥هـ) ضربان :

نظم تركيبيّ ، ونظم ترتيبيّ .

الثانى منهما عنده مرتب على الأول ، والتّركيبيّ عنده مجالُه المعانى الجزئية الّتى هي عناصر بناء المعانى الكلية ، والترتيبيّ مجاله المعانى الكلية التى هي عناصر بناء السورة كلّها ، والنّظم التّركيبى عنده أقرب إدراكًا ؛ لأنَّ معالمه أجلى للبصائر ، واشتغال أهل العلم به ، ولا سيما النحاة والبلاغيون والمفسرون أعظم ، بل إنَّ أغلبَهم قصر سعيه فى ميدانه .



والنظم التّرتيبيّ أبعد ، وأعسر إدراكًا ؛ لأنَّ معالمه أخفى ومن أهل العلمِ مَنْ عُنِي بترتيب المعانى الكليّة وبمنهجٍ بنائها لإقامة السورة القرآنية كلها .

إذا ما كان هذا ما عليْه البقاعي فإني أذهب إلى أنّ النظم التركيبيّ هو نظم النص ، يندرج فيه النظم الترتيبي والتأليفيّ ، ولكل وجهةٌ هو موليها ، فاستبقوا الخيرات .

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة (آل عمران) : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣) .

ويقول جَلَّ جَلَالُهُ في سورة (الحديد) : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الحديد:٢١) .

ما يبين الآيتين من تصريف المعاني ومن مشتبه النّظم جليٌّ لا يخفى :

فى آية سورة « آل عمران» : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ وقرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر بغير واو عطف وكذلك هو فى مصاحف المدينة والشام وقرأ بقية العشرة بواو العطف وعليه مصاحف مكة والعراق .

﴿ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ دون أداة تشبيه مع جمع السماء ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

وفى آية الحديد : ﴿ سَابِقُوٓاْ ﴾ عند القراء العشرة بغير عطف .

﴿ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ بأداة تشبيه مع ذكر المشبه المضاف : «عرض» وأفراد المضاف إليه «السّماء» ﴿ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ في مقابل ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ في جنة سورة « آل عمران» .

غير خفيٍّ أنَّ هذه المفارقات فى العطف والتشبيه والحذف والإفراد والجمع وغير ذلك له ما يقتضيه من سياقه الجزئيّ وسياقه الكليّ لسورةٍ كُلٍّ .

فى آية سورة « آل عمران» كان الأمر بالمسارعة ، وفى آية سورة « الحديد» بالمسابقة ، وكانت الجنَّة الموعود بها فى آية سورة « آل عمران» عرضها السّموات والأرض ، والجنة الموعود بها فى آية سورة « الحديد» عرضها كعرض السماء والأرض ، وفى آية سورة « آل عمران» كانت الجنة للمتقين ، وفى آية سورة « الحديد» كانت الجنة للذين آمنوا .

آية سورة « آل عمران» سياقها الحَضُّ على الجهاد وتعظيم فضله والإبلاغ فى ذلك ، وسورة « آل عمران» إنّما هي سورة التوحيد وسورة الاصطفاء والمصطفين الأخيار الذين من أهمّ صفاتهم التّقوى والصبر والمصابرة والمرابطة ، وقد شاعت صفة التقوى والصبر فى آيات السورة على نحو جِدّ ظاهر .

هذه الآية فى سورة « آل عمران» جاءت عقيب بيان أسباب النصر وأسباب الخذلان الّذي من أهمّ أسبابه الإقبال على الدّنيا الّتى أشار إلى ذمّها بقوله ﷻ :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران:١٤) .

وعقيب الأمر بما تضمّن الفوز والنجاة والقرب ، فجاء الأمر بالمسارعة إلى المغفرة والى جنة عرضها السموات والأرض ، وبيّنٌ أنَّ أولئك الذين أُعدَّت هذه الجنة لهم هم المتقون الذين تقدمت الإشارة إليهم كثيراً ، والذين يتخلّوْنَ عن الأموال وجميع مصانع الدنيا فلا تمتد أعينهم إلى الازدياد من شىء منها ، ويتحلّون بالزُّهد فيها والإنفاق لها فى سبيل الله ـ سبحانه وتعالى .

أمَّا آية سورة (الحديد) فقد جاءت فى سياق الأمر بالإيمان بالله ﷻ ورسوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ والإنفاق فى سبيل الله ﷻ ممّا استخلفهم فيه وحثّهم على الإنفاق ورغبهم فى الإقراض الحسن ابتغاء أجرِ يومٍ كبير ، ناعِيًا عدم خشوع قلوبهم لذكر الله ﷻ ، وما نزل من الحقّ الدَّاعِي إلى الإيمان والإنفاق والإقراض مؤكدًا الحثَّ على الصَّدقة والإقراض ، مبينًا حقيقة الدّنيا ومتاعها ، فالسّياق الكليّ كما ترى يدفع بطائفة ليست على المستوى الإيمانى العَلِيّ ، فيدعوهم إلى المسابقة فيما بينهم إلى مغفرة وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، وهى جنةٌ دون جنّة « آل عمران » التى أعدت للمتقين ؛ لأنَّ أصحاب هذه الجنة إنما هم الذين آمنوا : الذين ما تزال فيهم رغبة فى الحياة الدنيا ، ومنْ ثَمَّ كان الأمر هنا بالمسابقة لا بالمسارعة ؛ لأنَّ المسابقة وإن تكنْ فعل من يسابق شخصاً ، فهو يسعى فى سبقه إلاَّ أنَّها ربَّما كانت المسابقة بين بَطِيئَيْنِ يَسِيرَانِ الْهُوَيْنَا ، فلا يلزم من المسابقة الإسراع ، وهذا أليق بحال الّذين آمنوا : الذين لم يرتقوا إلى درجِ التّقوى .

أمَّا المسارعة فلا تكون إلاَّ بجهدِ النّفس مع السُّرعة ، وهى قريبة لفظاً واقتضاء من « المُصارعة » الدَّالة على القوة والاجتهاد ممّا يدل على حاجة المسارعة إلى قوة واجتهاد ، وهذا ما يتناسب مع حال من أعدت لهم جنة (آل عمران) ، فإنَّهم قد بلغوا فى التقوى مبلغا صارت التّقوى صفة لهم ، وهذا لا يكون مناسبًا لمن لهم سياق آية (الحديد) ، ولهذا كانت المسارعة فى سياق (آل عمران) والمسابقة فى سياق آية سورة (الحديد) ، وليس اختصاص كل منهما بما جاء فيها ؛ لأن المسارعة أسبق من المسابقة كما ذهب إليه أبو جعفر بن الزبير فأعطى الأول « المسارعة » لما هو أسبق ترتيلا : سورة آل عمران ، وأعطى الآخر : « المسابقة » لمن هو تالٍ ترتيلاً : سورة الحديد ، كلاً ، بل ذلك مرجعه إلى السياق الكليّ والجزئيّ فى كلٍّ على نحو ما أشرتُ .

وكان جمع السَّموات فى سياق « آل عمران » وحذف أداة التشبيه وحذف المضاف « عرض » ؛ لأنَّ فى ذلك إبلاغاً فى وصف ما أُعِدَّ للمتقين يتناسب مع

سياق السورة القائم على الإبلاغ فى تحقيق الوحدانية وفى تحقيق صفات المصطفين والأتقياء ، فكان نظم آية «آل عمران» يحتمل المعنَى معه إرادة الطول والعرض معًا ، أيْ عرض الجنّة هذه هو طول وعرض السَّماوات جميعها والأرض ، فلم يذكر كلمة الطول ليشمل إرادة الطول والعرض معًا ، ومضافاً إلى ذلك أنَّ عرض هذه الجنة ليس مقارباً أو مشابها عرض السماء والأرض كما فى سورة (الحديد) ، بل هو طول وعرض السموات جميعاً والأرض بل والأرضين بدلالة جمع السماوات ، فالقرآن الكريم لا يجمع الأرض وإنَّما تفهم إرادة الجمع من عطف الأرض على جمع السماء :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (الطلاق:١٢) .

* * *

الرَّافد السَّادس
تـكرار نمط تركيبى فى سياق السّـورة

يكون فى بعض سور القرآن الكريم إعادةُ بعض الجمل أو الأنماط التركيبية الجزئية على نهجٍ متميِّزٍ لا يكونُ فى غيرها ، ويستهدى بهذا إلى اعتناء السُّورة بما يتضمنه هذا العنصر التَّركيبيّ ، لما له من مزيد تعلقٍ بمضمونها وسياقها الكليّ ومقصودها الأعظم ، وهذا على ضربين :

- **الضرب الأوَّل** : هو التَّكرار النّظميّ الّذي تكون فيه الإعادة لنمط تركيبى بحروفه ومعناه فى سياق السّورة الواحدة ، كتكرار قوله جَلَّ جَلالُه : ﴿ **ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ** ﴾ (الحشر:١٨) فى سورة البقرة وقوله جَلَّ جَلالُه : ﴿ **وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ** ﴾ (البقرة:١٤٩) فيها ، وتكرار قوله تَعَالَى : ﴿ **إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ (الشعراء:١٤٣) في سورة «الشعراء» ، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (الشعراء:١٩٠-١٩١) فيها .

وتكرار قوله تعالى : ﴿ **فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ (القمر:١٨) في سورة «القمر» وتكرار قوله جَـلَّ جلاله : ﴿ **وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ** ﴾ (القمر:٢٢) فيها .

وتكرار قوله جَلَّ جَلالُه : ﴿ **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ (الرحمن:١٣) .

وتكرار قوله عزّ وعلا : ﴿ **وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات:١٥) فى سورة «المرسلات».

الضرب الثاني : هو التَّصريف النَّظميّ الذى تكون فيه الإعادة لنمط تركيبي



ذي عدول فى بعض مفرداته أو مواقعها فى سياق السورة الواحدة ، وهو ما يعرف بمشتبه النظم فى السورة الواحدة .

ومن نحو قوله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٣) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (المائدة:٤١) .

ومن نحو قوله تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

(الأنفال:٥٢) .

وقوله تعالى : ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾

(الأنفال:٥٤) .

وغير ذلك جدّ كثير لا يخفى .

وجود هذين الضربين أو أحدهما فى سورة ما فيه دَلالة على أنَّ ثَمَّ مزيدًا من اعتلاق مضمونه بالسِّياق الكليِّ للسُّورة ومقصودها الأعظم .

* * *





الرّافد السابع
المعجم الكلِمِي

لا أريد بالمعجمِ الكلميّ كلّ الكلمات الّتي وردت في السّورة مناط التّدبّر ، بلْ أريد به الكلمات الّتي اشتملتْ عليْها السُّورة ، وكان لها واحدةٌ من السّمتيْن من حيث مستوَى الحضور كثرةً وندرةً :

الأولى : كثرة التّوارد فيها مادةً أو صيغةً أو مدلولاً أوموقعا .

الأخرى : تفرد الكلم مادّةً أوْ صيغةً أوْ مدلولاً أو موقعًا بحيث لم يرد في غير هذه السّورة مناط التدبّر .

المعجم الكلميّ للسُّورة صنفان من حيث العلاقة بيْن الكَلِم :

الصّنف الأوّل : يشمل الكلماتِ التى تنتمى إلى أسرة لغوية واحدة،أو أسرة دلالية واحدة .

الأسرة اللغويّة هي الكلمات التي يكون جذرها الاشتقاقي واحدًا أومتقاربًا ، بأنّ كان أكثر أصول الكلمة متفقًا .

هي تستَجْمَع فيها الكلمات عن طريق الاشتقاق بضروبه ، فالعربية لغة اشتقاقية ، وهي قليلة المواد كثيرة الألفاظ .

وهذا يحقق لها الديمومة من جهة ، والوفاء بحق المعاني وصناعها .

وتضلّع المتدبّر بحسن النّظر في قَضايا علم الاشتقاقِ ومسائله مفيدٌ جدًّا فِي هذا .

والأسرة الدَّلالية هي التي يكون فيها بين تلك الكلمات علاقة دَلاليّة قد تكون جليّةً حينًا ، وقد تكون خفيَّة حينًا آخر ، وتتلاحظ معانيها ، وتتجاوب ، وإن لم يكن بينهما اشتقاق لغوى ، كمثل كلمات التَّقوى ، والطَّاعة ، والإيمان ، والإحسان ، الإيقان ، فهى من أسرة دلاليّة متقاربة ، وكذلك ما يتعلق بذلك من عبادات كالصلاة ، والزكاة ، والجهاد ، والقتال ، وكذلك الكلمات الدالة على الصوت أو الضوء أو الحركة ، نحو ذلك .

وحسنٌ جدًا أن يعمدَ المتدبّر إلى حسن ملاحظة العلاقة بيْن كلمات الصّوت والضّوء والحركة في السُّورة ، ومدَى العلاقة بيْنهما فِي كلٍّ معقد ، وعلاقة هذا ما يقوم عليْه موضوع المعقد ومحوره المرحليّ ، ففي هذا ما يُعين كثيرًا على ذلك .

وفي الأسرة «الدّلالية» لا يُكتَفَى بما كانت فيها بالدَّلالات المتناظرة ، بل يجمعُ إليه ما كانت فيها الدّلاليّة المتقابلة[1] .

* * *

(١) لعلَّ في إعداد معجمٍ لكلم القرآن مصنّفٍ وفق موضوعات الكلم وأجناس معانيها ، فتجمع الكلم الدَّالة على الحركة والكلم الدَّالة على الصوت والكلم الدَّالة على الّلون ، وتصنّف كلّ مجموعة تصنيفًا موضوعيًا ، كتصنيف الكلم الدَّالة على الحركة وفق مستوى سرعتها ومستوى استقامتها وتعرُّجها ، وهكذا ، مقرونة كلُّ كلمةٍ فِي فصلها ومبحثها بآياتها وسياقاتها ، ففي كلّ ذلك مِن العونِ على حسن فقه المعنى وفهمه ما لايخفَى على طالبِ علم .
«مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غزَا» (متفق عليه) . وحبذا قيام لجنة التفسير وعلوم القرآن في هيئة كبار العلماء في الأزهر الشريف بهذا الأمر .

إذا نظرنا فى سورة «البقرة» ألفينا أنَّ فى معجمها اللّغويّ كلمات قد تواردت على نحو لم يكن فى غيرها ، وهى مفردات تتناسل من رحم مقصودها الأعظم الّذي أشرت إليه من قبل ، وهِي فِي الوقت نفسِه مفرداتٌ تتجاوب مع مفردات مطلع السُّورة .

نجد أنَّ مفرداتِ «الإيمان» جاءت أربعًا وسبعين مرَّة .

ومفردات معنى «التَّقوَى» جاءت ستًّا وثلاثين مرَّةً .

ومفردات «الهدَى» جاءت ثلاثين مرَّةً .

ومفردات «الخير» جاءت سبعًا وعشرين مرَّةً .

ومفردات «الإحسان» جاءت اثنتى عشرة مرَّة .

ومفردات «الصَّلاة» جاءت اثنتى عشرة مرَّةً .

ومفردات «الزَّكاة» خمسَ مرَّاتٍ .

ومفردات «الإنفاق» عشرين مرَّةً .

ومفردات «الصِّيام» ستَّ مرَّاتٍ .

ومفردات «الحجّ والاعتمار» عشرَ مرَّاتٍ .

ومفردات «القتال والجهاد» ستَّ مرَّاتٍ .

ومثل هذا لم يجتمع فِي سورةٍ على ذلك النَّحو الفريد فِي غيرِ هذه السُّورةِ .

وجاء اسم أبى الأنبياءِ (إبراهيم) عليه السلام خمسَ عشرةَ مرَّةً ، وهذا ما لم يكن مثله فِي غيرِها .

فهذه المفردات فِي معجم سورة «البقرة» منبثقةٌ مِن سياقِها الكلِّيِّ ، واستبصار تلك المفردات فِي دلالتها السِّياقيَّة يهدِى إلى معالم مقصودِها الأعظم .

ولتواردِ أسماءِ الله الحسْنَى فِي سورةٍ ما على نحوٍ خاصٍ مزيدَ عنايةٍ بملاحظةٍ وتدبُّرِ اعتلاق معانيها بسياقِ السّورةِ الَّتِي فيها ، فالله عَجَّلَ لا يقيم اسمًا من أسمائه الحسنَى إلاّ في سياقه ليدل على ما يترادف من فيوض المعاني على ذلك السّياق ، فكان فقه معانى أسماء الله الحسنَى ومواقعها فى الذّكر الحكيم بابًا مِن العلم جدُّ عظيم ، ولا يقوم به إلاّ مِن كان محتسِبًا متخلّقًا بما يليق به مِن معانِي تلك الأسماء ، فيكون له من ذلك زادٌ إلى زاد عرفانِه العلميّ يهديه إلى حسنِ استبصار الرُّوح المهيمن على السُّورة .

يقول «أبو الحسن الحرالّيّ» (ت: ٦٣٨هـ) في الباب الثّالث من كتابه «مفتاح الباب المقفل» : «في إبانة القرآن عَن ألسنة ذواتِ الخلق ، وعن تنزُّلات أسماء الحقّ» : «لكلّ اسمٍ مِن أسمائه الحسنَى بيانٌ يخصُّ إقامته طورًا من أطوار خلقِه تفصيلاً وإجمالا ، فمَن تفطّنَ إلى رتَبِ الخطابِ فِي القرآنِ بحسَبِ أسماءِ اللهِ ، وأطوار الخلق وتنزّلات الأمر ، ورتّب تنامِي القلوب فِي الرُّجوع إلى الله ، ورتب الأخلاق والأعمال ، وما يقابل ذلك مِن دركات البعد والبغض والطَّرد واللعن ، فتح الله له بابًا إلى الفهم يجد به يقينَ تجربةِ إبانته ، ووضوح صدق إنبائه عَن كنهِ الذَّوات ورتب التّنزّلات حتى أنَّ خطاب الإقبالِ ينتظم بخطاب الإعراض ، والغيبة بالحضور ، والاختصاص بالتَّعميم ...»[1] .

وهذا مِن الحرالّيّ متنٌ وجيزٌ بالغ الوجازة ، الظّن أنّه ما صَاغه إلاّ من واقعِ ممارسة التَّدبر الاستقرائيّ في البيان القرآني لمواقع أسماء الله الحسنى ، فالظَّن الحميد بمثله يوجب علينا ذلك ، وممّا يجب علينا خدمة له أنْ نعمد إلى قراءته في واقع البيان القرآني لنستجلي الحقيقة في هذا .

---

(١) تراث أبي الحسن الحرالي في التفسير ، ص ٣٣ .



ومن البيّن أنَّ مِن السُّور ما اختصَّ بكثرة ذكر اسم من أسماء الله الحسنى على نحو فريدٍ ، كمثل اسمه «العليم» جاء فى سورة «البقرة» إحدى وعشرين مرة : كان مفردًا غير مقترن باسمٍ آخر ثماني مرات ، ومقترنًا باسمه الحكيم مرة واحدة (الآية: ٣٢) ، وباسمه الشاكر مرة واحدة (الآية : ١٥٨) وباسمه الواسع أربع مرات (الآية : ١١٥ ، ٢٤٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٨) ، وباسمه السّميع عشر مرات (الآيات : ١٢٧ ، ١٣٧ ، ١٨١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٨) .

وجاء اسمه «الحكيم» سبع مرات اقترن بـ«العليم» مرة واحدة ، وبـ«العزيز» ست مرات . (١٢٩ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٦٠).

واسمه «الواسع» لم يتكرّر في سورة غير «البقرة» ولم يقترن في «البقرة» باسم آخر غير «العليم» ، بل لم يقترن باسم آخر في القرآن الكريم إلا مرة واحدة باسمه «الحكيم» في سورة «النساء» : ...

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾

(النساء: ١٣٠) .

واسمه «الشّاكر» لم يرد في القرآن الكريم إلا مرتين : في «البقرة» (الآية : ١٥٨) وفي «النساء» : (الآية: ١٤٧) واسمه «الغفور» جاء فى سورة «النساء» عشر مرات ، وجاء فيها اسمه «الرحيم» ثلاث عشرة مرة ، واسمه «الرّحمن» جاء فى سورة «مريم» ست عشرة مرة . وجاء اسمه «العزيز» فى سورة «الشّعراء» تسع مرات .

ومثل هذا الاستبصار رافد من روافد فقه الرّوح المهيمن على بيان السّورة ، فإذا ما لاحظنا معه أمرًا آخر هو اقتران بعض الأسماء مع بعض على نحو فريدٍ فى بعض السّور كان ذلك أيضًا معينا على معرفة معالم المقصود الأعظم .

اسمه «العزيز الرحيم» لم يأتِ على ذلك النَّحو ، كمثل ما جاء فى سورة «الشّعراء» ، بل لم يرد فيها اسمه «العزيز» أو اسمه «الرّحيم» إلاَّ مقترنين مع تقديم «العزيز» على «الرّحيم» على الرّغم من أنَّ الّذي هو شائعٌ فى القرآن الكريم اقتران اسمه «العزيز» باسمه «الحكيم».

ومن الجدير بالملاحظة أنَّ كلمات الأسرة اللغوية إذا ما تكاثر تواردها فى سورة ما كان فى هذا آية على هيمنة ما تلتقى عليه تلك الكلمات دلاليا على موضوع السورة ، ذلك أنَّ حشد مفردات هذه الأسرة اللغوية وتَجْييشها في سورة واحدة لن يكون عملاً عقيماً أو عابثاً ، فهو تنزيل من عزيز حكيم عليم حميد .

والصنف الآخر (الفرائد)

هو الذى تختص به السّورة من الكلم مادة أو صيغة دون غيرها من السور على نحو من الأنحاء ، فإنَّ كثيراً من السور تختص بكلمات لا تكون فى غيرها على إطلاق الوجوه كلها ، أو تختص بها من وجه دون وجه ، مثل اختصاصها بها من وجه الاشتقاق دون وجه المادة أو وجه الجمع دون الإفراد ... إلى آخر ذلك .

والنَّاظر فى معجم الكلمات القرآنية يرى كثيراً منها لم يرد ذكره إلا فى سورة واحدة ، وبين يدى عشرات من فرائد المفردات فى الذكر الحكيم ، وغير خفيّ أنَّ فى هذا الاختصاص آياتٍ بيّنةً على مزيد اختصاص معناها بمقصود سورتها ، ولولا ذلك ما كان لها أن تختص السورة بها من دون غيرها ، ولا سيما أنَّ غيرها قد يرد فيها ما يتوارد معها فى معناها العام .

ومن هذا اختصاص بعض السور باسم من أسماء الله الحسنى ، فاسمه «المقيت» لم يأت إلا فى قوله ﷻ :

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ (النساء:٨٥) .

واسمه «البر» لم يأت إلا فى قوله ﷻ : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الطور:٢٨) وعلى لسان أهل الجنةِ فيها .

واسمه «المليك» لم يأت إلا فى قوله ﷻ : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ (القمر:٥٥) .

واسمه «الفتاح» لم يأت إلا فى قوله ﷻ : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (سبأ:٢٦) .

ومما يحسن استبصاره فى هذا أسماء الجنة والنار واليوم الآخر ، فإن بعض السور تختص باسم غير معهود من ذلك ممّا ينبع عن مزيد علاقةٍ بين معنى ذلك الاسم وسياقه الجزئي ، فالكليّ ، ثم مقصود السّورة الأعظم ، وقد يكون فى اختصاص معنى ما بمقصود سورتها خفاءٌ يستوجب مزيد اجتهادٍ فى الاستبصار والتدبر ، وإن كان اختصاص معناها بسياقها الجزئى أجلى وأظهر .

إنَّ تدبر فرائد المفردات في البيان القرآني ذو عونٍ على حسن فقه المعاني الإحسانية التي بها يتصاعد العبد في مقامات القرب الأقدس .

إذا نظرنا فى سورة «البقرة» ألفينا أن فى معجمها اللغوى كلمات لم ترد فى غير سورة البقرة ، من ذلك كلمة «يسفك» و «فاقع» ، «اعتمر» ، «العمرة»، «انفصام»، «صفوان»، «وابل»، «طل»، «يتخبط»، «يربي».

هذا قليل من مفردات قرآنية خاصة بمعجم سورة «البقرة» ، ولن يكون اصطفاء هذه المفردات دون غيرها ، ولا سيما التى لها ما يقارب دلالتها إلا إذا ما كان لهذه المفردات وثيق علاقة بسياقها الجزئيّ أولاً وبسياقها الكليّ ثانياً ، من أن السّياق الجزئيّ عنصر من عناصر بناء السّياق الكليّ للسّورة الّذى يهيمن

عليه المقصود الأعظم لتلك السورة ، وإن تحدرت على لاحبه موضوعات عديدة متنوعة ، إلاَّ أنـَّها فى تعددها وتنوعها خاضعة لسلطان روح واحد مهيمن عليها ، ومعدن الجمال والكمال إنَّما هو تنوع العناصر فى وحدة تسوقها إلى غاية عظيمة مثلما الكون كلُّه على اختلاف أجناسه وأنواعه مسوق إلى تحقيق عبوديته لله رب العالمين الواحد القهار .

* * *

المعقد الثالث
تقسيمُ السُّورَةِ إلَى معاقِدَ كُلِّيَّةٍ

كلُّ قارئٍ سورةَ من القرآن ولاسيما سور حزب السبعِ الطُّوَال ، والمئين والمثاني يدرك أنّ عظم هذه السّورة مشتملة على موضوعين أو أكثر إلا قليلاً من تلك الّتي كانت ذات موضوع واحدٍ ، كسورة « يوسف » ، وسورة « القصص » ، وسورة « نوح » .

وإذا ما كان مصطلح « السورة » إن قلنا إنه من « السور » الذي يحيط بالأشياءِ يهدي إلى أنّ موضوعات السورة قد أحاط بها ما يجمعه ، فثَمَّ تساؤل ، أكانت لهذه الموضوعات المحاط بها والمجعول لها فاتحة ، وخاتمة ما يجمع تعددها وتنوعها فيحقق لها حلية التنوع المفضِي إلى توحد ؟

وأهل العلم بالبيان يستحمدون منه ما تنوعت موضوعاته وتعدّدت ثم انتهى أمره إلى توحد ، أي ما كان تنوعه مددًا لتوحّده ، وكأنهم يستلهمون الحكمة الربّانية المتجلية في قوله ﷻ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات:١٣) .

تبصّر قوله تعالى : ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ تبصر أن التنوع يجب أن يكون مددًا للتعارف لا للتعارك ، وكأنّ حالنا الذي نقوم فيه يتجه عكس ما يسوقنا إليه هدى الله ـ تعالى ـ في الآية ، وفي هذا مِن المعاندةِ المفضِيةِ إلى الهلكةِ والمحقّ ما فيه .

حسب جمع أنّ الأحمد أن يجعل لكلّ بيانٍ موضوعًا واحدًا ، فإذا ما حدثك في أمر يتعلق بالعلاقات الأسرية وجب أن يفرد ببيان ، وإذا حدثك بأمر في إدارة شؤون التجارة جعل له بيانًا ، يسأنف لكلّ موضوع بيانا ، حسبوا ذلك من أنهم يدركون من أنفسِهم العجز عن أن يخضعوا موضوعاتٍ عدة متنوعة في بيانهم لسلطانٍ واحدٍ يحقق لها من تعدّدها وتنوّعها وحدة وتماسكًا مكينا ، فلمَّا جاء القرآن جامعًا في السُّورة الواحدة موضوعاتٍ عدَّة حسبوا أنَّ هذا مِن الفسوق عن المعهود .

ولو أنَّـهم كانوا قد فقهوا معهود العرب في بيان إبداعها الشّعري ، وفقهوا منهجَ الشَّاعر الفحل في أن يجعلَ في قصيدته موضوعاتٍ عدة يخضعها جميعًا لمغزى واحدٍ يجري في جميع موضوعاتها ، فيكون عمود الأمر والروح السّاري في القصيدة كلها[1] .

لو أنَّـهم فقهوا هذا المعهود عند العرب في إبداع فحولها لعلموا أن القرآن في جمعه في السورة الواحدة عدة موضوعاتٍ لم يجعلها متفاصلة ، بل أخضعها جميعًا لمقصد رئيس يجري فيها جميعًا ، يوحدها على تعددها وتنوعها ، فكان ذلك أسًّا مكينًا من أسس بنية نظمه التَّركيبيّ (النّصّي) .

ومن الغريب أنّ إلقاء هذه الشبهة : شبهة جمع القرآن بين موضوعات عدّة في سورة واحدة يسم بناءها بالفوضَى ، إنّما هي نبتت في قرون متقدّمة من نابتة أعجمية القلبِ لا تفقه عَلِيّ البيان ، فتوهَّمت الفضيلة مثلبة ، والخيرَ شرًّا والحقّ باطلا[2] .

---

(١) ينظر كتاب : الشّعر الجاهليّ دراسة في منازع الشعراء ، ص ١٢ .

(٢) ينظر : مدخل إلى القرآن الكريم حقائق تاريخية . ص ١١٨ دراز .

وقد نقض أهل العلم بالقرآن ذلك في باكر الأمرِ ، وبيَّنوا أنّ هذا الّذِي اتَّخذوه منقصةً ، هو في نفسِه منقبة ، ولَكنَّ أكثرَ النَّاس لا يعلمون .

يقول الخطابي : «قالوا : لو كانت سور القرآن على هذا التَّرتيب ، فتكون أخبار الأمم وأقاصيصهم في سورة ، والمواعظ ، والأمثال في سورة ، والأحكام في أخرى لكان ذلك أحسن في الترتيب ، وأعون على الحفظ ، وأدل على المراد ؛ في أمور غير هذه يكثر تعدادها» .

فنقض زعمهم بـ«أنّه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعم لنفعه ، ولو كان لكل باب منه قبيل ، ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر عائدته ، ولكن الواحد من الكفار والمعاندين المنكرين له إذا سمع السورة منه لا تقوم عليه الحجة به إلا في النوع الواحد الذي تضمنته السورة الواحدة فقط ، فكان اجتماع المعاني الكثيرة في السورة الواحدة أوفر حظًّا وأجدى نفعًا من التمييز والتفريد للمعنى الذي ذكرناه . والله أعلم»[1] .

نقضُ الخطابي التفت إلى حكمة تعدّد موضوعات السّورة ، واشتمالها على وفرة من الموضوعات والقضايا والمسائل ، فكانت السورة أشبه بمائدة تنوعت الأطعمة عليها ، وكان لكلّ مطعوم فائدته ، بحيث يتحقق للطاعم نصيبه من كلّ ، فمن قرأ سورة واحدة كان له منها ما يغنيه من كل الموضوعات والقضايا والمسائل ، ولا يكون مضطرًا إلى أن يقرأ كل السّور ليكون له من كلّ موضوعٍ نصيبًا ، فيشقّ عليه ، فكان جمع موضوعات عدّة في سورة واحدة من قبيل التَّيسير للذّكر الّذي امتنَّ الله ـ تعالى ـ به في سورة «القمر» : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا**

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ، ص ٤٠ ، ٥٤ .

ﱡﭐﭐٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﱠ (القمر:١٧) ، فكان تعدّد الموضوعات في السُّورة الواحدة من فيض جمال الرُّبوبية .

ولم يصرح جواب الخطابيّ بما بيْن هذه الأطعمةِ من انسجامٍ واتساقٍ ، وليس هذا عن غفلة أو جهالة من الخطابيّ ، بل هو بيانٌ لما يرجع إلى الفائدة الرّئيسة للمتلقّي ، بحيث تكون كلّ سورة مغنية له ، وتكون كلّ سورة أهلاً لأن يصلَّى بها لاشتمالها على عظم مقاصد القرآن وموضوعاته[1] .

ألا ترى سورة «أم القرآن» قد اشتملت على ثلاثةِ موضوعاتٍ كلّ موضوعٍ يمثّل مقصدًا كليا ، فأحاطت بمقاصد القرآن ، ولا تكاد تجد شيئًا في ما جاء في سائر سور القرآن لا يرجِع إلى واحد من هذه الثلاثة الموضوعات على الأقلِ .

وجاء اجتماع الثّلاثة الموضوعات في السُّورة على نحو لا يتأتّى لمن له معرفة بالبيان أن يزعم أنّ البيان عن الموضوعات لم يخرج من مخرج واحد ، وما أفرغ إفراغًا واحدًا ، وأن هنالك احتمالا لأن يقدم شيءٌ أو يؤخر ، ويبقَى الأمر على حاله أو ما هو قريبٌ من حالِه[2] .

فالشأن في عظم سور القرآن أنه ليس فيها ما يسميه أهل العلم بالبيان البشريّ بـ«الوحدة الموضوعية» : أن يكون النّصّ بيانًا في موضوعٍ واحدٍ ، بل السورة فيها وحدة الموضوعات ، فهي محقّقة للوحدة في التنوع ، وهذه هي المعضلة .

---

(١) للمزيد تبصر ماجاء بِه شيخنا في ، ص ٦٢ ، ٦٣ من كتابه الإعجاز البلاغي : دراسة تحليلية لتراثِ أهلِ العلم ، مكتبة وهبة . القاهرة ط . الأولى ، ١٤٠٥هـ .

(٢) ممّا هو كالفريضة أن ترجع إليْه متفكرًا مستبصرًا ما جاء بـه العلامـة محمَّـد عبـد الله دراز في مقاله «نظرات في فاتحة الكتـاب الحكـيم» المنشـور في مجلـة «المجلـة» . العدد (٧) : ذو الحجة : ١٣٧٦هـ . يوليه : ١٩٥٧م) ، ص ١٠-١٥ .

الذي يهـديك إلى أنّ الخطَّابيّ ليس بغَـافِل عن أنَّ تعـدّد الموضـوعات لا يحقق التَّفاصل في بناء السُّورة .

كانت له التفاتة إلى منهج القرآن في جمعه بيْن ثلاثةِ ضروب من الإبانة ، جمعها مزجًا على نحو لا يتأتى لك أن ترسم حدود مفاصلة بينها ، وجعل امتزاجها هو باطن العلة في عجز العالمين أن يكون لهم من بيانهم شيءٌ منْ مثل القرآن .

يقول : «أَجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متابينة غير متساوية ؛ فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرَّسْلُ .

وهذه أَقسام الكلام الفاضل المحمـود دون النوع الهجين المـذموم ، الذي لا يوجد فى القرآن شيء منه أَلبتة .

فَالقسم الأول أَعلى طبقات الكلام وأَرفعه ، والقسم الثاني أَوسطه وأَقصده ، والقسم الثالث أدناه وأَقربه ؛ فحازت بلاغاتُ القرآن من كلّ قسم من هذه الأقسام حصةً ، وأَخذت من كلّ نوع من أنواع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين لأنَّ العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة تعالجان نوعًا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كلّ واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه»[(١)] .

الخطابيُّ لا يذهب إلى أنّ هذه الضروب لا تكون في بيان البشر ، بل هو يذهب إلى أنَّ كيفية وجودها في القرآن هو الذي لا يمكن أن يكون في غيرِه .

---

(١) بيان إعجاز القرآن ، ص ٢٦ .

فكما أنَّ التشبيه والاستعارة والتقديم والفصل والوصل ونحو ذلك قائمٌ في بيان البشر ، إلاَّ أنَّ المعجز في القرآن منه هو كيفية وجوده .

تبيان الخطابيّ هذا لا يعني أنَّ كلَّ ضربٍ كان له موضوعٌ ، فموضوع له الجزل ، وآخر له القريب السهل ، وآخر له الطلق الرّسل .

هو إلى أنَّ هذه ممزوجة في البيان عن الأمر الواحد ، فأنت لك من كلّ بيان عن كلّ أمر هذه الثّلاثة ممزوجةً لا متجاورة متتابعة .

ليس ثمّ ما هو كلّه جزلٌ ، وليس ثمّ ما كلّه سهلٌ ، وليس ثمّ ما كلّه رَسْلٌ ، هي لك في كلٍّ ما أنت إليْه .

وهذا منه قد يشير إلى أنّ المُبانِ عنه من المعاني ما اجتمع فيه مزجا ما هو أليق به الجزل ، وما هو أليق به الطلق ، وما هو أليق به الرَّسل ، مزِجَ كلٌّ فكان على ما أنت مبصرٌ ، وهذا ما لا طاقة للبشر بِهِ ، بل يعجزون عن أن يكون لهم ما يحيطون علمًا بهذا المازج بين هذه المتباينات أو كالمتناقضات ، فاقتضت اجتماع هذه الطرائق في الإبانة .

فالخطابيّ لم يصرّح في نقضِه شبهة تعدّد الموضوعات بأن تعدّدها تعدُّدٌ يستحيل إلى توحّد لأمر قائم في هذه المتعدّدات .

لم يصرّح في نقض الاعتراض على تعدّد الموضوعاتِ إلى هذا ؛ لأنـّه قد التفت إلى شيْءٍ من هذا القبيل في موضع سبق لتقيس ما ترك التّصريح به هنا على ما كان له التَّصريح به هناك .

لك أن تذهبَ إلى هذا في بيان وجه ترك التّصريح بتأليفِ المتعدّد ، بل المختلف مِن الموضوعات في السّورة الواحدةِ .

وجاء الباقلانِيّ (ت: ٤٠٢هـ) ، فنظر إلى أمر تأليفِ المختلفِ ، وفيه فوق ما التفت إليه « الخطّابيُّ» معلَمٌ من معالِم الإعجاز «تأليف المختلف» مِنْ

هذه الموضوعات المتنوّعة المبينة عن قضايا عدّة ، والكاشفة عن مسائل كثيرة ليس أمشاجًا متفاصِلة ، بل هو مزاجٌ ، يجرِي في كلِّ أمرٌ يجعلها جزءًا مِن كلِّ مزيجٍ ، لا سبيلَ إلى مفاصلتِه ، مع بقائه على حالِه الّذي كان عليْه .

يقــول : «وفـي ذلك معنى ثالثٌ : وهـو أنَّ عجيب نظمِه ، وبـديـعَ تأليفِه لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرّف إليه من الوجوه الّتي يتصرَّف فيها : من ذكر قصصٍ ، ومواعظَ ، واحتجاجٍ ، وحكمٍ ، وأحكامٍ ، وإعذارٍ ، وإنذارٍ ، ووعدٍ ، ووعيدٍ ، وتبشيرٍ ، وتخويفٍ ، وأوصافٍ ، وتعليمِ أخلاقٍ كريمةٍ ، وشيمٍ رفيعةٍ ، وسِيَرٍ مأثورةٍ ....»

«... وقد تأملنا نظمَ القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها ، على حدٍّ واحدٍ ، في حسن النَّظــم ، وبديع التَّأليف والرَّصف ، لا تفـاوتَ فيه ، ولا انحطاطَ عن المنزلةِ العليا ، ولا إسفـافَ فيه إلى الرُّتبة الدُّنيا .

وكذلك قد تأمَّلنا ما يتصرَّف إليه وجوه الخطاب ، من الآيات الطَّويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجازَ في جميعِها على حدٍّ واحدٍ لا يختلِف»(١) .

«والقرآن على اختلاف فنونِه ، وما يتصرَّف فيه من الوجوهِ الكثيرةِ ، والطُّرق المختلفة ـ يجعل المختلفَ كالمؤتلِف ، والمتباين كالمتناسِب ، والمتنافِر في الأفرادِ إلى حدِّ الآحادِ .

وهذا أمرٌ عجيبٌ ، تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ، ويخرج معه الكلام عن حدِّ العادة ، ويتجاوز العرفَ»(٢) .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ، ص ٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

وهو يمضي بك مقررًا هذه السِّمة التي تفرّد بها البيان القرآنيّ : « تأليف المختلف من بناء الجملة إلى بناء السورة» ، ولست هنا بصدَد دراسة منهجه ، بل إلى لفتك أنّ هذا ممًّا ذهب فيه الأعيان من أهل العلم ، فهو متأصل في حركةِ العقلِ المسلم في تلقّيه البيان .

ولو أنَّك مددت نظرك إلى ما قبل الخطّابيِّ والباقلانيِّ رأيت أهل العلم بالبيان على أنَّ «أجودَ الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنَّه قد إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا ، فهو يجرِي على اللِّسان كما يجري الدهان»[1] .

هذا الذي قد يرَى أنّه أمر راجعٌ إلى ملفوظ البيان وصورة المعانى ، فالَّذي هو حقٌّ أنَّ ذلك مرجعه إلى شأنِ المعاني ، فما تكون عليه هو الّذي تكون عليه صورتها ، أو ليس الإعراب عنها بـ« الصورة» دالٌّ على أنّ ما هو قائمٌ فيها إنّما هو انعكاسٌ لِما هو قائمٌ فيما تصوَّره : «المعاني» .

فالمعانِي متلاحمةُ الأجزاء سهلةُ المخرج ، أفرغت أفراغًا واحدًا وسُبِكت سبكًا وحدًا على تنوّعِ موضوعاتِها ، فحدِيثُهم عَن ما به تكونُ صورةُ المعاني هو حديثٌ في المعاني ، وقد أكد عبد القاهر أنَّ كلَّ حديث عن الألفاظ «الصُّور» إنّما هو حديث في معانيها[2] .

يتبيّن لك من هذا تأصيل حقيقة «تأليف المختلف» وإدارته على نهج يجعله سواءً ، ويتبيّن لَك أنّ حديثَهم عن التّلاحم والسَّبك والإفراغ والجريان على اللسان إنّما هو حديثٌ عمّا يحقّق للبيان وجودَه المتآخِي :

---

(١) البيان والتبيين ١/٧٦ .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز ، ص ٦٤ فقرة (٥٥) .

التَّلاحم إنّما يكون بين المتجانسات ، وهو نظر إلى علاقة الشَّيْءِ بسباقِه ولحاقه .

والسَّبك والإفراغ نظرٌ إليه في وجوده الكليِّ .

والجريان نظر إلى سهولته وتتابعه .

وسهولة الخروج إنّما هو خروج المعانى مِن النَّفسِ المنعكس على خروج الّلفظ مِن الِّلسانِ .

كلّ ذلك يهديك إلى أنَّ وجوبَ تحقّق ائتلاف المختلِفات من أجزاء البيان إنّما هو أمرٌ قارٌّ في العقل الفطريّ ، وأنّه لا وجودَ لشيْءٍ فاعلٍ من أجزاء متشاردة متدابِرة ، فإنَّ اجتماعها على أيّ نحوٍ دون أن يتحقَّقَ فيما بيْنها ما يوحِّدها نحو هدفِها يجعلها عقيمًا ، فحيث رأيت بيانًا ذا فعلٍ فِي مَن يتلقّاه ، فاعلمنَّ أنّ ما تكوَّن منه إنّما هو مجتمِعٌ على نحوٍ يوحّده نحو هدفِه ، فما عليك إلاّ أن يكونَ مِن همّك الوقوف على ذلك الموحِّد ، وعلى كيفيّة فعلِه في هذه الأجزاءِ المتعدّدةِ المتنوّعةِ المتباينةِ موضوعًا ، ليحيلَها إلى متَّحدةٍ متعاونةٍ يأخذ بعضها بحجَزِ بعضٍ ، وتسمع هتافها فيها : اعتصموا بي ولا تفرقوا ، ولاَ تَنَازَعُوا ، فَتَفْشَلُوا ، وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .

* * *

معاقد السّورة : ترتيبها وعمود أمرِه

كلّ سور القرآن الكريم ولاسيّما الطُّوَال والمئين والمثانِي إنّما هي ذات معانٍ كلّيّة ، تمثّل معاقدَ لبناء السُّورة الكُليّ ، وتحرير معالم هذه المعاقد مبتدأً ومنتهًى وترتيبًا ، وما هو عمود أمر هذا التَّرتيبيّ إنَّما يقع عليه المرْء مِن طولِ قراءةٍ ونظرٍ وتبصّرٍ فِي السُّورة ، به يصبح المعنى الكُلّيّ للسُّورة مستحضرًا فى قلب القارئِ ، فيتأتّي له إبصار تلك المعالم ، ثمَّ تحديدها .

ومثل هذا ذو أهميَّة بالغة فى الوقوف على مدارج المعنَى القرآنيِّ فِي السُّورة الّذى به تتحقّق معرفة حركةِ المعنَى في سياق السُّورةِ .

وهو ذو أهمية أيضاً فى معرفة مواقعِ هذه المعانِي الكُلّيّة فِي السُّورةِ علَى مدرجةِ المعنَى القرآنيّ فيما سَبَقَ السُّورةَ مناطَ البحث .

أساس التّقسيم إلَى معاقدَ :

تقسيم السُّورة إلَى معاقدَ تقسيمٌ أساسُه تآخِي المعانِي الجزئيّة وتناغيها فى تشكيلِ وحدة كليّة بيّنة المعالم الّتِى بها تمتازُ عمّا سبقها وما تلاها مِن وجه ، وبها يتحقق التعلق بما سبقها وما تلاها ـ أيضًا ـ من معاقد على جادّة السّياق الكُلّيّ للسُّورة .

وهذا التَّقسيم به يتبين صاحب القرآن الكريم مقدّمة السّورة ومفتتحها ومؤخّرتها ومختتمها وما جرى بينهما من معاقِد ، وموقع قلب السُّورة الّذى منه تتناسل وشائج القربَى وأسباب التَّآخِي وأشطانه .

قلت فِي موضع سَبَق إنّ كلَّ سورةٍ ولا سيّما الطّوال والمِئين وكبار المفصّل لا تكاد تخلو من : « المطلع» و« المقطع» و« القلب» ، وإذا ما كان المطلع تلاوةً والمقطع ترتيلا قد تحدّد موقعهما من السُّورة ، فإنَّ مقداريهما يختلفان مِن سورةٍ إلى أخرَى ، كما أنَّ موقعَ قلب السُّورة ليس محدَّدًا ، فقد يكون فى ثبجِها ، وقد يكون أقرب إلى مطلعها ، أو أقرب إلى مقطعها .

* * *

مقاربة تأويلية في معاقد سورة البقرة

من الأسماء التوقيفية لسورة « البقرة» « سنام القرآن» و« فسطاط القرآن» ، وفي ذلك إضاءة إلى ما يُمكن أن تسترشد به في البصر بمكونات هذه السورة ، وتكوينها ، ثم علاقتها بسائر سور القرآن من بعدها .

امتدّ نزول آياتها سنين عددًا امتدادًا لم يكن لغيرها مثله ، وكان مقتضى ظاهر النَّظر أن يُمنَى بناؤها بالاقتضاب والتبتير ، فحال التنزيل ظاهره أدعَى إلى التبتير ، ولكنّه القرآن الذي قال عنه منزّله :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾

(الزخرف:١-٤) .

وما كان كذلك كان كتابًا عزيزًا ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢) .

ومن باطل أيّ بيان تدابره وتخالفه وتنازعه وتناقضه ، كلّ ذلك كتاب ربنا عنه محفوظٌ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) .

كلُّ ذلك يحمل إلى الاجتهاد في استبصار ما بين مكوِّنات هذه السورة من تآخٍ وتلاحظٍ ، وسعي إلى غايةٍ واحدةٍ تضبط حركة تلقّي الأفئدة المعانِي المتآخيةَ على تعدُّدها وتنوُّعها ، فإذا هي منسجمةٌ ومتناسقةٌ ، فإذا ما اجتمع إلى ذلك اتفاقها في تأثيرها في النّفس على نحوٍ لا يتحقّق إذا ما كانت أجزاؤه متباتِرةً متدابِرةً ، ومتنابِذةً ، ذلك أنَّ تأثيرَ البيان في النَّفسِ خاضعٌ لشأنِه في ذاتِه ، فما كان منسجِمًا متَّسِقًا متآخِيًا كان تأثيره في النَّفسِ كذلك .

ولذا التفت العلماء إلى هذا الجانب التَّأثيريّ وجعلوا اتساقه مِن وجوه إعجازه .

يحتاج الوعي بتناسق موضوعات السُّورة ولا سيَّما السُّور الطُّوَال إلى أن يكونَ الفـؤادُ مقتدِرًا على أن يرقبَ حركةَ المعانِي ، وأن يبصـرَ ما هو حاضرٌ لا يغيب قطُّ مهما تعدّدتْ موضوعات السُّورة وتنوَّعت ، هذا الأمر الحاضر الَّذِي لا يغيب على امتدادِ السُّورةِ قد لا يكون لحظه ومراقبة امتدادِه متيسّرًا إلاَّ

لثلّةٍ ذاتِ بصيرةٍ نافذةٍ محيطةٍ تمارس فعل القراءةِ بكلٍّ ما تحمله كلمة «قراءة» ، مِن استجماع المعاني واستقرائها والإحاطةِ بها ، فممارسة «القراءة» غير ممارسة «التّلاوة» و«التّرتيل» في القراءةِ ما ليس فيهما : فِي القراءةِ استيعابٌ وإحاطةٌ ، وفي التّلاوة والتّرتيل متابعةٌ .

قلت في موضع سبَق إنَّ لسورة «البقرة» مطلعًا ومقدّمةً ، ولها خاتِمة ، وقلت إنّ مقدّمتها أوسع فسطاطًا مِن فاتحتِها ومطلعِها : مقدمتها العشرون آية الأولَى ، والفاتحة الاستهلاليَّة الآيتان الأوليان ، أمَّا الخاتِمة ، فالآيات الثَّلاث الأخيرة ، وما بين المقدّمةِ والخاتِمةِ هو متن السُّورة ، وهو ثلاثٌ وأربعون ومئتا آيةٍ (٢٤٣ آية) .

تنسَق هذه الآيات في معاقدَ تنوّعت رؤية أهل العلم فِي تحديدِ عددِ هذه المعاقدِ (الفصول / الأقسام) وتحديد مفتتح كلّ معقدٍ ، ومختَتِمه .

وهذا التَّنوع في الرُّؤية مردُّه إلى طبيعةِ هذه الرُّؤيةِ ، فمنها ما هو رؤية تفصيليّة ، ومنها ما هو رؤيةٌ إحكاميّةٌ (كلّية : تركيبيّة) ، فهو تنوّعٌ له مرجعٌ موضوعِيٌّ ومرجعٌ ذاتِيٌّ ، ولذا نجد تقسيم العلماء سورة «البقرة» إلى معاقدَ متقاربةٍ من وجهٍ متباعدةٍ من وجهٍ آخر[1] .

والذي أذهب إليْه أن السّورة مكونة من مقدمة وقسمين كبيرين وخاتمة :

المقدمة من الآية (١-٢٠)

والقسم الأوّل من السُّورة يتمثَّل في ستٍّ وأربعين ومئة آية (١٤٦ آية) : (٢١-١٦٧) من أوّل قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ :

---

(١) ينظر : النبأ العظيم للشيخ محمد عبد الله دراز ، ص ٢١١ ، وفي ظلال القرآن . لسيد قطب ، ٢٨/١ . النظم الفني للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، ص٤٤-٦٣ . مكتبة الآداب ، الأساس في التفسير ، لسعيد حوّى (ت:١٤٠٩هـ) ٦١/١ دار السلام ـ القاهرة . ط . السادسة ، ١٤٢٤هـ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:٢١) .

إلى آخر قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧) .

وهذا القسم متكفِّلٌ بشأنِ قضايا العقيدةِ ومسائلها .

وآيات هذا الشوط مقسومة على عقدين :

(الأوَّل) من أوّل قول الله ـ عزّوجلّ ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:٢١) .

إلى آخر قوله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة:٣٩) .

فهذه ثمانيَ عشرةَ آيةٍ في دعوة النّاس كافّة إلى الإسلام .

وجاءت فيها قصّة سيدنا آدم عليه السلام بعد أن أنكر عليهم الكفر بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وقد كانوا أمواتًا ، فأحياهم ، ثُمَّ يميتهم ، ثُم يحييهم ، ثُمَّ إليه يرجعون ، وكلُّ هذا مبنيٌّ على «الإيمان بالغيب» الذي هو عمود الأمر في السُّورة على ما أذهب إليْه ، ومبّينا لهم فِي قصّة سيدنا آدم عليه السلام أنّه فطر على الإيمان وأنَّ الشّيطان استكبر ، وكان من الكافرين ، فهو لن يرضَى إلا أن يكونوا مثله ، ومِن ثَمَّ ختمت آيات هذا العقد بقول الله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة:٣٩) ، ليكونَ في هذا تقريرٌ بالتَّرهيب من الإعراض عمَّا دعا إليه في مفتتح المعقد بالتَّرغيب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة:٢١-٢٢) .

* * *

(والثَّاني) مِن هذا القسم من قوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (البقرة:٤٠) .

إلى آخر قوله تعالَى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧) .

سبع وعشرون ومئة آية فى دعوَى أهل الكتاب خاصَّة إلى ترك باطلهم والدّخول فِي هذا الدّين الحقّ .

والتَّشابه بيْن العَقدين ابتداءً وانتهاءً جدّ واضحٍ ، وجدّ وثيقٍ .

وجاءت دعوة أهل الكتاب إلى الاسلام من بعد دعوة النَّاس كافَّة إلى عبادة ربّهم ـ سُبْحانَه وتَعالَى ـ وهم مِن جملةِ النَّاس تأكيدًا لتلك الدَّعوة ، ولأنَّـهم أحقُّ النّاس بالاستجابة لها والدّخول فيها سراعا :

﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (البقرة:٤١) لأنـهم أعلم النَّاس حينذاك بصدق الدّعوة المحمَّديّة ، وإذا ما آمن أهل الكتاب بالإسلام كان ذلك أدعَى إلى دخول غيرهم فيه أفواجًا ، لذلك بسطت آيات ذلك العقد بسطًا ، وعظم القول

فى أهل الكتاب ونَعَى عليهم كثيرًا من أفاعيلهم وكتمانِهم الحقَّ وهم يعلمون ، وتبديلهم قولاً غير الَّذِي قيل لهم ، وتولّيهم مِن بعد أخذ الميثاق عليهم أن يأخذوا ما آتاهم بقوّة ، ويذكروا ما فيه ، وإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض ، وكفرهم بالكتاب المصدّق لما معهم وإعلانهم الإيمان بما أنزل عليهم وكفرهم بما وراء ذلك ، ونبذهم كتاب الله ﷻ وراء ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون ، وودّهم ردّ المسلِمين عن دينهم ، وإنكارهم تحويل القبلة ، وكتمانهم ما أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ مِن البيّنات والهدَى مِن بعدِ ما بيَّنه للنَّاس فى الكتاب ، فكان هذا البسط اعتناءً بشأن دعوتِهم إلى الإسلامِ .

* * *

والقسم الثَّانِي مِن السّورة من الآية : (١٦٨-٢٨٣)

من أوّل قول الله ـ سبْحانَه وَتعَالى ـ : **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾** (البقرة:١٦٨) .

إلى آخر قوله ﷻ : **﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾** (البقرة:٢٨٣).

فهذه خمسَ عشرة ومئة آية (١١٥ آية) معقودةٌ لبيان أحكام الشّريعة لتكتملَ بها صورة الإسلام وهديه عقيدة وشريعة ، فإن السُّورة سنام القرآن الكريم ، واستهلال هذا الشّطر بدعوة النّاس كافَّة إلى أن يأكلوا ممّا فى الأرض حلالاً طيّبًا ولا يتّبعوا خطوات الشَّيطان ، فهو عدوّهم المبين يتناغَى مع ما عقدت له آياته مِن بيان أحكام الشَّريعة وأبرزها أحكام المطعم ؛ فطيب المطعم شرطٌ فِي قبول الأعمال ، فكلّ جسم نبت من حرامٍ مآله إلى النَّار ،

لا تقبل صلاته ، وصيامه ، وزكاته ، وحجه ، وجهاده ، إلى آخر تلك الشَّرائع الَّتى فصّلتها آيات هذا المعقد .

« التَّوحيد رأس الجانب العقدِيّ

« وطيب المطعم رأس الجانب التَّشريعيّ

فكانت الدَّعوة في مستهلّ القسم الأوّل العقديّ للنَّاس كافَّةً .

وكانت الدّعوة فِي مستهلّ القسم الآخر التّشريعِيّ للنَّاس كافَّة

ثُمَّ توالت تشريعات ما أحل الله ﷻ من الطّعام ، ثُمَّ بيان البِرِّ وصوره ، وأحكام القصاص ليحقّق الأمن من بعد طيب المطعم ، وأحكام الصّيام ، والجهاد ، والحجّ ، والإنفاق ، والقتال فى الأشهر الحرم ، والخمر ، والميسر ، وأحكام الأسرة ، وأحكام المعاملات الماليّة من صدقةٍ وربا وقرضٍ ورهنٍ ، فختم آيات هذا القسم بأطول آية : (آية المداينة) فآية الرّهن مؤكدًا الدّعوة إلى الأمانة والقيام بحقّ الشَّهادة .

ثمّ تأتِي الخاتمة فِي ثلاث آيات (٢٨٤-٢٨٦):

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(البقرة:٢٨٤-٢٨٦) .

فهـذه الثلاث مقرَّرة أنَّ الكـونَ يكون كلَّه لله ـ سُبْحانَه وتَعَالَى ـ وحده ، وأنَّ ما فِي الأنفس يحاسب عليه ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب مِن يشاء ، فكأنَّ فى هذه تعقيبًا على القسمين معا العقديّ والتّشريعيّ ، وفى الوقت نفسِه توطئة لذكر الّذين قاموا بحقٍّ هذين القسمين ، فكان هذا ردَّ عجز السّورة على صدرها الّذى يبين صفات المتقين ، فتلاقى حديثه عن المؤمنين فى مقطعها مع حديثه عن المتقين فى مطلعها .

حين يبلغُ المتدبّر الخاتمة المنعطفة على الفاتحة ، ويبدأ في التّدبر كرّة أخرى منْ أوّل السُّورةِ ، فإنّه في هذه الكرّة ليس هو في الأُولى ، هوالتَّالية يحمل من الزَّاد الإيمانيّ والمعرفيّ والخبرة ما لم يكن له في الأولَى ، وحينئذٍ يكون مؤهلاً لأن يتلقّى مِن العطاءات ما لم يكن مؤهلاً له فِي الأولَى ، وبهذا يتكاثر العطاء مِن معاني الهدَى في فؤادِه ، ممَّا يجعله مؤهلاً لأن يتصاعَد في مقامات القربِ الأقدسِ ومدارج الأنس الأنفس إلى المقام الأعلى ، وهكذا حتى يبلغ مقام الصّديقية .

تبين لنا ممّا مضَى بناء السُّورة مِن معاقدَ وفصولٍ متلاحمةٍ ، هَيْمَن عليها جميعاً مقصدٌ رئيسٌ سَرَى فى جميع معاقد السُّورة وآياتها .

إنَّ تقسيم السُّورة إلى حلقات تجمع فِي محيطها مجموع المعانِي الجزئيّة ، الَّتي تشكِّل معنى كلِّياً هو أساسٌ لاستبصار العلاقات بيْن معانِي السُّورة على نحو محكم ، ذلك أنَّ استبصارَ علاقة المعنى الجزئي بغيره فِي محيط حلقة من حلقات المعنَى القرآنيّ للسُّورة أقرب إدراكاً وأيسر تحصيلاً مِن استبصار علاقته بمعنى جزئيّ فى محيط حلقة أخرَى مِن حلقات السُّورة ، لأنَّ تلك العلاقة ذات خفاءٍ ، وهو خفاءٌ لا علاقةَ له بوثاقةِ الاعتلاقِ أو وَهَنِهِ ، فقد يكون وجه الاعتلاقِ خفِيًا إلاَّ أنـَّه جدُّ وثيقٍ .

واستبصار السُّورة آية آية دون تقسيمها إلى فصولٍ ومعاقدَ كلّيّةٍ يضعف قدرة المستبصِرِ على إدراك معالم المقصود والغرض الأعظم العمدة المهيمن على السّورة ، فإنّ انشغالَه بتلاحم الآية بالآية التى بعدها لا يعنيه على مد بصره إلى أفق أبعد ، لكن استبصار التلاحم بين آيات المعقد الواحد أقرب وأمكن ، ثم من بعده استبصار علاقات المعاقد بعضها ببعض وخضوعها لسلطان غرض رئيس ومقصود أعظم .

* * *

مقاربة تأويلية في شأنِ معاقد سورة «يوسف»

وننظر في بناء سورة «يوسف» الممثّلة نوعًا من السّور القائمة على موضوع واحد ، وهي حاملة من معاني الهدى في أبواب العقيدة والشّريعة ومكارم الأخلاق ما يجعلها جديرةً بأن تفرد بسورة ، فلو لم تكنْ حاملةً ما تفتقر إليْه الأمّة من ذلك في الوجود الفرديّ لأبنائها ، والوجود الجمعيّ لقبائلها لما كانت بالجديرةِ لأن تختصّ هذه القصّة بسورةٍ ولا يكون في السُّورة غيرها ، وتختص بها سورة لا يكون في سورة أخرَى شيءٌ من هذه القصّة ، وإذا ما كانتْ سورة «نوح» قد اختصَّت بقصّة سيّدنا «نوح» عليه السلام ، لم يذكر فيها غيرها ، فإنَّ قصَّته عليْه السَّلام قد ذكرت في سور أخر .

وهذا يهدِي إلى أهمّيةِ استقراءِ معانِي الهدَى في سورة «يوسف» وتصنيفها ، وإرجاعها إلى أبوابها عقيدةً وشريعةً ومكارمَ أخلاقٍ في السُّور الأخَر ، مع الإبانةِ عن وجهِ الدَّلالة عليها في سورة «يوسف» ومستويات هذه الدّلالة .

ذلك بعض ما يمكن أن يَفِدَ إلى الفؤادِ على عَجَلٍ مِن النَّظرِ في حكمة اختصاص هذه القصّة بسورة ، واختصاص السُّورة بها ، وهي الَّتي كان يمكن أن تدرج مع قصص الأنبياءِ في السّورة السَّابقة عليها : سورة هود عليه السلام.

وهذه السُّورة تحكي ما يمكن أن يتلقَّاه المَرْء مِن الأذَى مِن ذوي رحمِه الذين هم الأولى بأن يكونوا القوَّامين عليه رعايةً وحمايةً كما تقضِي به الرّحم، ولكنّه سلطان الحِقد والحسد من جهةٍ، وأثر إظهار المفاضلة بين الأبناءِ وإن كان لمقتضٍ، فلمثل هذا مِن التَّأثير على ما بيْن ذوي الأرحام ما لا يطاق، وتحكِي القصّة أيضًا ما يكون من عناية الله ـ تعالى ـ لعبادِه، وانبثاق النُّور مِن الظُّلمات كيما يقوم في أفئدةِ الدُّعاةِ إلى نصرةِ الحقِّ، وصناعة الخير مِن الثّقة فِي تأييد الله ـ تعالى ـ لِمَن اتَّقَى وأَتْقَنَ.

وقد جاء في فاتحة السُّورة:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف:٢-٣).

وفي ختامها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف:١١١).

فدلَّ افتتاحها واختتامها على ما سِيقت السُّورة لتبيينِه وتمكينِه فِي الأفئدة، لتسكن إلَى تأييدِ الله ﷻ فِي دعوتِها إلى تبيين الحقِّ ونصرتِه، وتبيين الخير وصناعته ونشره إيمانًا واحتسابًا.

وقد كانت الجملة الجامعة ما سيقت له السّورة قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ (يوسف:٢١) فهي كمثل ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة:٣) فِي

سورة «البقرة»، أو ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ (المائدة:١) في سورة (المائدة) أو ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ (الكهف:١٦) في سورة «الكهف»[1] ....

وإذا ما كان الله ﷻ غالبًا على أمره ، فإنّ كتابه المنزّل على سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ غالبٌ على كلٍّ ما أنزل من كتب على رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ[2] .

وكذلك دعاة الله ـ تعالى ـ إيمانًا واحتسابًا إلى ما يرضيه أمرهم غالبٌ على أمر غيرهم ، فغلبة الحق والخير وما إليهما متحقّقةٌ في جميع الأمور ظاهرها وخفيها ، فالسّورة معقودةٌ لتبيين ذلك وتحقيقِه وتقريره .

---

(١) لك أن تنظر علاقة هذه الجملة الأم ، وفاتحة سورة يوسف ، وخاتمتها بآخر سورة «هود» :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۝ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (هود:١٢٠-١٢٣) فالعلاقة بينها بالغة الوثاقة والمتانة .

(٢) هذا يهديك إلى شيْءٍ من حكمة ذكر شأن القرآن وإنزاله على سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ في فاتحة السورة وخاتمتها ، فهيمنة القرآن على سائر الكتب المنزلة جماع غلبة أمر الله ـ تعالى ـ وأمر أهله : أهل القرآن على أمر من عاداهم وعلى أمر من عداهم ، فهم الغالبون .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (المائدة:٥٦) .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصافات:١٧١-١٧٣) .

وهذا تراه مكنوزًا في الآية الأخيرة مِن سورة «يوسف» : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف: ١١١) .

إجمالُ القول في بناء السورة من مقدمة ومعقدين وخاتمة :

المقدمة : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

(يوسف: ١-٣)

المعقد الأوّل صوّر ما كان في مقتبل أمر «يوسف» عليه السلام وهو صغير في إخوته .

والمعقد الآخر ما كان في فتوَّته ، وهو في بيْت سيده ، ومختتمِ أمرِه .

كلّ مَعقِدٍ تكوّن من ثلاث مراحلَ :

« مرحلة التَّآمر .

« ومرحلة الابتلاء .

« ومرحلة الاجتباء .

أولاً : في المعقد الأول ـ تصوير ما كان في مقتبل أمر «يوسف» عليه السلام ، وهو صغير في إخوته (الآيات : ٧-٢٢)

تجده من ثلاثِ مراحل :

المرحلة الأولى : تآمر أخوتِه ، وتمكنِهم من أن يأخذوه ، وأن يلقوا به في الجب (الآيات : ٧-١٨)

والمرحلة الثَّانية : مرحلة الابتلاء والأسْر والسّجن ، هو ما كان في الجُبِّ ، والتقاطِه وبيعه بثمن بخسٍ (الآيات : ١٨-٢٠)

والمرحلة الثَّالثة : مرحلة الاجتباء : شراء عزيز مصر ، ونزوله منه منزلة عليَّة (الآيات : ٢١-٢٢)

وتأمل ختام هذا المعقد بقوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٢١-٢٢) .

ثانيًا : في المعقد الآخر : تصوير ما كان في فتوته ، وهو في بيْت سيده ، ومختتمِ أمرِه ، وهو الأرحب فسطاطًا : (تسع وسبعون آية) فهو عظم السُّورة (الآيات : ٢٣-١٠١) ، وهو ذو مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : مرحلة التَّآمر : تآمر امرأة العزيز والنّسوة (تسع آيات : الآيات : ٢٣-٣١)

والمرحلة الثَّانية : مرحلة الابتلاء : السّجنُ (إحدى عشر آية : الآيات : ٣٢- ٤٢) .

والمرحلة الثَّالثة : مرحلة الاجتباء ، براءته ، وخروجه واعتلاؤه منزلاً رفيعًا في قصر العزيز ، واستقدام أبويه ، وإخوته ، وعلو شأنه . (تسع وخمسون آية : الآيات : ٤٣-١٠١)

وقد ختم هذا المعقد بقوله ﷺ : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:١٠١) .

وعلاقته بخاتمة المعقد الأوّل جدّ ظاهرة ، وعلاقة الختمين بالجملة الّتي قامت عليها السُّورة ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ (يوسف:٢١) ، كذلك جدّ فتيّةٍ وظاهرة .

هذا النّسق في بناءِ كلّ معقِدٍ هو ما أسميّه « البناء التّأليفيّ» ، فهو نسقٌ بيْن مكونات «المعقِد» الواحد .

وليس يخفَى أنّ ما يربْط بيْن مكونات «المعقِد» (الفصل) ليس بعلاقةٍ إعرابية ، وليس بمعنى جزئِيّ تحملُه جملة نحويّة ، بل هو علاقةٌ معنويّة (غرض جزئيّ) تدور عليها مكونات «الْمَعقِد» (الفصل) كلّه .

أمَّا النَّسق بيْن معقديْ السُّورة ، فهو داخلٌ في ما أسمّيه «البناء التَّركيبيّ» ، فالتَّركيبيّ ينطوِي فِيه النَّظم والتَّرتيب والتَّأليف ، فهو الفسطاط الأرحَب .

وإذا ما نظرت إلى ما بيْن المعقدَين مِن ترتيبٍ وتأليف ألفيت أنّ ما كان من شأنه ، وهو صغيرٌ مقدمٌ على ما كان من شأنِه وهو فتَى ، وأنّ البلاءَ الَّذي جاءه مِن أخوته في ظاهرِه أنـّه أنكَى ، ممًّا كان وهو فتًى ، والحقُّ أنَّ الّذي جاءه وهو في بيت العزيز أشدّ لتوفّر عوامل قوّة الابتلاء ، فحاجته إلى الصّبر والمصابرة والمرابطة فِي البلاء الأخير أشدّ .

لما كان ابتلاء سيّدنا يوسف ﷺ مِن ذوِي رحمه أيسر عليه من ابتلائه من غيرهم ، كان هذا وجهًا آخر لتقديم ما كان في باكرعمره على ما كان بعده فوق ما يقتضِيه التَّقدّم الزَّمنيّ ، وهو مقتضٍ غير مضطَّردٍ .

وإذا نظرت رأيت أنَّ المعقد الآخر استفتح بأمرٍ قد كان من بعد أن مضَى مِن شأن سيّدنا «يوسف» ﷺ في بيت العزيز المدلول عليه إيجازًا ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٢٢) .

لو شئت أن تستعرض الأحداث الَّتِي وقعت حتَّى كان الَّذي أوجزه ختام المعقد الأوّل لكنت بحاجة إلى بسيط زمان ، وفتِيّ جهد .

تأمَّل قوله تعالى : ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ وإسناد الفعل إلى سيدنا يوسف ﷺ ، وكأنَّه كان يسعَى هو إلى بلوغ ذلك ، وهذا مهمٌّ في تكوين الرِّجال وصناعتهم وتأمّل الإعراب بقوله (أشدّ) وإضافته إلى ضمير سيدنا يوسف ﷺ .

تأمُّل هذا يسوق إلى فؤادِك ما أنت محتاجٌ إليه فِي إقامةِ منهاجٍ تربية الرّجال وصناعتهم ؟

وكذلك تأمّلْ قوله تعالى ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ واصطفاء الإعراب بالفعل (آتى) وإسناده الفعل إلى ضمير العظمة والجلالة ، ثمَّ التَنكير في «حكمًا وعلمًا» الدَّال على التَّكثير والتَّفخيم ، والجمع بينهما ، وتقديم «الحكم» على «العلم» تقديمًا يهدِي إلى عظيم منزل «الحكم» ، وأن قليلاً مِن «العلم» المحقّق الموثّق مع كثيرٍ من «الحكم» الفتيّ النَّافذ خيرٌ من علمٍ متكاثرٍ ، وحكمٍ قليلٍ ، فمن غلب علمه عقلَه ضلّ ومن غَلب عقله علمَه عظم شأُنه في ذاتِهِ وأثرِهِ .

ثمّ تأمّل الإعراب عَن السّنة الإلهيّة الَّتِي تفعِم كلّ فؤادٍ سليمٍ بالرّغبة في أن يكونَ مِن المحسنين ؛ ليكونَ له شيءٌ ممّا كان لسيدنا «يوسف» ﷺ .

لو أنَّ كلّ مَن قام لله ـ تعالى ـ وأقيم في بلاء ، واستحضر هذه الآية ، واجتهد فِي تحقيق مقتضيات الابتلاء ، ألا تراه يستعذب التَّشوّف إلى أن يكونَ له مِن الله ـ تعالى ـ شيءٌ ممّا كان لسيدنا «يوسف» ﷺ .

كلّ من قام لله ـ تعالى ـ في أمرٍ نفيعٍ أقامه الله ـ تعالى ـ في ابتلاءٍ يفَضِي إلى احتباءٍ .

علاقة ختام أحداث هذا المعقد بما كان في فاتحته من قول الله ـ سبْحانَه وتَعالَى ـ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (يوسف:٦) بالغة الفتاء والجلاء .

لو شئت أن تفصّل ما أجملته خاتمة هذا المعقد لرأيته أمرًا لا يمكن أن يحاط بتفصيله ، وتلك بلاغة الطَّيّ الّتي هي أنجع في الأفئدة .

واستفتاح المعقد الآخر استفتاح مصوّر عظيم البلاء الَّذي حلَّ بسيدنا « يوسف » ـ عليْهِ السّلام ـ ، وجاء البيان عنه على نحوٍ يصوّر ما كان عليْه سيّدنا « يوسف » عليه السلام مِن الورع ، والتَّحفّظ ، والمصابرة ، فجاء قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (يوسف:٢٣) اصطفى الفعل « راود » الدَّال على الذَّهاب والمجيءِ والمتابعة والإصرارِ والتَّحايل .

كلّ ذلك مسندًا إلى امرأة العزيز المعبر عنها بقوله جلَّ جلاله : ﴿ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ فدلَّك على عظيم تمكّنها وتسلُّطها ، ممَّا يهديك إلى عظيم ثباتِه وتمكّنه فِي الورع والخشية من الله ـ سبْحانَه وتَعالَى .

يقول شيْخنا في بيان مقتضِي تعريف المسند إليه باسم الموصول وصلته في هذه الآية : « والغرض المسوق له الكلام هو تقرير نزاهة سيدنا « يوسف » عليه السلام ، وذكر امرأة العزيز بهذه الصّلة المشيرة إلى كونه في بيتها ممّا يقرّر هذا الغرض ، فقد راودته امرأة هو في بيتها ، وهي متمكّنة منه في كلّ أوقاته من ليلٍ ونهارٍ ، وتلحّ وتراود ، ولكنَّه عليه السلام استعصم ، وهذه غاية النَّزاهة عن الفحشاء ، ولو قال : وراودته زليخا أو امرأة العزيز لم تجد شيئًا مِن ذلك ، ثُمَّ إنَّ فِي ذكرِ الصِّلة هنا أيضًا استهجانَ التَّصريح بالاسم المنسوب إليه هذا الفعل »[1] .

---

(١) خصائص التراكيب ، دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، ص ٢٣٠ ، مكتبة وهبة . القاهرة . ط . رابعة .

التّصريح بالاسم (العلم) إذا لم يكن فيه معنًى متحققٌ في المسمّى بِه ، فالتَّصريح به حينئذٍ إلى الذَّات ، لا إلى شيْءٍ غيرها ، والأمر في هذه الجملة لا تعلّق له بذاتها ، بل بما لها مِن التمكّن والتَّسلط الّذي قد يكون فيه مندوحةٌ للاستجابةِ لِما فيه رغبت ، فلا يشتدّ النَّكير على مَن يخضع له ، وكلّ هذا فيه إبلاغٌ في تصوير عظيم حفظِ الله ـ سبْحانَه وتَعالَى ـ لعبدِه سيّدنا «يوسف» الطَّيْلاً .

وهذا يرغّبك فِي أن تكونَ بالله ـ تعالى ـ لا بنفسِك ، فإنّما أنت عبده ، فاجتهد فِي الوفاءِ بحقّ العبوديَّة يكنْ لك منه عَزَّ وَعَلا فوق ما تستحقُّه .

روَى البخاريّ فِي كتاب «التَّوحيد» ومسلم في كتاب «الذّكر والدّعاء والتّوبة» مِنْ صَحيحِهِما بسنده عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ ـ سبْحانَه وتَعالَى ـ قَالَ : « إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّى ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ، وَإِذَا أَتَانِى مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

كذلك يكشف لك البيان باسم الموصول وصلته ما كانت فيه امرأة العزيز مِن عناءِ الرّغبة فيه ، فأخرجها عَن طبعِها امرأةً ، وعَن طبعِها امرأة العزيز ، فما يكون للمرأة عامَّة أن تفعلَ لِما لها من حياطة «الحياء» و«المروءة» ، فالشَّأن في أيِّ امرأةٍ أن تكونَ مطلوبةً لا طالبه ، فكيف ، وهي امرأة العزيز ، وكيف وهو فتاها ، وتحت سلطانها .

كذلك يستفتح المعقد الأخير بما يهدِي إلى عظيم البلاء الّذِي هو فيه في هذه الحقبة من عمره .

ويأتي قوله سبْحانَه وتَعالَى : ﴿ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ مصورًا لك قوّة المنازعة ، والإباء والاعتصام مِن أن يكونَ منه أدنَى التفاتٍ إلى ما يدعَى إليه تحت سطوة الإغراء والتَّوعُّد .

ثمّ قوله جلَّ جلالُه : ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ (يوسف:٢٣) وما فيه من إحكام الابتلاء والإصرار على بلوغ الطّلبة ، وقد قابل ذلك كلَّه بهذه الكلمة المنيرة كلّ ما اصطنعت وتعمّلت : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (يوسف:٢٣) ، تلك كلمةٌ هي النّور المشرق على طريق الحقّ ، وهي السّيفُ القطاع طريق الغواية على الشّيطان وحِزبه .

وتستمِرُّ آيات هذا المعقد كاشفةً عَن الصّراع بيْن الحقّ والباطلِ والخير والشّر ، وانتصار الحقّ والخير ، وانكسار الباطل والشّرّ ؛ ليكونَ لكلّ متدبّرٍ مِن هذه القصّة ما هو في أشدِّ الافتقار إلى استحصادِه واستطعامِه مِن معانِي الهدَى المنيرةِ سبيلَه إلى ربّه سبْحانَه وتَعالَى .

ولك أن تلتفتَ إلى المراودةِ الَّتي كانت مِن إخوتِه لأبيهم ليبعث معهم يوسف ـ عليْه السّلام ـ فيحقّقوا ما قام في أنفسِهم مِن الخلاصِ منه .

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (يوسف:١١-١٤) .

ومن هنا يمكنك أن تجعلَ فاتحةَ المعقدِ الثّانِي معطوفةً على فاتحة المعقد الأوّل مِن قبيل «عطف القصَّة على القصّة» ، وهذا العطفُ هو ضربٌ مِن ضروب النَّسق التَّشجيريّ للنّصّ ، وهو كثير الحضورِ في منهاج بناء السورة ، بل في بناء السياق الترتيلي ، فهنالك سورٌ هي ناظرةٌ إلى سورةٍ أخرَى بعيدة

عنها ، كمثل نظر سورة «الحجّ» إلى سورة «النّساء» على الرّغم من قوة العلاقة بين سورة «الحجّ» وسورة «الأنبياء»[1] .

وهذا الضّرب من العطف ينفع كثيرًا فيما لا تظهر فيه العلاقة بين الآية وسابقتها ، فحينذاك علينا أن ننظرَ في موقع الآية المعطوفة ، أهي جزءٌ مِن غرضٍ سابقٍ أمْ هِي فاتحةُ غرضٍ لاحقٍ ، فتحديد فواتح الأغراض في معاقد السّورة معينٌ على حسن ضبطِ حركةِ العقل في تلقيه المعنَى ، وبصره مسيرة المعنى في السّياق التّرتيليّ للسُّورة .

القراءة التّأويليّة للسّورة قراءةٌ استصحابية ، أي تستصحب كلَّ ما تستجنيه من معاني الهدَى عبرَ سَفرها زادًا لحسن تأويل ماهي قادمةٌ إليْه ، هي لا تخلفه رغبةً عنه أو انشغالا بما هي قادمةٌ إليْه ليستجمع لها في الفؤاد عند الخاتمةِ عطاءاتِ السّورةِ كلّها .

* * *

مقاربة تأويليّة في معاقد سورة النّحل

لموضوع سورةِ «النّحلِ» علاقة وثقى بسورة «النّملِ» وسورة «العنكبوت» ، فالثلاثةُ قائمة بشأن أمرِ الدَّعوة إلى الله ـ عَزّ وجلّ ـ ممّا يجعلها سورًا متكاملة متصاعدة ، فما في سورة «النّمل» يُبنَى على ما في سورة «النّحل» ، وما في سورة «العنكبوت» يُبنى على ما في سورة «النّمل» .

---

(١) ينظر كتاب : مفاتيح الغيب للرازي في تأويله فاتحة سورة «النساء» ٩/٤٧٦ ، وينظر كتاب : البرهان فى تناسب سور القرآن. ابن الزبير في فاتحة سورة «الحج» ، ص٢٥٦.

ختمت سورة «النّحل» بقول الله ـ سبْحانَه وتَعالَى ـ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٧-١٢٨) .

وختمت سورة «النَّمل» بقول الله ـ جلَّ جلاله ـ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل:٨٩-٩٣) .

وختمت سورة «العنكبوت» بقول الله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩) .

والعلاقة بين هذه الخواتم الّتي هي تخليص المعاني الرئيسة في سورها بالغة الظّهور .

سورة «النّحل» قامت لبيان منهاج الدّعوة إلى الله ﷻ : الدَّعوة إلى وحدانيتِه وكمال علمِه وقدرتِه ، والاستدلال على ذلك بنعمائِه وآلائه ، فهو قائم على منهاج بلاغة الإقناعِ والمحاجة ، والاستدلال بما هو قائمٌ مشهودٌ يرغِم أنفَ كلِّ ذِي بَصَرٍ .

وسورة «النّمل» قامتْ لبيان أدواتِ الدّاعية وأخلاقِه القائم لتحقيق المنهجِ الّذي رسمت معالمه سورة «النّحل» ، ورأس هذه الأدوات «العلم» و«الحكمة» معًا ، وهذا ما تراه قائمًا في السّورة ظاهرًا . و«العلم» و«الحكمة» مجتمعان في شأن «النّملة» :

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل:١٨) .

ولمْ يجتمعا في شأن «الهدهد» ، لم يكن له من الحكمة ما كان للنّملة ، وإن كان له من العلم نصِيبٌ وافرٌ :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل:٢٢) .

وسورة «العنكبوت» قامت لبيان ما سيلقَى الدّاعيـة من البـلاء والفتـنة ، وما عليْه مِن الصَّبر الجميل بأنواعه الثّلاثة : الصَّبر على الطَّاعة والزُّلفَى ، والصَّبر عن المعصية ، والصَّبر على البلاءِ والفتنةِ وما يجب أن يكونَ معتصمًا ، وما يجب أن يتحاجزَ عن اتخاذه موئلاً :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(العنكبوت:٢-٣) .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤٢ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤١-٤٣) [1].

---

(١) رتبت السّور الثّلاث على نهج التّصاعد ترتيلاً ونزولا ، فسورة النّحل أسبق نزولا وترتيلاً من سورة «النّمل» وسورة «النّمل» أسبق نزولاً وترتيلاً من سورة «العنكبوت» .

وهذا يحملني إلى أن أفترضَ أنَّ علينا أن ننظر في السّور القائمة بين سورة «النّحل» وسورة «النّمل» في سياق التّنزيل أولاً إذا أمكننا التّحقّق منه ، ثمَّ في سياق ==

والقصد هنا إلى بيان ما قامت عليْه سورة «النّحل» مِن معاقد نسقتْ على نحو اقتضاه موضوعها ومقصودها الأعظم :

سُورة «النَّحل» ترسم منهاج الدَّعوة إلى وحدانية الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة ، وترسُم منهاج الجدال بالتي هي أحسن .

مقصُودها الأعظم هو بيان منهاج الدَّعوة إلى وحدانية الله ﷻ وكمال قدرته استدلالا وامتنانًا بنعمائه وآلائه .

* * *

سُورةُ «النّحل» سُورةٌ ذاتُ خصوصيَّة في تبيانِ مِنهاجِ الدَّعوة إلى الله ـ تعالى ـ ومجادلة الآخر بالّتي هِي أحسنُ ، مِن خلال بناء الدَّلائل والأدلة على وحدانية الله ﷻ وكمال علمِه وقدرتِه .

ومِن خلال نقضِ شبهات الآخر نَقضًا محيطًا بصورٍ مثلى للجدال بالتي هي أحسن ، فإذا ما دَرَسَ الدَّاعيةُ مِنهاج السُّورة في ذلك ، وهو مِنهاجٌ يَظهر لطيفًا قويًّا في نسقِ بناءِ السُّورة ، فإنّه يمتلك القدرةَ علَى حسنِ الدَّعوة إلى الله ﷻ ومجادلةِ أهلِ الشُّبهاتِ بالّتِي هِيَ أحسن .

تكونت السّورة مِن ثلاثةِ معاقدَ ، ومقدّمة وخاتمة .

كلُّ معقدٍ مكوّنٌ مِن النّجوم ذات الجملةِ من الآياتِ ، ولكلّ معقدٍ غرضٌ مرحليّ يجرِي على لاحبِ مساقٍ مديدٍ إلى مقصدٍ محوريّ تقوم عليْه السورة

=التَّرتيل ، لنرَى ألهذه السُّور علاقة تفصيليّة تبيينيّة تقريريّة بسورة «النّحل» وعلاقة تمهيديّة بسورة «النَّمل» ، والأمر كمثله في ما بين سورة «النّمل» وسورة «العنكبوت» ؟

الأمر نحن بحاجةٍ إلى القيامِ له متَّخذين ما يقتضيه مِن صفاءِ قصدٍ وفتوةِ عزمٍ ، وإتقانِ صنعٍ ، وفاءً بحقِّ النَّصح لكتاب الله ـ تعالى ـ وللعلم وأهله وطلبته .

كلُّها (المقصود الأعظم) ، جامع للمقاصدِ (الأغراض) الْمَرْحَلِيّة الّتي تقوم عليْه المعاقِد ، فهو بمثابةِ روحِ السُّورة السَّارِي في كلٍّ مكوّنٍ مِن مكوناتها .

* * *

البيان الجُمَليّ لمعاقد سورة النَّحل :

سورة (النَّحل) ذات معاقد ثلاثةٍ تسبقها مقدّمةٌ ذات براعةٍ استهلاليّة تنبئ في لطفٍ عن المقصود الأعظم للسُّورة ، وتعقب تلك المعاقد الثَّلاثة خاتمةٌ تكرِّس البيانَ عن المقصود الأعظم للسّورة .

أمَّا ما بنيت عليه مِن المعاقد الَّتي تسبقها مقدّمة ، وتتلوها خاتمة ، فإنَّك تراها على النَّحو التّالي :

« **مقدمة سورة النَّحل** قائمة من الآيتين الأوليين (١-٢) :

﴿ **أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ** ﴾ (النحل:١-٢) .

« **والمعقد الأوّل** (الآيات : ٣-٢٢)

من أوّل قوله ﷻ : ﴿ **خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ** ﴾ (النحل:٣) إلى آخر قوله تعالى ﴿ **إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ** ﴾

(النحل:٢٢) .

وهو للامتنان بالنّعم والآلاء تدليلاً بها على الوحدانيّة وإحاطة العلم وكمال القدرة .

« **والمعقد الثّاني** (٢٢- ٦٤) :

مِن أوّل قول الله ﷻ : ﴿ **فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ** ﴾ (النحل:٢٢) إلى ختام قوله ﷻ : ﴿ **وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (النحل:٦٤) .

وهذا المعقد قائمٌ لبيانِ اعتراضاتِ المعاندين وشبهاتهم والرَّد عليها وتقويضها .

« **والمعقد الثّالث :** (الآيــات : ٦٥-٨٩)

من أوّل قول الله ﷻ : ﴿ **وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** ﴾ (النحل:٦٥) إلى ختام قول الله ﷻ :

﴿ **وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ (النحل:٨٩) .

وهو معقدٌ قائمٌ لمثلِ ما عقد له المعقد الأوّل ، ولكن بطريقة أخرَى تصريفًا للامتنان والتَّدليل .

« **والخاتمة وفاصلة السُّورة** (الآيات : ٩٠- ١٢٨)

مِن أوّل قوله ﷻ : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النحل:٩٠) إلى آخر السورة :

﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ (النحل:١٢٨) .

وهي معقودةٌ لبيان مكارم الأخلاق وتَكْرِيسِ بيانِ منهاج الدّعوة إلى الله ﷻ ، والوعد بالعون والمعيّة لمن التزم وأخلص .

وهذه الخاتمة شريجان :

«الشّريج الأول (الآيات : ٩٠-١٢٤) وهو قائمٌ للتعقيب على المعاقد الثّلاثة ، ويختص ببيان مكارم الأخلاق الّتي على الدّاعية أن يتخلّق بها .

«والشّريج الآخر (الآيات : ١٢٥-١٢٨) وهو قائمٌ بتكثيف أصولِ منهاج الدّعوة إلى الله ﷻ ، وجزاء من أحسن اتخاذه ذلك المنهج .

هذا بيانٌ وجيزٌ يخلّص محاورَ القولِ في ما قامت عليه سورة «النّحل» من معاقد رتّبت على نسقٍ خاصٍ كان لكلٍّ معقدٍ غرضه المرحلي ، وكانت الأغراض الثلاثة خاصة للأمر الكلي «المقصود الأعظم» للسّورة كلّها .

ودونك البيان التّفصيليّ لبناء السّورة وترتيب معاقدها ، وما بينها من تآخٍ وظيفيّ ، وهو بيانٌ مَعنِيٌّ ببيانِ التّآخي بيْن معاقد السورة وفقًا للغرضِ والمقصدِ الرّئيسِ الأعظمِ للسُّورة المساقِ له بيانها .

* * *

البَيان التفصِيليّ للبناء التّركيبيّ لسورة «النّحل»

قلت قبل : المقصود الأعظم لسورة «النحل» متمثلٌ في بيان منهاج الدّعوة إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ وتقرير إحاطةِ علمه ، وكمال قدرته استدلالا وامتنانًا بنعمائه وآلائه .

إنّها سورةُ بيان منهاج الدّعوة في أمرٍ من أمورِها ، وهو أعظمُها وأسّها : توحيدُ الله ﷻ ، فهي ليستْ سورةً معقودةً لبيانِ وحدانيّة الله ـ عزّ وجلّ ـ .

سورة «النّحــل» ليست لتقرير وحدانية الله ﷻ كما في سورة «آل عمرآن» وسورة «الأنعام»، بلْ هِي لبيانِ المنهجِ الأمثلِ في الدَّعوة إليْه تعالى في هذا الأمرِ.

الاستدلال على توحيده تعالى وتقرير إحاطةِ علمِه وكمالِ قُدرتِه هو مجالُ بيانِ المنهاجِ.

هو منهاجٌ يُتّخذُ في غيرِ هذا المجالِ أيضًا، إلاَّ أنَّ الاستدلالَ على ذلك هو رأس الاستدلالِ على أيِّ شيءٍ آخر.

مَن أَحسَنَ الاستدلالَ فِي الدَعوة إِلَيه، فهو مقتدرٌ على الإحسان استدلالاً ودعوةً في ما دون ذلك الأمرِ الأجلِّ، ومِن ثمَّ يمكن لك أن تذهب إِلى أنَّ نوع بلاغة بيان هذه السُّورة ينتمي إلى بلاغة الإقناع والمحاجة.

وقد جاء فيها الأمر بالمجادلة بالّتي هي أحسن، ومَن شاء أن يستحصلَ أصول بلاغة الإقناع والمحاجَّة مِن منهجِ هذه السُّورة أمكنه ذلك.

وتُـمثِّل صفة العلمِ المحيطِ والقدرةِ الكاملة أساسًا لكثيرٍ من صفاتِ الله ﷻ فهما صفتان لازمتان لعُظم صِفات الله ـ تعالى ـ، فكلٌّ تدلّ على ذات الله وصفة العلم أو القدرة مطابقة، وتدلّ معنى العلم أو القدرة وحده تضمنا، وعلى ذات الله ـ تعالى ـ أيضًا تضمُّنا، وعلى عظم صفاته لزومًا، فالدَّلالات الثَّلاث متمثلةً فيهما، وهذا نمطٌ من أنماط بلاغة إيجاز القصر جدّ بديعٍ. وإذا ما كان اسمه تعالى (الله) محيطًا بجميع صفاتِه الحسنى، فإن كل صفة من صفاته تحيط بفيضٍ من صفاتِه بطريقِ اللزوم، ومن هنا تتنوّع سبل الدلالة على صفاتِه الحُسنَى.

فؤادُك اليقظ الرَّشيد مع كلّ صفة من صفاته يَرِدّ في سياقِ ما هو مستحضرٌ الصفات اللازمة لهذه الصفة المذكورة في هذا السّياقِ.

ومن الّذي هو الأظهر الأقرب أنّ النَّعت بكمال إحاطة علمه بالعالمين ، لازم كامل قدرته على كلّ شيْءٍ ، فلن يكونَ على كلّ شيْءٍ قديراً إلا إذا كان عليمًا بكلّ شيْءٍ ، فالقدرة مسْتلزمة للعلم .

وهاتان الصِّفتان : العليم ـ القدير «من أكثر صفات الله ـ تعالى ـ حضورًا في القرآن ، وليس مِن السنة البيانة للقرآن أن يجمع بينهما كما يجمع بين صفة «العليم» وصفة أخرى لقوة ظهور التلازم بين كمال القدرة ، وإحاطتها وكمال العلم وإحاطته .

والآيات والجُمل والكلم الدّالّة دالَّةٌ صريحةً على هذه الثّلاث : «الوحدانيّة» ، و«إحاطة العلم» ، و«كمال القدرة» تقوم في السُّورة من أولِهَا إلى آخرها قيامًا لا يكاد يخفَى على من ألقى السَّمع والبصرَ وهو شهيدٌ ، فالتَّسبيح والتَّنزيـه دالٌّ على ذلك ، فكـلُّ كلمـةٍ في آيـتي الاسـتهلال دالّـة علـى ذلـك دلالـة محكمـة . وكـذلك حدِيثـه عـن الخلـق ، والإنـزال ، والتّسـخير ، كـلّ هـذا يؤكّـد محـاور المقصود الأعظم للسُّورة .

ولو أنـّي ذهبت أستعرض الكـلـم والجـمـل والآيات الَّتي تـهـدِي منطـوقـا أو مفهومًا إلى ذلك لاستعرضت جمهرة السُّورة .

المعجم الكلمي لسورة «النَّحل» يقوم على ثلاثةِ محاور هي «التَّوحيد» «كمال العلم» ، و«كمال القدرة» ، وكلُّ محورٍ ذو شقَّين : شقّ الأسرة اللّغويّة (الاشتقاقيّة) ومحور الأسرة الدّلاليّة ، والكلمات المندرجة في شقّ «الأسرة الدَّلاليَّة» هي الأغلب .

* * *

فقه دَلالة فاتحة السُّورة على مقصودِها :

استهلت السّورة بيانها بقول الله ﷻ : ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾

(النحل:١-٢) .

اسْتهلال كلّ سورةٍ خلا سورة «التوبة : براءة» بقوله تعالَى : (بِسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم) هو استهلالٌ بما مآل المعنى فيه هو الوحدانية ، وجاء طيُّ حذف المتعلّق إفهامًا أنّ كلّ أمرٍ من أمور المرء في حياته إنّما هو باسم الله ـ تعالى ـ وحده ، فلو كان ثَمّ إلهٌ معه لكان مِن حقّ ألوهيته أن يكونَ أمرٌ منْ أمور عابديه باسمه ، فتفرُّده ﷻ بذلِك دالٌّ دَلالةً قاطعةً علَى أنّه هو وحده الإله المعبود بحقّ .

فِي تعليقِ كلّ أمرٍ باسمه هادٍ إلى كمال علمِه وكمالِ قدرتِه أَوَ يستعان على أمرٍ بمَن لا يحيط به علمًا ، وما هوعليه المقتدِر ؟ لا يكون .

وفي اسمه «الرَّحمن» بما يدلّ على عموم رحمتِه دلالة على وحدانيّته ، فهو لا يمكن أن يعمَّ برحمته العالمين إلاَّ إذا كان غيرَ منازعٍ في ذلك ، وإلاَّ إذا كان عليمًا بالعالمين قادرًا عليْهم ، وقادرًا على رحمتِهم ، وكذلك دَلالة اسمه «الرَّحيم» . فيه ما في دَلالة الإعراب باسمه «الرّحمن» مضافًا إليْه الدَّلالة على كمال قدرتِه على اختصاصِ بعضٍ مِن العالمين بخصوصيّة رحمةٍ ، وهو ما يسْتلزم كمالَ علمِه بمَن هم أهلٌ لِتلك الخصوصيَّة بتلك الرَّحمة الخاصّة .

﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

(البقرة:١٠٥) .

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (آل عمران:٧٣-٧٤)[1] .

وجاء البيان بقوله ﷻ : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:١) خبرًا عن حقيقةٍ قدريّة لا قِبَلَ لأحدٍ علَى منعِها ، وذلك من وحدانيتِه وكمال قدرتِه على ما يريد ، وفي إضَافة «الأمر» إلى اسمِه ﴿ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ إفهام وحدانيته ، فالأمر أمره ، وليس لغيرِه منْه شيءٌ .

وفي الإعراب بقوله ﴿ أَتَىٰٓ ﴾ إنباءٌ بأنّ ذلك قد تحققّ ؛ لأنّه هو الّذي قدّر ، وما قدّره هو الواقع لا محالة ، فهو كما وقع تقديرًا سيقع شهودًا يدركه العالمون ، والوقوعان تقديرًا وشهودًا لا محالة متطابقان ، فالإعراب عنه أنه وقع إنّما هوعلى سبيلِ الحقيقةِ .

وفي هذا تعليمٌ ، وفي هذا تعجيزٌ للعالمين أن يكونَ منهم مَن يكذّب ذلك الإنباء ، إنّه كمال الوحدانية وكمال القدرة وكمال العلم وإحاطتِه .

---

(١) استفتاح كل سورة خلا «التوبة» بـ(بسْم الله الرحمن الرحيم) فيه تأسيسٌ للمعنى القرآني في السورة على المعنى المركزي للقرآن كله «توحيد الله تعالى» المستلزم لاتصافه سُبْحانَه وَتَعَالَى بكلِّ صفاتِ الكمال وتنزهه عن كلّ نقصٍ . ذلك عمود الأمر كلّه .
مماّ يحسن بكلّ مستفتحٍ فعلاً من أفعالِه بالبسملة استحضار هذا المعنَى ، ففي هذا الاستحضار ما يجعل الفعل المستفتح به زاكيًا فاعلاً . فحين تكون رطوبة الّلسان بالبسملةِ في استفتاح الفعلِ انعكاسًا لرطوبة الفؤاد بِه يكون ذلك فاعلاً ، وبغير ذلك لا يتحقق للمستفتح بها شيئًا من عطاءات الاستفتاح .
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف:٢-٣) .



استهلالٌ يدهِش السّامع ، يتجاوز توقّعه ، وانتظاره ، ويزداد الدَّهش بهذه المفارقة بَين الخـبر ﴿ أَتَىٰٓ ﴾ والنَّهي ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ، فإنّما يستعجَل ما لم يأت ، فإذا ما أتى ، فكيف يكون استعجاله .

هذه المفارقة تزيد مِن دهشِ القارئِ والسَّامعِ ، فيتلبَّث ، فإذا بِهِ يراجع بصيرته لِتدرك إلى ما يعود هذا الضَّمير الواقع مفعولاً فِي ﴿ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ : أيعود إلى الله ـ تعالى ـ أمْ إلى إتيانِ أمرِه أمْ إلى ثمرةِ إتيانِ أمرِه .

احتمالاتٌ تقوم فِي قلبِ المتبصِّر ، يحاول أن يرقبَ حركةَ المعنى ليبصِرَ الوجه الأعلَى .

وهو في هذا ينظر في اصطفاء الفعل ﴿ أَتَىٰٓ ﴾ دون الفعل «جاء» أو «قُضى» أو «نزل» ونحو ذلك .

في اصطفاء الفعل ﴿ أَتَىٰٓ ﴾ دَلالة على يسْرِ وقوعِه وتمكُّنه ، فالإتيان أيسر مِن المَجِيءِ ، وهذا دالٌّ على أنّه ليس ثَمَّ ما يمنعه ، وأنّه تعالى عليمٌ بإتيانِه زمانًا ومكانًا ، وقديرٌ على إيقاعِه حيث شاءَ وكيف شاءَ ، لأنّه لا شريكَ له .

واختصاص المضاف باسم الجلالة دون اسم الرّبوبية كما في قوله في آخر سورة الحجر : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٨-٩٩) فيه خصوصيَّةٌ للسُّورة ، فهذه السُّورة قد كثر فِيها البيان بالاسم الأعظم (الله) : جاء فيها خمسًا وثمانين مرّة ، بينما جاءَ اسمه (رب) تسعَ عشرةَ مرَّةً فقط ، وجاءَ اسمه (الرحمن) في آيةِ البسملة فقط ، واسمه (الرَّحيم) سبع مرَّاتٍ فقط .

هذا مردّه إلى أنَّ السُّورة معنيَّة بأمر التَّوحيد ، واسم الجلالـة أليق بهذا المعنى ، فمناط منازعة المشركين ليس في توحيد الرّبوبيّة ، بل في توحيد الألوهيَّة ، فمشركي مكَّة يقولون بتوحيد الرّبوبيّة ، وينازعون في توحيد الألوهيَّة ، فكان حريًّا أن يكونَ هو مناط الدّعوةِ ، وأن يكونَ الاصطِفاء للبيان بالاسم الأليقِ بهذا التّوحيدِ .

وتختم الآية الأولَى مِن سورة «النَّحل» بالتَّنزيه المطلقِ لله ـ تعالى ـ : ورأس ما ينزَّه عنه هو أن يكونَ له شريكٌ ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل:١) هذا التَّذييل هو مِن السّنن البيانيّة للقرآن الكريم ، فغير قليلٍ من آياته قد ذيّل بها ، وقد يأتِي على نمطٍ نظميٍّ آخر : في السّورةِ نفسِها الآية الثَّالثة الَّتِي هِي فاتحة المعقِد الأوّل مِن السُّورة جاء قوله ﷻ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل:٣) .

والسُّنة البيانيّة للقرآن أنّه يجمع بين قوله : (سُبْحان) وقوله : (تَعالى) :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنعام:١٠٠) .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (يونس:١٨) .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (القصص:٦٨) .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم:٤٠) .

﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر:٦٥-٦٧) .

وقد يفرد كلاً بالذّكر ، كما رأيت في الآية السّابِقة ، وكما تراه في قَوله ﷻ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١) .

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩١) .

جمع في فاتحة سورة « النّحل » بين نوعين من التّنزيه :

التّنزيه عن الشريك .

والتّنزيه عَن العجز .

التّنزيه بقولِه تعالى : (سبحان) تنزيه عن الشريك . والتنزُّه عن الشريك يلزمه التنزّه عَن أن يكونَ العجز ، فلا تكون الشّراكة إلا عن عجز الاستيفاءِ .

﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾ (طه: ٢٩-٣٥) .

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴾
(الفرقان: ٣٥) .

والتَّنزيه بقولِه تعالى (تعالى) تنزيهٌ عن العجز ، ومن لم يكن عاجزًا كان هو الواحد الأحد الصمد .

﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴾ (فاطر: ٤٤) .

فإذا أفرد دلّ المذكور على ما هو له منطوقًا وعلى التّنزيه الآخر لزومًا ، فمن تنزَّه عَن العجز لا يكون معه أحدٌ ؛ لأنّه غير عاجز ، ومن تنزّه عن الشَّريك لزمه أن يتنزّه عن العجز ، وإلاّ كان مفتقرًا إلى شريكٍ .

فقوله : (سُبْحان) و(تَعالَى) إذا ما اجتمعا ذِكْرًا افترقا معنًى ، وإذا افترقا ذِكرًا اجتمعا معنًى .

المعقد الأول : التّدليل بالنّعم على الوحدانيّة والقدرة .

يتكوّن هذا المعقد من الآيات الّتي تبدأ بقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل:٣) .

وينتهي بقوله ﷻ : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (النحل:٢٢) .

آيات هذا المعقد تقوم بتعداد النّعم الّتي أنعم الله ـ جَلَّ جلاله ـ بها على الإنسان تعدادًا يدلّل على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته وعلمه واختياره وكماله ، وسنلحظ أنَّ صوتَ الإقناعِ والتَّدليل قد امتزجَ مَع الامتنان بقدرٍ محسوبٍ ، إلا أنَّ صوتَ التَّدليل أقوَى وأعلى ، ولذلك نجده أحيانا يصرح بهذا الامتنان تصريحًا واضحًا بيانًا لمن قد تغفل عقولهم وقلوبهم .

بدأ يحدثك ﷻ عن خلق السّموات والأرض ، وخلق الإنسان ، والأنعام ، وإنزال الماء مِن السَّماء ، وما ينبت به ، وتسخير الّليل والنَّهار والفلك ، وما في الأرض مِن نباتٍ مختلف ألوانه ، ومن تسخير البحر ، وما فيه من نعم ، والجبال وما فيها ، وهنا يطرح السؤال :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

(النحل:١٧-١٩) .



فهذا قاطع فيما قلت لك من أنَّ هذه الآياتِ تضامَّت وتناسقت ، لتقومَ بالتَّدليلِ بالنّعمِ علَى وحدانيَّة الله ﷻ وكمال اختياره وعلمه وقدرته ، والتَّدليل على أنَّ ما يدعَى من دونه من آلهة باطلة لا تملك مِن أمرِها شيئًا ، ومِن هنا يختم هذا المعقدَ بهذه الحقيقةِ القاهرةِ : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (النحل:٢٢) .

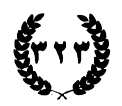
ولو أنَّك نظرت في علاقات الآيات المشكلة هذا المعقد نظرة كلّيّة لرأيت أمرًا طريفًا ، وإن كان لطيفًا تفتقر إلى مزيد من التّبصّر لِتدركه .

بيان ذلك : الآية ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل:٣) بدأت بدليلٍ غيبيٍّ استلزم إردافه بدليل شهودِيّ أبرزه قول الله ـ عزَّ وعَلا ـ : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (النحل:٤) ، وكان كلُّ ذلك على وجه الإجمال المستلزم تفصيلاً لمن لا يكتفِي فيما سبق ، فجاءت الآيات بعد ذلك مفصّلة ، فانقسمت أولاً قسمين :

الأوَّل : ما شارك الإنسان في خلقِه من نطفةٍ ، وجعل الإنسان أشرف منه ومهيمنًا عليه ، وهو عالم الأنعام والحيوانات ، وذلك ما تناولته الآيات :

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النحل:٥-٩) .

الآخر : ما لم يشارك الإنسان في خلقِه مِن نطفةٍ ، ولكنَّه شارك عالم الحيوان المشارك لعالم الإنسان ، كما سبق تبيانه :



شارك عالم الحيوان في أنَّ كلاً خلق ، ليكونَ نعمةً على الإنسان وهداية له في الوقت ذاته ، وقد تناول ذلك الآيات (١٠-١٦) :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل: ١٠-١٦) .

وهذا القسم الثَّاني (غير الإنساني والحيواني) نَسق الحديثَ عنه تنسيقاً بديعاً ، فقسَّمه على عوالم ثلاثة :

العالم الأول : العالم المكشوف المحيط به الهواء ، وقد رتَّب جزئيات هذا العالم ترتيبًا بديعًا وجعله أيضاً على أنواع ثلاثة :

« ما كان قريبًا إلى النَّفس شديد الملابسة لها ، ممّا يحتاج فِي إدراكِه إلى تفكّر وذلك ما تحدّثت عنه الآية :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٠-١١) .

ما كون قريبًا شديد الملابسة يحتاج المرْء إلى مجاهدةٍ إلى الالتفاتِ إلى ما فيه مِن عبرةٍ ، فإنّ الإلفَ مشْغَلَةٌ مغفلَةٌ .

«ما كان أبعدَ مِن سابقِه مِن النَّفس وأقل ملابسة لها ، فكان احتياجه في إدراك دَلالته إلى مستوَى أقلَّ مِن إعمال العقل وهو ما تحدَّثت عنه الآية .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل:١٢) .

«ما كانت دلالته أوضح وأبين ، فلم يحتج إلا إلى ضرب من التذكر لما هُو مركوزٌ في الفطرة الأولى ، وهو ما ذكرته الآية الثّالثة عشرة : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

(النحل:١٣) .

العالم الثَّاني : العالم المغمور الهابط (البحار) المقابل للعالم الَّذي قبله من جهة محدَّدة ، وذلك ما تحدثت عنه الآية الرَّابعة عشرة :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤) .

العالم الثالث : العالم الشاهق (الجبال) المقابل للعالم المغمور الهابط الّذي قبله مِن جهة محدَّدةٍ ، وذلك ما تحدثت عنه الآية الخامسة عشرة : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (النحل:١٥) وكانت الآية السّادسة عشرة كمالاً لعطاء جميع الآيات السّابقة : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل:١٦) .

وبملكك أن تبصرَ وجه افتراع وانبثاق الغصون والفروع والأوراق ، وبهذا «ولما لم يبق ـ بذكر الدلائل على الوحدانية على الوجه الأكمل ، والترتيب الأحسن ، والنظم الأبلغ ـ شبهة في أن الخالق إنما هو الله ـ سبْحانَه وتَعالَى ـ ، لما ثبت من وحدانيته ، وتمام علمه وقدرته ، وكمال حكمته ، لجعله تلك الدلائل نعماً عامّة ، ومننًا تامة ، مع اتضاح العجز في كل ما يدعون فيه الإلهية من دونه ، واتضاح أنه ﷻ في جميع صنعه مختار ، للمفاوتة في الوجود والكيفيات بين ما لا مقتضى للتفاوت فيه غير الاختيار ، فثبت بذلك أنه قادر على الإتيان بما يريد»[1] فهو الذي استهل السّورة بقوله ﷻ : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:١) .

هذا النَّسق في الأدلة يتعلم منه الدَّاعية إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ منهاجًا يعينه على إيصال معانيه في قلوبِ سامعيه في أحسنِ صورة من البيان ، فيمكن هذه الأدلّة فِي قلبِ السَّامع ، ويوطّنها ، فتتغازر ، فتملأ هذا القلب ، فلا يبقَى لغير دلالاتها مكانٌ ، فتخضع حركته في الحياة لمتطلبات هذه المعاني ، وتلك هي الغاية الّتِي يرمِي إليها كلُّ داعيةٌ إلى الله ﷻ .

وعلينا أنّ نتذكر كيف أنّـه ختم ما يسميه البلاغيّون : «براعة استهلال» بقوله تعالى : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ ، وختم آيات المعقد الأوَّل بقوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ ، فهذا تصريحٌ بالمحور الَّذِي تدور حوله آيات السُّورة كلِّها .

وتَلْحَظُ أنَّ هذه الجملةَ المحوريّة «أمّ القرَى» : ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ جاءت مجرَّدةً مِن أدواتِ التَّوكيد ، وأساليبه المعهودة ، مِن أنّ مضمونَها قد بلغ

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٤/٢٥٥ .



من الوضوحِ والتَّمكُّنِ والثَّباتِ بما ساقتْهُ آيات المعقدِ الأوّلِ مِن البرهان القاهر ، والسّلطان الظَّاهر على أنّها حقيقة الحقائق الكُبرَى .

وهذا نهجٌ مِنْ مناهجِ تقرير المعانِي فِي القلوبِ ، لا تكاد تجد نظيرَه في غيرِ البيانِ العليّ : بيان الوحي الأقدسِ ، وفِي هذا مِن الهُدَى المَنْهَجِيّ للدَّاعِيةِ ، إن تبصَّره بلغ المنزل ، وتَسَنّمَ شرف الغاية ، وتَنَسّمَ أرَجَ النّجح والمفاز ، وتلك طَلِبةُ كلّ داعية إلى الله ﷻ .

ومَا تحمله الجملة القرآنيّة : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ ، و﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ انتشر في نسيج السُّورة مصرفةً صورة التَّعبير عنه وفق ما يقتضِيه السِّياق الَّذي تبرز فيه .

* * *

المعقد الثَّاني للسّورة : بيان موقف المعاندين والرَّدّ على شبهاتهم .

تمثّل الآيات من (٢٢-٦٤) المعقد الثَّانِي مِن معاقدِ السُّورة الثَّلاثة ، وهذا المعقد ذو طابعٍ خاصٍ مِن بين آياتِ السُّورة كلِّها .

إنّه معقدٌ قائمةٌ آياتُه للكشفِ عَن طبيعةِ المعاندين ، وتعديدِ شبهاتِهم وتقويضِها واحدةً واحدةً ؛ كيما يجهزَ على كلّ عتادٍ وعدّة يتترس بها العقل في جدلِه الأعمَى .

على أنَّه ربما ظنَّ أنَّ هذا الْمعقدَ مُقْحَمٌ بيْن المعْقِدِ الأوّلِ والثّالث ، إلاَّ أنَّ البَصيرَ يرى جمال إيقاع الحديث عَن هذه المعانِي فِي هذا الموقعِ بين المعْقِديْنِ الأوّل والثَّالث ، وحسن تَبصّر الدَّاعيةِ في هذا المنهج البديع في النَّسق يهديه إلى أنَّ يتخذَ منهاجًا شبيهًا فِي محاوراتِه ومجادلاتِه .

وهذا المنهج في نسقِ المعاقد يظْهر لك الصُّورة الْمُثلى لإتيانِ المعنَى مِن الْجهةِ الّتي هِي أصحّ لتأديته ، كما يرَى عبد القاهر في الدّلائل[1] .

وَقَعَ البيان عن اعترضاتِ المشركين على وحدَانيّةِ اللهِ ـ تعالى ـ موقعًا اعتِراضِيًّا بيْن معقدين للاستدلال بنعم الله ـ جَلَّ جلاله ـ القائمة في نفوسِ المشركين ، والقائمين فيها على تقريرِ ما يعترضون عليْه ، وفي هذا مِن بديعِ المشاكلة بيْن الموقِع والمضمونِ والوظيفة ما فِيه ، وهو أيضًا من معالمِ إعجازِ البلاغة القرآنيّة من جهة ، وفيه من تعليم الدُّعاة إلى وحدانيّة الله ـ تعالى ـ ما فيه ، فانظر كيف يحيط اعتراضات وشبهات المشركين بدلائل وحدانيّته ، وكيف يمهّد لِنقضِها وتقويضِها بتقريرِ الأدلّة القائمة فيهم والقائمين فيها ، ثُمّ إذا ما عمَد إلى شبهاتِهم وقوَّضها وفرغ من ذلك عمَد إلى مزيدٍ مِن تقريرِ الأدلّة على وحدانيتِه تعالى ، إنّه المنهجُ الأمثَلُ الّذي يصِل به الدَّاعية إلى ما قام له ، ويسعَى إلى القِيامِ بِه علَى الوجهِ الأمثلِ ، وتلك ربَّانيَّة المنهج القرآنيّ .

تفصيل البيان عن المعقد الثّاني :

أول ما ترى أنَّ آياتِ المعقدَ الأول (الآيات : ٣-٢٢) ختمت بالجملة الأولى من الآية (٢٢) وهي : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لتبدأ هذه المرحلة بقوله : ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل:٢٢) ، مصدرة بـ«الفاء» الدَّالة على التَّسبّب والتَّفرّع والانبثاق ، لتشيرَ إلى أنَّه إذا كانت آيات الْمَعقدِ الأوّل بما فيها مِن دلائل قد أسلمتك فِي رفقٍ وتمكّنٍ إلى حقيقةِ الحقائقِ الكبرَى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ، وجعلتك في حالة لست بحاجةٍ إلى تأكيدٍ لمضمونِ هذه الجملة الّتي هي محور المقصود الأعظم

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٤٣ .



للسُّورة ، وبرغمٍ مِن ذلك ، فالَّذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرةٌ لِمضمون هذه الجملة ، وبحاجةٍ إلى إخلاءِ ما في عقولِهم مِن شبهاتٍ وتنظيفِها ، وبحاجةٍ إلى تأكيد مضمون هذه الجملةِ في عقولهم ، وهذا يبيّن للدَّاعية عظيمَ ما هو آخذٌ بقلوبِ المنكرين ، فليكنْ الدّاعِية إلى الله ﷻ حكيمًا حليمًا رفيقًا حَتَّى يبلغَ المنزل ، إمَّا بإعانتهم على الهُدَى ، وإمَّا بتقويض ما يَتَتَرَّسُونَ بِه ، ويَحْتَجُّون ، فإذا هم عراةٌ أمامَ أَنفسِهم ، إذا خلَوا إليها علِموا عظيمَ حمقِهم بما أنكروا وعاندوا ، وإقامة المعانِدِ أمامَ نفسِه مستخذيًا أمرٌ عظيمٌ أثره عليْه .

بدأ ﷻ ببيانِ حالِ المعارضين المعرضين عن الوحدانيّة ، وهي أنَّ قلوبهم منكرةٌ ، وأنهم مستكبرون ، فإعراضهم واعتراضهم ليس مِن قِبل شبهة فِي الدَّلائل والأدلّة بل فِي قلوبهم ، وفي هذا هدايةٌ للدَّاعية أن يحسِن البصرَ بأسباب المعاندة حين يقوم مقام الجدالِ بالَّتِي هي أحسن ، فممَّا يحقّق لهذه المجادلة الحسْنَى أن يكونَ الدّاعِيَة على بَصرٍ نافذٍ بأسبابِ الْمعانَدةِ والاعتراضِ ليسعَى إلى إزالةِ هذهِ الأسباب ، فذلك أقصر طريقٍ إلى الغاية ، أَوْ على الأقلِّ إلى تهوينِها وتضعيفِها أو كشفها وتَعريتها .

أبان القرآن في مفتتح عرضِ شبه واعتِراضاتِ المنكرين وَحدانيةِ اللهِ ـ تعالى ـ عنْ أسبابِ ذلك : السَّبب الرَّئيس لأنْ تكونَ قلوبهم مِنكرةً أنّهمْ مسْتكبرون ، إنّه الدّاء الوبيل : الاسْتكبار . في هذا كشفٌ للداعية ، وإعلامٌ له أنّ الأدلةَ على وحدانية الله ـ تعالى ـ ليست هي سبب نكران قلوبهم ، إنها أدلةٌ وبراهين ساطعةٌ راسِخةٌ سطوعَ الشَّمس فِي رابعةِ النّهار فِي ديارهم ، ورسـوخ الجبال مِن حولِهم ، ولكنّه الاستكبار .

وهذا حينَ يقوم في قلبِ الدّاعِية على وحدانية الله ـ تعالى ـ لا يعتريه حسبان تقصيرِه ، فيتخاذل ، وفيه عرفانٌ له أن يجتهدَ فِي اتخاذِ زادِه وعدّتِه

وعتادِه لبلوغِ المنزلِ ، فالسَّفر بعيدٌ شاقٌ ، والغايةُ شاطِنةٌ ، ونبيلةٌ ، وأشرف الغايات وأنبلها عطاءً أحمَزها سبيلاً ، وحينذاك يدرك الدَّاعية أنّ الله ـ تعالى ـ ما أقامَه فِي هذا السّبيلِ إلاَّ تكريمًا لَه ، انْتَدَبَه لعصِيِّ المطالبِ ، وذلك تكريمٌ ليس مِن ورَائِهِ تكريمٌ فِي الدّنيا ، وفي هذا مِن الْحَفْزِ ، والاستفزازِ لِبذل الجهد واستعذابِه والتَّمتّع بِما يتوالَى فيه مِن المعاناة ، وبمثل ذلك يبلغ الأبطال غاياتهم ، ذلك بعضٌ مِن ربَّانيّة المنهج فِي هذه السُّورةِ الجليلةِ .

ولمًّا كان السَّبب فِي إعراضِهم إنّما هو استكبارهم جاء التّهديد بأنَّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ (النحل:٢٣) .

ليس أشدَّ تهديدًا منْ هذين:﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ إنّه لتهديدٌ تنفطِر لَه قلوب العارفين .

وإبراز العلمِ الشَّاملِ عنصرٌ مِن عناصر المقصود الأعظم للسُّورة ، وجميلٌ أن يكونَ المبرّز هنا إنّما هو عنصر العلم الشَّامل ، وليس القدرة ؛ لأنَّه العنصر المتلائِم مَع الإحاطةِ بالشُّبهات وتقويضها الّتي بدأ يعدّدها واحدةً واحدةً ويقوِّضها .

الشُّبهة الأولى : الاعتراض على القرآن ووصفه بأنّه أساطير الأوَّلين : (الآيات:٢٤-٣٤) : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ (النحل:٢٤) إلى آخر قولِه تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ (النحل:٣٤) .

الشّبهة الثَّانية : التَّعلّق بالقضاء والقدر في إشـراكهم بالله ـ جلَّ جلاله ـ (الآيات: ٣٥-٣٧) :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

(النحل: ٣٥-٣٧) .

الشُّبهة الثَّالثة : (إنكار البعث يوم القيامة) (الآيات : ٣٨-٤٢)

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴾ (النحل: ٣٨-٣٩) إلى آخر قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل: ٤٢) .

الشُّبهة الرَّابعة : (إنكار بشرية الرسل) (الآيات : ٤٣-٤٤)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٣-٤٤) .

ولضيق المقام أذكر فذلكة القول في هذا المعقد الثَّاني (الاعتراضي) :

أُلقِي نظرةً إجماليّةً نبصر فيها التّناسب الكليّ بيْن مجموع الآيات وهي اثنتان وأربعون آية ، فنجد أنَّه بعد أن دلَّل في المعقد الأوَّل (الآيات : ٣-٢٢) على وحدانيته وقدرته ، وأنكر عليهم تسويتهم الخالق بغيره ، وأبان عن تفضّله عليهم على الرَّغم مِن استحقاقِهم العقاب ؛ لأنَّه غفورٌ رحيمٌ مختارٌ يفعل

ما يشاء ، وَأَثبَتَ أَنَّ أَلِهتَهم لا تصلح للألوهيّة ، وإنّه هو الله الواحد ، بعد هذا بدأ في بيان حقيقتهم وسرٍّ موقفهم المعاند بأنّهم مستكبرون عَن قبولِ الحقّ المتَّضح الزَّاهر بالدَّلائل القويَّة ، وأنَّهم يتشبثون بشبهاتٍ واهيةٍ وبدأ في عرضها وتقويضِها .

وأوّل ما عرضه مِن شبهاتهم اعتراضهم الماكر على القرآن ، ووصفه بأنّه أساطير الأولين ، ولعلَّه بدأ به لأنهم خاصة ما كان لهم أن يفعلوا ، وهم الذين تحدُّوا بالإتيان بمثل سورة منه ، فعجزوا ، وقوض موقفهم قارناً له بموقف أئمتهم ومصيرهم ليعلموا مصيرهم المحتوم ، ثمَّ قابله بموقف الّذين اتَّقوا مِن القرآن الَّذي هو هدًى لهم لا لغيرهم ، فكان إعلاءً للذين اتّقوا وتسْفيها وتبشيعاً للّذين لا يؤمنون بالآخرة .

ويردف ذلك بشبهة أخرَى هي تعلقهم بالقضاء والقدر في إشراكهم ، وأنه مَرْضِيٌّ الله ﷻ إفحامًا للرُّسل ، فردَّ عليهم بتنظير موقفهم هذا بموقف سابقيهم الّذين علموا مصيرهم ، ليكون ردًّا شهوديًّا على ضلال ما تشبَّثوا به ، وإن حجاجَهم الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ حجاجٌ باطلٌ ، وليس مِن شأن الرُّسل الرَّدُّ عليه والدُّخول فيه .

نلحظُ بأنّه بدأ بشبهةٍ هي أوهن الشّبه ، لأنّ لهم منْ أنفسِهم حجة على هوانها وضلالهم في القولِ بها ، فليس أحدٌ أعلم بأنّ القرآن من عند الله ﷻ مِن العرب زمن النّبوة ، فإذا ما اتخذوا هذا شبهة ، فهذا دالٌّ دلالة بينة على أنّ الاستكبار أوقعهم فِيما يَستحيِي عاقلٌ أن يقعَ فيه ، وهذا يكشف أنّ الاستكبار كالجنون يفقد المرء معه صوابَه ، فيحسب أنّ الهوانَ عزّةٌ ، وأنّ المتهاوِيَ راسخٌ ، وفي هذا مِن تحذير الدُّعاة مِن أن يمسّهم شيْءٌ مِن الاستكبارِ : بطر الحقّ .

وفيه تعليمٌ للدّعاةِ أن يكونَ بدْء حجاجِهم مجادليهم بما هو أهون في نفسِه ، وأنكَى في كشفِ ضلالِ المعـاند ، فإنّه إذا ما استهلَّ دفع عنادهم بما يؤكّد أنَّ

ما في عقله دغلٌ وفسادٌ ، وأنَّه أقدم على ما لا يقدِم عليه مَن في رأسِه ذرَّةٌ مِن عقلٍ ، يكون هذا بمثابة الضَّربة القاضية ، ممَّا يبادِر بجندلتِه ، وتفتيتِ قوتِه وعزمِه ، وهذا نهجٌ فِي المجادلةِ بالَّتي هي أحسن جدّ عظيم يختصر الطَّريق إلى النَّصر ، ويحقِّقه على تمامِه .

كذلك تكون التَّربية المنهجيّة للدُّعاة ، وهي كما رأيت معلمٌ عظيمٌ من معالم البناءِ التَّركيبيّ لسورة (النّحل) .

وثنّى بشبهة الاستمساك بالقدر ، وأن الله ـ جَلَّ جلاله ـ إن أراد هدايتهم لهدوا :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النحل:٣٥) .

وهذه شبهةٌ قديمةٌ ثبت بطلانها ، ومن الحمق والأفن أن يتترَّس معترضٌ بشبهةٍ قِيلت مِن قبله وقوّضت ، ورأى أثر القول بها ، وما لحق بقائلها مِن النَّكـال .

وهذا يبين للدُّعاة أنَّ أهلَ الباطل يتوارثون شبههم وأباطيلهم دون حياءٍ من ترداد ما هم عالمون ببطلانه ، ورغبة منهم في الشَّغب بالباطل على الحقِّ .

وهذا يكشف للدعاة أنَّ أهلَ الْباطلِ يَتناصرون ، ويقِيمون على باطلهم ، فحُقَّ لأهلِ الحَقِّ أن يتناصروا بالحقّ لنصرة الحقّ ، وهذا ما يفتقر إليه غير قليلٍ مِن الدُّعاة ، لا يتناصرون بالعمل الجماعِيِّ المنظّم ، فالعمل الفردِيُّ ، وإن كان مجيدًا متقَنًا إلاّ أنَّه قد يضعف أثره أمام تناصر الباطل ، والله ـ تعالى ـ يدعو فِي جليلِ الأعمالِ إلى أن تؤدَّى أداءً جماعيًا : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (البقرة:٤٣) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (التوبة:١١٩) .

ويأتي بعد هذا بشبهتِهم الثّالثة : إنكار البعث ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٣٨) .

أبان عن اجتهادِهم في تقرير هذه الشّبهةِ بأنّـهم أقسموا جهد أيمانهم ، وفي هذا ما يكشف عمًّا يعتمل في نفوسهم من القول في البعث ، فإنّ القولَ به سيقوض كلّ ما هم عليه من أباطيل ، فاجتهدوا أن يدجّلوا وأن يجادلوا لعلهم بذلك يبقون على أباطيلهم من التّساقط ، وفي هذا كشف حالهم للدّعاة ، وبيانٌ لهم أنّ أهلَ الباطل يجاهدون عندما يشعرون أنّ في المساسِ بباطلٍ من أباطيلهم قضاءً عليهم ، فيتعلّم الدّاعية أن استبسالَ أهلِ الباطل إزاء أمرٍ ما أنّ هذا الأمرَ عليه أن يستفرغ جهده في تقويضِه ، وألاّ يتهاون معهم فيه بل يكرّ بخيله ورجله عليه ، ولا يدع جهة إلا أتاهم منها ، ولا يدع ثغرة إلا أنفذ منها سهامه الماحقة .

كذلك يعلم القرآن الدّعاة منهجًا يكتشفون به مكامن الخطر على أهل الباطل لينقضوا عليهم منها .

وفي البيان بقوله ﷻ : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ (النحل:٣٨) دلالة على ما هو آخذٌ بعقولهم مِن داء الاستكبار ، فهذا الدَّاء منعهم مِن الوعي بما نطقت ألسنتهم (أقسموا بالله) ، مجرد نطقهم بهذه الكلمة الجليلة (الله) كـافٍ إن عقلوا أن يمنعهم من هــذا القســم ، فإذا كــان هو الله فكيف لا يبعثهم ، والبعث للحساب كمال العدل ، فكيف لا يبعث ليحقّق كمال العدل وهو الله ـ تعالى ـ ، أليس كونه هو (الله) باعترافهم دالاً على أنّـه لا بدّ مِن البعث للجزاء ، وفي هذا تربية للدّعاة أن يتعلموا نقض شبهات المجادلين من منطوق لسانهم ، فإنّك إذا استخرجت نقض الشّبهة مِن الشّبهة

نفسها ، فقد دلّت على أنّ صاحب الشّبهة لا يعِي ما يقول ، وأنّه فِي سكرةٍ مِن أمرِه ، وأنَّه لو ملك قليلا مِن الوعي بما يقول لكفَّ لسانِه عن أن ينطقَ بها ، وفي هذا مِن التَّسفيه للمجادل بالباطل ما يقوضه ، ويجندله .

وجاء الرَّدُّ مفحمًا (بلى) فهي كلمةٌ ردّ وإضرابٍ يكفح ما زعِم من عدم البعث : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ (التغابن:٧) .

وأضاف بأنَّ هذا وعدٌ وعده الله ﷻ على نفسِه ثابتًا لا يزول ولا يحول ، فجعله على نفسِه حقًّا لمظلومٍ ينتصف له مِن ظالمِه . ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ (النحل:٣٨) .

وفي الإتيانِ بهذه الشُّبهة عقب الشُّبهتين السَّابقتين دلالةٌ على أنَّ اعتقادهم الشُّبهة الثّالثة هو الّذي دفعهم إلى الأولَى والثّانية ، فكان هذا مِن إيراد السّبب والعلّة بعد المسبّب والمعلول ، وفي ذلك مِن التَّوطيد والتَّثبيت ما لا يخفَى على ذي معرفةٍ . وفيه أيضًا تربيةٌ منهجيّةٌ للدُّعاة أن يكونَ مِن منهجِهم في مثل هذا أن يعرضوا الأمرَ الَّذي يستنكر وقعه ثم يردفه بسببه ، لأنّه إذا بدأَ الدَّاعية بذكر ما تستنكره الفِطَر ، ومنطق العقل السَّويّ ، كان المرء بحاجةٍ إلى أن يعرفَ السَّبب الّذي به كان ما لا يسترضَى ، فيكون هذا أعظمَ تنفيرًا من الاقتراب من ذلك السَّبب ؛ لأنّه مُوقِعٌ فيما لا تسترضِيه الفِطر السَّويّة .

ومِن البيِّن أنَّ عدمَ الإيمان بالبعثِ يفتح الطّريقَ أمامَ مَن لا يؤمن به أن يفعلَ كلَّ ما يقدر عليه دون رادعٍ يردعه ، ولا تجد مستهترًا في الشَّرِّ إلاّ مِن عدمِ يقينِه بالبعثِ أوْ مِن غفلتِه عنه ، وكمْ مِن شرورٍ تحدّث المرءَ نفسه بها ، فيكفُّ عنها مِن مخافةِ البعثِ ، ففي الإيمانِ بالبعثِ مزيد أمنةٍ للمجتمع ، ومتين سياجٍ من وبيلِ الشُّرورِ .

سعي الدعاة إلى تمكين هذا الإيمان في قلوب النّاس يوفِّر عليهم كثيرًا من الجهد في محاجزتهم عن الشُّرور ، لأنّ الإيمانَ بالبعث سيكون كفيلاً بهذه المحاجزة ، كذلك يعلّمنا القرآن في هذه السُّورة وغيرها كيف يحسن الدّاعية اصطفاء ما يمنحه مزيدًا مِن عنايتِه ، وما يجعله المقدَّم في سعيه ، وهذا مِن التَّربيّة المنهجيّة للدُّعاة في القرآن ما فيه ، وهو أسٌّ من أسس القول في سورة (النَّحل).

ويختم بالشّبهة الرَّابعة المتعلّقة بإنكار بشرية الرُّسل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٤٣) فردّ عليهم بأنهم يعلمون جيداً أنَّ السَّابقين من الرُّسل كانوا بشراً ، وليسألوا أهل الذِّكر في هذا إن كانوا لا يثقون إلاّ في مقولاتِهم ، وهم الذين عادوا إليهم في بعضِ أمرِهم .

وكأنـّي به يختم شبهاتهم بهذه الشّبهة أن يشير إلى موقفِهم المتناقضِ ، لأنَّ إنكار بشريّة الرُّسل فيه اعتراف ضمنيٌّ بالإرسال ، وأنَّ الإنكارَ منصبٌّ هنا على كونه بشراً مع أنهم في الشُّبهة الثّانية الّتي تشبَّثوا فيها بالقدر كانوا بذلك يرمون إلى عبثيّة الإرسال عمومًا ، فكان التَّناقض بيْن الشُّبهة الثَّانية والرَّابعة جدَّ جليّ وهو ضربٌ مِن التَّنسيق بديعٍ .

وبعد أنْ أوهَى شبهاتهم تحدَّث عن القرآن ، وجميلٌ أن بدأ الشُّبهات بالحديث عن موقفهم من القرآن ، وختمه أيضًا بالحديث عنه ، فكان أشبه بردِّ العجز على الصّدر ، وهو نهج من مناهج تقرير المعنى الجليل في النُّفوس ، فليست مهمَّة الدَّاعية منتهيةٌ بإيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، بل لابدّ من تقرير هذا المعنى في ذلك القلب وتمكينه فيه وتوطينه ، ليتغازر ، فيملأ هذا القلب ، ولا يدع لغيره مكانًا فيه ، ولذا كثرت في البيان القرآني مسالك توكيد جليل المعاني في القلوب وتمكينها فيها ، وتمكين تلك المعاني من تلك القلوب ، وهذا فيه تربيةٌ منهجيّة للدّعاة لا تخفَى .

* * *

التهديد على الضلال وبيان صور مما كانوا عليه منه، وبيان الطريق المستقيم إلى الله ـ تعالى ـ (الآيات:٤٥-٤٦)

بعد أن ذكرَ شبهاتِهم وقوَّضها وهدَّدهم في أثناء ذلك، وختم حديثَه بإنزالِ القرآن لعلهم يتفكَّرون فيما حواه مِن هدايةٍ وبيانٍ، ومِن جملةِ بيانه، ما أشارتْ إليه الآيات من عذابِ الأمم السَّابقة حين عاندته، فكفرت، فطلب من كفَّار مكَّة وأتباعهم أن يسيروا، فينظروا كيف عاقبة سابقهم وأئمتهم، فكان ذلك التَّفكير في مصيرهم أدعَى إلى خوفهم، جاء هنا لينكرَ عليهم أمْنهم وعدمَ خوفِهم بعدَ هذا البيانِ فقال: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ (النحل:٤٥) إلى آخر قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ (النحل:٦٤). استهلّ إنكاره عليْهم أمْنهم وعدمَ خوفهم بعدَ هذا البيان لما حلّ بسابقيهم فقال: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (النحل:٤٥) أي أتفكروا، فتابوا، أو استمروا على عتوهم فأمنوا، ويعنى ذلك أن «الفاء» في ﴿ أَفَأَمِنَ ﴾ عاطفة على مقدر هو المقابل لمدخول الهمزة. وهذا المقدّر هو الّذي كان حريًّا أن يكونَ منهم، لكنّه ما كان، فطواه، وأبرز ما يأمل أن يكونَ لو كان ما بني عليه، وفي هذا مِن التَّسفيه لهم أن وقعَ منهم ما لم يقعْ سببه، فالأمن لا يكون إلاّ من إيمانٍ، وما كان منهم إيمانٌ، فكيف أمنوا؟ إنّهم إلاّ فِي ضلالٍ مبينٍ.

كذلك يوظّف إيلاء «الفاء» همزة الإنكارِ، لتصوّر لك عظيمَ حمقِهم، وهذا نهجٌ مِن مناهجِ الدّعوة أن يكونَ الطَّعن على المستكبرين قويًّا ولطيفًا أي ألاّ

يكونَ مباشراً ، ففِي اللطف قوَّة ونفوذٌ أعظم ممّا في الظَّاهر الجليّ ، ونلاحظ مِن الآيات أنَّ الله ـ تعالى ـ قد ذكر فِي تهديدِهم أربع صورٍ :

١- أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ .

٢- أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ .

٣- أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ .

٤- أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ .

الصّور الثّلاث الأولى مفروضة في حال أمنهم من العذاب عند ظنّ عدم القدرة عليه وعليهم ، ولذلك كانت الفاصلة للثّلاثة ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (النحل:٤٦) أيْ في أيِّ حال من الأحوال الثلاثة ، فسواء علينا غفلتهم وتيقظهم ، ولم يختم الرَّابعة بذلك لأنَّ المتخوّف يكون مجوزًا الوقوع ، فلا يظنّ عدم القدرة علي الإيجاد ، وبهذا تبرز دقَّة استخدام الفاصلة في الآيات ، وذلك لا يختلِف إنْ قلنا إنّ قولَه : ﴿ تَخَوُّفٍ ﴾ (النحل:٤٧) مأخوذٌ من الخوف وتوقّع وقوع العذاب بما يرونه من ظواهره ومقدِّماته ، فيتوقَّعون نزوله ، وقلنا إنّ قولـه : ﴿ تَخَوُّفٍ ﴾ هنا على لغة هذيل أي تنقّص ، أيْ يأخذهم واحدةً بعد واحدةٍ بما يقيم فيه مِن أسبابِ الهلكةِ مِن فقرٍ ومرضٍ ومذلّةٍ وقتلٍ ونحو ذلك .

كما يلاحظ أنّ الصُّورَ الثَّلاث الأولى تعطِي نوعًا من إيقاعِ العذابِ على سبيل الاستئصالِ ، أمَّا الرَّابعة ، فهو على سبيل التَّنقّص والتَّدريج (على أيّ مِن وجهى تفسيرها) ولذا أفردت الرَّابعة عَن بقيَّة الصُّور .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل:٤٧) يحتمل وجهين من التأويل :

الوجه الأوّل : أنَّ هذا التَّهديدَ بصورِه الأربع ختم بقوله : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ إشارةً إلى أنّه قد تسبَّب عن إمهالِهم في كفرِهم وطغيانِهم مع القدرةِ عليهم العلم بأنَّ تركَه لمعالجتِهم ما هو إلاّ لرأفتِه ورحمتِه ، لا لعجزِه أو جهلِه بحالِهم ، أو مانعٌ منعه من ذلك ، فإنّه الواحد العزيز الّذي لا ينازع ، وهو العليم القدير ، وأنّه فعل ذلك مِن رأفتِه ورحمتِه ، لعلَّ منهم من يؤمن .

الوجه الآخر : أنّه ينظر إلى ضمير الخطاب في ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهو خطابٌ للمسلمين أي أنّه ما عاجلهم ؛ لأن في إمهالهم رأفة بكم ورحمةً ، فإنه إذا ما لم يعاجل منكري وحدانيته بالعقوبة ، فهو أعظم إمهالاً وصبرًا على ما يقع ممّن آمن به إلها واحدًا ، وفي هذا بعثٌ للإحساسِ بمحبة الله ـ تعالى ـ لعباده الموحدين ، وفيه تربيةٌ للدُّعاة ألاّ يعاجلوا بالعقوبة أو بالنَّكال الحسيِّ والمعنويِّ من ناوءَهم أوْ سلك سبل الاعتراضِ والمناكدة ، فليكن منهم تخلّقٌ بصفةِ اللهِ الرَّؤوف الرّحيم .

وهذا مِن أسس منهاج الدَّعوة ، فالدَّاعية الّذي يسرع إلى الانتقام مِن مخالفيه أوْ المختلفين معه ، فيبسط فيهم لسانَه أو يدَه إن استطاع إنّما هو داعيةٌ عقيمٌ عمله ، هو إلى التَّنفير أقوَى منه إلى تأليفِ القلوبِ وترويضِها .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩) .

والدَّاعية الحكيم يحرِص على ألاّ يكثِّر الأعداء مِن حولِه حتّى لا تعيقه كثرتهم عن مسيره ، فهو إلى تأليف القلوب مع معانديه أميل إلاّ فيما لا يرضي

الله ـ تعالى ـ ، فكلّما وجد سبيلاً حسنًا إلى مقاربته فيما لا يلحق بإيمانِه وعملِه ضررًا لا يطاق كان إليْه أسرعَ ، هذا ما يفتقر إليْه كثيرٌ مِن الدّعاة ، فِي زمانِنا ولا سيّما الشّبيبة منهم .

ولمًّا كان مقام التَّهديد يقضى إبراز الاقتدار عليه جاءت الآية الثّامنة والأربعون : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ (النحل:٤٨) لتدلَّ على تمامِ قدرتِه على ذلك وغيره .

وعطفه على مقدّر مِن الآياتِ السَّابقة تقديره : ألم يروا إلى عجزِهم عمَّا يريدون وقسره لهم على ما لا يريدون ، فيعلموا بذلك قدرته وعجزهم ، فيعلموا أنَّ عفوه عن جرائمهم إحسانٌ منه إليهم ولطف بهم ، ولم يروا بعيون الأبصار متفكرين بالبصائر إلى ما خلق الله من شَيْءٍ ، وفِي هذا التفاتٌ إلى قولِه مِن قبلِهِ : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

كذلك ترَى أنـّه منْ بعد أنَّ أوهى شبهاتِهم هدَّمهم وأنكر عليهم الأمنَ مِن عقابِهم ، وهو القدير عليه إلاَّ أنـَّه ما عاجلهم به ؛ لأنـَّه رؤوفٌ رحيمٌ مختارٌ يفعلُ ما يشــاءُ متى شاءَ ، ثم كــرَّ على موقفهم من وحدانية الله ﷻ فنهـاهم عن الشرك ، وجهر بتفــرّد الله ـ عَزَّ وَعَلا ـ بالألوهيّة الحقّة في صلب الحـديث عن موقفهم وحقيقتهم ، وكأنـّه بهذا يضـع في قلبِ موقفهم الحقيقةَ المدمّرة لكــلِّ ما يحاولون ، فكان مِن البديع أن جعل التَّصريح بالوحدانيّة فِي هذه المرحلة في قلب الحديث بينا نراه في براعة الاستهلال جعله في خاتمتها .

وفِي المعقد الأوّلِ جعل التّصريح بوحدانية الله ـ تعالى ـ في ختامه : في جملة تأخذ صدرَ أوّل آية في المعقد الثَّانِي ، وجعل بدأ هذا المعقد الثَّانِي وختمه حديثًا عن الْقرآنِ ، وهو يمثِّل ضربًا من ردِّ العجز على الصَّدر ،

وليكونَ الحديث عَن الوحدانيَّة الَّتي هِي المقصود الأعظم للسُّورة بمثابةِ المركز للدَّائرة .

وهو بعد أن يتحدَّثَ عَن الوحدانيّة يعرض مواقف لهم كلَّها تتمثَّل فِي إشراكِهم ، وتصوّرهم فِي أبشعِ صورةٍ يكون عليها مخلوقٌ مع خالقِه حين يعلى نفسَه علي خالقِه ، ولا يكتفِي بإعلاءِ آلهتِه الباطلةِ الَّتِي خلقها هو على خالقِه تعالى ، ويجمل بنا أن نتذكَّر هنا أنَّه فِي ختامِ المعقد الأوّل أنكر عليهم تسوية الخالق بغيرِه ، فيكون حديثه فِي الآية تفصيلاً وإنماء لما في قوله : ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:١٧) .

وبهذا يبرز أمام أبصارنا التَّنسيق والتَّناسب البديع الَّذي يؤكّد أنَّ السُّورة ذات خطَّة محكمة في ترتيب عناصرها وتركيبها كلّها ، وأنّ إيقاع الآيات المتضمّنة عرض وتفصيل اعتراضات المشركين على وحدانيّة الله ـ تعالى ـ وعلمه وقدرته ، ونقض تلك الاعتراضات والشبهات موقع الجملة المعترضة فيه ضربٌ من المشاكلة بيْن المضمون والموقع الّذي يقع البيان عنه على لاحبِ مساقِ القولِ ، وأنّ هذا مِن اقتضاءِ المضمونِ موقع البيان عنه ، فالمضمون يختار صورة ما يُبين عنه وموقعه من السّياق ، وهذا معلمٌ مِن معالمِ الإعجازِ لَم يلتفتْ إليه كثيرٌ مِن النَّاظرين في دلائل الإعجاز .

ولعلّي بما أشرت وأوجزت تفصيلَه لفت الانتباه إلى هذا المعلم الَّذي هو جديرٌ بأن يستقصِى القول فيه من أهل العلم ببلاغة كتاب الله ـ تعالى ـ ومن طلابِه .

* * *

المعقد الثالث : عودة إلى الامتنان والتّدليل على الوحدانيّة في صورةٍ جديدةٍ .

يستهلّ هذا المعقد بقول الله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (النحل:٦٥) .

ويختم بقوله ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩) .

سبق أن رأينا في المعقد الأوّل (الآيات : ٣-٢٢) توالي الآيات المعدّدة نعم الله ﷻ ، تعديداً يدلُّ على وحدانيّةِ المنعِم عزَّ وعَلا ، وقدرته واختياره وكماله تدليلاً ممزوجًا بالامتنان ، ولمّا كان المقصود الأعظم مِن القرآن تقرير أصولِ أجلّها الإلهياتِ ، وأجلُّ الإلهيّات التّوحيد ، لذلك بعد ما انتهَى مِن تقويضِ شبهاتِ الَّذين لا يؤمنون بالآخرة وكشف حقيقتِهم ، شرع مرَّة أخرى مِن أوَّل قوله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (النحل:٦٥) في التَّدليل على الوحدانيّة والقدرة بمنهاج آخر فِي الإبانةِ والاستدلالِ ، وفِي هذا تربيةٌ منهجيّةٌ للدُّعاةِ أن يتفنَّنوا فِي بيانِ الحقائقِ ، ففِي كلّ مرَّة مِن مرَّات التَّفنّن فِي العرض إضافاتٌ تعين على تمكينِ الحقيقةِ فِي القلبِ ، فقلوب النَّاس متفاوتةٌ فِي الإقبالِ والإعراضِ ، وفي قدر التلقّي ، فمِن الحكمةِ فِي الدَّعوة أن يحسن الدَّاعية تنويعَ طرائق عرضه الحقائق والاستدلال عليها ، فالغاية هِي تمكين الحقّ بالحقّ فِي قلوبِ العبادِ على تنوّعِها وتفاوتِها فِي القبولِ والتَّلقِّي .



وجاء قوله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (النحل:٦٥) معطوفًا على قوله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (النحل:١٩) .

(بيان هذا) : إن آيات المعقد الأوّل كانت تعديدًا مدلِّلاً على الوحدانيّة والقدرة المطلقة علي كلِّ شيْءٍ وفي ضمنه التَّدليل على البعث ، ولم يصرّح بالقدرة على البعث في آياتِ المعقد الأوَّل إلاَّ في آيةٍ واحدةٍ فِي ختامِ آياته فِي معرضِ وصفِ ما يعبدون من دون الله الواحد القادر المختار ، فقال : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (النحل:٢١) .

بينما آيات المعقد الثَّالث (الآيات : ٦٥-٨٩) تركِّز على التَّدليل على القدرة على البعث الحاملة في طيِّها القدرة على كلِّ شَيْءٍ ، ولهذا عبَّر في آية إنزال الماء بقوله تعالى : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ (النحل:٦٥) .

ومن السّنّة البيانيّة للقرآن أنـه إِذَا تحدَّث عن إنزال الماء مِن السَّماء فِي سياقِ البعثِ قال : فأحيا أو فأخرج ، فذلك هو الملائم للبعث الّذِي يكون السِّياق له ، وهذا مِن أثر السّياق في اصطفاء الكلمةِ .

وما يلحظ أنَّ تعديدَ النّعم في آيات المعقد الأول (الآيات : ٣-٢٢) كان يجمع بيْن التَّدليل والامتنان ، إلا أنَّ جانب التَّدليل كان أعلى صوتًا وأقوى ظهورًا ، بينما في آياتِ المعقد الثَّالث (الآيات : ٦٥-٨٩) كان جانب الامتنان أعلى ، وكان إبراز الاستدلال في المعقد الأوّل أنسق بوظيفة هذا المعقد ، لأنّ الامتنان إنّما يكون بعد التَّسليم بالاستدلال ، ولهذا جاء الامتنان أبرز وأَظهر في آيات المعقد الثَّالث .

وهذا يرسم لنا منهاجًا بيانيًا عاليًا يمكن أن يربَّى عليه الدَّاعية ، ويمكنه أن يدركَ المقام الّذي يعلي فيه شيْئًا على شيْءٍ ، وأنّ حسنَ البَصر بالنَّسق الوظيفيّ

للأشياء ، وهذا لا يكون إلا عَن بصيرةٍ ، وعن تهيئةٍ نفسيّةٍ وعقليّةٍ ، وكأنَّه يعدّ جندَه ليغزو بها ما أغلق من عَتي الحصون ، ولا ريب في أنَّ قلوبَ أهلِ الاستكبارِ أعتَى من عَتِيٍّ الحصون أمامَ الجند الأشاوس .

هذا يبرز لك أنَّ الجهادَ بالكلمة قد يكون أشقَّ على المرءِ مِن الجهادِ بالنَّفسِ ، ممّا يفهم منه مقاربة العالم المجاهد بقلمه الشهيدَ المجاهدَ بسيْفه ، فالقلم فِي يد العالم المسلم هو السَّيف في يد الجنديٍّ المستبسل ، وكلّ يحدِث تحوُّلاً في أمّته إلى الأمجدِ ، هذا بمدادِه وذاك بدمِه .

* * *

تبيين القول في آيات المعقد الثالث (الآيات : ٦٥-٨٩)

أشرت قَبْل إلَى أنَّ هذا المعقد بدأ بقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (النحل:٦٥) الَّتِي تحدَّثت عن الامتنان بإنزال الماءِ مِن السَّماء ، فعطف على قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (النحل:١٩) الَّتِي هِي تعقيبٌ علَى تعديدِ النِّعم فِي المعقد الأوَّل .

وإذا ناظرت هذه الآية الخامسة والسِّتين فِي أوَّل المعقد الثَّالث بالآية العاشرة فِي المعقد الأوَّل ، رأيت أنَّ آيةَ المعقدِ الثَّالث ذكرت للاستدلال بإحياءِ الأرضِ الميّتة بالماءِ علَى البعثِ ، ولذا قال : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (النحل:٦٥) .

وجعل السَّماع كافيًا هنا لإدراك قوّة الاستدلال ، يكفيك أن تسمعَ ، وذلك أنّه قد مهَّد السَّبيل إلى اليقين بالبعث لِمن أحسنَ السَّمع ، وذلك بما أقامَه فِي المعقدِ الأوَّل مِن الاستدلال بآلائه ونعمِه على وحدانيَّته وعلمِه وقدرتِه العامَّة ،

وقدرتِه على البعثِ ، وكذلك بما قوَّض مِن شبهات المستكبرين واعتِراضَاتهم في المعقدِ الثَّانِي ، كلّ ذلك جعل قوله ﷻ : ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ هنا آنس .

أمَّا الآيةُ العاشِرة والحادية عشرة في المعقد الأوّل ، فقد رتَّب علَى إنزالِ الماءِ الامتنانَ بالعطيَّة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ١٠-١١) .

وجعل ذلك الامتنانَ لملابسته الإنسان بحاجةٍ إلى أنْ ينعتِقَ مِن إلفِهِ ، فقال تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإحساس المرءِ بالِمنَّة فيما أَلِفَ ضعيفٌ ، ألا ترَى أنَّ المنَّة بِما يَجرِي فِي صدورِنا مِن التَّنفُّس جدّ عظيمة ، فأَيُّنا هو علَى ذُكرٍ دائمٍ أو غيرِ قليلٍ بهذه المنَّة ، فِي الإلفِ مقتلةٌ للذِّكرَى .

وأمرٌ آخرُ أنَّه لما كانت الآية العاشِرة والحادِية عشرة في مفتتحِ القولِ ، ولمَّا يقرَّر الأمر على كمالِه ، ولمَّا تنقضْ شبهات المستكبرين واعتراضاتهم كان الأليق أن يقولَ تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فهذا مِن التّدرّج البديع فِي التَّذييل .

والمتبصِّر فِي مفتتحِ هذا المعقد يرَى أنّ مفتتحَه هادٍ إلى ما بِه يقوم منهاج الدَّاعية إلى الله - تعالى - إن تبصّر :

في الآية الخامسة والسّتين حديثٌ عن إنزال الماء من بعد الحديث عن إنزال القرآن في الآية الرابعة والستين الَّتي ختم بها المعقد الثاني (الاعتراضي) ، ومن السّنّة البيانية للقرآن أنه في غالب الأمر أنه يقرن بين الإنزالين : إنزال الماء من السماء وإنزال القرآن من السماء :

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:٢٢-٢٣) .

فالماء رزق أجساد والقرآن رزق قلوب ، بالماء تعمير الدنيا ، وبالقرآن عمران الدنيا والآخرة ، وبالقرآن تحلّ في عقبى إنزال الماء البركة ، وتأمل كيف اقترن قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ (البقرة:٢٢) الدَّال على البعث ، وقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٤) .

والتّبصر في آية إنزال الماء وأثره في الأرضِ والحياة يهدِي إلى حسن التبصّر والتّدبر فِي آية تنزيل القرآن ، وأثره فِي القلوبِ والحياة كذلك تتنادَى الآيات ، وتتآذر ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعقِلون .

وتنظر في آيات هذه السّورة (النَّحل) :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (النحل:٦٤-٦٥) فترى جمعًا بين الإنزالين : إنزال الكتاب ، وإنزال الماء .

إنزال الكتاب تبيين ما اختلفوا فيه وهدًى ورحمةً ، وإنزال الماء إحياء الأرض بعد موتها ، ممن يفهم منه أن في تبيين ما اختلفوا فيه إحياء مواتِ قلوبهم .

وكان قد جعل إنزال الكتاب على النبيّ ﷺ خاتمة المعقد الثاني ، وجعله لتبين النبيّ ﷺ الَّذي اختلف فيه النَّاس ، وهذا عليّ الأنس بما جاءت له آيات

المعقد الثَّاني (الاعتراضيّ) ، فهي آيات تعرض شبهات المستكبرين واعتراضاتهم ، وقد بينتها الآيات .

﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة:٢١٣) .

﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٤) ، وجعله لقومٍ يؤمنون: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (النحل:٦٤) وتبصر علاقة هذا ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالدّعوة ومنهجها ، فالهدى «بيان طريق العلم المؤدي إلى الحقّ» وتلك رسالة الدَّاعية العظمَى ، والرَّحمة هي أهمّ أخلاق الدّاعية ، وبها يمكنه تحقيق رسالته على الوجه الَّذي يرضي خالقه ﷻ .

وجعل إنزال الماء ذكرى للبعث الذي سيقت آيات المعقد الثَّالث لتقرير قدرة الله ﷻ وأنّه واقعٌ لا محالة ، وجعلت هذه الآية مفتتح هذا المعقد الثَّالث .

وهو من بعد يرتّب على ذِكر الإنزال الماء ذكر ما ينتجه الإنزال فِي مرأى العين : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل:٦٦-٦٧) .

في هاتين الآيتين اعتبار بما له كان البيان هنا :

الأول : الأظهر إثبات القدرة على البعث الَّذِي هو لازمٌ مِن لوازم وحدانيته وعدله وعلمه .

والآخر : وهو الألطف الإشارة إلى المنهج الأمثل للدَّاعية في ممارسة رسالته .

الأول : إثبات البعث يتراءَى لك في إخراج اللَّبن صافيًا مِن بيْن فرث ودمٍ ، فمن كان على ذلك القدير .

أفيعجز عن أن يخرجنا من بطن الأرض من بين ما فيها خالصين ، كما كنا في الدّنيا لم يضع منًّا شيءٌ على تطاول أزمان الممات ؟

وإذا ما أقدركم على أن تستخرجوا من الثَّمرات ما هو مكنونٌ فيها ، أفيعجز الَّذِي أقدركم على ذلك عن أنْ يستخرجكم من الأرض الَّتِي أودعكم فيها ؟

والآخر : بيانٌ للدَّاعية إلى الله ـ تعالى ـ أن يستخرج الهدى من الضلالات ، يخلصه منها بثاقب بصيرته ولقانيته وحكمته استخلاص اللبن (رمز الفطرة والهدَى) من الفرث والدم (رمز القذر والنجاسة) .

وتبصّر المفارقة العظيمة بين لون اللبن ولون ما استخرج منه (الدّم) ، ورائحة اللبن وطعمه وما استخرج منه (الفرْث) !!! وفي هذا إشارة إلى أهمية التَّلطف في استخراج معالم الهدَى وملامحه في ممارسة الدَّعوة ، فالفراسة والّلقانية من مقومات منهج الدّعوى إلى الله ـ تعالى ـ وتأمل الإشارة اللطيفة العليّة في قولـه : ﴿ **خَالِصًا سَآئِغًا** ﴾ (النحل:٦٦) إنَّها إشارةٌ تهدِي الدَّاعيةَ أن يكونَ استخراجه الهدَى خالصًا من كلّ شبهةٍ أو غموضٍ ولبسٍ ، وإثارةٍ لتوقُّف ، وأن يكونَ عَرْضه الهدَى وطَرْحه للمدعوين سائغًا يجرِي إلى القلوب وفيها ، فتَتشرَّبه كما يتشرَّب المرء اللبن ، ولذا قال للشاربين ، وكأنَّ في هذا إيماءً إلى أن يكون الداعية مقتدراً على أن يشْربَ المدعوين الهدى ، فيختلط بهم ، عليْه أن يسعى إلى أن يكون مَليكا لما يحقق له ذلك احتسابًا لوجه الله ـ تعالى ـ .

وفي قوله ﷻ : ﴿ **وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (النحل:٦٧) بيان للداعية أنّ المرء إذا أحسن المنهج وأتقن الممارسة استخرج الرِّزق الحسن ، وإن هو أهمل أو ضلّ أو تقاعس فإنّه يستخرج السّكر الّذي يغلق العقل ، ويكبّله ،

فيحيل النِّعمة نقمةً ، ويستخرج مِن النُّور ظلمةً ، فيكون هلكة قومِه ونفسِه من قبلُ ، كلُّ ذلك فيه كما ترَى منهاج تربية عَلِيّ للدّعاة إلى الله ـ تعالى ـ .

ويعطف على نعمــة إنزال المــاء نعمةً أخرَى هي معقــد العبرة العظمى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل:٦٨-٦٩) .

والعلاقة بين الإيحاء والإنزال جدّ قوية وظاهرة ، وفي اصطفاء اسمه (الرب) مضافًا إلى ضمير خطاب النبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ إيماء إلى أَنّ في هذا الإيحاء للنّحل عظيمَ تفضّل ، فمن السُّنة البيانيّة للقرآن أنّه إذا أراد الإشارة إلى عظيم التَّجلّي بكمال التّربية بما يحدثك عنه ، يأتي باسمه (الرب) مضافًا إلى خطاب النّبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ لأنّه لم يتجلّ بكمال الرّبوبيّة وجليلها على أحدٍ مِن عباده كما تجلّى لسيدنا محمَّد ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ .

وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ العبرةَ العظمَى فـي هـذا الإيحاءِ لن يفهمَها عـن الله ـ تعالى ـ أحدٌ ، كمثل ما يفهم النَّبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ .

وفي هذا إيماءٌ إلى ما يتضمَّنه حال النّحل مِن لطيف العبرة والهدى ، ولكنّ أكثرَ النَّاس لا يعقلون .

ولمّا كان حال النحّل من أكمل أحوال الكائنات شبه النّبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ بحالها حال المؤمن .

روى أحمد بسنده عن عَبْدِ اللهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُما ـ أن النبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قال : « وَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكمَثَلِ النَّحْلَةِ ، أَكَلَتْ طَيِّبًا ، وَوَضَعَتْ طَيِّبًا ، وَوَقَعَتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَلَمْ تَفْسُدْ »...) .

في هذا النبأ النَّبويّ حثّ بالغٌ على أنّ يكونَ كلُّ مؤمنٍ كما أنبأ رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ وأن يستحيل هذا واقعًا ، فيكون حقّه الإخبار عنْه لا أن يؤمر به ، ومَن كان مدعِيًا محبته رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ فليكن هذا شأنه الّذي لا يحيد عنه .

الدّاعيةُ ـ وكلُّ مؤمن داعية بلسان حاله ، وهو الأجلى بيانا والأصدق نبأً ، والأنجع أثرًا والأكرم عطاء ـ لِيكنْ حاله حالَ النَّحلة يأخذ من كلّ فنون العلم ، ويستخرج منها أحسنها غذاءً وشفاءً ، فمن ابتغَى الغذاء وجد ، ومن ابتغَى الشّفاءَ وجد ، ومَن ابتغَى التَّفكُّه وجد ، ولا يكون من ذلك إلا ما ينفع ، وقد جمع النَّبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ للمؤمن النَّحلة أربعُ خصال :

تأكلُ الطَّيب ـ وتضع الطَّيب ـ وإذا وقعت على عودٍ لم تكسره ـ ولم تفسِد .

وأوَّل الخصال هو رأسها ومعدنها : « أكلت طيِّبا » فمَن كان غذاؤه طيبًا ، فلن ينتجَ إلاَّ طيِّبًا في ظاهرِه وباطنِه ، وغذاء المؤمن عامّة ، والدَّاعية خاصة الإيمان والعلم والحكمة ، وهذا للمؤمن بمنزلة رحيق الأزهار للنَّحلة ، وكان من همّ النَّبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ في هذا أن يبرزَ جانب المسالمة الاجتماعيّة والإصلاح فِي الأرض ، فأبرز خصلتين عظيمتين : « وإذَا وَقَعَتْ عَلَى عُودٍ لَمْ تَكسِرْه ـ وَلَمْ تُفْسِدْ » ، وما أحوجَنا إليهما فِي كلِّ عصرٍ ومصرٍ .

فهذه الآية : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (النحل:٦٨) تحمِل بنظمِها العليّ إلى القلبِ المتبصّر فيضًا مِن الهـدَى ، ففِي كلّ كلمةٍ نورٌ تشـرق به القلوب . لا يَسَع القلب إلا أن يتدبّر هذا الاصطفاء لفعل (الوحي) وإسناده إلى اسم الرُّبوبيَّة المضافِ إلى كافِ خطابِ النَّبيِّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلَّم ـ كما أشرت من قبل ، فهو وحيٌ فيه لطفٌ وفيه عظيمُ تربيةٍ ، وفي بيان ما أوحي بأن جعلها هي الّتي تتخذ ، عليها أن تعملَ ، ولا تتكل ، وأن يكون عملها اتخاذًا ، وهذا فيه دَلالةٌ على أهميّة الاجتهادِ في العمل ، ولذا لم يقـل ابني ، أو اسكني ، وبدأ بالجبال لأنها الأشقُّ مِن جهة ، والآمن مِن ثانية ، ثمَّ هي الأكثر فِي أرضِ العربِ ، وهي الأنقى ، فما ينتج في بيوت النّحلِ في الجبالِ أنقى وأطيب ، ثمَّ أردفه بما هو أدنَى ﴿ وَمِنَ ٱلشَّجَرِ ﴾ ثم ما هــو الأدنَى من كُلٍّ ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ وفي هذا أيضًا هدايةٌ للدَّاعية أن يحسنَ تنويع مصادره ، ومجالاته ، وأن يختـارَ الأمثلَ ، إلاَّ إذا تَعسَّر عليه أو تعذّر .

ويأتي قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ (النحل:٦٩) وفي هذا من التَّربية المنهجيَّة للدَّاعية ما فِيه : الإحاطة فِي مصادر المعرفة ، واليسْر في الدّعوةِ والمسلكِ ، فإنّ الرِّفقَ لا يكون فِي شيْءٍ إلاَّ زانَه .

وأوْلَى النَّاسِ باتخاذ الرِّفق هم الدّعاة : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران:١٥٩) .

وفي اصطفاء ﴿ سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ إشارةً إلى امتـدادِ السّبيل واستقامته وإبلاغه الغاية ، وإشارة إلى أنّ هذا يتَّخذ من فيضِ الرّبوبية ، فمن حسْنِ التَّربية في

المنهجِ أن يسلكَ الدَّاعية سبيلاً لا ينقطع ، ولا يلتوِي ، ولا يضِلّ ، فتضاربَ الطّرق والمسالك قد يؤدّي إلى ما لا تحمَد عقباه .

ويأتِي قوله ﷻ ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (النحل:٦٩) ليأخذ منه الدَّاعية ما يجِب عليْه أن ينتجَ ممَّا تلقى مِن العلم والمعرفة : شرابٌ متنوّعٌ يصلِح كلَّ عصْرٍ ومصْرٍ ، وينبِئ الحقّ عزَّ وَعَلا أنَّ فِي هذا الَّذي أهداه منهاجَ حياةٍ آيةً جليلة لمن كان قوَّاما بالتَّفكير ، يقلب الأمور ، يسبر أغوارها ، يعتصرها ، لا يحلّ حتّى يرتحل .

كذلِك تأتِي هذه الآية حاملةً فيضًا مِن التَّذكير بالنّعم الَّتِي يقرِّر التَّفكّر فيها يقينًا بوحدانية الله ـ تعالَى ـ وكمال علمه ، وقدرته على كلّ شيْءٍ وعلى البعثِ والإخراجِ مِن باطنِ الأرض ، وحاملة فيضًا مِن الإبانةِ عَن المنهاج الأمثل الَّذي يكون عليه الدّاعية (النّحلة) فِي قومِه . وتوالت بعد ذلك الآيات تعدّد النّعمَ الممتنّ بها على الإنسانِ ، وفِي كلِّ نِعمةٍ ما يستدلُّ به على وحدانيّة الله ﷻ وقدرتِه على كلِّ شيْءٍ ، وعلى البعثِ خاصَّة ، وفي ثبَجِ هذا التَّعداد للنّعم الممتنّ بها استدلالاً يصرِّح بأمرِ السَّاعة قائلا جَلَّ جلاله :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النحل:٧٧) .

ثم يستمرّ في تعديد النّعم ليختمَ ذلك بقوله ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (النحل:٨١) وهذه في هذا المعقد الثَّالث تناظر قوله عزَّ وَعَلا في المعقد الأول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل:١٨) ، وتدبر خاتمة كلّ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وكيف أنَّ قوله تعالى هنا : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أليق بخاتمة الامتنان ، فقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ إغراء بإسلام الوجه لله

- تعالى - فِي جميعِ الأمور ، وإسلام الوجه له تعالى هو جوهر العبادة الَّتِي هِي بلوغ الغاية فِي صدقِ التَّذلّل .

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:١١٢) .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (النساء:١٢٥) .

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان:٢٢) .

فإسلام الوجه لله - تعالى - هو الغاية الَّتِي يساق العباد لِتحقيقِها ، ويقبل على سيد الدّعاة إلى الله ﷺ مخففًا عنه ثقل الشّعور بعظيم الرِّسالة ، مؤكدًا له أنّه ليس عليه إلاّ أن يجتهدَ فِي الإبلاغِ ، فلا يدع سبيلاً مِن سبل ربّه ذُلُلاً إلاّ سلكَه ، مبرزًا له أن مَن يتولّى معرضًا ، فما عَن جهالـةٍ قامت به مِن تقصيرِك في الإبلاغِ ، بل هو الاستكبار :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (النحل:٨٢-٨٣) .

وهـذه الآية تتلاحـظ مع قولـه تعالى في مفتتح آيات المعقـد الثّـاني : ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل:٢٢) .

تدبَّر كيف استفتح الثّانِي بما ختم به الثّالث ، كما ختم الأول : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ بما ختم به المقدّمة : ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ (النحل:٢) .

تبصّر كيف تقام معالم الهدَى على الطَّريق ، وفِي هذا تربيةٌ منهجيّةٌ للدَّاعيةِ يتزوَّد فِي مسيرِه إلى طَلِبته .

وإذا ما أقام الله ﷻ التَّصريح بالبعثِ في ثَبج تعداد النّعم في هذا المعقد الثّالث ، فإنّه يختم المعقدَ أيضًا ببسطِ القولِ الصَّريح فِي إثبات البعث على نحوٍ لم يَسبق في السّورة قائلاً ﷻ :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النحل:٨٤-٨٩) .

وهو يعطف قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ على مقتضَى قوله ﷻ : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النحل:٨٢) أيْ فبلِّغهم بلاغًا مبينًا وخوفهم يوم نبعث مِن كلّ أمةٍ شهيدًا أنّـه قد بُلِّغوا الحقّ ، فتولَّوا ، وحينئذٍ لا يؤذن للّذين كفروا أن يعتذروا ويعتبوا ، فإنّهم لايستعتبون .....

وكمثله قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النحل:٨٩) .

وهـو يختـم آيات المعقد الثّالث بالحديث عـن إنـزالـه القرآن عـلـى النّبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ووظيفة هذا الكتاب : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩) ، كمثل ما ختم المعقد الثّاني : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل:٦٤).

وتبصر ما ختم به آخر المعقد الثَّاني ، وما ختم به آخر المعقد الثَّالث :

﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل: ٦٤) .

﴿ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩) .

هنالك تبيين الَّذي اختلفوا فيه ، وهنا تبيين لكلِّ شيْءٍ ، هكذا يترقَّى التّبْيين ، وهنالك ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهنا : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

والإسلام الذي هو إسلام الوجه لله هو ثمرة الإيمان ، ولا يكون إلاّ ممّن كمل إيمانه وقرَّ في قلبه وملك جوارحه وظاهره وباطنه ، ولذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَبُشْرَىٰ ﴾ وسيؤكّد هذه البشرَى مرَّة أخرَى بعد آياتٍ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ١٠٢) ، وسيستفتح سورة «النّمل» بهذه البشرَى أيضًا : ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (النمل: ١-٣) .

وممَّا يحسن التّذكير به أنَّ آياتِ المعقد الثَّالث (الآيات : ٦٥-٨٩) معطوفةٌ على خاتمة آيات المعقد الأوَّل ، إنْ فعلْنا استطعنا أنْ نبصرَ التَّنسيق البديع بحيث يتأتّي لمن أراد أن يرسُمَ تتابعَ الآياتِ في كلٍّ ، فيُشكّل دائرةً ملتحمةً بشعبةٍ في الدَّائرة الأُخرَى .

وكذلك التَّذكير بأنَّ آيات المعقد الثَّالث (الآيات : ٦٥-٨٩) وإنْ تشابهت مع آياتِ المعقدِ الأول (الآيات:٣-٢٢) في تعديد النَّعم إلا أنّها تختلف معها اختلافا ظاهرًا ، حيث إنَّ تعديدَ النّعم في المعقد الأوَّل (الآيات : ٣-٢٢) كان

القصد الرَّئيس إلى الاستدلال المتضمّن امتنانا ، فهي تخاطب العقل أولاً والنَّفس من خلالِه ، أمَّا التَّعديد فِي آياتِ المعقد الثَّالث: (الآيات : ٦٥-٨٩) فالقصد الرَّئيس إلى الامتنان المتضمّن استدلالاً ، فكانت تخاطب النَّفس أولاً بعد أن حطَّمت آيات المعقد الثَّاني (الاعتراضيّ) (الآيات : ٢٢-٦٤) : شُبُهات المستكبرين واعتراضاتهم ، ولذلك رأينا آياتِ المعقد الثَّالث (الآيات : ٦٥-٨٩) تضع في داخلها ما تحطِّم به ما قد يبقَى من شبيهاته عالقًا ببعض النُّفوس ، فدمغتها بالآيات (٧٤-٧٧) :

﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النحل:٧٤-٧٧) فتكون مسيرة السُّورة على هذا النَّحو في تصاعدٍ مستمرٍ ونموٍ مطَّرد يتجاوب مع طبيعة النَّفس والعقل ، حيث بدأ بمخاطبة العقل ، ثمّ حطمت شبهات ما تمرَّد منه ، فتركته أعزلَ ، ثمَّ انعطفت على النَّفس تخاطبها في آيات المعقـد الثَّالث (الآيات : ٦٥-٨٩) وتقنّعها بمنطِق الشُّعور بعد أن خاطبت العقلَ بمنطقِه ، فجمعت السُّورة بين منطق العقل ومنطقِ الشُّعور .

وفي هذا منهجٌ تربويٌّ للدّاعية إلى الله ﷻ ، وما يحسُن به أن يتَّخذه من سبيل إلى تحقيقِ رسالتِه ، فهذه طريقةٌ في الحِجاج والمجادلة بالَّتي هي أحسن تُبلِغُ منتهَى المقصدِ .

مضمون السُّورة ومقصودها هما اللَّذان اقتضيا هذا النَّهج التّركيبيّ البيانيّ ، فأنبأ منهج البناء عن المضمون والمغزَى إنباء الصُّورة (النّظم) عَن المعنَى على مستوَى الجملةِ والآيةِ ، فكما أنّ نظرية النّظم تؤكِّد أنَّ بناءَ صورةِ المعنَى هو انعكاسٌ لبناءِ المعنَى ، فالأمر قريبٌ منه في مستوَى البناءِ التَّركيبيّ للسُّورة هو ثمرةٌ لمضمونِها ومغزاها .

هذا يؤكِّد أنَّ البلاغة القرآنية قد فتحتْ هذا السّبيلَ على نحوٍ لاسبيلَ للعرب أنْ تسلكه وإن كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا ، وهذا هو المعلمُ الأهمُّ والأعلى مِن معالم البلاغة القُرآنيّة .

* * *

تعقيبُ معاقد السّورة :

الدَّعوة إلى مكارم الأخلاق (الآيات : ٩٥-١٢٤)

تنزل الآيات (٩٥-١٢٤) منزلة تعقيبٍ للمعاقد الثَّلاثة ، وهي هنا بمثابة الوصيّة للدَّاعية إلى الله ﷻ السَّالك المنهج الّذي رسمته السُّورة في معاقدها الثّلاثة ، فهذه الوصيّة الربّانيّة للدّاعية ترسيخٌ لدعائم هذا المنهج في قلبه ، وترسيخ لقدم الدَّاعية على لاحب هذا المنهاجِ ، ولذا كانت هذه الخاتمة الوصيّة قائمةً بالدّعوة إلى مكارم الأخلاقِ الَّتِي يتحلّى بها المسلمون عامَّة والدّعاة منهم خاصَّة .

تبدأُ الوصيَّة من أوَّل قول الله ﷻ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠) .

إلى أوَّل قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥) .

استفتحت الوصيةَ بالخُلق الكليِّ الّذِي تندرج تحته كلُّ مكارمِ الأخلاق ، وهذا مِن السّنة البيانيّةِ للقرآن ، يجعل رأسَ الأمرِ ما هو كليٌّ ضابطٌ لما يتوافدُ من بعده .

هذا التَّناسل في توارد المعاني يؤكّد مبدأَ الإمامةِ والانتظامِ والاطّرادِ والتّوحّدِ في القصد في الحياة الإسلامية في كافة جنباتها ، لابدَّ من الإمامِ ، ففيه ضبطٌ لحركة الحياة ألا تَرَى أنّ أعظمَ حالاتِ المسلمِ صلاتُه ، جعله الله ﷻ من وراء إمامٍ يتقدمهُم بين يدَيْ ربه تعالى وهم يفدون إليه ، ويقفون في بيته يستجدون رضوانه ، ولو علم الأئمة في بيوت الله ـ سُبْحانَه وَتَعَالَى ـ قدر َمقامهم هذا لما كان بملك أحدِهم أن ينصرفَ باطنه عمًّا جعلَ إمامَ قومِه فيه ، وفي هذا تربيةٌ منهجيّة للدُّعاة لو كانوا يتفكّرون .

الأهمّ هنا أنّ البيانَ القرآنيّ يستفتح القول هنا بالخُلق الكلي : رأس مكارمِ الأخلاق : (العدل) ، وهذا إذا ما تحقق في أيّ مجتمع ، فهو المجتمع المتكامل ، بل الكامل ، فمجتمعٌ لا ظلم فيه للنفس والآخر هو المجتمع المثاليّ ، ورأس ظلمِ النّفسِ الشركُ بالله . ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام:٨٢) .

وهذا ما أقيمت سورة (النحل) لبيان منهاج الدعوة إلى التّطهر من أدنى صوره ، فهو أخفى ما يكون حركةً إلى غير قليلٍ من النفوسِ .

وأحقّ الناس بإقامة العدلِ مع نفسِه والآخرين هو الدَّاعية إلى الله ﷻ ، فالعدل مفتاح مغاليق القلوب ، لأنّـه دعوةٌ بلسان الحال ، ولسان الحال أبلغ

وأصدق وأنجع مِن لسان المقال ، وما يضرُّ الدَّعوة الإسلاميّة لكنة أو حبسة في لسان الدَّاعية بمقدار ما يضرُّها لكنةٌ أو عجمةٌ في سلوكه وأخلاقه .

الاستهلال بأنَّ الله ﷻ يأمرُ بالعدل والإحسان دون تعيين المأمور بذلك ، ودون تعيين من يكون العدل والإحسان معه فيه دلالة بيّنة على أنهما مطلبان من كل مسلمٍ ، ومن الدعاة خاصّة ، ومطلبان لكلّ إنسان مسلمٍ أو غيرِه ، فالمسلم والداعية إلى الله - سُبْحانَه وَتَعَالَى - فرض عينٍ عليه أن يعدلَ وأن يُحسِنَ مع الآخرين ، فالعدل مبدأ الأمر ، والإحسان أعلاه . وأول الإحسان الإحسان في إنفاذ العدل وتحقيقه (إذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة).

ويأتي من بعدهما الأمر بإيتاء ذي القربى ، والإيتاء هنا أعلى كيفية من الإعطاء في حق البشر : الإيتاء يكون عن طيب نفسٍ وشعور بالسَّعادة عند ممارسة الفعل ، والشُّعور بأنّ المؤتِي ليس بالمتفضّل على من يؤتيه من فضل الله - سُبْحانَه وَتَعَالَى - ، بل إنَّ الَّذي يُؤتَى (بفتح عين) هو المتفضّل على المْؤتِي (بكسر العين) إذ قبل منه نواله ، ولولا إحساس مَن أنت مؤتيه من فضل الله ﷻ الّذي في يمينك أنك خيرٌ منه لما قبل ما أنت مؤتيه ، إذ كيف يقبلُ المرء تفضلاً ممن هو دونه ؟!

ذلك في منطق الفِطر السوية غير مقبول .

والإيتاء كما قلتُ فعلٌ يصدر عن نفسٍ رضيّة ترَى في أن تمنحَ غيرَها إحسانا أعظمَ من أنْ يمنحَها غيرُها .

وهو إذا يُعيّن من يؤتى العطيّة في قوله ﷻ : ﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (النحل: ٩٠) فهذا يشملُ كلَّ مسلمٍ ، القربَى هنا ليست قربَى النَّسبِ بل هي قُربى الإسلام ، وقربَى الإسلام قُربى حسَب: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠).

إيتاءُ ذي القربَى منزلة خاصة هي فوق منـزلـة الإحسان في إنفاذ العدل وتحقيقه ، وهو لم يعين ما يؤتيه المرءُ لذي القربى ، وكأنَّ كلّ ما فاضَ عن حاجتك هو محل لأن يؤتى لذي القربى إذا ما احتاج إليه ، فما يحتاج إليه ذو قربى ممًّا لست بحاجةٍ إليه ممًّا وضعه الله ﷻ في يمينك ، فإنّ الله ـ تَعَالَى ـ يأمر بإيتائه ذي القربى .

هـذا هو السُّمو في مكارم الأخلاق ، وهو يقابله بما لا يليق بمسلم أن يتلطخَ به ، ولذا نهى الله ﷻ عنه : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ﴾ (النحل:٩٠) وأنت تلحظ النَّسق الدَّائريّ : البغْي المختوم به يقابل «العدل» المبدوء بِه .

والفحشاء تقابل ﴿ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (النحل:٩٠) ؛ لأنّه إذا ما كان إيتاء ذي القربى زائدًا بخصوصيته على الإحسان في إنفاذ الحقّ ، فإنّ الفحش زائدٌ على الظُّلم ، لأنّـه فجــورٌ في الظُّلم ، ولذا غلب هذا على فعل الزّنا ، وهو من أعظم البغي والظُّلم .

الاعتداء على الأعراض أنكَى أثرًا من الاعتداء على الأموال بل الأرواح ، يعرف ذلك الشُّرفاء ، وقد جعل عقاب من وقع منه محصنا الرّجمَ ، وهو عقابٌ مهينٌ أليم . أشدُّ من عقاب القتل عمدًا .

وإذا ما كان الإحسان ذروة العدل ، فهو منحُ ما ليس بمستوجب بل مستحسن ، فالمنكر يطلق على ما هو الأدنى من العصيان ، فتنكره الفطرة ، ولذا كانت دائرة (المنكر) متسعة تبدأ فِي حقّ الأصفياء بما هو خلاف الأولى ، ليتصاعد في حقّ الدهماء إلى ما هو الحرام .

ويختم الله ﷻ مفتتح الوصيّة بقوله ﷻ : ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٩٠) والفعل المصطفى هنا هو (التّذكر) ؛ ذلك أنَّ ما مضَى في المعاقد

الثّلاثة قرّر الأمور في القلوب ، لكنّها قد تغفل ، فلا تحتاج إلى تقرير ومراجعاتٍ ، بل يكفيها التّذكير ، كذلك وقعت هذه الفاصلة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ موقعًا آنسًا .

وكان قوله : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ جدَّ آنسٍ ، فالموعظة لا تؤسِّسُ علمًا جديدًا ، بل هي تثوِّر ما كان مؤسَّسًا قبلُ ، فالعالِمُ يؤسِّسُ ، والواعظُ يثوِّر ما أسَّس العالم . فخاتمة السُّورة تنزلُ مِن المعاقد الثلاثة منزلةَ الواعظِ من العالم ، وهذا من السُّنن البيانية للقرآن : الترقّي والتّصاعد .

وجاء قوله ﷻ : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل:٩١) معطوفًا على أوّل قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ (النساء:٥٨) لما تضمَّنه هذا الخبر من معنى الأمر ، فكأنـّه قيل اعدلوا ، وأحسنوا ، وآتوا ، واتركوا الفحشاء ... أو هو معطوفٌ على ما أفهمه السّياق ، وما ختمت به الآية من قوله ﷻ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أمرتكم ووعظتكم به لعلكم تتذكرون ، فتذكروا والزموا ما أمرتم به ، واجتنبوا ما نهيتكم عنه .

وأوّل المأمورات الوفاءُ بالعهد الذي أخذه عليكم الحقُّ تعالى في عالم الذّرّ ؛ إنّه أوّل عهد ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٧٢) .

والوفاء بالعهد من العدل الّذي هو أوّل المأمورات في الآية التِّسعين .

وهكذا تستمرُّ الآيات ترسُم الطَّريق أمرًا بمعروفٍ ونهيًا عَن منكر ، ليأتي قوله ﷻ : ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ

صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٥-٩٧) ليقيمَ الدَّاعية مقام المرابطة الَّتي لا تلتفت إلى عَرضٍ من الدُّنيا ، ولا تتخذ الدَّعوة سبيلاً إلى مكسبٍ من زخرفِ الحياة الفانية ، ولا يقوّض سعي الدَّاعية كمثل ما يقوّضه الالتفات بعمله إلى عرضٍ من الدنيا ، هنالك تتهاوَى القوَى ، وتخور العزائم ، ويضلُّ القلب ، وينفلت الّلسان غير معقولٍ بعقال الحقِّ ، فيهدِم في لحظةٍ ما بنِي في سنواتٍ ، فإذا بالدّاعية كالَّتي نقضت غَزلها مِن بعدِ قوَّةٍ أنكاثا ، ونظرة في واقع الدّعاة في زماننا هذا تريك صدق الّذي قلت ، وبه تتبين موضع الخلل ، علة العقم في الدَّعوة على الرَّغم من كثر المنابر والمحافلِ ووسائل الإرشاد والوعظ . كثرت الجياد وقلَّ الفرسان .

بيّن الله ﷻ أمرًا بالغَ الأهمية لكلّ مسلمٍ داعية ومدعوًا إلى الخير :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل:٩٦-٩٧) .

هاتان الآيتان إذا قامتا في قلب المسلمِ عامّة والدّاعية خاصّة استفحل إخلاصه وطلبه القربَى ممّن له ملك السَّموات والأرض سبحانَه وتَعالَى ، واستوثق نجحه في فؤاده ، فإذا هو لا يَلوِي على شيْءٍ ممًّا في أيدي النَّاس نفعًا أو ضُرًّا ، وتلك التي عليها يكون مبلغ النُجح .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (المجادلة:٢٢) .

ومنْ فيوضِ الرَّحيمية يأتي بيانه جَلَّ جلاله السياج الَّذي يحاجز المسلم عامَّة ، والدَّاعية خاصّة من أفاعيل الشَّيطان ، فيهدي إلينا قوله ﷻ : ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ (النحل:٩٨-١٠٠) .

كذلك يبين لنا عَزَّ وَعَلا عجزَ الشَّيطان على الرَّغم من تقاسمه بالله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦-١٧) .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ (النحل:٩٩-١٠٠) أمنةٌ تقيم القلبَ المسلم في حصانةٍ وقوَّة وثقةٍ بالنَّصر المبين على الشَّيطان وحزبه ، ويبين لهم مواقف أولئك الذين يتولون الشيطان ، فهم بسبب من تلك الموالاة مشركون بالله ﷻ منزِّل القرآن الكريم الَّذي هو السِّياج لهم ـ إن عقلوا ـ مِن مذلّة التذلّل للشيطان ، فقال ﷻ : ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا

يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِى ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (النحل:١٠١-١٠٩) .

وهو إذ يبيّن ذلك لم يغلق الطَّريق على مِن أناب منهم ، ورغَّب في الهَوْد والتَّوْب ، فأبرز أن مَن شاء ذلك ، فإنَّ الله ـ عَزَّ وَعَلا ـ المتجلّي بكمال فيض ربوبيَّته على خيرةِ خلقه هو لأُولئك الرَّاغبين فِي الهَوْدِ والإنابة : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ ﴾ (النحل:١١٠) تبصّر فيض الرُّبوبيّة المتدفّق فِي مجرى هذه اللام في ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ فمن كان الرب له ، فأيّ نوال ذلك الّذِي يتوافد عليه ؟ !!!

والنّبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ يصور لنا إقبال الله ﷻ علَى مَن هاد وأناب : روَى البخاري في باب «التّوبة» من صحيحه بسنده عَنْ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْـنُ مَسْعُودٍ ﷺ حَدِيثَيْنِ أَحَدُهُمَا عَـنْ النَّبِيِّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ وَالْآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ : «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّـهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا ـ قَالَ أَبُـو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ ـ ثُمَّ قَالَ :

«لَلَّهُ أَفْرحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلا ، وَبِهِ مَهْلَكَةٌ ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ ، فَنَامَ نَوْمَةً ، فَاسْتَيْقَظَ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي ، فَرَجَعَ ، فَنَامَ نَوْمَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ» .

ويأتي قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (النحل:١١٠) مبينًا وجه البيان بهذه (اللام) في ﴿ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ (النحل:١١٠) .

ولهذا فصل قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (النحل:١١٠) عن قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ ﴾ (النحل:١١٠) .

ويستمرّ البيان ليختمه بتأكيد الوعد لمن تاب وأناب :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل:١١٩) .

وفي هذا من التَّربية المنهجيَّة للمسلمين عامَّة ، والدُّعاة منهم خاصّة .

في هذا تربية لهم وتعليمٌ ألا يغلقوا أبواب الإقبالِ والإفضال في وجه مَن تصدَّى لهم يومًا ، فلما انكشف الغطاء أناب .

لتكن قلوبكم مفتحة بالرّضوان لمن عرف الحقّ فتبعه .

ولو أنّ الدُّعاةَ تأدَّبوا بذلك لاكتسبوا للهدى جندًا أو أعوانًا ، ولأزاحوا مِن سبيلهم كدًى وعقابيل هم أحوج ما يكونون إلى إزاحتها ، وليس أخسر مِن داعيةٍ يسعى إلى تغازر مناوئيه من حوله .

إنّ تأليف القلوب منْ أقوَى عوامل استفراغ السبيل في مسيرتك إلى الخير الَّذي إذا ما فرغت له قَوِيَ ، فكان أقدرَ على أن يقوم قيامًا تخرُّ أعاصير الباطل

تحت قدميه ، ولكنك ترَى غير قليل مِن الدُّعاة ومن يريدون أن يعلموا النَّاس الخير يشتدُّون في خطابهم ، ويقسون على مَن ركب متن الجهالة ، وسقط فِي ردغة الضَّلالة ، ظنًّا منهم أنَّ في هذا عزّة الدّعوة والدّعاة ، كلاّ .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩) .

روَى الشّيْخان من حديث عَائِشَةَ أم المؤمنيـن ـ رَضِـيَ الله عَنـها ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ : « يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ». (النصّ لمسلم : البر والصلة والأدب) .

ليكن الدّاعية لمن أناب عن جهالة ، وتاب من ضلالة ، رفيقًا شفيقًا يصطفيه بمزيدٍ من العنايةِ ، ويذكره بما فيه من عوامل الخيرِ الكامنةِ فيه وقد عطلها ، ويصفّيه مِن دَغَلٍ قد يبقَى من أثارة ويَشْفِيه من عَباقِيل ناشبة بقلبِه فالدّعاة أطبَّاء القلوب ، فليكونوا لهم كما كان الله ﷻ لهم :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ ﴾

(النحل:١١٠) .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ ﴾ (النحل:١١٩) فهذا مِن التَّخلّق بصفات الله ﷻ التي يحبُّ الله ﷻ أن يتخلّق بها عباده .

ويقدّم الله ـ تعالى ـ للدّعاة الأسوة والقدوة أبا الأنبياء ، وإمام الـدعاة إلـى الله ﷻ سيدنا إبراهيم عليه السلام :



﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل: ١٢٠-١٢٣) .

وفي هذا إشارة إلى أنّ ما يدعون إليه من مكارم الأخلاق ، وينهون عنه من مفاسدها إنّما هو الّذي جاء به أبوهم إبراهيم عليه السلام وهم من أشدّ النّاس استمساكًا بميراث آبائهم ، وأحقُّ الآباء بهذا أبوهم إبراهيم عليه السلام ، ففتح لهم باب الأمل في العودة إليه استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام ، فوضح لهم حقيقة أبيهم عربًا ، فإن كانوا كما يدّعون حقًّا أنّهم على دين آبائهم ، فأبوهم الأكبر الأعظم الأمّة عليه السلام ما كان مشركا ، وإنّما كان أمة قَانِتًا لله حنيفًا ، ولم يك قطُّ من المشركين .

هذه الآيات : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ جاءت لتعلّل ما قبلها ولتجمع لأبينا إبراهيم ـ عليهِ الصّلاة والسّلام ـ مِن العظمة الّتي بها كان وحده جديرًا بأنّ يؤمّه كلُّ واحدٍ وأن يتبعه جميع البشر ﴿ كَانَ أُمَّةً ﴾ .

وجاء قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ معطوفًا بـ(ثمّ) الدّالة على الترتيب الرتبي المقرّر لعلو رتبة ما بعدها على ما قبلها ، مصرحا بالأمر باتباعه موجها الأمر مباشرة لأحبِّ خلق الله إليه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ، وفي هذا إشارة إلى أنّ مِن أعظم خصائص سيدنا إبراهيم عليه السلام أن صار مقتدَى سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل:١٢٣) فكان ذلك تصعيداً لإلهابهم لقبول الدّعوة الإسلامية .

جاءت الآية لتقول للعربِ إن النبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ لم يخرج عمّا زعمتم أنكم عليه من الاقتداء بآبائكم والاهتداء بهم .

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٢-٢٣) .

جاءكم بما هو الاقتداء بأبيكم إبراهيم عليه السلام الأحق بالاقتداء والاهتداء ، فلِمَ أنتم عنه راغبون ؟

وفي هذا من بلاغة المحاجة ما يرغم الأنوف . وبهذا تنتهي الآيات التي هي بمثابة خاتمة لمعاقد السّورة وتتميمٍ لها .

وعلينا أن نلحظ جيدًا أنّ السورة كانت تبرز التصـريـح بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، ولا سيّما توحيد الألوهية (العبادة) الذي هو مناط المنازعة في مفاصل القول ، نجد ذلك آخر الآية الثانية ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ (النحل:٢) وفي آخر آيات المعقد الأول (الآيات:٣-٢٢) : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (النحل:٢٢) وهذه الجملة هي صدر للآية الّتي هي صدر المعقد الثاني (الآيات : ٢٢-٦٤) وقد عطفت عليها بالفاء الدالة على التعقيب والتفريغ . ثم تأتى آيات المعقد الثاني لتنصّ في وسطها صراحة على النّهى عن الإشراك والتصرّح بالوحدانية :

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ (النحل:٥١-٥٣) .

وينتهي حديثها ببيان أنَّ ما أنزل القرآن الكريم على المصطفى ﷺ إلاَّ ليبين لهم الَّذي اختلفوا فيه .

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل:٦٤) .

ومن أبرز ما اختلفوا فيه الوحدانية (توحيد الألوهية : العبادة) والقدرة ولاسيما القدرة علي البعث ، فتأتى آيات المعقد الثَّالث (الآيات : ٦٥-٨٩) لتختم حديثها بمثل ما ختمت به آيات المعقد الثَّاني :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩) ليأتي التَّعقيب على هذه المعاقد مستهلاً بالتَّصريح بالأمر بالعدل ، وأول درجات العدل الإيمان بوحدانية الله ﷻ وكمال علمه وقدرته ، ثمَّ تختم آيات هذا التَّعقيب بحديثها عن أعظم الموحدين سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وتنفي عنه الإشراك ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(النحل:١٢٠-١٢٢) .

وبهذا تستطيع أن تستوضح جيدا براعة التوزيع لإبراز عناصر السورة في مواقع دقيقة وحساسة ، وتبصر مستويات الترقّي والتصعيد في حركة المعنى القرآني في السُّورة ، ومستويات التَّشابك بين عناصره .

وممّا يحسن استحضاره أنّ السّورة قد اتخذت من الآيات الدّالة على توحيد الرّبوبية الّذي يسلِّم به المشركون برهانًا على توحيد الألوهية (العبادة) الّذي ينازع فيه المشركون .

هذا نافعٌ في تلقّي بلاغة الإقناع والمحاجة : أن يتخذ البليغ ممًّا يسلمُ به مخاطبه برهانا على ما يريد تقريره ممّا ينزع فيه المخاطب ، فليس أقوى وأفعل من أن تستولد ممّا يسلّم به خصمك دليلك على صحة ما تقول يخاصمك فيه ، وكأنك بهذا تطعنه في عقلِه ذلك أنَّ ما يهدم معتقـده قائمٌ في ما يعتقد ، وهذا لا يكون إلاّ من غفلةِ المرءِ عما هو متخذه معتقدًا .

* * *

المعقد الرّابع
في شأنِ تقسيم المعقد إلى نجوم وعلاقتها بالغرض المرحلي للمعقد

قلت قبل : إنَّ السُّور الطّوال والمئين ، وعظم المثاني ذات معاقد ، وأنّ كلّ معقد ذو نجومٍ من آياتٍ ، فكما أنّ لكلّ معقدٍ من السّورة غرضًا مرحليا خاضعا للغرضِ المحوريّ (المقصود الأعظم) للسّورة ، فإن المعقدَ ذو نجومٍ من آياتٍ يدور كلُّ نجمٍ على معنى تام في نفسِه يمثِّل دائرة متّصلة بدوائر النّجوم الأُخر الّتي تحيط بها دائرة المعقد .

وبمقدورك أن تستجنِي من هذا النّجم معانيَ تسْتكفِي بها وتغتني أيضًا فيما أنت إليْه ، إذا ما كان القصد إلى استنباط حكم عقدي أو شرعيّ أو أخلاقيّ ، وإن كان من وراء ما تستجنيه مكتفيا ومغتنيًا معانيَ هي أسمى وأغنى إذا ما تبصرت هذا النّجم في سورتِه ، وهي معانٍ تمنح المعاني العقدية والتشريعية والأخلاقية فاعليّة تجعلها الحاضرة في فؤاد المرءِ ومسلكِه وعلاقته بالله ـ تعالى ـ ، وبنفسِه ، وبالحياة كونًا وإنسانًا[1] .

---

(١) يذهب الشاطبي إلى أن النظر في الآيات لاستنباط حكم شرعي قد لا يستوجب مد البصر في ما سبق الآيات وما لحقها ، وهذا أمرٌ يتخذه الفقيه مستنبطًا حكما ، أما من شاء أن يستنبط ما به كان إعجاز القرآن فلا سبيل له إلا أن ينظر في أول الكلام وآخره .

راجع المسألة الثالثة عشرة من الفصل الرابع : في العموم والخصوص من كتاب الأدلة الشرعية : (الكتاب) في كتابه «الموافقات» ٤١٣/٣ وما بعدها .

هذا إذا نظرت إلى بناء السّورة ، كمثل بناء الدائرة التي تحيط بدوائر آخر متصلة في ما بينها ، ولك أيضًا أن تنظر إلى بناء السّورة ، كما سبق ذكره ، كمثل بناء الشَّجرة ذات الجذر والسَّاق والفروع والأغصان والشعب ... فالسّورة ذات جذر يمثله «المعنى الأم» (المقصود الأعظم) الّذي يسرِي في السّورة كلّها سريان العصارة الخضراء في الشّجرة جميعها ، ثم يتفرَّع من السّاقِ فروعٌ ، ومن الفروع أغصانٌ ، ومن الأغصان شعب ، وفي كلّ ذلك تجرى تلك العصارة (المقصود الأعظم) [1] .

هذا التّصوّر التّقريبيّ ليس رؤية منهجيّة تخييليّة يراد تحقيقها ، بل هي رؤيةٌ لواقع منهجيّةِ البناءِ السُّوريّ للمعنى القرآنيّ .

هو أمرٌ قائمٌ من استنباط بيانٍ حاضرٍ ، وليس تشريعًا لما يراد أن يبنى عليْه بيان ، كالّذي تراه عند بعضِ المتشرّعين من النقاد الّذين يرسـمـون للمبدعين ما يجب أن يكون عليه إبداعهم ، فيكون النّاقد بمثابة المشرّع ، والرّائد للمبدع يسلك به الطّريق ، وليس كمثل المشتار الّذي يستجمع ما هو قائمٌ ، فينسقه في رؤية منهجية .

الأهمّ هنا أنّ كلّ معقدٍ إنّما يتكوّن من نجومٍ من آياتٍ من جملٍ من كلمٍ ، وكلّ تلك المكونات إنّما تقوم بينها علاقة نسبٍ وثيقة ، قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خفية ، إلا أنّها حاضرة لا تغيب [2] .

---

(١) ينظر: دراسات في الشعر والمسرح . ص ٧ مصطفى بـدوي الهيئة المصـرية العامـة للكتاب ـ ط . الثانية ، ١٩٧٩م .

(٢) يقول حازمٌ الأنصاري(ت ٦٨٤هـ):«اعلم أن الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظم نظائر الحروف المقطعة من الكلام المؤلف،والفصول المؤلفة مـن الأبيات نظائـر الكلـم =



وإن شئت أن ترى ذلك واقعًا ، فإنك تنظر أولاً في سورة « أم الكتاب» تراها من ثلاثة معاقد :

المعقد الأول : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:١-٤) .

والمعقد الثاني : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) .

والمعقد الثالث : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة:٦-٧) .

الأوّل : تكوّن من أربع آياتٍ قامتْ بها جملتان ، وهو قائمٌ بالإعراب عن شأن منزّل هذا الكتابِ ، الله ـ سُبْحانَه وَتَعَالَى ـ ، وعمود المعنى المنسرب في كل آية ، هو تقرير وحدانية الله ـ تعالى ـ وكماله صفاته وأفعاله .

والثاني : تكـون من آية واحـدة قامت بهـا جملتان : **﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾** ، **﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾** وهاتان الآيتان ظاهرٌ فيهما الإعراب عن عمود الأمر «المعنى الأم» ، ولذا تعدّ هذه الآية بجملتيها مركز المعنى القرآنيّ كلّه في السّياق التّرتيليّ المديد ، فما من جملةٍ وما فوقها في القرآن إلاّ هي ذات نسبٍ وثيقٍ بهذه الآية ، فهو المعنى الأم الّذي تولـدت منه كلّ المعاني القرآنية على تنوعهـا في مقاديرها ، وأنواعها ، ومستويات الإعرابِ عنها .

= المؤلفة من الحروف ، والقصائد المؤتلفة من الفصول نظائر العبارات المؤلفـة مـن الألفاظ . فكما أن الحـروف إذا حسنت حسنت الفصول المؤلفة منها إذا رتبـت علـى ما يجب ووضع بعضها من بعض على مـا ينبغـي ، كمـا أن ذلـك في الكلـم المفـردة كذلك . وكذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان ، كما يحسن ائتلاف الكلام من الألفاظ الحسان إذا كان تأليفها منها على ما يجب ...»(منهاج البلغاء ، ص٢٨٧).

والثالث : تكوّن من آيتين قامتْ بهما جملة واحدة ، وهو معقد قائمٌ فيه المعنى الأم ، فإن انصراف العبد إلى الله ـ تعالى ـ يستجديه الهداية إلى الصراط المستقيم إعلانٌ منه بوحدانية الله ﷻ ، فذلك من وجه يرجع إلى ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ ومن آخر إلى ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ .

وهذه الجملة الممتدَّة الّتي قامت بهذا المعقد تمثل المعنى الأم لكلّ ما جاء في القرآن ، وفي السّنة من دعاءٍ وابتهالٍ واستجداء من العبد لله ﷻ ، فما مِن دعاءٍ جاء في بيان الوحي إلا هو مندرجٌ في قوله ﷻ : ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴾ فهو الدعاء الأمّ ، وهوأجمل دعاء وأجمعه ، فلو لم يدع العبد إلا به لكفاه ، ولو لم ينزل في الأدعية غيره في القرآن لوسع كلّ حاجات العباد ، فكلّ الأدعية إنّما هي تفصيل لما أجمل في هذا الدّعاء . فعُضَّ عليْه بالنَّواجز ، واستحضر معانيه ، وأنت تتلوه في صلاتك ، فإنّ معناه إذا ما رطّب فؤادَك ولسانَك كان لك منه ما لا تحتاج إلى غيرِه. والإجمال في الطلب مع الإلحاح أعلى مقامًا .

روى ابن ماجه في كتاب (التجارات) من سننه بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبه وسَلّم ـ : «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِى الطَّلَبِ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِىَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِى الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ» .

وقد نهي عن الاعتداء في الدّعاء : ﴿ **ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ** ﴾ (الأعراف:٥٥) ومن الاعتداء الإبلاغ في تفصيل المطلوب .

روى أبـو داود فـي كتاب (الطهـارة) بسنـده عَنْ أَبِى نَعَامَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ مُغَفَّلٍ ﷺ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا . فَقَالَ : أَىْ بُنَىَّ سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ يَقُولُ : « إِنَّهُ سَيَكُونُ فِى هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِى الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ» .

فمن أدب الأصفياء : إذا خيرت أن تختار فاختار ألا تختار ، وهو من أدب تفويض العبد ربّه ﷻ أن يختار «اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ...» .

وقوله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة:٧) جامعٌ كلّ ما سيأتي من أصناف العباد في علاقتهم بالله ﷻ فما مِن ثلةٍ إلاّ هي مندرجةٌ في واحدة من هذه الثُّلل الثّلاث .

إنّ بناءَ سورة « أم الكتاب» من ثلاثةِ معاقد ، وبناء المعاقد من آياتٍ وجملٍ يمثل الأنموذج الأمثل لما جاء في سائر سور القرآن ، وقد كان للعلامة محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله تعالى ـ بيانٌ محكم فصَّل فيه منهج البيان القرآني في بناء هذه السّورة ، يمكنك أنْ تذهب إلى أنّـه ما جاء به الشّيخ « دراز » ـ رحمه الله تعالى ـ متفردًا في بابِه من بين أقرانه ، فلا يغني عنه غيره ، وإن أغنى هو عن غير قليلٍ من سباقِه ولحاقه ، وهذا شأن أفعال الأعيان .

ولك أن تستبصر سورة « والضّحَى» لتراها وقد جاءت في ثلاثةِ معاقد على النّحو التّالي :

(المعقد الأول) : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾

(الضحى:١-٥) .

و(المعقد الثَّاني) : ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾ (الضحى:٦-٨) .

و(المعقد الثالث) : ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ (الضحى:٩-١١) .

اشتمل المعقد الأول من السّورة على القسم وجوابه ، معربًا عن الوعد الإلهي لنبيه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ليطمئنّ فؤاده ، ومن ثَم لنْ يجد التوجس خيفة أو القلق سبيلاً إلى قلبِ النبيّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ، هذا الوعد الإلهي قد جاء لسيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ في مفتتح الدعوة مثلما جاءت سورة «المسد» وسورة «الكوثر» ، فكان في هذا من تثبيت سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ أمام كلّ محنة ، فأيقن يقينًا راسِخا أنـه المعطَى من الله ـ تعالى ـ الكوثر ، وأنّ الآخِرَة في كلّ أمر من أمور حياته خَيْرٌ له مِنَ الأُولَى ، وأَنـّه سَوْفَ يُعْطِيه الله ـ تعالى ـ عطاء يحقق له الرضوان ، وأنَّ كلّ ابتلاءٍ له أو لمن أطاعه إنّما هو في مآلِه اجتباءٌ ، فهو تعالى إنما ابتلي ليصفّي من ابتلاه من كلّ شوبٍ ، ليبقَى له وحدَه ، ليس لأحدٍ من العالمين منه نصيبٌ ، وأن كلَّ شانئه في كل عصرٍ ومصرٍ إلى قيام السَّاعة هو البتر المتبوب المهلوك .

دلنا أهل العلم بكتابِ الله ـ تعالى ـ علَى أنّنا إذا ما نظرنا في مكونات كلّ معقد من المعاقد الثلاثة ، رأينا أنّها آيات قد نسقت في ما بينها في كلّ معقد على نحو بالغ التّآخي يجرى في حركة أفقية في مساق المعقد ، ونسقت في ما بينها وبين ظاهرها في المعقدين الآخرين كذلك على غاية من التآخي والاتساق يجري في حركة رأسية :

فالآية الأولى من المعقد الأول وثيقة التّآخي مع الآية الثانية منه ، وكذلك الثانية بالثالثة ، ثم الآية الأولى من جواب القسم من المعقد الأوّل ، وثيقة التآخي بالآية الأولى من المعقد الثاني ، والثالث : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (الضحى:٣)، ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى:٦)، ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (الضحى:٩) .

والآية الثّانية من جواب القسم في المعقد الأول وثيقة التّآخي بالآية الثانية من المعقد الثاني ، والمعقد الثالث : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الضحى:٤)، ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى:٧) ، ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى:١٠) .

والآية الثالثة من جواب القسم في المعقد الأول وثيقة التّآخي بالآية الثّالثة من المعقد الثاني ، والمعقد الثالث : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ (الضحى:٥) ، ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٨) ، ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى:١١) .

هذا النسق بالغ الظّهور ، وهو يمثل الأنموذج لهذا الضرب من تنسيق معاقد السورة ، فيما بينها ، وتنسق آيات المعقد الواحد فيما بينها ، ثم تنسيق كل آية في معقد مع ما يناظرها في المعاقد الأخر .



وهذا يعربُ لك عن نهج النظم «جدلاً ، وحبكا» ، فهو داخلٌ فيما أسماه عبد القاهر : النّظم الذي يتّحد في الوضع ، ويدقّ فيه الصّنع ويَغْمُضَ المَسْلكُ تحقيقًا لتوخّي المعاني بحيثُ تتَّحِدَ أجزاء الكلامِ ويَدخل بعضها في بعضٍ ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول ، فيحتاج المبينُ في الجملة إلى أن يضَعَها في النفس وضعًا واحدًا ، وأن يكونَ حالُه فيها حالَ الباني يَضع بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَع بيَسارِه هناك ، وفي حالِ ما يُبْصر مكانَ ثالثٍ ورابعٍ يَضعُهما بَعْدَ الأوَّلَيْن ، فهذا النمطَ منَ الكلام الذي تتَّحِدُ أَجزاؤه حتى توضَعَ وَضْعاً واحداً هو النّمط العالي والباب الأَعْظم ، والذي لا تَرى سلطانَ المزيةِ يَعْظُم في شيءٍ كَعِظَمه فيه[1] .

وإذا ما غدونا إلى سورة «البقرة» فقد سبق بيان ما قامت عليه السّورة من قسمين ، وبيان قيام كلّ قسم من معاقد .

هذه المعاقد مكوَّنة من نجوم مكوّنة من آيات من جمل:

قلت قبل : إنّ السّورة فيما بين مقدمتها وخاتمها قسمان :

القسم الأول (الإيمان) قائم بالإعراب عن قضايا العلاقة بين العباد وخالقهم ﷻ (أحكام العقيدة) (من أوّل الآية العشرين) إلى آخر الآية السابعة والستين بعد المائة :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧).

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ، ص ٩٣-٩٦ .





والقسم الآخر (الإسلام) قائم بالإعراب عن قضايا ومسائل العلاقة بين العباد في هدي ما بينهم وبين خالقهم جل جلاله . (أحكام الشريعة أمرًا ونهيا) :

من أول الآية الثامنة والستين بعد المئة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (البقرة:١٦٨) إلى آخر الآية الثالثة والثمانين بعد المئتين : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٨٣) [(١)] .

(١) ليس يخفَى أنّ آياتِ كل قسم منهما وإن حضر فيها ما يثقفُ النفسَ حضورًا ممزوجًا ببيان الأحكام العقدية والعملية ، فإنّه قد تتخلّل آيات الأحكام في القسيمين آياتٌ آيات عمود الأمر فيها التثقيف النفسيّ المهيئ لتلقّي الأحكام العقدية أو العملية تلقّي تشوف وتشرّف ، ليقبل العبد على هذه الأحكام والتكاليف العقدية والعملية منشرح الصدر لها ، وبها . فيجتهد في الوفاء لها بحقّها تزلفًا ليتصاعد بهذا في مدارج القرب الأقدس من مقام الذين آمنوا إلى مقام الصديقية ، فيكون مع الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا .

وممّا أراه حسنًا أن يُعمد إلى دراسة مواقع الآياتِ التي عمودُ الأمر فيها التثقيف النفسيّ المتخللة آيات الأحكام في القرآن كله ، لنقف على شيءٍ من منهج البيان القرآني في إقامة هذه الآيات التثقيفية ، ومقتضيات اصطفاءِ مواقعها من جهة ، ونظمها من أخرى ، فهذا ما أحسبُ أنه كالمسكوت عنه في الدرس البلاغي للقرآن .

وظنّي أن أبا الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤ هـ) حين اتخذ لنفسِه مذهبًا يقيم به الأبيات الإقناعية في أعقابِ فصول القصيدة ، كما نبه إلى ذلك حازم الأنصاري كأنه كان يستلهم البيان القرآني ، فهل لنا أن نفرضَ ذلك فرضًا علميًا يحتاج إلى مدارسة استقرائية تسبر غوره ، تبين الحق في ذلك ؟ =

وكلّ قسم منهما ذو معاقد ، وكل معقد ذو نجوم من آياتٍ ، ولا يتسع المقام لتبيين ذلك كله تفصيلا ، فهل لنا أنْ ننظر نظرة عَجْلَى في المعقد الأخير من القسم الثّاني (أحكام الشريعة) .

هذا المعقد تتمثل فِيه أحكام العلاقات المالية بين العباد ، يبدأ بالآية الواحدة والسّتين بعد المئتين : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦١) .

وينتهي بالآية الثّالثة والثمانين بعد المئتين : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٨٣) [1].

- ينظر : منهاج البلغاء ، ص ٢٨٥-٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٣٦٣ ، وانظر معه كتاب : « تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني» ص ١٦٨ وما بعدها لشيخنا أبي موسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط . الأولى ، ١٤٢٧هـ .

(١) لعلك تسْتحضر أن آيات هذا المعقد قد سبقتها آيات في محاجة إبراهيم من يدعي الألوهية ، وختمت بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦٠) وثَمَّ علاقة وثيقة بين إحياء الموتى ، وجعل حبة تنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ .

وهنا عليك أن تستحضر المعنى الأم الذي تقوم عليْه ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة:٣) .

آيات هذا المعقد تناول أحكام الشريعة في قضايا الصدقة (الآيات : ٢٦١-٢٧٤) والربا (الآيات : ٢٧٥-٢٨٠) والدَّين والبيع (الآية : ٢٨٢) والرهن (الآية : ٢٨٣) .

أنت تلحظ علاقة التّقابل بين قضايا آيات الصدقة ، وقضايا آيات الرّبا ، فهما تصرفان متناقضان :

الأول : تصرفٌ من عبد يؤمن بالغيب ، لا يتطلع إلى رأس ما أنفق ، ولا إلى الزيادة عليْه اغتناءً بما عند الله الواسع العليم من مثوبة .

والآخر : لا ينظر إلا إلى ما يريد أن يستحصده ممّن أقرضَه جامعًا بين رأس ما أعطى والزيادة عليْه المشروطة .

وتلحظ أيضًا العلاقة بين آيات الرّبا (قرض بزيادة مشروطة على الأصل) ، وآية المداينة (قرض حسن) فبينهما من وجهٍ تناظرٌ : كل مداينة ، وبينهما مفارقة : الأوّل قرضٍ ربوي ، والآخر قرضٌ حسنٌ .

وتلحظ العلاقة بين البيع والرهن : كلٌّ يأخذ مقابلاً لما دفع ، إلا أنّ في الأول أخذَ تمليك ، وفي الآخر أخذ رهن موقوتٌ بإرجاع المال المقابل ، وفوق هذا في البيع ينتفع المشتري بما أخذ عوضًا عمّا دفع وقبضه ما أخذ دائمٌ غير موقوتٍ وله حق التصرف فيه كيف شاء ، الرّاهن لا ينتفع بما أخذ مقابلا لما دفع ، وقبضه لما أخذ موقوتٌ برد ما دفع إلى المرتهن ، وليس له حقّ التّصرف فيه .

كذلك يتبيّن لك نسق نجوم هذا المعقد ، ونسق آيات كلّ نجم ، ومراعاة هذا النَّسق في التلقّي معينٌ على استبصار دقائق ورقائق تثقف النفس ، فتقبل على إنفاذ ما أمرت به ، والانتهاء عمًّا نهيت عنه إقبال تشوّفٍ وتشرّف ، فتكون مثوبتها على طاعتها وافرة .

* * *

المعقد الخامس

التَّحْليلُ البَيَانيّ في ضوء السياق والمغزى

مَضَى أنَّ تحليلَ البناء التّركيبيّ للسّورة هو القادِر على إضاءة السّورة داخليًّا ، فتشرق مضامين الهدَى منها فى نفوسنا باستصحاب «المغزَى» الرَّئيس الحاكم حركة المعنى القرآنيّ في السّورة ، ممًّا يفضِي إلى ضبطِ النَّفسِ في تلقيها هذا المعنى على نحو يحقّق لها اكتساب أمرين كلّيَّين :

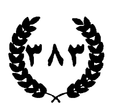
الأمر الأول : اكتساب مضمونَين :

المضمون التشريعّي ببعديه : «العقديّ» المتمثل في علاقة المرء بخالقه ﷻ ، و«السلوكيّ» المتمثل في علاقة المرء بالحياةِ كونًا وإنسانًا .

والمضمون التثقيفىّ المحقق له قنوتًا ، وإسلام وجه في موقفه من المضمون «العقدي والسلوكي» .

والأمر الآخر : القناعة والرِّضا القلبيّ المثمر زهدًا في كلّ ما يشغل عن التلذّذ بالعبودية لله ربِّ العالمين ، فتلك اللّذة هي الثواب الحقيقيّ للإخلاص في كلّ طاعة ، ممّا يجعل ذائقها في الفردوس على الرَّغم من أنَّه قد يكون حينئذٍ أشعث أغبر ذا طمرين مدفوعًا بالأبواب لا يؤْبَه له .

وكلُّ أنحاء التّدبر للسّورة المفتقرة إلى منهج التّحليل للسورة عاجزة بمفردها عن تحقيق هـذين الأمرين معًا ، ممًّا يحقـق لتلك الأنحـاء عجـزاً أو تقصيراً فى النصيحة لكتاب الله ﷻ ، فإنّ رسالة المتدبر غير مقصورةٍ على



استكشاف المضمون التّشريعيّ التّثقيفيّ ، بل ذلك فريضة لغاية أجلّ : استنبات القناعة والرّضا القلبيّ بذلك المضمون وربّهما ، ثم استثمارهما فى توليد الطّاقة الإنجازية لذلك المضمون ، فلا قيمة لاستكشاف معالم التّشريع والتثقيف وحده ، بل هي له مجموعًا إليه استيلادُ دوافع الإنجاز والإتقان لما تضمّنته السُّورة من معاني القرآن التَّشريعيّة على نحو يجعل المرء قانتًا لله أوّابًا .

وإذا ما عجز تّحليل البناء الكلّي للسّورة عن استيلاد دوافع الإنجاز والإتقان فى نفس المتلقي ، فقد يكونَ مردًّ ذلك إلى نقص فى تناول عناصر السّورة بالتّحليل ، أو إلى خللٍ فى تصوّر معالم ذلك التّحليل ، أوْ خَلَلٍ فِي توظيف ذلك التَّصوُّر توظيفاً متلائماً مع خصوصية السُّورة الّتي هي مناط التّحليل ، فإنَّ منهاج التّوظيف لتلك المعالم تختلف مِن سورة إلى أخرى ، ولا مسوّغ البتَّة إلى إسقاطِ ما يصلح لِسورةٍ ما على سائرِ السُّور الأُخَر ، لما بيْنها مِن تغاير مضمونيّ وبنائيّ يرمِي فى سياق كليّ إلى غاية واحدة .

مفهوم التّحليل البياني :

يتكون مصطلح «التّحليل البيانيّ» من عنصرين : البيان ، والتّحليل .

أمّا «البيان» فمصطلح وظيفيّ لما يعرِب به المرء عمّا هو مكنونٌ في فؤاده على تنوّعِ ذلك المكنون في جنسِه ونوعهِ وقَدره ، أيًّا كانت بواعث الرَّغبة في الإبانةِ عنْه ، فهذا المصطلح المعبَّر به عن فعل إنسانيّ ناظر إلى علاقةِ «المُبانِ به» بحاجة المُبِين .

المَرْء لا يسعَى إلى أن يكشفَ عمّا في فؤاده أو يوحِي به إلاّ إذا رأَى أنَّ في ذلك ما يرجع إليْه أوَّلا بالحسْنَى من قبلِ أن يرجع إلى مَن يسوق البيانَ إليْه مِن أنّ المَرْءَ مفطورٌ على أن يحتفظَ بذاتيَّاته .

إذا نظرنا إلى هذا البيانِ منْ جهةٍ تأثيره في مَن يُساقُ إليْه استحال من كونِه «بيانًا» إلى كونِه «كلامًا» ، فـ«الكلام» درجةٌ أعلَى من «البيان» ، فقد يكون بيانٌ غيرَ ذي أثرٍ مكينٍ في مَن يساق إليْه البيان ، لأمرٍ يرجع إلى «البيان» نفسِه أو إلى اقتدار صانعه على إنفاذِه في من يساق إليه .

وإذا ما كانت كلمة «بيان» ـ وهي كلمة «قرآنية» نعت بها القرآن في سورة «آل عمران» ـ مصدرًا تحتمل أن يرادَ بها «المُبانُ بِه» (الصُّورة) أو «المبانُ عنه» (المعنَى) ، فالأعلَى عندِي أنْ يجمعا في القَصد ، وإنْ كان الأوّل (الصُّورة) يلزمه القصد إلى الثَّاني «المعنى» ، فكلُّ تحليلٍ للصُّورة هو مفضٍ إلى تحليلِ المعنَى .

على هذا فـ«البيان» في المقامِ الأوّل هو كلّ ما يهدِيك متلقيًا إلى أن تدركَ ما هو مكنونٌ في صدرِ المُبين .

وأما «التَّحليل» فسَعيٌ إلى رؤية الأشياء المكوّن منها الكلّ في علاقات خاصة على هيئة خاصة ، تستوجبهما : (أي العلاقات والهيئة) عواملُ داخلية ، وخارجية .

وعلى هذا فيمكن أن أذهبَ إلى أنَّ «التَّحليل البيانيّ» سَعيٌ إلى رؤية الأشياءِ المكوّن منها البيان في وجودِه التَّركيبيّ الكليّ في علاقاتٍ خاصَّةٍ بيْن المكونات متنوعةٍ في ذاتها ووظائفها وجعلها على هيئة خاصة ، تستوجبهما عوامل داخلية ، وخارجية من البيان ، أو صَانعه كشفًا عن مدَى أثر السِّياق والمغزَى في الاختيار والاتساق والانسجام بين مكوناتِ البيان .

تفصيل مكونات التعريف : هذا التعريف إن صحّت تسميتُه تعريفًا يتكوّن من سبعة أمورٍ :

١- سَعيٌ إلى رؤية الأشياء المكوّن منها البيان .

٢- في وجوده التركيبيّ الكليّ .

٣- في علاقاتٍ خاصَّةٍ بيْن المكونات .

٤- متنوعةٍ في ذاتها وَوَظائفها .

٥- وجعلها على هيئة خاصة .

٦- تستوجبهما عوامل داخلية ، وخارجية من البيان أو من صَانعه .

٧- كشفًا عن مدَى أثر السِّياق والمغزَى في الاختيار والاتساق والانسجام بين مكوناتِ البيان .

لكلّ مكونٍ منْ هذه السَّبعة المكوناتِ موقعٌ من بنية التعريف ، فعمود الأمر قائمٌ مِن المكوِّنات الثلاثةِ الأوّلِ ، بيْنا المكوِّنات الثلاثة التّالية : (الرّابع والخامس والسادس) شرائط صحّةٍ ، أما المكوّن الأخير (السابع) فبيانٌ للقيمة الوظيفيّة للتّحليل البيانيّ .

وبهذا يتبين لك أنّ «التّحليل البيانيّ» لأيّ نصٍّ سواء كان من البيان العليّ المعجز ، أو البيان العالي الإبداعي شعرًا أَو نثرًا أدبيًا ، إنّما هو سعيٌ مترتِّبٌ على رؤيةِ البيان في وجودِه الكليّ «التَّركيبيّ» ، الفاعلِ في النّفسِ المتلقِّيته ما يراد له أن يفعلَ ، فلا يمكن للمرءِ أن يحلّل ما لم يكن قد أدرك ما يريد تحليله في وجوده التَّركيبيّ الكليّ ، وما يحدثه ذلك الوجود منْ فعلٍ في من يتلقاه .

هذا الإدراك هو الّذي يؤسِّس عليْه مناظرةَ حالِ المكوّنات في وجودها التركيبيّ الكليّ ، وحالها منظوراً إليْها في وجودها الإفراديّ مناظرة تهدف إلى تبصّر ما لكلّ مكوّنٍ من خصائص ذاتيّةٍ ثابتةٍ ، وخصائصَ وظيفيّةٍ متحوِّلة بتحوُّل أنماط التَّركيب وسياقاتِه .

هذه الرُّؤية الكليّة هي الّتي تستغرق جهدًا فنيًّا ووقتا وسيعًا مِن القائم لِذلك التَّحليل ، وغير قليلٍ مِن النّاشئة في هذا البابِ لا يمنحون هذا ما يستحقه ، ممّا يجعل حركتهم الّتي سيبذلونها أشبه بأن تكونَ عقيمًا ، وما تراه من ثمار تلك الحركة هو إلى التّقليدِ والاجترار أقرب ، فلا تكاد تحس بالطّابع العقليّ والنّفسيّ واللّسانيّ لمن ينسبه إليْه ، ذلك أنّه ضربٌ من التبنّي لولائد الآخرين .

هذه الرّؤية الكلية لا يكون بمقدورك اكتسابها وتحقيقها إلاّ إذا ما كان لك مع النّصّ المرادِ تحليله مخادنة تجعله يقطنك ، يستوطنك ، لقوة أنسه بك ، ويقينه بأنّك أنت القوّام عليْه ، وأنك الأحق بأن يبثَّ فيك أسراره ، فيكون بيْنكما مِن السكينة والمودة والرحمةِ والترابح ما لا يكون لغيرك .

وهذا ليس قولاً «تهويميًّا» بل هو حقيقةٌ يبصرها بل يعيشها أولئك الّذين يخادنون النّصّ ، ويخلصون له أنفسَهم ، فلا يكون لغيره منها نصيبٌ إلا بمقدار ما يستوجبه النّصّ ، ويطالب بِه . فما يشْغل المخادِن بما هو خارج النّصّ الخدين إلا له تزلفًا إليْه ، فما هو مشغول عنه ، بل هو مشغولٌ له[1] .

ومن ثَمَّ يكون التَّحليل البيانيّ قراءة إنتاجية فاحصة كلَّ عناصر المكون البيانيّ الكليّ ، فحصًا كاشفًا عن قيمة كلِّ عنصر وعلاقته فى تشكيل الوجود الدَّلاليّ له ، مثلما كان له قيمة فى تشكيل وجوده اللّغوي المقروء أو المسموع .

هذه القراءة ليْست هي التي يجتاز بها صاحبها تحويل المسطور على وجه صحيفة إلى مسموع مَنْغُوم فى أذن سامع ، فذلك معنى عام للقراءة يشارك فيه الدّهماء أهل العلم ، وما كان كذلك ، فالغالب أنّ العقل البلاغيّ لا ينشغل بِه .

(١) أشير بهذا إلى أن العقل البلاغي العربي ، وهو عقلٌ قرآنيّ حين يشتغل بالكلمةِ الإنسان شعرًا ونثرًا أدبيًا ، فما هو بالمنشغل بها عن الكلمة الوحي ، قرآنا وسنة ـ وبل هو منشغل بالكلمة الإنسان تزلفًا إلى الكلمة الوحي . ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٣) .

هـي قـراءةٌ قائمـةٌ بإخضـاع جميـع عناصـر المقـروء فـى وجـوده الكلـيّ للاستبصار[1] .

هي موقفٌ استبصاريّ إنتاجيّ من السّورة ، وهذا يقتضِـي مـن صـاحب هـذه القراءة التَّحليليّة أن يتسلَّل بوعيه فى الوجـود اللّغـويّ للسّورة ومكوناتهـا علـى تنوّع أحجام هذه المكوّنات يجوس خلال هذا الوجودِ ويخادنه ، فيمتزج وعيـه بالسّورة مثلما تمتزج السّورة بوعيه .

وهذا ما يجعل المعنـى القرآنـيّ للسّـورة فـى صـورته الإدراكيـة لا القصـدية يختلِف باختلاف وعى المتلقي ، فثَمَّ علاقةٌ تفاعليّةٌ بيْن السّورة والمتلقـي قائمـة على التَّرابح :

هو يأخذُ مـن السّورة مقومات وجودهـا اللغـوي ، ويضـيف إلى وجودهـا الدَّلاليّ من ذاته القائمة بالإيمان ، والـتّعلّم العميـق الفسـيح ، والخـبرة ، وملكـة التذوق ، والاستبصار ، والالتزام السلوكيّ ، وغير ذلك ، فكلّمـا كـان المتـدبّر ذا قدم صدقٍ في العلم ، مَليكا لعواملِ التَّلقّي ، بريئًا من عوائقه ، كان ذلـك أوفـق لاتساع المعنى القرآنيّ في فؤاده ، فمِن خصائص هذا المعنـى أنـَّه يتّسـع فيـك بمقدار اتساع وعائك (فؤادك) وطهارته واقتداره على أن يحمل الرّسالة .

---

(١) ثَمّ مزاعم أن التحليل تمزيـق لكليـة الـنصّ ، وأن في هـذا خطـرًا بالغـا علـى وجـوده الفاعل ، وهذا أمرٌ قد نقضه أهل النظـر ، وأبـانوا أنّ التحليـل لـيس غايـة ، إنمـا هـو وسيلة إلى اكتمال الرؤية الكلية للنصّ هو يكون تمزيقًا إذا ما حط الرحـال عنـــده ، أمّا إن كان منزلا مرتحلاً عنه إلى الغايةِ ، فأمرٌ لا محيد عنه .

ينظـر في هـذا : «النقـد الفنـي دراسـة جماليـة فلسـفية» ص٣٢٢-٣٢٥ تـأليف : جيروم ستولنيتز ، ترجمة : فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . ط . الثانيـة ، ١٩٨١م .

أزعم أنَّ «التّحليل البيانيّ» للسّورة القرآنية سبيلٌ من سبل حسن القيام بالاستجابة لأوّل أمر إلهيّ فى دعوة الإسلام : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (العلق: ١-٢) .

فما أظن أنَّ الوحى كان يطلب من سيدنا محمد ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ حينذاك أن يقرأ قراءة تحِيل المسطورَ مسموعًا ، فإنـّه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ما كان إلاَّ أميًّا لا يملك تلك الطَّاقة المُحِيلة ما هو مسطورٌ إلى مسموع ، فضلاً عن أنّه لو كان ذلك هو مراد الأمر بالقراءة فى أول آية نزلت لما كان سيدنا «جبريل» عليه السلام بحاجة إلى أن يأخذ بالنبي ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ، فيغطّه حتى يبلغ من النّبىّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ الجهدَ ثلاث مرَّاتٍ ، فمثل هذا لا يليق أن يُفعل حينذاك إلاَّ إذا كان المأمور به شيئًا غير ذلك ، تفسّره لنا تَهْيِئَة النبي ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ نفسَه له بالاعتكاف والتَّعبّد والتحنّث فى الغار والاعتصام ممًّا يشغله ، ويهوّش عليه من حركة الحياة المائجة الماجنة تهيئة بتوفيق من ربه ﷻ الذى خلق واصطفى ، ودونما قصد منه ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ .

ما أُمر به هو قراءة استيعاب للكون محسوسه ومعقولـه استيعابًا يُفعم النَّفس ، ويسيطر على منهج السُّلوك المعرفيّ والحركة المشكّل وجودًا جديدًا للإنسان ، بـه يحقّق رسالة الاستخلاف العظمَى ورسالة الشَّهادة على الأمم الأخرَى ، فتنال به الأمّة المحمديّة مقام الخيريّة .

أزعم أنَّ القراءة التَّحليلية للسّورة القرآنيّة سبيلٌ إلى تحقيق تلك القراءة المأمور بها فى سورة «العلق» ، والتي تفضِي به إلى ما أمرت به السّورة في ختامها : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (العلق:١٩) .

* * *

التّحليل عملٌ فطريٌّ من أعمال التّلقّي :

جمهرة المشتغلين بدراسة البيان الإنسانيّ أيّا كانت وسيلته وضربه على أنّا إذا ما شئنا دراسة تركيبِ هذا البيانِ ، فإنَّ علينا أن نفكّكه لنتمكنَ مِن تمييزِ عناصرِه في وجودِها الفرديّ الّذي يعيننا على أن ندركَ ما يجعله قادرًا على أن يسْتجيبَ للعملِ مع آخرين ، ولنتمكنَ مِن تمييزِ عناصرِه في وجودِها الجمعيّ التّأليفيّ الّذي يُعِيننا علَى أن ندركَ كيفيةَ عملِه مع آخرين وما أعان على أن تحقّق هذه الكيفيّة ، وما أثمرته من عطـايا لكلٍّ مدرِكات المتلقّي الحسيّةِ والمعنويّةِ الّتِي لا تتحقّق له إلاّ مِن خلالِ هذه العناصرِ في وجودِها الجمعيِّ الّذي جعلها تَستحقُّ أن تُسمّى بيانًا .

تحليل البيان إذن ضـرورةٌ ، وليست قيمتُه في نفسِه ، بل في مقتضِيه ، وفي ما يحقّقه من عطاءات فريدة لا تتحقّق إلا بتحقّقه .

كلُّ بيانٍ جديرٍ بأن يتلقّى إنّما هو في وجودِه الفاعلِ عملٌ معقّد بالمفهوم «الفنيّ» للتعقيد ، فلا بدّ لَنا من أن نحلّل تعقّدَه إلى أَجزائه المكوّنة له ... وإلاّ كان علينا أن نظلّ خرسًا ... إذْ أنّنا لن نستطيعَ أن نعرفَ أَيّ شيْء عن العمل ، أو نزيد من مقدارِ تذوّقنا له [1] .

والتّحليل لا يعني قطُّ أنْ نحاولَ فهمَ عنصر منه معزولاً عن سائر مكوِّناتِ هذا العملِ ، فهو ليس بنفسِه يفعل ، بل بوجوده في جمعٍ من العناصر الّتي لكلٍّ منها إمكاناته ، وقدراته ، واستجاباته وتأثُّراته وتأثيراته ، وليس ثَمَّ عنصرٌ ما هو حيث وجد في عمل هو محدّد الموقع ، والعمل ، والمكانة الوظيفية ، فإمكاناته واستجاباته ثمّ ما يراد منه أن يعمل هو الّذي يحدّد له ذلك ، فحينًا تراه في مركزٍ قياديّ ، وحينًا هـوَ هوَ تراه في مركزٍ خدميّ بارزٍ ، وحينا تراه

---

(١) ينظر : النقد الفني دراسة جمالية فلسفية . م ، ص ٣٢٢ ـ وما بعدها .

يؤدّي عمله مضمرًا مكنونًا . هو الفاعل المنجز ما يناطُ بِه سواء كان في المقدِّمة أوْ في السّاقة أو في الميمنة أوْ الميسرة.. فلكلّ ذلك مقتضِيات وموجبات هو لها جدّ مطيعٍ ، فالبَصَر بالتَّحليلُ ثمَّ التَّركيب هو الَّذي يعيننا على الوعي بذلك ، ليكونَ لنا منْ ذلك الوعيِ ما تتكاثر به العطاءات التي تحدث تغييرًا إيجابيًّا في حياتنا وعلاقتنا بالكون والإنسان[1] .

يضِلُّ من يمارس التَّحليلِ حسبانًا منه أنّ ذلك سيمنحه القدرة على أن يدرك عمل العناصر منعزلة عن بعضِها ، بحيث يظنّ أنَّ فعلَها هذا مردُّه إلى أمرٍ ذاتيٍّ فيها ، تحقّقه حيث حلّت ، وكيفَ وجدت .

لو أنّك رجعت إلى نفسِك عنصرًا في الوجود الإنسانيّ لأبصرت أنَّه لن يتأتّى لك القيام برسالتِك فِي هذه الحياة ، إلا بوجودِك الجمعيّ على نحو يتنوّع بتنوّعٍ ما أنت قائمٌ له ، فكما أنّك اليوم لست أنت الَّذي كان بالأمس ، قد حدثت فيه قدراتٌ وطاقاتٌ ومهاراتٌ لم تكن فيك بالأمس مقدارًا وقدرًا وفاعليْة ، وليس أنت أنت في محيطك الفاعل به ومعه .

أنت في كلِّ يومٍ إنْ لمْ تكنْ في كلِّ ساعة من يومِك في مساقٍ مختلفٍ عمَّا كنت عليْه قبْلُ ، وعمّا ستكون عليْه بعد .

الأمر يتبيَّن لك جلاءً إذا ما نظرت في نفسِك ، وهو كذلك في وجودِ الكلمة في عالم البيان ، فعالم الإنسان كمثله عالم البيان .

والمرْء في عالمه الإنسانيّ هو الكلمة فِي وجودها البياني ، كما أنّ العالم الإنساني منوطًا به استعمار الحياةِ ليسَ مجموع أفراده متعازلة في جوانبها وفعلها ، بلْ هو ذلك المجموع متآنسًا متفاعلا في تحقيق رسالته الاستخلافية

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز . ص ٨٧ فقرة : ٨٠ ، وانظر : ص ٤٦ ، فقرة : ٣٨ ، قراءة : شاكر .

المستعمرة الحياة ، كذلك الكلمة والجملة ... سواء بسواء في وجودها البيانيّ الصّانع في الإنسان المتلقّيه ما يحقّق له رسالته الاستخلافية المسْتعمرة الحياة[1] .

ولا أرى أنَّ المقام يستوجب بسطا أكثرَ من هذا ، فقد أضحى منذ أن مارسَ عبد القاهر الجرجانيّ تعميق جذوره في وعينا فلا تعدو حاجتنا إلا إلى التذكير بِه ، واستحضاره في أثناء ممارسة «الفعل التحليليّ» ، ودائمًا ما تحمينا ممارسة الأفعال من الحاجةِ إلى التَّذكير بالأصول النظرية لذلك الفعل ، فما استحال فعلاً أضحى جزءًا رئيسًا من وعينا .

لم يكن قطّ أصلٌ نظريٌّ أحاله صَاحبه فعلا هو بحاجةٍ يومًا إلى أن يذكر بذلك الأصل النّظري ، فأقصر طريق وأقوى عامل إلى تمكين الأصول النَّظريّة إنّما هو إحالتها إلى أفعال ، ولذا لم يكن الأعيان من سلفنا مهمومين ببسط القول النّظريّ ، بل هم المهمومون بإيجاده فعلاً على ما تراه في كتب التّفسير وشروح الشَّعر .

* * *

التّحليل البيانيّ بيْن الذّاتيّة والموضوعيّة :

البيان القرآنيّ وحيٌ من الله ﷻ لم يجعله خاضعًا لسلطان ما يعرف ويشْهر من قواعد بيان الإنسان ومعاييره ؛ لأنَّ ما كان من الله ـ عزّ وجلَّ ـ لا يخضع لما كان من الإنسان على الرَّغم من أنه اتخذ لغة الإنسان العربيّ مظهرًا للقرآن الكريم ، حتَّى يبيّن لهم الّذى يراد لهم ومنهم إنْ قالوا بأفئدتهم وألسنتهم ومسلكهم سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ :

---

(١) ينظر : النقد الفني دراسة جمالية فلسفية ، ص ٣٢٤ .



﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢) .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الدخان:٥٨) .

فهو ما أنزله بلسان عربيّ مبين ليسلَّط عليْه في تلقّيه ما يسلط على بيان البشر من قواعدَ خاصةٍ بحال المتكلم إنسانًا محدودَ العلم والإدراك والقدرة على الإبانة عن هذه المعرفة والإدراك المحدودين ، شأن كلّ بيانٍ إنّما هو على قدرِ المبين علمًا ، فمن أحاط علمًا كان بيانه عمًّا أحاط محيطًا .

وأبوالحسن الحرالّيّ استفتح رسالته «مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل» ببابٍ وجيزٍ مفعَمٍ جعله «في علو بيان القرآن على بيان الإنسان»[1] .

ومِن ثمَّ لا يصلُح كلّ ما استنبطه العلماء من قواعد من بيان الإنسان أن يتخذ وحده معياراً أو نموذجاً يلتزم به فى التَّحليل البيانيّ للسّورة ، فقواعد البيان الإنسانيّ التي استخرجها العلماء منه فوق أنّها غير محيطة بما تكلّم به العرب ، فإن ما استخرِجت منه القواعد غير محيط بما كانت العرب تقول ، فكان في القواعد المستنبطة من كلام العربِ نقصٌ من جهتين : جهة عدم إحاطة العالم المستنبط بكلّ ما في الكلام الذي بين يديه ، وجهة نقص ما بين يديه من البيان ، فما هو كلُّ ما تكلمتْ به العرب ، ولذا لا يحكم محصولُ النحاة واللغويين في البيان القرآني ، بل إن الخليل ليذهب إلى أنّ «الشعراء أمراء البيان» والفرزدق يقول : «علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا». «ومن معناه عليكم أن تبحثوا له

---

(١) هذا الباب جديرٌ بأن يكون له منك مزيد عناية استبصار ليكون لك منه مزيد عناية إثمار . هو متنٌ علمي محكم ، لو شئت تفصيله وتنزيله على ما بين البيانين : البيان العَليّ المعجز : «بيان القرآن»، والبيان العالي البديع«الشّعر ، والنثرالأدبي» لما اتسعَ له الجهد ، ولا العمر .

عن أصل في كلام العربِ ، فإنَّا لانخرج عما قالت ، ومن بعده قال أبو تمام : «ولِم لا تفهم ما يقال» أي أنَّ ما يقوله له بابٌ يدخل منه إلى فهمه ، فعلى السَّامع أن يبحث عن ذلك الباب ليدخل منه ، فالشَّاعر الفحل أعلم بالعربيّة من النّحاة والّلغويين ، وثمَّ كلمٌ ليس لها حضورٌ في معاجم اللغة ، ولها في الكلمة الشَّاعرة حضورٌ ، وكان أبو فهر محمود شاكر ينبه إلى ذلك في أسفارِه ، فإذا ما كان هذا ، فحقّ أنّ علوم اللغة جمعاء لا تصلح أن تكون السّلطان على بيان القرآن ، فإذا رأى المتدبّر كلمةً أو تركيبًا ، ولم يجد له في أسفار العربيّة أصلاً ، فلا يعمَد إلى أن يفسِّر المعنى على ما يعرف ، فمحصوله من العربيةِ غيرُ محيط .

قواعد العربية التي بين يدينا لا تَعْدُو الاسترشاد بها والاهتداء بضوئها ، ممّا يمنح أو يفرض على القائم بالتَّحليل البيانيّ للسّورة أن يكون منهجه التّحليليّ وحركته الإنجازيّة لذلك المنهج متناسقين مع الواقع البيانيّ لكلّ سورة من سور القرآن الكريم ، وفقًا لمعالم شخصيتها البيانية الّتي هي الصورة الحسية لشخصية مضمونها التَّشريعيّ والتثقيفيّ ، وإنجاز ذلك حملٌ جدّ ثقيل .

وكلُّ ما يذكره أهلُ العلم من معالم التّحليل البيانيّ فى مثلِ هذا إنَّما هو مفاتيح أبوابِ طرائقَ مديدةٍ فسيحةٍ إلى عالم التَّحليل البيانيّ للسُّورة ، فلا يكادُ يحاط بأقطارِه المترامية ، ولهذا كان للذَّاتيّة الرَّشيدة أثرٌ عظيمٌ فى استيلاد طرائق تحليلية متناسقة مع واقع كلّ سورةٍ .

* * *

وإذا ما كان نقدة الأدب يذهبون إلى أنَّ أولَى قواعد المنهج العلمي هي أن تخضع نفوسنا لموضوع دراستنا ، لكي تنظم وسائل المعرفة وفقًا لطبيعة

الشّيْء الّذي نريد معرفته[1] ، وأنّنا نكون أكثرَ توافقًا مع الرّوح العلمية بإقرارنا بوجود التّأثيرية فى دراستنا شريطة أن تخضع هذه التّأثيرية للضّبط والمراجعة ـ إذا كان هذا ، فإنّ الأمرَ مهمٌّ فى التّحليل البيانيّ للسّورة ؛ لأن إخضاع نفوسنا لها سوف يفجر فينا طاقة معرفية ذوقية تدرك ما لا تمكن العبارة عنه ، لكنَّه يؤثر تأثيرًا نافذًا فى شتى المجالات التي تمكن العبارة عنها .

الذّوق الذي هو دعامة أساسية من دعائم التَّحليل البيانيّ هو الذّوق المتحدّر من عدة روافد موضوعيّة يمكن اكتسابها بالمدارسة والدُّربَة ، ومن ذاتية شخصيته تكتسب من سلوكٍ إيمانيٍّ ناصحٍ والتزامٍ حركيٍّ خالصٍ .

وإذا ما كان مِن جوهرِ الأخذ بالذّوق الذَّاتي الرّشيد بالثّقافة والسُّلوكِ الحركيّ أن يكون معلّلاً ، فإنّه ممّا لا يخفَى أنَّه ليس بلازمٍ أن يكونَ ذلك التَّعليل موضوعيًّا جليًّا فى كلِّ أمرٍ ، فإن ثمّ ما تعيه الأفئدةُ ولا تحيطُ به الصّفة.

المهم أن يقومَ المنهاج على ثلاثة : التّحليل ، والتَّأويل ، والتَّعليل ، فهذه مقدماتٌ رئيسة لاستنباط المعنى الّذي هو مناط الفهم عن الله ـ تعالى ـ ، والذي هو طعمة المتدبّر وزاده إلى تحقيق الزلفَى إلى ربّه ﷺ .

وهذه المرتكزات الثَّلاثة ليست ممّا استحدثه التَّفكير البيانيّ والنقديّ ، بل ذلك أمرٌ قد حثَّ عليه وأكّده الأسلاف في أسفارهم ، تراه جليًّا عند عبد القاهر في فواتحِ كتابِهِ « دلائل الإعجاز » ، يقول :

---

(١) إخضاع نفوسنا لموضوع العمل الذي نقوم له إنما يستوجب أن يكون المرءُ عليما بذلك الموضوع ومجاله ، ومغزاه ، وأن يكون مليكًا لمهاراتٍ وأدواتٍ وخبراتٍ تمكّنه من أن يكون أهلا لما قام له . وفي البيان النبوي ما يهدي إلى خطورة أن يتولى المرءُ عملا يعلم أنه ليس له بأهل ، فإن ذلك يؤدي إلى فساد عريضٍ .

« لا يكفي في علم الفصاحـة أن تنصبَ لها قياسًا ، وأن تصفها وصفًا مجمَلا ، وتقول فيها قولاً مرسَلاَ ، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى **تفصّل القول** ، **وتحصّل** ، **وتضع اليد** على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم ، **وتعدّها** واحدة واحدة ، **وتسميها** شيئا شيئا ، **وتكون معرفتك** معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كلّ خيطٍ من الأبريسم الذي في الدّيباج ، وكلّ قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع ، وكلّ آجرة من الآجر الذي في البناء البديع »[(١)] .

هذا دالٌّ دَلالةً بيّنَةً على أنّ « الاستقصاء » و« التَّحليل » دعامتان رئيسيتان في منهج التَّفكير البيانيّ ، فالإجمال ، والاكتفاء بظاهر البيان ممّا يتحرز منه التّفكير البيانيّ ، ولذا يُذكِّرُ عبد القاهر بالاستقراء في مواضع عدّة من كتابه ؛ ليكون المتدبر والمتذوق على ذُكْر من أهميَّته . يقول :

« واعلم أنك لا تشفي الغلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملا إلى العلم به مفصلا ، وحتَّى لا يقنعك إلا النظر في زواياه والتغلغل في مكامنه ، وحتَّى تكونَ كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه ، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه إلى أن يعرف منبته ومجرى عروق الشجر الذي هو منه »[(٢)] .

تأمَّل قوله : « لا يقنعك إلاّ النّظر في زواياه والتغلغل في مكامنه.... » يتبيّن لك عظيم أهميّة « الاستقصاء » في التّحليل البيانيّ ليقف المرء على ما هو مكنون في البيان من خصال البلاغة والبراعة والبيان .

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .

ولهذا تجد الإمام يهديك في مفاتح «الدلائل» إلى نهج في التّتبّع والتّقصّي، وهو يبين لك أنَّ فضائل الكلم من علاقاتها ومواقعها على ما ترى صنيعه في تفصيل نظم قول الله ـ سبْحانَه وتَعالَى ـ : ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (هود:٤٤)[١].

هو في صنيعه هذا كمن يعلمك كيف تصطاد، فلا تفتقر إلى غير جهدك من العباد.

هذا «الاستقصاء» في التّحليل والتّدبر والتّذوّق لا بدَّ معه من «تعليلٍ» و«تأويلٍ» وإبانةٍ عن ذلك بلسان مبين، فإنَّ «الاستقصاء» في تحليل البيان وتدبره لا يعدو مرحلة التذوق الانطباعيّ الّذي قد لا يستفاد منه.

يقول الإمام: «لا بُدَّ لكلِّ كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل، وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ومعان شريفة»[٢] فالعلم بجهة الحسن والاستجادة وعلة ذلك وسببه، ثُمَّ الاقتدار على الإبانة عن ذلك الذي أدركته بفراستك البيانية؛ ليكون تدبّرك وتذوقك موضوعيًا علميًّا متطهراً من الذّاتية المجرَّدة الّتي لا يستفاد منها غالبًا في باب العلم والتعلم، ولا تهدى إلى الآخر ما به يستطيع السير على الطريق الذي سلكت، فالبلاغيّ والناقد من رسالتهما فتح السبل إلى الولوج في النّصّ، وإماطة الأذى عن الطريق إليه وإغراء القارئ بمخادنة النّص بالإشارة إلى بعض من جليل مكنونه.

* * *

---

(١) دلائل الاعجاز، ص ٤٥-٤٦، وانظر معه أيضًا: ص ٨٥-٨٦، في تحليله أبياتًا من الشعر.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١.

مجالات التَّحليل البيانيّ

السّورة القرآنيّة فى وجودها اللّغوىّ المتمثل في صورة المعنى القرآني مكوّنة مِن عدَّة عناصر متنوعة ، ولكلٍّ عنصر صورة صوتية إفرادية ، أو تركيبية ، ودَلالة ذهنية ، أو تركيبية ، أو سياقية ، وأنماط تكوينية ، وصور ، وظلال ، وعلاقات ، ووشائج .

وإذا ما كان أىّ بيان يتحقق وجوده الكلّيّ من خلال تمازج عناصره اللّفظيّة والمعنويّة أو التَّركيبيّة ، تمازجاً لا يتأتّى معه أن يقوم عنصرٌ ما بعملِه منعزِلاً عن بقيَّة العناصر ، أو أن يستبدَلَ به عنصرٌ آخر ، فإنَّ دراسة هذا البيانِ لا تتأتّى إلا باستقصاء التّحليل الَّذى يقتضِي دراسة كلّ عنصرٍ فِي ذاتِه وفي وجودِه السِّياقيّ الجمعيّ .

وللتّحليل البيانيّ لصورة المعنى القرآنيّ المتعبّد بترتيلها في السّياق السُّوريّ مجالاتٌ عدّةٌ ، كلّ مجالٍ منها يقريك تدبُّره زادًا إلى تدبّرِ ما بعده من المجالات المتصاعدةِ ، بل إنّك لتجد نفسَك ـ وقد حسِبت أنَّك قد فرغت ـ تملِك من الزَّادِ ما يُغريك بأن تكونَ الحالَّ المرتحِلَ في تدبُّرك وتذوقك .

إذا بك وقد أردت أن تحطّ الرِّحال تسرِج الجيادَ إلى ما بدأت به ، فتستأنف التّدبُّر والتَّذوُّق ، فتوافد سُبُحات العطاء وتترادف على قلبك ، وهذا وجهٌ من وجوه إعجاز بلاغة البيان القرآني ، والعالمون أجمعون متظاهرون لن يجدوا بيانًا غيره على مثل ذلك أو قريبًا منه .

وتلك مَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذِينَ صَبَروا على المجاهدة في التّحليل والتَّدبُّر والتَّذوّق ، ومَا يُلَقَّاهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ من الطَّبْعِ والعِلْمِ والتَّقْوى .



والتّحليل البيانيّ للمعنى القرآني ولِصورته يمكن أن تجعله في ثلاثة مجالات كليّة :

المجال الأوّل : علاقات المعاني ومواقعها .

المجال الثّانِي : بناء صورة المعنى .

المجال الثّالث : دَلالة صورة المعنى ومستويات دَلالتها عليْه . وأثر ذَلك فِي المعنَى ومتلقّيه .

وكلُّ هذا لا يتحقَّق الوفاء بحقِّه إلاّ إذا كان المقصود الأعظم للسُّورة حاضراً في الوعي .

* * *



المجال الأول : تحليل علاقاتِ المعاني ومواقعها على مستوى بنية «المعقد» و«النّجم» و«الآية» .

ما مضى في معاقد الشَّريج الثَّاني من هذا الكتاب عظمه كان مدارسة لعلاقاتِ المعاني ومواقعها على مستوى السُّورة ، ومعاقدها ، ليبقَى قليلٌ من القول في علاقاتِ المعاني ومواقعها على مستوى بنية «المعقد» و«النجم» و«الآية» ، وهذا ما كان للبلاغيين عنايةٌ ببعضه أبسط من عنايتهم بغيره ، ولا سيّما في ما عرف عندهم باسم «الفصل (الاتصال) والوصل» ، والتّقديم والتّأخير ، وبعضِ فنون البديع كالاحتباك واللّف والنَّشر ، والجمع والتَّقسيم ، والمقابلة ... ونحو ذلك ممّا الأمر فيه مرجعه إلى العلاقات والوشائج بين مكونات البيان .

وإذا ما كان الله ﷻ قد أقام عالم الخلق من البشر على أساسٍ من التَّنوع ليتحقّق بذلك التّكامل في أداء الرّسالة المنوطة بهم : رسالة تعمير الحياة وفق مراده الشرعيّ إيمانًا واحتسابًا ، فإنّ هذا التّكاملَ لا يتأتّى تحقيقه إلا بتحقق «التّعارف» النَّافذ بينهم ، وهو تعارفٌ يحقّق معرفةَ اقتدار كلٍّ على الفعل من جهةٍ وموقعه في سياقِ الحياة من أخرَى ، وهذا ما تلحظه من قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات:١٣) .

كلمة (تعارفوا) كلمة ثريّةٌ ثرّة بفيضٍ من المعانِي ، بهذا التّعارف تتوثق العلاقات بين النّاسِ على تنوعهم في أجناسهم وألسنتهم وأمصارهم ، وبهذه العلاقات يكون لكلّ اقتدار على ما لا يكون له أن يقتدر عليه فريدًا .

والأمر كمثل هذا في عالم البيان ، يَجرِي فيه ما يَجري في عالمِ الإنسان سواء كان البيان قائله الإنسان نفسه أو قائله الله ﷻ ، فالعلاقات بين المعاني

هي الَّتي تحقق للبيان وجوده الكلاميّ ، أي تحيله من كونه « بيانًا » إلى كونه « كلامًا » ذا أثر في من يلقَى إليْه .

كلُّ معنى لكلمة في وجودها « الجملي » وكلُّ معنى لجملة في وجودها الأعلى يأخذ من سباقه ولحاقِه ما لا يكون له فريدًا ، فإنّما هو الفاعلُ بإخوانِه وأقرانِه لا بذاته فريدًا كما المرء بإخوانه ، فما من كلمة في جملة إلاّ تفهم في ضوء علاقتها بأترابها في الجملة ، وما مِن جملة يفهم معناها إلاّ في ضوء علاقتها بأترابها من الجمل في الآية ، وهكذا .

والبيان النّبويّ يهدِي من خلالِ بيان ما يجِب أن يكونَ بين المؤمنين من علاقاتٍ تحقِّق وجودهم عامرين الحياة بما يرضاه خالقهم إلى ما يمكننا أن نقيمه في ما بيْن مكونات البيان النَّفيع .

روى الشّيخان : البخاريّ في كتاب « الأدب » ومسلم في كتاب « البرّ والصّلة والأدب » من صحيحيهما بسندهما عَنِ النُّعْمَان بْنَ بَشِيرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : « تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِى تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى »(1).

---

(1) يحسن بك الاعتكاف في محراب نظم هذا البيان النبوي ولا سيّما نظم « المشبه » :
« تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِى تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ » .
تبصر قوله ـ صَلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وَصحبه وَسَلّمَ ـ (ترى) وقوله (فِى تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ) وما بينه وبين قولنا (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ متَرَاحمينَ مَتَوَادِّين مَتَعَاطِفِين) وما تزجيه إليك (في) ثم هذا النسق المتصاعد في « تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ » ثمّ تنظر بعد كل ذلك فيك أنت جسدًا في عافيته من كلّ داء حسيّ ومعنوي ، وفي تهاويه حسًا ومعنًى ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١) .

هذه العلاقة القائمة بين مكونات الوجود المؤمن للإنسان هي نفسها القائمة بين مكوّنات الوجود الفعيل للبيان الَّذي يخلقه ذلك المؤمن ، فعلى الرّغم من التعدّد والتنوّع ، فهنالكَ علاقاتٌ موحِّدة خالقة اقتداراً على الفعلِ المجيد الحميد .

والاسترشاد بهدي الوحي قرآنا وسنة في ما يكون في عالم الإنسان الصانع البيان ، إنما هو تأصيل مكين لما يكون في عالم البيان صنيعةِ الإنسان ، لذا كانت عنايتي بهذا ، فتأصيل القول في قضايا علم الجمال اللّساني من أصول علم الجمال الإنساني المدلول عليها في بيان الوحي قرآنا وسنة أمرٌ بالغ الأهمية ، وقد حث بيان النبوة على العرفان بالأنساب لغاية نبيلة[1] . .

روَى التِّرمِذِيّ في كتاب «البرّ والصلة» من سننه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - عن النَّبِىِّ - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - قَالَ «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِى الأَهْلِ مَثْرَاةٌ فِى الْمَالِ مَنْسَأَةٌ فِى الأَثَرِ» . (صححه الألباني) [2] .

---

(١) مما أذهب إليْه أنّ من أنفع ما يكون لطلاب العلم بالبيان الإنساني الرَّشيد أن يكونَ أعلم بهدي الوحي قرآنا وسنة إلى إقامة مجتمع آدميّ يتسم بجلالِ الرسالة وجمال الفعل . فمقومات الجمال بمفهومه الإسلامي في عالم الأنام هي هيَ مقوماته في عالم الكلام ؟

وفي بيان الوحي أسسٌ كليّة تضبط الوجود الآدميّ على وفق مرادِ الله - تعالى - الشرعيّ ، وهي هِيِ أسسٌ صالحة بل هي الأصلح لضبط الوجود الكلامي للبيان . فجمالك كلامًا من جمالك آدميا . وقبحه لسانًا من قبحه إنسانًا .

(٢) البيان النبوي هدَى إلى الغاية النبيلة من تعلم الأنساب : تحقيق صلة الأرحام ، وأبان عن أثر هذه الصّلة في حركة الحياة على مستوى الفرد والجماعة . ومثل هذا قائمٌ في عالم البيان فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ .

فإذا ما كانتْ العلاقات بين النّاس هي الصَّانعة وجودهم الآدميّ المستعمر الحياة كونها وإنسانها ، فكذلك العلاقات بين الكلم والجمل وما فوقها هي الصّانعة الوجود الكلاميّ للبيان ، فكانت «العلاقات» هي الأحق بأن تكون لها العناية الأمجد إفهامًا وفهمًا .

«هذه الرّوابط وكيفيّاتها وما يقع فِيها مِن اختيار هي الّتي تسْتخرج من ألفاظِ اللغةِ دَلالاتها ، وهذا هو سِرُّ فعلِها ، وكأنّها المفتاح الّذِي إذا أصبت بِه مدخلاً لطيفًا لِلكلمةِ أخرجت منْها ما لَم يخرجه غيرك ممّن لَمْ يصِبْ مِنها هذَا المدخل .

هذِه الرّوابط هِي الّتي تفرغُ لَنا مِن الكلماتِ طعومَها وألوانَها ، وإنّ لقانةَ المتكلّم وموهبته وصنعتَه ، كلُّ ذَلِك مِن المهارةِ الّتِي تجعله يتخِذ مِن هذِهِ الرّوابط والعلاقاتِ وسائلَ ناجحةً فِي الوصولِ إلى عمقِ الكلمةِ حتّى يستخرج منها ما لم يستخرجه غيره ، ويفتح منها بابًا مِن الدَّلالةِ لَمْ يفتَح مِنْ قبْلِه»[1] .

وفقه تنوّع العلاقات بين الكلم والجمل في صورة المعنى مفضٍ لا محالة إلى تنوعِ المعاني واتساعها في فؤاد المتدبّر ، ذلك أنّ للمعنى القرآني كما ذكرت قبلُ في مبحث خصائص المعنى القرآنيّ وجودَيْن كليين :

- وجود داخل النّصّ العليّ الحكيم العزيز الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢) ، وهو فضاءٌ رحابٌ لا طاقة لأحدٍ قطُّ على الإحاطة بِه ، فهو يتسع حركة الإدراك لكلّ العالمين في لحظة واحدة ، فلو أنّ العالمين أجمعين متظاهرين متناصرين عمدوا إلى وُلُوجِه لكانوا أشبه بحلقة في الفضاء .

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني لشيخنا ، ص ٥٨ مكتبة وهبة. القاهرة ط . الأولى ،١٤١٨هـ .

- ووجود في داخل المتلقّي الرّشيد ، وهو وجودٌ يتنوَّع بتنوّع قدرات المتلقّي وإمكانته ومهاراته ، ومنها علاقته بمنزّل الكتاب سبحانه وبحمدِه : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (التغابن:١١) .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (محمد:١٧) .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩) .

وهذا الوجودُ وليدُ الوجودِ الأوَّل ، وتنوّعُه مرتهنٌ بسياقاتٍ خارج «النّصّ» تمنحُ الفؤادَ المتَلقي طاقاتٍ ومهاراتٍ تجعلُه في كلّ مرَّةٍ هو الأقدرُ على أن يستطعمَ مِن النّصّ ما لم يستطعمْ منه ، فيكونُ تلقّيه المتكرّر للآية الواحدة في سياقها تلقيًا جديدًا غير مكرورٍ ، فكأنَّه يَتلقّى الآية أوّل مرّة ، فيظلّ الدَّهَشُ الَّذي كان في أوّل مَرَّةٍ حاضراً فتيًّا فِي كلّ مَرَّةٍ .

إذا قرأت آيةً ما فَريدةً مرَّةً ، فلَك منها معنًى يتقاربُ النَّاسُ في إدراكه ، إلاّ أنـّها في وجودها النّصّي إذا كرَّرت مستحضراً شأن مَن أَنْزَلَها سبحانه وبحمدِه حالَ المخاطَب بِه أوّلاً - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - ، ومسْتحضِرًا سياقَ السُّورة الّتِي ورد فيها ، وهو من فرائدها يكون المعنى منفتحًا مستوعبًا كلّ اجتهاداتِ التلقّي الزّكية مِن الشُّبهات والغفلاتِ .

علاقةُ الآية بسباقِها ولحاقِها وسياق البيانِ المديدِ والحضاريّ فِي زمنِ التّنزيل ، وفِي زَمنِ التلقّي الرَّشيد يمنحُـه اقتدارًا على أن يفيـضَ على فؤادِك ما لا يمكنُه أن يفيضَ بمعشاره وأنت غير مستحضر سياقَه .

المعنى في فؤاد المتدبّر يتجدَّد بتجدُّد محاولات الاجتهاد في التّدبّر الصَّادر عن تكاثرٍ وتجدُّدٍ في المهارات والخبرات والأدوات الحسيّة والمعنويّة ، ولذا

تجد وجهًا غير مدفوع لقولهم : «هلْ يصنع المتلقّي المعنى» إذا ما قيد ذلك بأنّـه يصنعه في فؤاده لا في «النّصّ» ، فللمعنى كما قلت وجودان : وجودٌ في «النّصّ» ، ووجودٌ في فؤاد المتلقّي الرَّشيد ، والثَّاني من الأوّل ، والأوّل في نصّ بيان الوحي (المعنى القصدي ، المعنى المدلول) معصومٌ من كلّ المثالب الَّتي يمكن أن تعتري المعنى في البيان البشريّ ، بيْنا المعنى (المفهوم) في فؤاد المتلقّي هو معنى غير معصومٍ .

إن شئت أن ترَى أنّ تعدّد رؤية المتلقّي تجعل المعنى في فؤاده متنوعا متّسعا ، فتبصر قوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة:١-٥) .

لو أنّـك التفتّ إلى اسم الإشارة (ذلك) فلك أن تذهب إلى أنْ تجعل مرجعه قوله تعالى في سورة «أم الكتاب» : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٦) .

ولك أنّـك تذهب إلى أنّ مرجعه (الم) أو غير ذلك ممّا اشتجرت فيه مقـالات أهل العلم[1] ، والأوّل هو الأوفر عطاءً يتوافد في فؤادك .

وكذلك الأمر إذا جعلتَ (الكتاب) خبرًا يكون المعنى غيره إذا ما جعلته

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري ، ومعه فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب ، ٤٣/٢ ، تأليف : شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣هـ) . تحقيق : جمهـرة مـن أهل العلم . جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم . دولة الأمـارات العربيـة . ط . الأولى ، ١٤٣٤هـ ، مفاتيح الغيب للرازي ٢٥٨/٢-٢٦٥ ، والبرهان فى تناسب سور القـرآن . ص ١٩٠ ، لأبي جعفر بن الزبير .

بدلاً ، ويكون قوله (لا رَيْبَ فِيهِ) خبرًا أولاً عن اسم الإشارة ، أو خبرًا ثانيًا عن (ذلك) .

وكذلك غيره إذا ما جعلتَ قوله : ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) خبرًا ، ويكون العطاء غيره إذا ما جعلت (فيه) خبرًا لـ(لا) .

وهذا الوجه من دون سابقه فسابقه يتآخى مع قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس:٣٧) .

وقول الله ـ تعالى ـ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (السجدة:١-٢) .

وكذلك إذا ما جعلت : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة:٣) بيانًا لِلْمُتَّقِينَ خِتامه (يُوقِنُونَ) ، ويكون ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (البقرة:٥) . مفتتح قولٍ ، فالعطاء غيره إذا ما جعلت قوله «المُتَّقين» ختامَ قولٍ .

وكذلك عطاؤك إن جعلت قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة:٣) مفتتح معنًى ختامه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (البقرة:٥) .

ويكون العطاء أيضًا غيره إذا ما جعلت قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (البقرة:٤) مبتدأ خبره ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (البقرة:٥) .

كلُّ ذلك لا يعدو أن يكون تنوعًا في علاقات المعاني ببعضها ، لم يتحقّق تصرفٌ قط في المكونات «الكلمية» ، إنّما التّصريف كان في العلاقات بين الكلم والجمل ، فاتسع المعنى في فؤادك ، وتكاثرت العطاءات .

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (الزمر:٥٥) .

ولك أن تتبصّر في قول الله ـ سبحانه وبِحمدِه ـ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (النور:٤-٥) لترى أثر تعدد العلاقات في اتساع المعنى في فؤادك :

اشتجرت أقوال أهل العلم في علاقة قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ فقد جاء عقب ثلاث جمل : ﴿ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ ـ ﴿ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا ﴾ ـ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ وقعت خبرا عن موصولٍ تضمّن معنى الشّرط ، فصدِّرت الجمل بالفاء .

في مثل هذا تبلغ علاقة الخبر بما أخبر عنه ذروتها ، فقد تعلقت بِه من وجهين بالغي الوكادة :

الخبرية نظرًا إلى البعد الوظيفي (الإعرابي) لاسم الموصول

وجواب الشرط نظرًا إلى البعد الدَّلالي لاسم الموصول المضمن معنى الشرط .

وتضمين كلمةٍ معنى أخرى لا يبطل عملها الأوَّل أَوْ دلالتها الأولى ، بل جمع بينهما جمعًا تترابح به المعاني .

وهذا النَّهج في علاقات الكلم في البناء التّركيبيّ في عالم البيان يجب أن يكون مثله في عالم الإنسان .

الآيتان مسوقتان لأمرٍ واحدٍ : تبيين الحكم على القاذف بغير بيّنه وتقريره ، وهذه الجمل الواقعة خبرا وجواب شرط ليست نوعا واحدًا أسلوبيا ، الأولى أمرٌ : ﴿ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ .

فى جمع المأمورين بإقامة الحد (فاجلدوهم) مع أن إنفاذه حق ولى الأمر ما يمكن أن نفهم منه أمورًا منها :

أ- اعتبار مشاهدة طائفة من المؤمنين كحد الزنا فإن فى هذه المشاهدة مزيد ألم بالفضيحة ، ومزيد إرهاب لمن توسوس لهم نفوسهم باعتداء ألسنتهم على أعراض المسلمين ، ومزيد إعلام بأن شرع الله قائم ، فيطمئن كل مسلم على عرضه من الانتهاك بغير حق .

ب ـ اعتبار إِنابة ولي الأمر الأعظم من يقوم بالحدود مقامه (السلطة التنفيذية للأحكام : الشُّرَط) ، فكان الجمع نظرا لتعدّدهم في البلاد أو في البلد الواحد إذا اتسع .

جـ ـ اعتبار أنَّ وليّ الأمر الأعظم يمثل الأمة كلها ، وأنّـه حين يقيم هو حدا هو حق الآخرين ، فعليه أن يقيمه كأنه هو حقه ، فلا يتوانى ولا يتعاطف مع العادين .

د ـ اعتبار أنَّ على ولاةِ الحَقِّ أن يُوقِنوا أنَّـهم بهذا كأنَّـهم يقومونه هم بأنفسِهم ، فلا يظنون أنَّـهم لم يأخدوا حقهم بأيديهم ، كما يوسوس لهم الشيطان لبعض أهل الجهل : أن انتقام السلطان لهم لا يحقق لهم الانتصار لأنفسهم والأخذ بحقوقهم فعليهم أن يثأروا بأيديهم لا بيد السلطان ، وتلك هي الحالقة .

والثَّانية نهيٌ ﴿ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ﴾ .

كان يمكن في غير القرآن أن يقال : «ولا تقبلوا شهادتهم أبدًا» بيْنا البيانُ القرآنيّ جاءت فيه العبارةُ بتقديم الضَّمير وجره باللّام وتعليقه بمحذوف ﴿ لَهُمْ شَهَـٰدَةً ﴾ دون قولنا «شهادتهم» :

ما عليه النَّظمُ يُؤْذِنُ بأمور منها :

ـ أنَّ قبول شهادة الشاهد هو في الوقت نفسه شهادة له بالعدالة التي هي من أعالي ما يحرص المسلم على الاتصاف به ، فكان الجزاء من جنس العمل .

ـ أن رد شهادة الرامي بغير بينة يعود خسارته عليه خاصة حيث تهدر فيه كرامته وقيمته الإنسانية .

ـ تخصيص الرد بشهادتهم الناشئة عن أهليتهم الثابتة لهم عند الرمى ، وهو السر في قبول شهادة الكافر المحدود في القذف بعد التوبة ، والإسلام ، لأنها ليست ناشئة عن أهليته السابقة ، بل عن أهلية حدثت له بعد إسلامه ، فلا يتناولها الرد فى التقديم أيضا إبهام ثم تفسير ، وذلك أوقع فى النفس من ﴿ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً ﴾ فهو من قبيل : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

(الشرح:١) .

« فيه ـ أيضا ـ تهيئة لتنكير لفظ الشهادة ، فتقع فى سياق النهي وهو فى قوة النفى ، فتعمّ ، فتردّ جميع شهاداته فى كل أنواع العقود ، وذلك ما يقتضيه ظاهر التركيب ، وما يقتضيه التأييد المفهوم من صفة النّهي ، والتأبِيد المنطوق به (أبدًا) مؤكدٌ ذلك المفهومِ ، وما يقتضيه الردع لمن بغى وظلم ولا سيّما حين يستهان بذلك البغى ، فتلوكه الألسن ويستعذب .

والثّالثة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ خبرٌ فيه معنى الأمر .

فى جعل المبتدأ اسم إشارة للبعيد (أولئك) إيذان ببعد منزلة المخبر عنهم فى الشر والفساد ، أى أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة والتجاوز عن الحدود الكاملون فيه ، كأنهم هم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم لا غيرهم من الفسقة .

ومن أهل العلم من ذهب إلى أنّ (الواو) في ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ يمكن أن تكون استئنافية على أنَّ ما بعدها «كلام مستأنف غير داخل فى حيز الجزاء كأنّه إخبارٌ بحال الرّامين المحصنات ... »

وبذا قال أبوبكر الجصاص (ت:٣٧٠هـ) وهو ما استظهره أبو حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) . وعلى هذا تبقَى الجملة خبرية غير مؤولة بأمر .

وكأن هذا الوجه يذهب إلى أن هذه الجملة مؤكدة حال ما قبلها ، الكاشف عن حالهم عند الناس : جلد وردّ شهادة ، ومؤسسّة بيان حالهم فى حكم الله عَجَلَّ وفِي علمه ، وفِي حكم الشَّرع الحاكم بالظَّاهر ، أمّا فى حكم الشرع فالظاهر ، وأمَّا فى حكم الله جَلَّالَهُ فإن كانوا كاذبين فى قذفهم فهو ظاهرٌ أيضا ، وأمّا وجهه إذا كانوا صادقين ، فهو أنّهم هتكوا ستر المؤمنين ، وأوقعوا السَّامع فى الشك من غير مصلحة دينية بذلك ، والأعراض ممَّا أمر الله ﷻ بصونها إذا لم يتعلق بهتكه مصلحة ، فكانوا فسقه غير ممتثلين أمره جَلَّالَهُ [1] .

وقد ربط بينها بعامل ربطٍ لفظيّ (الواو) وهي أمّ الباب فهي أقوى عوامل العطف ، فإنّها متفرّغة للدَّلالة عليْه ، وهذا شأن كلِّ أداةٍ هي أمُّ الباب ، كـ«الكاف» في «التشبيه» و«إنْ» في الشّرط ، كلّ لا يدلّ إلا على معنًى واحدٍ تفرغتْ له ، فملاحظة هذه المزية مهمٌّ في هذا ، وهي في «الواو» مقدمة على

(١) ينظر : كتاب «أحكام القرآن» ١٢١/٥ ، لأبي بكر الجصاص (ت: ٣٧٠هـ) تحقيق : محمد صادق القمحاوي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ١٤٠٥هـ ، وكتاب «التبيان في إعراب القرآن» ٩٦٤/٢ لأبي البقاء العكبري : عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت:٦١٦هـ)، تحقيق : علي محمد البجاوي ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة . وكتاب «البحر المحيط في التفسير» ١٤/٨ ، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي ابن يوسف بن حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) تحقيق : صدقي محمد جميل ، دار الفكر ـ بيروت ، ١٤٢٠هـ .

ملاحظة عدم إفادتها التّرتيب ، لأنّ ذلك قد ينقض بالسياق بينما تفرغها للرّبط عطفًا لا ينقض .

هذا التّنوّع الأسلوبيّ اقتضاه مضمون كلٍّ ، وإذا ما كان لك أن تؤولّ الجملة الثّالثه ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ بالأمر (وفسّقوهم) ، فإنّ الإتيان ببيان حكم الجلد في أسلوبِ أمرٍ يشير إلى تفاوتٍ في تنفيذ «الجلد» ، فالشّأن فيه ألاّ يبلغ به الهلاك ، وهذا يتفاوت قدره بتفاوتِ حال المجلودِ ، فمنهم مَن لا يبلغ في إيلامه مبلغًا نافذا ، بينا هو مع الآخر مهلك ، فكلٌّ يكون جلده بما يحقّق إيلامَه في غير إهلاك . وهذا التفاوت أحقّ به أسلوب الأمر ، فهو الذي يتفاوت النّاس في مقدار تحقيقه[1] .

روَى البخاريّ في كتاب : «الاعتصام بالكتاب» مِنْ صَحِيحِه بِسَندِه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - قَالَ : «دَعُونِى مَا تَركتُكُمْ ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى

---

(١) يحسُنُ بنا أنْ نعمدَ إلى استقراء ما جاء البيان به في أسلوبِ أمرٍ ، في البيان القرآني وما جاء البيان به في أسلوب نهي ، كان يمكن عربية أن يأمر بضده ، واقتضاء كل ، وأثر ذلك في تقريرالمعنى في النفسِ .
وكذلك نفعل في شأن المعاني التي جاءت بأسلوب خبر أريد به أمرٌ أو نهي ، ثم ننظر أثم معنى جاء في سياق أمرًا ، أو خبرًا دالاً عليه وجاء ضده في سياق آخر نهيًا أو خبرًا دالاً على النّهي لنتبين ما بيْن السياقين ، ونتبين الباعث على ذلك فيّ كلٍّ .
ولنا من بعدُ أن نعمد إلى البيان النبويّ لنرى : أجاء فيه معنى بأسلوب أمرٍ هو قد جاء ضدّه في القرآن بأسلوب نهي ... وما مقتضِى ذلك في كلّ . مثل هذا ممّا نحتاج إلى استقرائه جمعًا وتصنيفًا وتحليلاً واستنباطًا لمعالم قواعد كلية خاضعة لسلطان السّياق والمغزى . وفي مثل هذا خدمة بالغة لتبيين الإعجاز البياني للقرآن وتقريره في الأفئدة وحرًى بلجنة التفسير وعلوم القرآن ولجنة السّنة وعلوم الحديث أن تتخذ مثل ذلك مشروعًا علميا تعمل على إنفاذه وإتقانه .

أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَىْءٍ ، فَاجْتَنِبُوهُ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

وجاء البيان عن ردّ الشَّهادة في أسلوب نهي ، ذلك أنَّ الرَّدَّ لا يتفاوت فيه النَّاس ، وهذا أليق به أسلوب النَّهي . وردّ الشهادةِ أنكى من الجلد وأدوم أثرًا ، ولا تجد عاقلاً يطيقه ؛ لأنَّه إسقاطٌ لمروءته بل لآدميته .

وفي هذا من التَّنفير من مقاربة هذا الإثم ما فيه ، وبرغم من ذلك ، فأنت تراه جاريًا على ألسنة كثير ممن ترى عينك ، بل إنّه ليتفكه بِه في بعضِ الطبقاتِ ، فكأنهم جعلوا المنكر معروفًا ، وتلك هي الحالقة ، وما هذا إلا أثرٌ من آثار عبثِ سحرة إبليس الّذين كرهوا ما أنزل الله ـ تعالى ـ في عقل الأمة لتكون أيسر انقيادًا للشيطانِ ، فيتخلّى الله ـ تعالى ـ عنها ، فتهلِك .

في مَجِيءِ قوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ في أسلوبٍ خبريّ مآله الأمر بتفسيقهم ، دون البيان بمثل : «وفسّقوهم» إفادةُ أنّ من أقدم على هذه الموبقة ، فإنّه المتمكن فِي الفسقِ ، وفسقه ليس على نفسِه بل فسْقُه واقعٌ ضرّه في الأمّةِ ؛ لأنـّه يعمل على إشاعة الفاحشة فيها ، فلا يبقَى شريفٌ فيها بمنعة منْ أن يطعن فيه ، وهذا فيه مِن الفساد ما لا يطاق .

وجاء الخبر في أسلوب دالٍّ على «القصر» : قصر صِفةٍ على موصوفٍ إبلاغًا ، فكأنَّ فسقَ غير القاذفِ مِن دون فسقِ القاذف ، ولا سيّما أنَّ فسق القاذف لا يعود عليه بشيْءٍ ، ولَوْ بشَيْءٍ مِنْ شهوةِ النَّفس ، كما في فسق الزَّاني والسَّارق ونحو ذلك ممَّا تدفع إليْه الشّهوة .

وفسق القاذف أيضًا سهلٌ اتقاؤه لمن أراد ، فإنّما هو فسقٌ أوجبته حركة لسانٍ غير عقيلٍ ، وما أيسر على المرء من أن يمسك عليْه لسانه ولا سيّما إن كان في إطلاقه ما سيخرجه عن مجتمعه ويصمه بالفسوق . فتلك هي الكلمة الحالقة .



وكأنّه لما كان هذا الإثم سهلاً اقترافه ولا سيما من الدَّهماءِ ، خطيرًا فعله في الأمّةِ جاء الإبلاغُ فِي التنفيرِ منه ، فضوعفت العقوبة ، وهذا من التّثقيفِ الفؤاديّ البالغ النّاجع .

وأنت إذا نظرت في نظم هذه الجملة القرآنية : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ رأيت أنّه يُمكنُ الذَهاب إلى أن اسم الإشارة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ يؤذن بأمور منها :

- بعدهم عمَّا هدى إليه الإسلام من حرمة الأعراض ، وجعلها فى مقام حرمة الدماء .

- استحقاقهم ما أخبر به من وصفهم بالفسق ، أى أنهم أحقاء بهذا الوصف من أجل ما اقترفوا من قذف بغير بينة .

ويُمكنُ الذِّهاب إلى أن تعريف المسند بـ « أل» على معنى أنّ المشار إليه هو الكاشف لوصف الفسق المبين لحقيقة هذا الوصف ، وأنه المجسد لهذا الوصف ، وهذا الطريق يتحوّل فيه المسند من كاشف إلى مكشوف ، وكأن استجماع هذا الوصف فى الموصوف واكتنازه فيه بكل صوره وخصائصه أحال الموصوف إلى أن يكون التجسيد الشاخص للنواظر المتطلعة إلى معرفة الصفة ، و« هذا فن عجيب الشأن ، وله مكان من الفخامة والنُّبل ، وهو من سحر البيان الذي تقصر العبارة عن تأدية حقه ، والمعول فيه على مراجعة النفس واستقصاء التأمل».

وهو أعلى من جعله على طريق التخصيص القصرى ، لأن فرقا جد شاسع بين أن يكون المسند إليه مختصا بالمسند و بين أن يكون هو هو ، حتى أنك إذا ما أردت معرفة المسند لم يك بك إلا أن تعرف المسند إليه فقط . فذلك هو الكافى الشافى .

والعدول عن أسلوب الأمر في تحقيق المطلوب إلى أسلوب الخبر فيه من الحثّ على الإيقاع والإسراع فيه ، فكأنّـه بمجرد الأمر به قد وقع ، فاستحقَّ أن يخبر عنه ، فما بين الطلب والوقوع لايدرك .

ونظرةٌ في نسقِ العقُوبة ترَى بها تصاعدًا في العقوبة : بدأ بالجلد ، وثَنّى بردّ الشّهادة ، ثمَّ ختم بالتّفسيق .

هي متصاعدةٌ في القدرة على طاقتها من جهة العبد ، فالأولى وإن تكن جلدًا أيسر طاقة عَلَيْها من الثَّانية ، فإنّها إهدار آدميته ، والثَّانية على عتوها أدنى طاقةً عليْها من الثَّالثة ، فالأخيرة هي الَّتي لا تطاق . مَن ذا الّذي يطيق أن يحكم عليه بالفسوق؟ الثّالثة متصاعدةٌ في امتداد أثرها من الثّانية ، وهي متصاعدة في مباعدة من حلَّت به عن الآدمية .

تبيَّن لك بعضٌ من وجوه العلاقة بيْن جزاءٍ من قذف محصنةً ، فإذا ما نظرت في علاقة «الاستثناء» الآتي من بعد هذا الجزاء ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران:٨٩) بهذا الجزاء كنت بحاجة إلى أن تحرّر المستثنى منه في الجزاء : أكلُّه أم بعضه ؟ وما بعضه الّذي هو المستثنى منه ؟ فبناءً على ذلك يتقرّر حكم شرعيّ يجب إنفاذه مرضَاة لله ربّ العالمين .

العلماء متّفقون على أمرين بشأن مرجع الاستثناء ومختلفون على شيء :

متفقون على عدم رجوعه إلى الجملة الأولى : ﴿ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ فهو ممّا لا تسقطه «التّوبة» والإصلاح ، من أنّـه حقّ «المقذوف» وهذا لا يسقطه إلاّ عفو صاحب الحقّ ، والتوبة لا تسقط حقوق العباد ، وإنّما التّوبة النّصوح تسقط حق الله ـ سبْحانَه وتَعالَى ـ إن قبلها .

أرأيت إلى عظيم إعلاءِ الله ﷻ العليّ العظيم الرؤوف الرّحيم شأن حقّ العبدِ على أخيه : جعله أشدّ حرمة من حقّه جلّ جلالُه على عبده ، وكان ظاهر الأمر أن يكونَ الأمر على خلافِه ، ولكن الله ﷻ لم يجعل لنفسِه سلطانًا على حقوق العباد ، كيما يقيم العدل فيهم ، وكأنه يعلمنا أنّه ليس مِن حقك أن تسلَّط على حقوقِ الآخرين ، فتسقط حقّ واحدٍ على آخر ، فليس هنالك حصانة لأحدٍ من الجناة من المتابعة القضائية ، وإنزال العـدلِ به ، كائنا من كان ، وليس هنالك حقوقٌ تسقط بالتّقادم .

قلت : إنَّ أهل العلم متفقون على أن «الجلد» حقّ العبد وحده ، ولا يسقط بالتّوبة والصَّلاح ، وإنّما يسقط بعفو صاحب الحقّ ، ومن أهل العلم من يرَى أنّه أيضًا حقّ الله ـ تعالى ـ لا يسقط بعفو المقذوف ، وهو ما يعرف الآن بحقّ المجتمع ، فإذا علم به ولي الأمر ، وإنِ لم يطلب صاحب الحقّ فعلى ولي الأمر إقامة الحدّ عليْه ، فذلك من الجرائم الّتي لا ينحصر ضررها في معينٍ من النّاس بل يمتدّ إلى المجتمع كلّه ، وقذف المحصنات من هذا الباب ، فمن قال بذلك أوجب الجلد بمجرد وقوع القذف ، وإن لم يطلب صاحب الحقّ ، وإن تاب القاذف[1] .

---

(١) ينظر في هذا كتاب : «أحكام القرآن» ١١٤/٥ ، لأبي بكر الجصاص ، تحقيق : محمد صادق القمحاوي . دار إحياء التراث العربي . بيروت ، ج : ١٤٠٥هـ ، وكتاب «أحكام القرآن» ٣٤٥/٣ . لابن العربي : محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأشبيلي المالكي (ت: ٥٤٣هـ) تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية، بيروت ـ ط . الثالثة ، ١٤٢٤هـ ، وكتاب «رَفْعُ النِّقَابِ عَن تنقِيح الشّهابِ» . ١٥٥/٢ ، ١٥٦ ، الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي (ت : ٨٩٩هـ) تحقيق : أَحْمَد بن محمَّد السراح ، وعبد الرحمن بن عبد الله الجبرين . مكتبة الرشد ، الرياض ـ ط . الأولى ، ١٤٢٥هـ .

وهذا ما إليْه أذهب ، فهو أوفق بحال زماننا الّذي سهل على كثير اقتراف جريرة القذف ، ومنعًا من أن يتسلَّط على صاحبِ الحقِّ من هو أقوَى منه ، فيرغمه على التَّنازل بعوَضٍ أو دونِه ، فتفسد الحياة فسادًا مبيرًا .

وأهل العلمِ أيضًا متّفقون على أنّ الاستثناء ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ ﴾ يرجع إلى الجملة الثّالثة : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فالتَّوبة والإصلاح يسقطان التَّفسيق .

وهم يختلفون في رجوعه إلى الثّانية : ﴿ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً ﴾ .

مذهب مالكٍ والشافعي وأحمد يستظهِر الرُّجوع إلى الثّانية أيضا .

ومذهب أبي حنيفة يستظهر رجوعه إلى الأخيرة وحدها .

ومذهب التّفصيل يستظهر رجوعها إلى الثّانية والثّالثة ، فالتوبة والإصلاح يسقطان رد الشّهادة والتَّفسيق .

ومن أهل العلم من ذهب إلى أنّ الاستثناء في ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ استثناء منقطع ، وهو ما يعرف بالاستثناء المجازي الّذي أقيمت فيه (إلا) مقام (لكنْ)[1] .

---

(١) ينظر كتاب : الكافي شرح البزودي . ١٤٦٢/٣ ، للحسين بن علي بن حجاج بن علي ، حسام الدين السِّغْنَاقي (ت : ٧١١هـ) تحقيق : فخر الدين سيد محمد قانت ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، ط . الأولى ، ١٤٢٢هـ ، وكتاب الاستغناء في أحكام الاستثناء . ص ٦٥٨ ، ٦٦٢ ، تأليف : شهاب الدين القرافي . تحقيق : طه محسن . ط « مطبعة الرشاد . بغداد . نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي (رقم : ٤٩) ، وكتاب « دراسات لأسلوب القرآن الكريم » ٣١٦/١ ، لأستاذنا محمد عبد الخالق عضيمة (ت:١٤٠٤هـ) تصدير : محمود محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة .

والأظهرُ أنّه متّصل إلا أنّه ليس من قبيل القصر الاصطلاحيّ عند جمهرة البلاغيين لاشتراطهم أن يكونَ استثناءً مفرَّغًا ، وما معنا هنا موجبٌ ، وإن كان من طرقه عند الأصوليين القائلين بالتَّخصيص،وعند البهاء السّبكي في «عروس الأفراح» ، وكذلك ليس طريقا من طرق تخصيص العام عند أبي حنيفة ؛ لأنَّه لا يقول بالمخصّصات اللفظية غير المستقلة ، بل هو من قبيل بيان التَّغيير ، وهو أيضًا لا يدلّ لغة ـ عند أبي حنيفة ـ على نفى الحكم عن المستثنَى ﴿ ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ (البقرة:١٦٠) ، وإنّما يدلّ على هذا النّفى البراءة باعتبار الأصل،فالحكم عنده على التَّائبين المصلحين وعدمه مسكوتٌ عنه لغة، مدلولٌ على نافيه باعتبار الأصل ، فإذا ورد ما يعارض البراءة الأصلية كان المصير إليه .

والمستثنى كما ترى متصف بأمرين : التّوبة والإصلاح معًا ، وأهل العلم منهم من أوجبهما معًا ، على تنوع في بيان المراد بالإصلاح ، كما أنّهم ليسوا سواء في بيان التوبة أهي إكذاب نفسِه بما رمَى به أم الرّجوع إلى الله ـ تعالى ـ والإنابة إليْه ، وإن لم يصرح بإكذاب نفسِه؟

اشتجرت وجهات نظر أهل العلم .

والذي استظهر الأخذ به في زماننا هذا أن يكذّب نفسَه ، وينشره على الوجه الذي نشر فيه القذف سواءً بسواء : إن كان في مجلسٍ وجب أن يكون في المجلسِ نفسِه إذا ما تيسر ، أو في مجلسِ أهلٍ أن يشهدوا عليه بتكذيب نفسِه .

وإن كان عبْر وسيلة إعلام ، فعليه أن يكذب نفسه فيها سواء بسواء حتى يكون ذلك رادعًا لمن تحدثه نفسه السوءَى بأن يقذف أعراض العباد .

وأسْتظهِرُ أيضًا أن يكونَ عامًا بما دلّ عليه طيّ المعمول ، فالعموم المفاد من الطّيّ يتآخى معه دلاليًا الإظهار ، ليمحوَ إظهار الإصلاح العامّ أثر ما كان منْ جريرةِ «القذف».

ويُمكن أن يكون قوله ﴿ تَابُواْ ﴾ دالاً على ما بينه وبين ربّه ﷻ ، لأنَّ حقيقة التَّوبة وصدقها لا يطلع عليها إلا الله ﷻ .

وقوله : ﴿ وَأَصْلَحُواْ ﴾ دالا على إظهار التوبة ، وإعلانها ، وهو إكذابه نفسه علانية ، فهو بالقذف بغير بينة أفسد ما بينه وبيْن ربِّه ﷻ ، وما بينه وبين الناس ، فكانت التوبة النّصوح إصلاحًا لما بينه وبيان الله ـ تعالى ـ ، والإصلاح لما بينه وبين النّاس .

وجاء تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:١٩٢) مَبنِيا على تَوكيد نسبة المسند : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إلى المسندِ إليْه ﴿ ٱللَّهَ ﴾ جمعا بين «الفاء» و«إن» مع أن «الفاء» يغنى عنها «إن» كما يقول الإمام عبد القاهر ، إشارة إلى قوة السّبب فى تأثير التّوبة ، والإصلاح فى الردّ والتفسيق برفعهما وإبطال أثرهما ، ولم يأت هنا بقوله «فاعلموا» كما فى آية المحاربة ، لما بين الجريمتين مِن مفارقةٍ بالغة من وجوه كثيرة منها بشاعة المحاربة ، وقلة من يتجرأ عليها ، واحتياجها إلى مخاطرة وعدَّة وعتاد ، وقد بولغ في عظم تصويرها لما لها من أثر من اهتزاز مكانة الإمارة والسّلطة ، ممّا لا يكاد يتصور معه أن الله ﷻ يغفر ويرحم من يفعل ذلك ، فجاء قوله «فاعلموا» تأكيدًا وترسيخًا لهذه الحقيقة الآخذة بحجز العادين عن الدّرك الأسفل ، ولا يأخذ بخناقهم اليأس والقنوط .



أمّا جريمة القذف فغيرُ قليلٍ مَن هو إلى الوقوع فى خبالها ، وعدم احتياجها إلى مخاطرة وعدّة وعتاد ، بل هي فعلة الضُّعفاء السّفهاء الجبناء ، فأوهَمت كثرتُها على الألسنة أنّها ممّا عمتْ به البلوَى ، فلا ييأس أحدٌ مِن مغفرتِه وإسقاطِه بالتَّوبة والإصلاح ، فلم يكن مقتضٍ بالغٌ إلى تأكيد أن الله ﷻ يغفر ويرحم مَن يتوب منها ويصلح .

تبيّن لك ممّا سبق شيْءٌ من أهمية الاعتناء بفقه علاقات المعاني بعضِها ببعضٍ ، وأن هذا ممًّا يترتب على تعدّد وجوه النَّظر تنوّع في الأحكام العملية ، ممًّا يحقق شيئًا مِن التَّيسير على العباد من جهةٍ ومن توكيد تحقيق السَّلام الاجتماعي من أخرى .

وغير خفِيٍّ أنَّ أسفارَ أهل العلم في باب «معاني القرآن وإعرابه» عمود الأمر فيها النَّظر في وجوه علاقات المعاني على مستوى بناء الجملة ، وما فوقها ، وللعقل البلاغي العربي في هذا الباب وأسفاره مجالٌ فسيح ، فله بلْ عليْه أن يُبين عَن التَّوجبه الأعلى والأليق بالسِّياق ، والأوفر عطاءً ، والأفسح فسطاطًا ، لأنَّـه ممّا يجب مِن حقوق القرآن أن يحمل على أكرم وجوه النَّـظر والتَّأويل ، وأوسعها مذهبا ، وأكثرها عطاء ، وأمجدها نوالاً ؛ لأنّه بيانٌ عليٌّ حكيمٌ ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف:٤) .

روى ابن ماجه في «المقدمة» من سننه ، وأحمد فِي مسنده بسندِهما عَن عَلِيِّ بن أبي طالبٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ قَالَ : « إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم ـ بحَدِيثٍ ، فَظُنُّوا بِهِ الَّذِى هُوَ أَهْنَاهُ ، وَأَهْدَاهُ ، وَأَتْقَاهُ » . (صحّحه الألباني)

والبيانُ القرآني أولى بذلك ، وأحقُّ .

وإذا ما كان البيان القرآني حمّالا ذا وجوه ، فإنَّ تعدّد الوجوه آتٍ من تعدّد العلاقات المُمكِنة عربية بيْن المعاني ، وإذا ما تنوعت العلاقات بين الجمل وتنوَّعت وجوه الإعراب تنوّعت العطاءات «ولكلّ طائرٍ مشربه» واتسع المعنى في الفؤاد ، فاتِّساع الحركة الإصلاحية في الحياة كونًا وإنسانًا ، فكثرة احتمالاتِ العلاقات الصَّحيحة في العبارة تجعل المعنى وسيعًا في الفؤاد ، ولكلّ عطاؤه التّأثيري .

ولمّا ضاقت المعاني في الأفئدة في زماننا لعجز الأفئدة على أن ترَى ، ضعفت الحركة الإصلاحية للحياة كونًا وإنسانا ، فاستجلب العلماء في زماننا اجتهادات السَّابقين الإصلاحية الَّتي نشأت في سياقات اجتماعية غير الَّتي نحن الآن فيها .

أيمكِنُ أن يكونَ شأن الأمّة في زمنِ مَن كان يقول للسّحابة : أمطري حيثُ شئْتِ ، فإن خراجك سيأتي هو شأنُها فِي زَمَنِ مَنْ تَرَى وتَسْمَعُ ؟

علينا أن نُعيدَ تدبّرنا بيانَ الوَحي بما يُصلح أمّتَنا في زماننا بكلّ ما فيها من أدواءٍ ، وبكلِّ ما لها مِن احتياجاتٍ ، فالأدواءُ والحاجاتُ تغيَّرتْ ، وثلّةٌ مِنْ علمائِنا يَسْتَجْدُونَ منتجَ العُلماء السّابقين لا لِيْستَهدُوا بمناهِجِ النَّظر ، فَيُنْتِجُوا لِزَمانِهم ما يُصلِحُهُ ، بَلْ لِيَسْتَهْلِكُوا مُنْتَجَهُمْ ، وَتِلْكَ هِيَ الَّتِي لا تَلِيقُ .

ولمَّا كان القول البلاغيّ في علاقاتِ المعاني في بنية «النّجم» قولاً اشتجرت فيه مقالات الأعيان من العلماء واتسعت ، وانتشرت في طلابِ العلمِ ، لم أشأ أن أبسط القول فيه ، وإن كنت أرى أنها أقوالٌ تحتاج إلى أنْ يرْمِي بِها إلى غاية

تربويّة تتصاعد بالمتلقّيها إلى طورٍ أسمى مكانًا وأوفر عطاءً ، فليس العلم لذاته بل لما يحقّقه لمتلقيه من ارتقاء في مدارج الآدمية المستعمرة الحياة كونها وإنسانها ، فكلّ علمٍ لا يُفضِي إلَى شَرِيفِ عملٌ هو عِلْمٌ عقيمٌ يُستعاذُ باللهِ - تعالى - منه[1] .

* * *

(١) منْ لطيف الإشارة إلى العلاقة الوثقَى بيْن العلم والعمل في العربية أنّهما من مادة واحدة ، وإن اختلفا في نسق الحروف ، بتحريك «الميم» في «العلم» عن موضعها ليستحيل «عملا» والاتفاق بين مكونات الكلمتين آية على ما بينهما من رحم ، فالعمل بمثابة الوليد من «العلم» : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء:٣٦) .
وروى مسلم في مقدمة صَحيحه بسنده عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ» .
وهذا ما يقرر فريضة تأسيس العمل على العلم ، وفريضة أن يفَضي العلم إلى العمل، فمن عمل بما لم يعلم فهو من الضالين ، ومن علم ولم يعمل ، فهو من المغضوب عليهم ، وهو ما استعاذ منه سيّدنا رسول الله ﷺ .

المحور الثَّانِي
تحليل بناء صورة المعنى

القول في المحور الّذي مضَى كان قولاً في علاقاتِ المعاني في بنية «المعقد والنجم والآيـة» بالقصد الرَّئيس ، والقول في هذا المحور القصد الرئيس فيه إلى استبصار بناء الصورة ، وهذا ليس جميعه متوقفا على علاقاتِ المعاني في المقام الأوّل ، فالصّورة من مكوناتها مادة الكلمة وصيغتها وجرسها ، وكل ذلك هو أهلٌ لأن يعتنى به في دراسة صورة المعنى .

وصورة المعنى تتنوع بسْطة بتنوّع المعنى الّذي تصوره ، فقد تكون جملةً غير وجيزة ، وقد تكـون مديدة ، وقد تكون الصورة قِصّة بسيطة مديدة ، فكلّ ما لا يتحقق تمام المعنى والمغزى المرحلي إلاّ به ، هو داخلٌ في صورة المعنى ، ألا ترى أن كلاًّ من سورة «والعصر» و«النّصر» و«المسد» مثلا جملة قرآنية واحدة ، فمعيار بنيّة الصُّورة تمام المعنى والمغزَى ، فالآيات من أول قول الله ﷻ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٨) .

إلى آخر قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٠) صورة «جملة قرآنية» واحدة .

وقصّة سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح في سورة «الكهف» جميعا صورة واحدة ، ذلك أنَّ تمام المعنى والمَغزى المرحليّ لا يتحقّق إلاّ بها جميعا .



ومصطلح الصُّورة «إنما هو تمثيلٌ وقياسٌ لما نَعْلَمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا ، فلمَّا رأَيْنا البَيْنونة بين آحادِ الأجناسِ تكون مِن جِهةَ الصورةِ ، فكان تبين إنسانٍ مِنْ أنسانٍ وفرَسٍ من فرسٍ ، بخصوصيةٍ تكون في صورةِ هذا لا تكون في صورةِ ذاكَ ، وكذلك كان الأمر في المصنوعاتِ ، فكانَ تَبَيُّنُ خاتَمٍ من خاتمٍ وسِوَارٍ من سِوَارٍ بذلك ، ثم وجَدْنا بينَ المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونةً في عقولِنا وفَرْقاً ، عَبَّرْنا عن ذلك الفرقِ وتلكَ البينونةِ بأنْ قلنا : «لِلمعنى في هذا صورةٌ غير صورتهِ في ذلك» .

وليس العبارة من ذلك بالصورةِ شيئاً نحن ابتدأناه فيُنْكِرُهُ مُنْكِرٌ ، بل هو مُستعمَلٌ مشهورٌ في كلام العلماءِ ، ويكفيك قول الجاحظ : «وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير»[1] .

فالصّورة إنّما هي المرآة الّتي ينعكس عليْها المعنى المكنون في الأفئدة .

ومن خلال صور المعاني المتقاربة يمكننا أن نبصرَ ما به يفضل مبينٌ مبينا .

وكأنّي بعبد القاهر يحملنا في مدارستنا لصورة المعنى في أيِّ بيانٍ أن نكونَ أكثر اعتناءً بما يفارق به البيان غيرَه ، وهي مفارقةٌ وإنْ كان معدِنها المعنى والمغزَى من العناية بحسن إتيانِه من الجهة التي هي أصح لتأديته ، فإنَّ مجلى هذه المفارقة الصّورةُ الّتي تراها العين ، وتسمعها الأذن ، فما ينعكِس من المعنَى والمغزَى على الصُّورة الّلسانيّة من مزايا هوالّذي يحقّق للبيان صورته .

العقل البلاغيّ عقلٌ مِن همِّه الأعظم العناية بما تفارقت فيه البيانات ، وهذا لا يمكنه أن يبلغه إذا لم يكن له وعي بما توافقت فيه البيانات ، لأنَّ ما توافقت فيه إنّما هو أمرٌ جوهريٌّ متحقِّق به الشَّيْءِ في نفسِه تحققًا لا سبيل

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٥٠٨ فقرة : ٥٧٧ ، وانظر فصل : «الصورة في التراث البلاغيّ» ص ٦٩-١٢٥ ، من كتاب شيخنا : «دراسة في البلاغة والشعر» مكتبة وهبة . القاهرة . ط . الأولى ، ١٤١١هـ .

إلى التَّخلّي عنه ، لأنّ التخلّي عنه تخلٍ عن وجوده أصلاً ، بينما التَّخلي عمًّا يفارق به غيره تحلٍ عمًّا يميزه عن غيره ، وإن لم يفقده وجودَه بالكلية كما يقال .

ذكرت ذلك وإن كان كالبَدهيّ عند طلاب علم البلاغة العربيّ من أنّه قد يذكر الشّيءُ المعلوم عونًا على استحضاره لأهميته ، أو لِيبنى عليه القول في ما هو ليس بمعلوم ، وهذا أَصلٌ في حركةِ العقل العلميّ يُحْكِمُ مقدارَ وجودها ، وكيفيتها في ما هو معلومٌ ، فالوجود في ما هو معلومٌ ليس لذاتِه إنّما هو وسيلةٌ إلى غيره ، وهو يستمدُّ قيمته الوظيفيّة مِن الغاية الّتي هو لها .

* * *

مكوّنات بناء صورة المعنى أيّا كان امتداد هذا المعنى إنّما هي ضربان : كلماتٌ وعلاقاتٌ .

إنْ تكنْ الكلمات ليستْ من خلقِ المُبين بِها ، وإنْ تكنْ أيضًا أصول مواد الكلم في العربية يمكن حصرها وأحصاؤها ، فإنّها بخصيصة «الاشتقاق» تجعل هذه الأصول المحصورة ذات ولائد لا سبيل إلى إحصائها وحصرها .

«الاشتقاق» كما يقول الفخر الرّازي (ت : ٦٠٦هـ) في فواتح تفسيره كتاب الله ـ تعالى ـ : «أَكْمَلَ الطُّرُقِ فِي تَعْرِيفِ مَدْلُولاتِ الْأَلْفَاظِ» وهذا «الاشتقاق : أيضًا يمنح المتكلم بالعربية اقتدارًا منضبطًا على أن يستولد من الأصل ، وهذا الاستيلاد مِن الأصلِ معينٌ على الوعيِ بأصل ما تحمله الكلمة في وجودها الفرديِّ «الّلغويِّ» وما حملته عبر سياقات استعمالاتها ، وما سيقوم فيها من خلال استعمالها الحاضرِ».

كأنّي بخَصيصة «الاشتقاق» في العربيّة تلحظ ما عليه شأن المجتمع المتكلم بذلك الّلسان : هو مجتمعٌ يعتزّ بنسبه أيّما اعتزاز ، بل إنّ من عوامل المفاضلة بيْن النَّاس عندهم أنسابهم ، وقد حثت السّنّة على تعلّم المرءِ نسبَه

لِيصلَ رحمَه ، لا لِيتطاولَ به على الآخرين . و«الاشتقاق» فِي العربيّة متولّد من باب «أنساب المعاني» علَى مستوَى الوحدة الصُّغرَى للبيان «الكلمة» .

وقد كان لصنيع أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريّاء الرَّازي (ت:٣٩٥هـ) في كتابه «مقاييس اللّغة» أثرٌ مجيدٌ حميدٌ في إقدار المتلقّي على أن يبصرَ ما بيْن كلمات المادّة اللّغويّة الواحدة مِن رحم موصولٍ يهدِي إلى طاقاتِ الكلمةِ الدّلاليّة في سياقات استعمالها .

وقد كان مِن عصْريِهِ أبي الفتح عثمان بن جنّي الموصليّ (ت: ٣٩٢هـ) في كتابه «الخصائص» ما بسط أفق الرّؤية ، فإنْ كان ابن فارس قد عنِي برؤية ما بَين مفردات المادة الواحدة وفق ترتيب أصول الكلمة على نسق واحد ، وكان حينا يشير إلى أنّه رأى أنَّ ولائد هذه المادة تدور على أصلين فإنّ ابن جنّي بسط الرّؤية ، فنظر إلى ما بين ولائد المادّة الواحدة أيًّا كان نسق حروفها تقديمًا وتأخيرًا ، وهو ما سماه بـ«الاشتقاق الأكبر» : اتفاق الكلمات في الأصول دون ترتيبها .

كأنّي بابن جنّي يستشعر في حروف المباني معاني حاضرة فيها حيثُ حلّت ، ممّا يجعل اجتماعها على أيّ نحو مِن التّرتيب يستبقِي أصلُ هذا المعنى ، فيكون للتّرتيب تشكيل المعنى ، فلِلحروفِ تكوينُ المعنى .

والفخر الرَّازيّ يذهب أَنَّ اعْتِبَارَ حَال «الاشْتِقَاق الأَصْغَر» سَهْلٌ مُعْتَادٌ مَأْلُوفٌ ، أَمَّا «الاشْتِقَاقُ الأَكْبَرُ» فَرِعَايَتُهُ صَعْبَةٌ ، وَكَأَنَّهُ لا يُمْكِنُ رِعَايَتُهُ إلا فِي الْكَلِمَاتِ الثُّلاثِيَّةِ ؛ لأَنَّ تَقَالِيبَهَا لا تَزِيدُ عَلَى السِّتَّةِ ، أَمَّا الرُّبَاعِيَّاتُ وَالْخُمَاسِيَّاتُ ، فَإِنَّهَا كَثِيرَةٌ جِدًّا ، وَأَكْثَرُ تِلْكَ التَّرْكِيبَاتِ تَكُونُ مُهْمَلَةً ، فَلا يُمْكِنُ رِعَايَةُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الاشْتِقَاقِ فِيهَا إلا عَلَى سَبِيلِ النُّدْرَةِ .

وَأَيْضًا الْكَلِمَاتُ الثُّلاثِيَّةُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِيهَا مَا يَكُونُ جَمِيعُ تَقَالِيبِهَا الْمُمْكِنَةِ مُعْتَبَرَةً ، بَلْ يَكُونُ فِي الأَكْثَرِ بَعْضُهَا مُسْتَعْمَلا وَبَعْضُهَا مُهْمَلا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْقَدْرَ الْمُمْكِنَ مِنْهُ هُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى فِي تَحْقِيقِ الْكَلامِ فِي الْمَبَاحِثِ اللُّغَوِيَّةِ »[1] .

وقد عني برهان الدّين البقاعيّ (ت : ٨٨٥هـ) بهذا في كتابه « نظم الدرر » ، فأفرد لبعض الكلم صفحات يكشف عن دوران ما اشتقّ من أصول هذه الكلمة على تعدّد نسق ترتيب هذه الأصول ، وهو ينطلق من رؤية ما سماه المقصود الأعظم ، فلمفردات المادة الواحدة عنده على تنوّع مواقع هذه الأصول معنى مركزيّ تدور عليه يجعل للمعاني نسبًا وثيقًا .

وكذلك العلاقات بين معاني الكلم لا سبيل إلى إحصائها أوحصرها ، ممّا يجعل أمام المُبين فضاءاتٍ يسبح فيها اقتدارُه على الإبانة .

بالعلاقات تسْتحيل الكلمات بيانا ، وقد تستحيل كلامًا مديدًا ، وقد سبق أن تكلمت في تحليل علاقات المعاني حين تكون العلاقات بين معاني جملٍ وما فوقها .

وإذا ما كانت العلاقات المتكاثرةُ تحقّق للكلمات فاعلية المعاني الّتي وضعت بإزائها من جهةٍ ، وتحدَّث فيها ضربًا من التَّجديد والتَّحرير ، فإنَّ الكلمات والعلاقات تخضعان معا لاقتضاء السّياقِ والمغزَى .

السّلطان الأعظم إنّما هو للسّياق والمغزى معًا ، فهما بمثابة « المليك » و« المليكة » في عالم البيان . والكلمات والعلاقات بمثابة الرّعيّة .

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ١/٣٠ .



والكلمات ذات وجودين : وجود فرديّ ، ووجود جمعيّ ، والعقل البلاغيّ ينظر في مدارسته البيان إلى المفردات في الوجودين ، وإن كان نظره لها في وجودها الفرديّ « اللغوي » خدمة لنظره لها في وجودها الكلاميّ « الاستعماليّ : السّياقيّ »[1] .

الكلمة في سياق استعمالها لا تتخلّى عن كلٍّ ما ورثته أوّلاً ممّا كان لها وضعًا لغويّا ، وما اكتسبته خلال استعمالاتها قبل ، فهي في كلِّ سياقٍ تستعمل فيه تحمل من عطاءات هذا السّياق حملاً يجعلها مقتدرة على أن تؤدّيه في سياقاتٍ أُخَر إن استدعَى المغزَى ذلك ، وهذا يعني أنّ ما تحمله من سياقات الاستعمالِ لا يكون حاضرًا بالفعل في كلِّ موضِع تقوم فيه بعد ، بل يكون حاضرًا بالقوة ، أيْ هي متهيِّئة لأن تبذله إن احتيج إليْه ، فهو رصيدٌ محفوظٌ في ذاكرتها .

ولما كانت بنية الصّورة مبدؤها الكلم ، فلعلّ خيرًا في البدءِ بتحليل المفردات في سياقها التّركيبيّ ، ثُمَّ تحليل الهيئة التركيبية للبيان ، ثُمَّ فنون التّوقيع والتّغنّي الّتي بإتقانها يتحقّق لصاحب القرآن الكريم شيءٌ مِن فضيلة

---

(١) ممّا عليه ثلّةٌ من أهلِ النّظر في الكلمة الإنسان : «أنّه يهمنا أن نعرفَ من أين تأتِي الألفاظُ ، وما هي أصولها العريقة ، إذ غالبًا ما تحملُ الألفاظ شيئًا متبقيًا من أصولها « الفكر الأوربي المعاصر ». ص١٣٧، جورج وطسن، ترجمة : محمّد مصطفَى بدوي. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م .
ويقول أيضًا « غالبًا ما تحتفظُ اللفظة بشيْءٍ مترسِّبٍ مِنْ ذكرَى أصلها ، تمامًا مثلما يحدثُ عند بعضِ النّاسِ ، فللفظةِ وجودها عبرَ الزّمنِ ـ إنْ جاز التّعبير ـ وليست مجرد شبكةٍ مِن العلاقاتِ الّتي تنشأُ بيْنها وبيْن غيرها من الألفاظِ ، ونحنُ نفهمُ الألفاظ ، كما نفهم الأصدقاء على ضوء الأصول» المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

تحسينه القرآن الكريم بترتيلِه في قلوب المتلقين ، وذلك وجهٌ من وجوه النَّصيحة للقرآن الكريم ولعامَّة المسلمين وخاصَّتهم .

والتّحليل البياني لصورة المعنى ذو وجوه من أهمها :

(أ) التّحليل البيانيّ للكلم .

(ب) التّحليل البيانيّ للتَّراكيب .

(جـ) التّحليل البيانيّ لإيقاع الكلم والتراكيب .

* * *

أولاً : التّحليل البيانيّ للكلم

كنت قد حدثتك عن المعجم اللغوي للسّورة ، وأثره في تحرير مقصود السّورة الّتي أنت بصدد تدبُّرها ، فإنَّ «أوّلَ ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية ، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة ، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه ، كتحصيل اللّبِنِ في كونه أوّل المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه ...» [1] .

ومن العَليّ هنا أن ترصدَ الكَلِمَ في كلّ سورةٍ رصدًا كاملاً يشمل أدوات المعاني والأسماء والأفعال ، وذلك من قبل أن يتمّ إعداد معجم كلمات لكلّ معقدٍ مِن معاقدِ السّورة على حدة ؛ ليتبيّن للمتفقه معانيها وما بيْن معاقد كلّ سورة من المجموع الكليّ لكلّ صنف من كلمات السّورة .

لعلَّك لو استفتحت بسورة «أمّ الكتاب» فرصدت الكلم وفق ما ينطق به الأداء الصَّحيح لها على وفق القراءات المسندة ، وصنفت هذه الكلم على وفق أجناسها : (اسم وفعل وحرف) ثمَّ على وفق صورها (صيغها) ثمَّ على مناظرتها بما هو من شقائقها في بابها الدَّلاليّ ، كلُّ ذلك على مستوى السّورة ، فإنْ فعلت تَبَيّنَ لك ما الأكثرُ حضورًا ، وما الأقل ، وما الَّذي لم يكن منه شيْءٌ ، ليكونَ لك مِن ذلك ما يعينك على البصر بِحكمة اختيار ما جاء فيها ، وترك ما هو من شقائقه مادة أو صيغة أو دَلالة ، ثمَّ ليتبيَّن لك من بعدُ أيَّ الكلم الَّتي

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٦ ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨١ .

كانتْ فيها هي الأكثر تواردا في سائر سور القرآن ، وفي أيِّ معقدٍ من معاقدها ، وفِي أيِّ السّور كانت أوفر حظًّا بذلك الحضور ، وأيّها الَّتي قلّ فيها ذلك ، وأيّها الَّتي لم تحظَ بشيْءٍ من ذلك ، ثم تسعَى إلى استبْصار المقتضِي لذلِك كله ، وعلاقته بالمقتضِيه في سورة « أم الكتاب » ، وكذلك تسعَى إلى استبصار أيِّ الشقائق هو الأكثر حضوراً في غير « أمّ الكتاب » وما المقتَضي ذلك ، وما أثر هذا في المعنى ، وفي النّفس المستقبلة ذلك المعنى .

وكذلك يحسن أن تعيدَ التَّصنيف وفق معاقد سورة « أم الكتاب » لِتعلم أيّ الكلم حضرت في المعقد الأول ، ولم تحضر في غيره أوْ حضرت فيه وافرًا ، وفي غيره غير وافر ، وما المقتضي ذلك .

وليس خفيًّا أنَّ حضور كلمة ما مادة أو صيغة على نحوٍ وافر في سورٍ فيه ما يَهْدِي إلى خصوصيــة في ما يجــري إليه المعنى في هذه الســورة ، وأن ما تحمله هذه الكلمة له قدم رَسُوخٌ في مساق المعنى والمغزَى ، ففي كلّ موضعٍ مِن السّورة تحضر فيه الكلمة تستحضر المواضِع الَّتي كانت فيها قائمة ، فهي تحيلك إلى ما سبقِ ، وتعينك على استجماع المعاني في فؤادك ، فتكون رؤيتك المعنى رؤية كلية لا يشغلك جزءٌ عن آخر فيها .

ومن المفيد جدًّا في هذا أن يعنَى المُستبصر بما تدلّ عليه الكلمة في سياقها السُّوريّ ، وما هِي دالّةٌ عليه في السّياقاتِ المديدة للبيان القرآنيّ ، وما بيْن الدّلالتين من اتفاقٍ واختلافٍ ، وما بينهما من اقترابٍ وتباعدٍ ، واستبصار مقتضِيات ذلك كلِّه ، وتأثيره في تحقيق المغزَى ، وتأثيره في النّفسِ المستقبِلته .

ولعلَّ خيرًا وافرًا يتوافد علَى فؤادِ مَن هو المتقن علم الوجوه النّظائر منهجًا وحركةً ، فلِذلك العلم تأثيرٌ بالغٌ في إقدارِ العقلِ البلاغيّ على استبصارِ إمكانات الكَلم في البيان القرآني في سياقه المديد ، وفي سياق كلِّ سورة ،

فلعلّ بعضَ الكلم القرآنية ذاتُ وجوهٍ في السُّورة الواحدة بيْنا هي نفسها في سورة أخرى ذات وجهٍ واحدٍ في كلّ موضعٍ قامت فيه منها ، وهذا نحتاج إلى استبصاره ، واستبصار مقتضِياته وتأثيراته في التّلقي[1] .

وممّا هو حقيقٌ بأن يمنح مزيدًا من الاعتناء ما يسَمّى بـ« حروف المعاني » فإنَّ لكلّ حرفٍ معنى وضع له ، وهو في دلالتِه التَّركيبيّة بالغ التَّأثر بفاعلية « العلاقات » بين مكونات الجملة ، فما تراه من تصرفات دَلالية في معاني « حروف المعاني » هو تصرفات استولدتها علاقاتٌ متعدّدة متنوعةٌ متجدّدةٌ ، وكلُّ أداةٍ مسّها شيءٌ من التَّصرُّفِ في دلالتها الوضعيّة ليس بمقدورها التّجردُ تمامًا مما وضعت له أوّلاً ، فـ« الباء » موضوعةٌ للإلصاق ، وهو معنى لا يفرقها حيثُ قامت تستصحبُ شيئًا منه في صحبة الوافد السياقي[2] .

هذا التَّمازج بيْن الوضعيّ والوافد يتنوّع ويتجدّد بتنوّع العلاقات وتجدّدها ، وفي كلّ مرةٍ يبقَى شيءٌ مِن هذا الوافد فِي رحم الدَّلالة الوضعية ، وهكذا تصبح الدَّلالة « الوضعيّة » أمشاجًا من الدَّلالات الوافدة ممًّا يجعل « الحرف » مؤهلاً لأن يقامَ في سياقات عدّة ، وبهذا أيضًا يتجلّى لك أثر كثرة استعمال « الأداة » في سياقات متعدّدة المغزَى .

---

(١) حسنٌ أن نعمد إلى إعمال علم الوجوه والنظائر في باب الكلمة الشاعرة ، كل شاعر على حدة ، لنتبين الإمكانات الدَّلالية للكلمات في الكلمة الشَّاعرة ، وعلاقتها بالإمكانات الدلالية لها في بيان الوحي ، وكذلك نتبين النظائر لها في الكلمة الشاعرة ، ثم في الكلمة الوحي . فعلم الوجوه والنظائر في الكلمة الشاعرة لدى كل شاعر على وجه خاص ، ثمَّ في شعر كلِّ عصر، ثمّ في الكلمة الشاعرة في كل العصور ، ورصد التّطور الدَّلالي الذي يصيبها ومقتضيات هذا التطور وتأثيرته الدلالية .

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ص ١٣٧ . لجمال الدين بن هشام : عبد الله بن يوسف ابن أحمد بن عبد الله بن يوسف ، الأنصاري (ت: ٧٦١هـ) تحقيق : مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله . دار الفكر ـ دمشق ـ ط . السادسة ، ١٩٨٥م .

ولو أنَّ طالب علمٍ يعشق حميز الأعمال وعزيزها أراد أن يصطنع رسالة العالَميــة «الدّكتوراه» في مفــردات «أمّ الكتاب» لوجـد أنّ الوفــاء بنزير ما تستحقّ جدّ ثقيلٍ ، وقَليلٌ من مثل هذا خيرٌ من استجماع ما اشتهر من مقالات أهل العلم في أسفارهم في قضية من القضَايا ، ولاسيما في زماننا الذي تيسر في تقميش الآراء والمقــالات من الأسفار ، وتصنيفهــا تصنيفًا شكليًا ، لا يكشف عن غائر النسب بينها ، ولا يستنثر من كنوزها .

وأهل العلم بالبيان القرآنيّ قد هدَوا إلى أنّ مدارسة الكلمة القرآنية في سياقاتها يهدِي إلى حقيقةٍ راسخة أعرب عنها قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢) .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤١-٤٢) .

وقد كان أبوالعبّاس ثعلب لا يرى ما يسمى بـ«التّرادف» ، كان يقول فيما روى عنه «الخطّابيّ» : «ما من لفظة من الألفــاظ المتناظرة من كلام العرب إلا وبينها وبين صاحبها فرقٌ وإن دقَّ ولطف كقولك : بلى ، ونعم ، وتعال ، وأقبل ونحوها من الكلام»[1] .

---

(١) أعلام الحديث : «شرح صحيح البخاري» ١/٢٩٨ ، أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت٣٨٨هـ) تحقيق : محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود ، جامعة أم القرى ـ مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ـ ط . الأولى ، ١٤٠٩هـ .

ولعلّ هذا ممّا حمل أبا سليمان الخطابيّ (ت : ٣٨٨هـ) إلى أن يذهب إلَى أنَّ حسنَ اختيار الكلمات من عمود بلاغة الخطاب عامّة ، فكيف بذلك في بلاغة القرآن الكريم : «.. اعلم أنَّ عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمَّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإمَّا ذهاب الرَّونق الَّذي يكون معه سقوط البلاغة»[1].

تأمَّل قوله : « إذا أبدل مكانه غيره ....إلخ» تدرك أثر اختيار المفردات من حيث هي مادَّة أو صيغة في المعنى ، فقد يفسد المعنى العقليّ ، وقد يفسد المعنى البياني الذي عبر عنه بذهاب الرونق .

ولعلَّ هذا الذي ذكره الخطابي في رسالته «بيان إعجاز القرآن» ممًّا استمدّ منه عبد القاهر الجرجانيّ (ت : ٤٧١هـ) تبينه الطريق إلى تحقيق مقومات تمام بلاغة الخطاب في قوله :

«ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات [البلاغة والفصاحة ...] وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة ، وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة ، وتمامها في ما له كانت دلالة ، ثمَّ تبرُّجها في صورة هي أبهى ، وأزين ، وآنق ، وأعجب ، وأحق بأن تستولي على هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب ، وأولى بأن تطلق لسان الحامد ، وتطيل رغم الحاسد .

---

(١) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد الخطابي(ت: ٣٨٨هـ) : نشر ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ٢٩ تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، ١٣٨٧هـ ، وانظر : كتاب « فنون الأدب» ص١١ . هـ . ب . تشارلتن ، تعريب زكي نجيب محمود . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ط . الثانية ، ١٩٥٩م .

ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية»[1] .

تحلظ أنّ حظّ «الصُّورة» من تفصيل نعوتها ، أكبر من حظّ المعنى في ذلك ، وكأنَّ في هذا إلماحًا إلى أنّه إذا ما كـان هذا شأن الصورة فكيف بالمعنى ، وفي هذا أيضًا حملٌ لكلّ متدبر أن لا ينتهي تدبره عند الوفاء بحقّ الصورة ، فإن من وراء ذلك ما هو المبتغَى : فقه المعنى واستطعامه .

تأمل أوّلا ما نعتت به الصّورة ، جمع لها أربعًا فيها ، وأربعًا في فعلها :

الأربع التي فيها : هي أبهى ، وأزين ، وآنق ، وأعجب .

والأربع الّتي في فعلها :

أحقّ بأن تستولي على هوى النفس .

وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب .

وأولى بأن تطلق لسان الحامد .

وتطيل رغم الحاسد .

وفي بيانه الطريق إلى تحقيق هذه السّمات للفظ (الصورةِ) استغنى في بيان حق المعنى بقوله : «أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته» وكأنَّ الكتاب كلَّه جاء لهذا ، وهو أولى ما يعنى به المتكلِّم مفهِمًا ، والمتلقي متفهّمًا .

وأوجب للفظ (الصورةِ) خمس صفاتٍ :

أن يكون (أخصّ بالمعنى) و(أكشف عنه) و(أتمَّ له) و(أحرى بأن يكسبه نبلا)

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٤٣ .

و (يظهر فيه مزية)[1] .

أَيكونُ عبدُ القاهر قد نسق كلّ هذه الخمس على هذا النَّحو دون قصدٍ ، فالشَّأن في مثله ألاَّ يفعل ، بل هو إلى القصد أقرب ، وهذا يحمل إلى أن يكون من حقّه أن يتلبثَ المرء يستبصر ما وراء ذلك الاختيار كلما وتركيبا ونسقا .

هل لي أن أذهبَ إلى أنّ عبد القاهر لم يرد باللفظ هنا (الكلمة المفردة) فحسب ، بلْ يريده ، ويريد الجملة ، وما فوقها ، ذلك أنّ عبد القاهر ومن قبله من أهل العلمِ بالبيانِ على أنّه لا سبيل إلى إفادة المعنى إلاَّ بضمّ كلمةٍ إلى كلمةٍ وبناءِ لفظةٍ على لفظةٍ ، وهذا الضم هو الذي يحقق أمرين : إفادة المعنى ، وإفادة التفاضل بين الكلمات المضمومِ بعضها إلى بعضٍ لتحقق الفائدة ، فَلا يُمكنُ أنْ يتصور أن يكونَ بين اللفظتين تفاضلٌ في الدَّلالةِ حتى تكونَ هذه أدلَّ على معناها الذي وضعتْ له من صاحبتها على ما هيَ موسومةٌ به ، وهذا إنّما يكون في حال ضم كلّ إلى أخرى .

وهذا اللفظ المحقق بضمه الفائدة لا بدَّ أن يتم اختيارُه على أسس خمسة :

أ- أن يكون أخصّ بمعناه ، فليس هنالك لفظ يقوم مقام لفظ آخر هو به أخص ، فالبيان الأدبيّ لا يعرف التَّطابق (التّرادف) .

---

(١) كأنَّ مسلك علماء البيان في بسط العناية ببيان سمات الصورة وخصائصها أكثر من سمات المعنى وخصائصه مستمدٌّ من السنة البيانية في القرآن :
أنت تراه يبسط القول في نعوت الحور العين في الجنة ، ويوجزه في الأزواج من النساء في قوله تعالى ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ (البقرة:٢٥) .
وكأنّه يقول للمسلمة هذه سمات وصيفاتك وخادماتك، فكيف أنت؟!!!
يطلق تصورها وابتهاجها لتقبل على ما يجعلها أهلا لأن تكون من أهل الجنة.
ومثل هذا يلزمه تحقيق السّلام الاجتماعي والنفسي بين الرجل وزوجه ، فمن شاءت أن تعلم كيف هي في الجنة ، فعليها أن تتبصر حديث القرآن عن الحور العين ، ثمّ تطلق لنفسها أن تذهب في تصور شأنها في الجنة ، لتذهب كلّ مذهب في تصّورها ، وتتقي كلَّ ما يعيقها لِتكونَ من أهل الجنة . كذلك يثقف القرآن النفوس .

ذلك دالٌّ على أنّ عبد القاهرِ يذهب إلى أنّه لا ترادف (تطابق) بين ألفاظِ اللغة على مستواها الإفرادي ، وعلى مستواها التركيبيّ من الجملة وما فوقها ، فكون اللفظ (الصورة) أخصّ بالمعنى من أنّه ليس ثَمّ لفظ (صورة) يصلح أن يَقومَ مقامَ هذا اللفظ (الصّورة) ، وإن قاربه في حملِ أصل المعنى (المعنى الأجردِ من التّصوير/ المعنى العقليّ ، لا البيانيّ) .

أيمكننا أنْ نقول إنَّ المعنى له شيئان هما أخصُّ بِه ، لا يكونان لغيره ، ولا يكون هو على تمامه إلا بهما :

أولهما : الجهة الَّتي يؤتى إليه منها ، وهذا هو مبدأ التَّميز بين متكلّم ومتكلم ، إذا تباين المتكلمان في المأتى إلى المعنى كان ضرورة تميز أحدهما عن الآخر[1] .

ونحن ـ طلابَ العلمِ ـ مفتقرون إلى مدارسة هذا الباب : باب مذاهب البلغاء في الإتيان إلى المعنى[2] .

وهو عمود الأمر في ما يسميه البلاغيون بـ«علم البيان» إذا ما بسطنا رقعة فسطاط هذا العلم ، فأدخلنا فيه كلَّ ما هو من قبيل دلالة الصّورة على المعنى مهما كان نوع الدَّلالة ومستواها .

---

(١) هل لك أن تعتكف في رياض الفصل الذي عقده عبد القاهر وجعل عنوانه : «الموازنة بين المعنى المتحد واللفظ المتعدد» وأن تتبصر مليا قوله : «وقول النابغة :

إذا ما غزا بالجيشِ حلّقَ فَوْقَهُ عَصائبُ طيرٍ تَهْتَدي بعَصَائبِ

جوانحَ قَدْ أيقنَّ أن قَبِيلَهُ إذا ما التَقى الصفَّانِ أولُ غالب

إلى آخر قوله : «... أفيكونُ شيءٌ أظهرَ من هذا في النقلِ عن صورةٍ إلى صورة؟».
دلائل الإعجاز ، ص ٥٠١-٥٠٣ ، فقرة : ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

(٢) لتنظر ما جاء به شيخنا في كتاب «مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني» ص٢٢٨-٢٣٢ مكتبة وهبة ـ القاهرة ، ط . الأولى ، ١٤١٨هـ .

وعلى الرَّغم أن اعتناء البليغ بتكوين الصّورة وتشكيلها ، إنّما هو لتحقيق التّميز في اقتدارها على الدَّلالة على المعنى والمغزى ، إلا أن البلاغيين كانت عنايتهم بمناهج دلالاتها ومستوياتها أقلّ من عنايتهم بها . وهذا ما يحسن أن نستدرك ما سكتوا عنه خدمة للعلم .

وثانيهما : هو اللّفظ الذي يحمل المعنى إلى قلبِ السّامع ، فعمود الأمر فيه أن يكون صادقًا أمينًا مقتدرًا .

ب ـ أن يكون اللفظ أكشف عن معناه ، وذلك بحسن دلالتِه عليه ، فلا يكون ثَمَّ ما هو أقدر على ذلك منْه ، وهذا ناظرٌ إلى ما ذكره من حلية الدَّلالة أولاً حين قال : « حسنُ الدّلالة » .

جـ ـ أن يكون اللّفظ أتمَّ للمعنى بحيث يحيط بكلٍّ دقائقه ورقائقه وشوارده وأوابده ، فلا يحتاج الأديب إلى غير اللّفظ يتمّم به معناه من عجز في اللفظ الّذي اختار ، ومن ثمَّ ، فليس كلُّ لفظ بالقدير على الإيفاء بحقّ المعنى المراد . وهذا ناظرٌ إلى ما ذكرَهُ منْ حلْيةِ الدّلالةِ أولاً حين قال : « وتَمامها » .

د ـ أن يكون اللَّفظ أحرَى بأن يكسب المعنى نبلاً لا يكون له إذا لم يكن هو المعبر عنه ، والدَّال عليه ، فكأنَّ في بعض الألفاظ من العطاء الزَّائد للمعاني ما ليس لبعضها ، إمَّا بجرسها أو صيغتها أو موقعها .

وهذا يبرز لك أثر اللفظ (الصّورة) في المعنى ، وهو ناظرٌ إلى قوة الدّلالة (تبرجها) فمن نبل المعنى حصانته من الاحتمالات غير المكينةِ .

هـ ـ أن يكون اللفظ أحرَى بأن يُظهِر في المعنى مزيَّة خبيئة لا تظهر بغيره .

وهذا يبْرزُ أثرَ اللفظِ (الصّورة) في النفسِ المستقبلةِ ذلك المعنى ، يظهر لها في المعنى عطايا ومزايا وفوائد لا يكون بملك غيرِ هذا اللفظِ (الصّورة) أن يجعله مقتدرًا على استِبصارِ ما هو مكنونُ فيها .

وكأنَّ الأساسَ الخامسَ : «يظهر فيه مزيَّة» متجاوبٌ من وجهٍ مع الأساس الثَّاني «وأكشف له» ، بيْنما الأساس الرَّابع : «أن يكسبه نبلاً» متجاوبٌ منْ وجهٍ مع الأساس الثّالث : «وأتمّ له» .

كأنّـي أستشْعرُ رأسَ الصّفات أولها : «أن يكون أخصّ بِه» فإذا ما أحسن الأوّل تيسّر له ما بعده ، وكأنّـي أستشعر أيضًا أنّ الأوّل عِياره الاختيار بيْن البدائل ؛ لأنّ إدراك الأخصّ لا يكون إلاّ مِن خلالِ النّظر فِي البدائلِ المْتقاربة ، والأربع الأخر عيارها حسن اختيار المْوقع والسّياق .

وهذا نمط عال من الصّياغة التي يعمدُ إليها عبْدُ القـاهر في مواضع من كتابِه ، ولاسِيّما المواضع التي يشيّدُ فيها نصُوصًا منهجية تأسيسية ، وهذه النّصُوص هي الأولى بالرِّعاية في الفهم من قبل الولوج إلى ما جاء بِه من دقيقِ النَّظرِ ، ونافذة في القضايا والمسائل البلاغية من تقـديـم وتأخير وفصـل ووصل ... إلخ . فمن أحسن البصر بما هو خبيءٌ في تلك النّصوص المنهجِيّة التأسِيسيّة كانَ بصره هذا مفاتحَ خزائن العطايا في ما يأتي بِه عبد القاهر في دراسة الأساليب البلاغية التي تقوم من النّظم .

عبد القاهر كما ترى يهديك إلى أنَّ المفردات الّتي منها يقوم بناء الخطاب البليغ المتّسم بحسن الدَّلالة وتمامها وتبرجها في صورة بهية معجبة مفردات ليس لها بدائل تقوم مقامها ، فليس ما يعرف بالترادف (التّطابق) الّذي تقوم فيه كلمة مقـامَ أخرى في الخطاب البليغ ، ولا يكـون ثَمَّ أثر في بلاغتـه ، وهذا ما يجعل المثابرة في التّحليل البيانيّ لمفردات الخطاب أساسًا يبنى عليه غيره .

وهو من بعد يعلمك أنَّ العربَ في عصر المبعث المحمّديّ قد فتشوا القرآن الكريم تفتيشًا مدققًا فما وجدوا فيه كلمةً غيرُها يعدلها فضلا عن أن يفضلها : «وبهرهم أنَّهم تأمَّلوه سورة سورة ، وعُشْرا عشرا ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور ،

ونظاما ، والتئاما ، وإتقانا ، وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول وخلدت القروم فلم تملك أن تصول»[1] .

ومن بعده يقول «أبو محمد بن عطية الأندلسي» (ت: ٥٤٦هـ) : «كتابُ اللهِ لو نزعت منه لفظةٌ ، ثُمَّ أُديرَ لسان العربِ فِي أن يوجد أحسن منها لم يوجد»[2] .

ولعلَّ الإمـام الشّافعيّ (ت : ٢٠٤ هـ) في تقريره أنَّ القرآن ليس فيه كلمة واحدة ليست بالعربيّة أراد أنْ يحملك إلى أن يكون موقفك من الكلم الّتي زعم بأعجمية منبتها هو موقفك من غيرها ، فلا تلتفت إلى خصائص اللّسان الّتِي زعم أنّـها نبتت فيه ، بلْ هي عربيةٌ المنبت والمَربَى ، وأن ما بيْنها في منبِتها العربيّ وما نقلت إليْه في الأعجميّة هو الفرقُ بيْن شأنِ العربيّة وشأن الإعجميّة[3] .

* * *

(١) دلائل الاعجاز ، ص ٣٩ .

(٢) المحرر الوجيز ، ٣٩/١ المجلس العلمي بفاس . تونس ، ١٣٩٥هـ .

(٣) إن كنت لا تجرى فيما جرى فيه الشافعي وأقرانه من خلو القرآن من الكلم الأعجمي، فحسن أن تتبصر كيف أن العربية فعلت فيما نقل إليها من غيرها ، أحالته عربيًا متوائما مع ما هو العربيّ القح ، وأن القرآن هو السيد في ذلك . فإذا ما كان هذا حال القرآن مع الكلم ، فكيف به في حال الإنسان حين ينبت في غير المجتمع العربي ثم يقيم فيه ويتكلم بلسانه ويتخذ الإسلام دينا .

الإسلام ينقله إلى شأن عربيّ إسلامي صرف . فمـن تكلـم العربيـة فهـو عربـي ، لأن العروبة فكر وخلق ، واللسان معربٌ عن ذلـك ، فـأثر القـرآن في الإنسـان الأعجمـي كمثل أثره في الكلم الأعجمي عند من يقول بـه ولهـذا حـرص الـذين رضـوا بالحيـاة الدنيا أن لسان أبناء الأمّـة في معاهـد التعليم علـى تعـدد مستوياته لسـانا أعجميًـا ، فأعجميه اللسان تفضى لا محالة إلى أعجميـة العقـل والهـوى والـولاء . فـاعتبروا يـا أولى الأبصار .

اصطفاء القرآن الكريم كلماته من مفردات معجم العربية إنَّما كان ناظرًا فيه إلى كثير من مكونات الكلمة المصطفاه من صوت وصيغة ومدلول ودلالة اكتسبها من روافد عدة ، فمنحتها قدرة على أن تتناسج مع مفردات أخرى فى سياقات عديدة على أنحاء متنوعة .

فتحليل السّورة يستوجب النّظر والاستبصار لمثل تلك الاصطفاءات والاستخدمات القرآنية لهذه الكلمات ، ومن هنا عُنِيَ أهل العلم بالقرآن الكريم بمحاولة استكشاف تناسب الكلمة القرآنية وتناسقها في سياقها من وجوه عديدة : من حيث صورتها الصوتية ، وصورتها التّكوينية ، ومن حيث جذرها الاشتقاقيّ .

ومن أهلِ العلم مَن عُنِيَ بالصُّورة الكتابيّة للكلمة القرآنية ، وكيف أن إخراج بعض كلماته فى صورتها الكتابيّة على خلاف مقتضى الظَّاهر المعهود فى النّحوّ الكتابيّ للعربيّة ، إنَّما يكون عنصرًا فى بناء المعنى وتصويره وتحبيره . على نحو ما تراه من رسم «تاء» تأنيث الأسماء في موضع قد رسمت مبسوطة : (ت) وفي موضع مربوطة:(ـة) كما في كلمة «رحمت» و«نعمت» و«سنت» و«لعنت» ، وكما في حذف بعض حروف المباني لغير عِلَّةٍ نَحوِيّة أوْ صرفيّة ، كما حذف لام المضارع ، واسم الفاعل في قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴾ (القمر:٦) .

وهؤلاء ينطلقون من أنَّ للقرآن الكريم خصوصياتِه المقدسةَ الّتى لا يشاركه فيها بيانٌ آخر في كلّ أمرِه ، فطرائق الأداء الصَّوتيّ للقرآن الكريم هي طرائق توقيفيّة متوارثة تعرف بالقراءات . وكذلك طرائق كتابته ورسمه ، فهو مثلما كان من أسمائه (القرآن) كان من أسمائه (الكتاب) فله خصوصيّة كتابيّة مثلما له خصوصيّة قرائية ، فطرائق الأدء ، الكتابيّ لبعض كلماته لا تخضع لمعايير التّصوير الكتابيّ لتلك الكلمات فى لغة البيان الإنسانيّ ، وهم يرون فى تلك

الصّورة الاصطفائيّة لكتابة تلك الكلمات القرآنيّة معاني قرآنيّة طريفة لطيفة، وكان لهذه الصّورة الكتابية عِلْمٌ أُلِّفَتْ فيه الأسفار مثلما كان للصُّورة الأدائيّة علمٌ أُلِّفت فيه الأسفار[1].

ويبقَى هذا الجانب مناط منازعة يذهب فيها بعض إلى أنَّ ما في رسم المصحف من مخالفة للمعهودِ إنّما هو من خطأ الكُتاب الأوّل، فحوفظ عليْه من بعدهم[2].

وكأن قائل هذا يذهب إلى أنّ خطأ معهودًا خيرٌ من صواب غير معهود، وهــذا منــاقض للهُــدَى الذي جاء بِه بيانُ الوحي قرآنا وسنّة، وما الإســلام

---

(١) ينظر في هذا كتاب :
عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل . تـأليف : أبي العبـاس بـن البنـاء المراكشي : أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي (ت : ٧٢١هـ) تحقيـق : هنـد شـلبي، دار الغـرب الإسـلامي، بـيروت ـ ط . الأولى، ١٩٩٠م و«كشـف الأسـرار في رسـم مصـاحف الأمصار» للسمرقندي «تحقيق : حاتم الضامن ـ نشر في مجلة المورد العراقية العـدد الرابع من المجلد الخامس عشر : ١٤٠٧هـ وكتاب «البـديع في معرفـة مـا رسـم في مصحف عثمان» لابن معاذ الجهني الأندلسي (ت: هـ) تحقيق : غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان و«رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة»، لشعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة . وانظر النوع الخامس والعشرين : «علم مرسوم الخط» مـن كتـاب «البرهـان في علـوم القـرآن» للزركشـي ـ ١/٣٧٦-٤٣١ وإلى «النوع السادس والسبعين في مرسـوم الخـط» مـن كتـاب : الإتقـان فــي علـوم القرآن، للسيوطي ٤/١٤٥-١٦٦ والمبحث العاشـر : في كتابـه القـرآن ورسمـه مـن كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبـد العظـيم الزرقـاني ١/٣٦١-٤١٠ وإلى مواضع عدة من تفسير : نظم الدرر للبقاعيّ .

(٢) ينظر : مذهب ابن خلدون في زعمه أن هذه الظاهرة قبيل عدم استحكام الصحابة في إجادة الخط .. في الفصل الثّلاثين في أنّ الخطّ والكتابـة مـن عـداد الصـنائع الإنسـانية «من مقدمة ابن خلدون» .

إلا تصحيح لخطأ موروث في الاعتقاد ، وإلا كان البقاء على ما عهدت العرب من آبائهم خير من مخالفة الآباء .

محصّل القولِ أنَّ القائم بالتّحليل البياني للسّورة من شأنِه أن يعنى بكثير من وجوه كلمات القرآن الكريم مادَّة ، وصيغة ، وموقعًا ، وتغنيًا ، ورسما .

بهذا الاعتناء يبدو له من تلك الوجوه ضروبٌ من التَّناسق المعجز هو جديرٌ بأن يكون مناطَ عناية البلاغيين في درسهم وبحثهم ، فالنّظر فى الكلمات القرآنيّة من وجوهها المختلفة وعلاقة تلك الوجوه بالسّياق الجزئيّ الَّذي تنسج فيه ، وبالسّياق العام للسُّورة كلّها ثمَّ علاقتها بالسّياق القرآنيّ كله لأمر جدّ عظيم في حاجته إلى مجاهدة علميّة وروحيّة وجدّ عظيم فى عطائه .

والمقام هنا ليس إلى تتبع ذلك ومدارسته مدارسة تأويلية ، فمعظم الدراسات العلمية لبلاغة البيان القرآني هي القائمة لذلك ، والباسطة فيه نظرًا وقولاً ممّا يجعلني في هذا المقام غيرَ محمولٍ إلى أن أبسط القول فيه .

* * *

ثانيًا : التَّحليل البيانيّ للتَّراكيب

لا ريبَ فى أنّ مفردات أيّ لغة لم توضعْ لِتعرفَ معانيها فى أنفسِها ، بل لأنّ ينسقَ بعضها مع بعض ، فيتولَّد مِن ذلك النَّسق معنى يؤدّى بِه الغرض ويصورّ به الحال ، وأدْنَى صور ذلك النّسق المحقّق ذلك المعنى المُؤَدَّى المُصَوَّر إنّما يسمّى « جملة » مِن أن الجَمْلَ هو الجَمْعُ . وهما كلمتان متقاربتان اجتمعتا في « الفاء » و « العين » واختلفتا في « اللام » فكان سواء في أصل المعنى وجرثومته .

و« التَّركيب » فِى صِناعةِ الكلام جمعٌ لِلْكَلِمِ علَى نحو خاصٍ ، وليس مجرَّد ضمٍّ ، ففِي التّركيب شيءٌ من ملاحظة التّصاعد ، فهو إلى الحركة الرأسية للمعنى أقرب[1] .

وكلّ لغة لها نهجُها ونحوها فى نسق كَلِمِها فى جملٍ وعباراتٍ متّفقٍ عليْه بين النَّاطقين بها ، يُصوّرون بِه ما هو مكنونٌ فى الصّدور مِن دقائق الفكر ورقائق الشّعور .

وهذا التَّنسيق الجُمليّ بين الكَلِم يتأثّر بصانعه تأثرًا جدَّ عظيم أكثر من تأثّره

(١) هذا التركيبُ له ثلاث وظائف: التّعبير والتَّوصيل والتّأثير ، وهو لا يسمّى « في الفعل الإنساني » كلامًا « إلاّ إذا اجتمعت فيه الثلاثة »، فإن لم تتحقق فيه الثالثة ، التأثير « فليس بـ« كلامٍ » بل يكون « بيانًا » وإن لم تكن الثانية والأولى فيه على تمامها فإنّما هو « قولٌ » لا « بيانٌ » هذا في غيرِ بيان الوحي ، أمَّا بيان الوحي فهو الجامع بين الثلاثة على كمالها وإعجازها ، وإبلاسِها أيضًا .

بمواضعات التّنسيق الكليّة فى كلّ لغة ، وهو ما يسمَّى بالوضع «النّوعي» المقابل للوضع الشّخصِيّ في «المفردات»[(١)] .

سلطان النَّاسق النَّاظم أعظم مِن سلطان الأصول الكليّة للتنسيق ، لأنَّ تلك الأصول ما هي إلا مَنائر هادية يسترشدُ بنورها ، ولا يخضع لِسلطانها أو يتعبّد باتباعها .

و«الجملة» أصغر الأنساق الدّالة على معنى مكنونٍ ، فقلَّما يكون خطابٌ أو حوارٌ أو بيانٌ تقوم به جمل تواردت دون أن يبنَى منها عبارة أوْ تنسق منها فقرة ممّا يجعل «الجملة» فى سياق التّخاطب كمثل الكلمة فى بناء الجملة ...

وإذا كان القــرآن الكريم قد بنى ســوره من آيات ، فإنَّ حــدودَ بنيــة الآية لا تخضع ابتداءً وانتهاءً إلى معيــار موضوعيّ من ظــاهر المعنى أو التَّركيب أو النَّسق الصَّوتيّ ، بل مِن وراءِ ذلك أمرٌ قد تعجز عقولنا عَن وعيه أو عباراتنا عن بيانه ، فانظرْ فى قول الله ﷻ :

---

(١) الوضع اللفظي هو تعيين اللفظ للدلالة على معنى متعيّن ، وهو ضربان : تحقيقي ، وتأويلي .

«التحقيقي هو وضع الكلمة إزاء معنى لا تحتاج للدلالة عليه في أصل استعمالها إلى واسطة أو قرينة ، فهو دالٌّ على المعنى بنفسِه .

والتأويلي (التقديري) فهودلالة اللفظ على المعنى بواسطة وقرينة .

والوضع من جهة الموضوع بإزاء المعنى ضربان :

الأوّل شخصي وهو وضع المفردات .

والآخر نوعي ، وهو وضع التراكيب ، فصيغ التراكيب الجرداء (فعل ـ فاعل ـ مفعول) أو (مفعول ـ فعل ـ فاعل) هذا له وضع نوعي ليس لمادة التركيب دخل في دلالته ، فقولك (كتب محمد الدرس) موضوع لما وضع له (أنزل الله الغيث) ...

يرجع في هذا إلى «رسالة في علم الوضع» تـأليف : علـي محمـد النجـار . مطبعـة السعادة بالقاهرة . أو خلاصة علم الوضع ، تأليف : يوسف الدجوي ، مكتبة القاهرة ـ مصر . أو علم الوضع . تأليف : عبد الحميد عنتر . دار الكتاب العربي . ط . الثانيـة ، ١٣٦٧هـ .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء:٩٢-٩٨) .

فإنّك لا تراه قائمًا على معيارٍ مِن تمامِ معنًى أو اتساق تركيب ، وعلى هذا لا يطَّرد اتخاذ الآية إطارًا لتحليل التّراكيب ، بل الأقرب اتخاذ الجملة ، ثمّ العبارة ذات الجمل المنسوقة على نهج يحقق للمعنى تمامَه .

والتَّحليل البيانيّ لتراكيب العبارة القرآنيّة القائمة بتمام المعنى يعمد أوّل ما يعمد إلى تحليل ما يحقّق لبلاغةِ العبارة عمودَها ، ثُمَّ يَعْمَدُ مِن بعدِه إلى أن يحقِّقُ لَهَا تَمامَها : وعمود بلاغة الكلام إنّما هو فى نظم العبارة مِن الكلم على وفق مناهج نحو العربية .

يقول « عبد القاهر » كاشفاً عن عمود البلاغةِ وما يكون منه :

« اعلمْ أن ليس النّظم إلاَّ أن تضعَ كلامَك الوضعَ الّذِي يقتضِيه « علم النّحو »، وتعملَ علَى قوانينِه وأصولِه وتعرفَ مناهجَه الّتِي نهجْتَ ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرّسوم الّتِي رسمت لك ، فلا تخلّ بشيْءٍ منها ، وذلك أنَّا لا نعلم شيئاً يبتغيه النّاظم بنظمِه غير أن ينظرَ فِي وجوه كلِّ بابٍ وفروقه ... » (١) .

عبد القاهر يرشدك إلى أصول يبنَى عليها تركيب الجملة من الكلم ، والعبارة من الجمل ، وأنت تلحظ أنَّ هذه الوجوه لا تقف عند نمط من الأنماط ، كنمط الموقع مثلا ، بل تتناول الموقع كما في « التقديم » و« التّأخير » ، وتتناول هيئة الكلمة من خارجها من نحو « التّعريف » و« التَّنكير » ، وتتناول العلائق بين المكونات ، وغير ذلك ممًا لا يخفى عليك في كلامه .

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٨١-٨٣ .

ولك أن تتلبّث عند قوله : « في الكلام كلِّه » لتتساءلَ :

ما يريد بِه ؟ أيريد به كليّة نوعية تحيط بـأنواع الكـلام : بيـان الـوحي وبيـان الإنسان شعــرًا ونثـرًا أدبيًـا ، ونثـرًا علميًـا أم يريـد كليـة نَصيّة أيْ في الجملـة والفقرة ، والفصل « والنّصّ : (سورة أو قصيدة ...) ؟

كلّ ذلك يمكن أن يحتمله الكـلام ، ولا أقطـع بوجـهٍ ، ولا تتخـذنّ استعلاء الوجه الأوّل على الآخر مذهبًا مِن أنّه الّذي حضر في صنيعه تحليلاً واستبصارًا وتدبّرًا ، بَيْنا الوجه الآخـر لـم يكن حـاضـرًا ، فمـا رأيناه قــد عمـد إلى فصـلٍ أو نصٍّ كميلٍ في مدارسته ، فيكون واقعه التّبصريّ التّـدبريّ قرينـة علـى الوجـه الأوّل دون الآخر ، ذلك أنّ الممارسة التّحليلية والاستبصاريّة والتّدبريّـة وحـدها لا تكون برهانًا يستند إليْه ويعتمـد عليْـه ، ولا سيّما أنّـه إذا مـا كـان الكِتـاب يعمد به إلى التّأصيل لمنهاج ، لا إلى تجريبه أو تطبيقه وتحليل البيان .

وإذا ما كانت خصائص الإبانة الّتِي هـي الفـروق والوجـوه في بنـاء التّركيـب جملة وما فوقها كثيرة ليس لها غايـة تقـف عنـدها ونهايـة لا تجـد لهـا ازديـادًا بعـدها ، وتكاثرهـا ، ذلـك أنّ لسـانَ العـربِ أوسـع الألسـنة مـذهبًا كمـا قـال « الشّـافعيّ » فـإنّ مـا تثمـره هـذه الخصـائص في سياقاتها ، وهـو مـا يسـمّى بـ« المزيّة » أحقّ بألاّ تكونَ لها غايـةٌ تقـف عنـدها ونهايـة لا تجـد لهـا ازديـادًا بعدها [1] .

---

(١) مصطلحا « الخصائص » و« المزايا » ممّا كثر وروده في كتاب « دلائل الإعجاز » فحينا يجتمعان ، وحينا يفترقان .

« المزايا » ولائد « الخصائص » ونجائبها ، وهما إذا ما افترقا ذكرًا في موضعٍ دلّ المذكور على المطويّ ، وإذا اجتمعا ذكرًا في موضعٍ كان لكلٍّ مدلوله . ==



هذا يجعل المرءَ ليس همُّه استيعاب الأنماط بمقدار ما يكون همّه فقه منهج التّركيب ، وأصول العلاقات بين الكلم في بناء الجملة ، وبين الجمل في بناء العبارة ، ومقتضِيات ذلك كلّهِ ، ففقه «الاقتضاء» رأسُ الأمر في اسْتحصاد الثّمر واستطعامه ، وغير قليلٍ من طلابِ العلم يغفلُ عن الاغتناء بفقه «الاقتضاء» وعن فقه «المغزى» في مدارسته البيان ..

فقه المنهج واقتضائه ومغزاه أجدَى على المرْء من حفظ مفردات المنهج ؛ لأنّ الإحاطةَ بأنماط التَّراكيب ، وإن كان عسيرًا بل متعذِرًا ، فإنَّ عطاءه مِن دون ما يبذل فيه ، وذلك أنَّ «المزيّة» ليست بواجبةٍ للخصائصِ في أنْفُسِها ، ومِنْ حيثُ هي على الإِطلاق ، ولكنْ تعرض للخصائصِ بسببِ المعاني والأغراضِ الّتي يُوضعُ لها الكلامُ ، ثم بحَسَبِ موقعِ الخصائصِ بعضِها من بعضٍ ، واستعمالِ بعضِ الخصائصِ معَ بعض»[1] .

هذه ثلاث مثابات يؤول إليها أصل «المزيّة» في تلك الوجوه والفروق والأنماط التركيبية (الخواصّ) :

== وهذا كمثل قول الله ـ تعالى ـ (سبْحانه) و(تعالى) إذا اجتمعا ذكرا افترقا مدلولا ، وإذا افترقا ذكرا اجتمعا مدلولاً وكان في المذكور دلالة على المطوي .

والذي أبصره الآن أن الخصائص هي الوجوه والفروق التعبيرية التي تتشكل منها الجملة وما فوقها .

وأنَّ المزية «هي ما يسْتحصد من هذه الخصائص من المعاني الإحسانية التي كلما زاد تبصرك الخصائص في سياقها القريبِ والمديد توافدت عليك المزايا عطاء غير مجذوذ ، فلك منها على قدر إتقان صنعك ، واتساع وعائك (فؤادك) .

ولابن كمال باشا رسالة في مصطلح الخواص والمزايا ، وفيها ما هو محل نظر ناقد ، ولعلّي أفرغ لشرحها ـ إن شاء الله تعالى ـ ونشرها في طلاب العلم ، والله ﷻ المستعان على طاعَتِهِ ..

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٨٧ فقرة : ٨٠ .

- المعنى والغرض الموضوع له الكلام .
- موقع الوجوه والفروق (الخصائص) بعضها من بعض .
- استعمال بعضها (الخصائص) مع بعض .

وهذا يوجب على القائم بالتّحليل البيانيّ للتراكيب أن يرجع مزايا البيان وبلاغته إلى هذه الأمور ، وليس مِن شكٍّ في أنَّ هذه الثلاث متغيرةٌ متنوعةٌ بتغير السّياق وتنوعه ، ومن ثمّ لا تجد قوانين تطبق بحذافيرها فِي كلّ موطن وسياقٍ .

وهذه المثابات الّثلاث توجب علينا في تحليلنا البيانيّ للتراكيب أن تكون من همومنا الرئيسية في التّحليل همّان رئيسان :

الأوّل : تحقيق التّناسب بين الوجه الذي اصطفيناه ، والمعنى والغرض المنصوب له الخطاب .

وهذا مهمٌّ جدًا كما سبق تبيينه في مدارسة المعنى القرآني عموما وفي سياق السُّورة خصوصًا ، ومن حقّه على أهل العلم ألاَّ تقبل مدارسة للمعنى في أيّ بيان ، ولا سيّما بيان الوحي لا يكون هذا عمودَ الأمر فيها .

وبرغمٍ أنّ هذه خطوة مهمَّة جدًّا ، فإنَّنا كثيرًا ما نغفل عنها ، أو نتغافل عنها استسهالاً ، فلا نوفّيها كثيرًا مِن حقها والله ـ سُبْحانَه وَتَعالَى ـ يحبُّ من الأعمال متقنَها ، وهو ﷻ قد هدانا إلى أنـه لا يكون منه إلاَّ ما هو متقن :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النمل:٨٨) .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (الملك:٣-٤) .

فحرًى بنا على الأقل في مدارستنا لكتاب الله ـ تعالى ـ أن نتحلّى بذلك قدر الطّاقة المنعم بها مِن الله ـ تعالى ـ علينا .

وقد يقبضِ الله ـ سبْحانه وبِحمدِهِ ـ بعضَ العطاءِ عن عبدِه وهو له محبٌّ حفاظًا عليْه في المكثِ في فسطاط العبودية ، فاحمد الله ـ تعالى ـ على ما يجود بِه عليك ، وإن حسِبت أنّه نزيرٌ ، وأنّه جاد على غيرِك بما هو كثيرٌ ؛ فإنك لا تدري أيَّ الأمرين أحمدُ عُقبَى . الأهم أن تبذل قصَارى جهدِك .

وإذا ما نظرت فيما يعرض من احتمالات التّأويل رأيت غير قليل منها لا يتناسب مع المعنى والعرض المقام له الكلام ، وأقرب شيْءٍ ترى فيه ذلك تأويلهم بعض آياتِ الغيب واليوم الآخر ، وآيات أفعال الله ﷻ وصفاتِه على أنّها مجازٌ أو تمثيلٌ ، وهذا التّحليلُ لا يتناسب مع المعنى والغرض المنصوب له الكلام .

والآخر : العناية بِموقع الوجوه والفروق بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض[1] .

نريد بموقع الخواص بعضِها مع بعض الموقع الوظيفي (المكانة) ، وليس الموقع المكاني في بنية الأسلوب ، فقيمة الشيءِ في وظيفتهِ أي في ما يقوم له لا ما يقوم فيه ، فقد يتقدم الخادم على مخدومه في المكان لا المكانة .

وإذا ما كان شأن أيّ صورة معنى ، وإن كانتْ وجيزة أنها لا تكونُ من أسلوبٍ واحدٍ ، بل هي من مجموعٍ أساليب تتعدّد وتتنوع وفق شأنِ ما تصوره وما يرمى بها إليْه ، فحينا تجد مع أسلوبِ «التقديم» تشبيها وجناسًا ... ،

---

(١) جمعت هنا بيْن المثابتين في موضعٍ لما بينهما من تآخٍ ، فالنظر فيما استعمل يترتب عليه النّظر في موقع كلّ من الآخر ، فالأساليب تجتمع وتتنوع بحسب الأغراضِ ، ثم يكونُ لكلٍّ موقعُه الوظيفيّ سواء على مستوى بناءِ الجملة وما فوقها .

وحينا تجد مع التّشبيه تعريفًا وحذفا وطباقًا .... فإنّ لكلّ في موقعه وظيفةً تجدد علاقته بسائرِ الخواصّ الأخر ، فحينا يكون في صورة هو « العمدة » ، وحينا يكون هو نفسه في صورة ليس بالعمدةِ ، وبرغمٍ من ذلك لا يُستغنَى عنه ؛ لأنَّ السياق والمغزى قد اقتضياه .

وهذا يستوجب أن نبحث عن النّمط الرئيسي في تصوير المعنى ، والأساليب المعينة له على ذلك ، ففي كلّ صورة معنى ، ولا سيّما المعاني الكليّة الممتدَّة القائمة من عدة أساليب وهي ليست منازلها سواء في تحقيق المعنى ، منها ما هو رئيسٌ ، ومنها ما ليس كذلك ، وقد تتعدَّد الأساليب الرَّئيسة فتكون أكثر من أسلوب .

علينا أن نستبصرَ النّمط التَّركيبيّ الرّئيس في كلِّ صورةٍ مِن صورِ المعاني الَّتي نحن بصدد تحليل تراكيبها تحليلاً بيانيًا .

الأسلوب المهيمن ليس له موقع معيّن في جميع صور المعاني ، قد يكون في صدر صورة المعنى ، وقد يكون في ثبجها أو خاتمها . « آية الكرسيّ » بنيت على قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ (البقرة:٢٥٥) بينا قوله ﷻ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة:٢٧٥-٢٧٦) .

الأسلوب الرّئيس هو المقابلة في قوله ﷻ : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ وسائر الأساليب مساندة لتقرير هذه الحقيقة الّتي أخبر بها هذا النّمط

التركيبي المؤسس من خبر مجرد مِن التَّأكيد في صورة مقابلة قائمة في بصر القارئ وبصيرته ، يلقى بها في وجه كلّ من يسعى إلى المجادلة بالَّتي هي أسوأ في شأن الرِّبا .

وإذا ما كانت كلّ صورة مِن صور المعاني مِن عدّة أساليب ، فإنّه ليس ثَمَّ أسلوبٌ ونمط تركيبيّ هو المقدّم على غيره دائمًا ، والّذي تبنى عليه الأساليب والأنماط الأخرى ، بل يتخذ موقعه وفق ما يقتضيه حال صورة المعنى في حسن دَلالته وتمامها عليه .

ولهذا عُنِيَ «عبد القاهر» بالتَّنبيه إلى تلك المثابات كيما يقوم في قلوبنا وحركة تأمّلنا وتدبُّرنا ، وينبهنا إلى عظيم لطفها ، كأنَّها الّتي تكتم عنك أنفاسها ، كما تكتم الحسناء - قديمًا - حركتها وحسّها عن كلّ غريب .

وهذا يقيمك في سياق المجاهدة والمصابرة والعمل على اقتناص الَّلطائف ، والتّطهر من معابة التّساهل والتّسارع والاستغناء بظاهر النّظر ، وتشتدُّ الحاجة إلى المصابرة والمجاهدة في التَّدبّر وتحليل التَّراكيب تحليلاً بيانيًّا حين يكون الأمر على وجهين من التّأويل أو أكثر ، أحدهما أنسب وآنس بالسّياق والمقام والغرض المنصوب له الكلام ، والآخر غير مدفوعٍ إلاّ أنّه غيرُ مرفوعٍ .

«وإذا كان بيِّناً في الشَّيْء أنَّه لا يَحتمِلُ إلاّ الوجْهَ الَّذي هو عليه حتَّى لا يُشْكِلَ ، وحتَّى لا يُحْتاج في العلم بأنَّ ذلك حقُّه ، وأنّه الصوابُ ، إلى فكْرٍ ورويةٍ ، فلا مَزِيَّةَ ، وإنّما تكونُ المزيةُ ويجِبُ الفضلُ إذا احتمَلَ في ظاهِرِ الحالِ غيرَ الوجهِ الَّذي جاءَ عليه وجهًا آخرَ ، ثمَّ رأيتَ النفسَ تَنْبو عن ذلكَ الوجهِ الآخرِ ، ورأيتَ لِلذي جاء عليه حُسْناً وقبولاً تعدمهما إذا أنتَ تركْتَه إلى الثاني»[1].

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٢٨٦ ، فقرة : ٣٣٥ .

قولـه : « فـلا مَزِيَّـةَ ، وإنّمـا تكـونُ المزيـةُ ويجِـبُ الفضـلُ ...» لا يـراد بـه «المزية» الّتي هي وليدة الخصائص التَّركيبيّة الاختياريّـة ، بـلْ يريـد بهـا مزيـة (فضِيلة) المُتكلم على غيرِه ، أي فلا مزية لك أيها المبين بهذا الوجـه الفريضـة الَّذي لا مَحِيدَ عنه ، فأنت مضَّطرٌ إلى أن تقدّم كلمة ؛ لأنّ سَنن البيـان لا يـأذن إلا بتقدِيمهـا ، أنت في تقديمك هـذا لا مزيَّة لك سِـوَى أنك جَـرَيْت علـى ما وجب ، إذ لم يكن لك اختيار ، وإنّما مزيّتك على غـيرك مبِينًـا حـين يكـون لك اختيارٌ وصنعةٌ في ما أنت تختار ، يقول عبد القاهر : « لا فضيلةَ حتى تَـرى في الأمرِ مَصْنعًا ، وحتى تَجدَ إلى التخيُّر سبيلاً ، وحتـى تكـونَ قـد اسـتدركْتَ صَوابًا »(١) .

وهذا لا يعنِي قطُّ أنَّ تقديمَ ما وجب تقديمه وحذف ما وجب حذفه عربيّة ليس فيه مزيّةٌ دَلاليّةٌ ، كلا بل فيه إلاّ أنـّها بلاغة لسان لا بلاغة متكلّم .

ونحن بحاجة إلى العناية بما هو بلاغة لسانٍ مثل حاجتنا إلى مدارسـة بلاغة مُبِينٍ ، فما يجب حذفه أو تقديمه أو تعريفه ونحو ذلك فيه من العطايا ما لا نستغنِي عنه ، وهذا يرجع إلى بلاغة الّلسان لا بلاغة المُبِين بِه .

* * *

وإذا ما كان عَمود البلاغة المعجزة هو « النَّظم » ، فإنَّ منها ما لا يكون إلاَّ به ، كالّذِي يحدث ضربًا مِن التّحوّل فِي دَلالة الكَلم والجمل على معانيها ، كالاستعارة وضروب المجاز والكناية ، فهذه المعاني من مقتضَيات النّظم ، وعنه تَحدث ، وبه تكون(٢) ...

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٩٨ ، فقرة : ٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٩٣ ، فقرة ٤٦٤ .

وحين يكون الإمام عبد القاهر بصدد التَّحليل البيانيّ لعمود البلاغة ، تكون عنايته متوفّرة على النّظم القائم على ما بين الكلم من علائق تركِيبيّة بأنواعها راجعةٍ إلى معانى النّحو .

وحين يكون بصدد التّحليل البيانيّ لتمام البلاغة لا يقصره على شىْءٍ دون غيره ، ولذلك نراه يدخل السَّلامة مِن الثّقل والتَّنافر وما شاكل ذلك فيما تقع به الفضيلة ، بل إنّه ليذهب إلى ما هو بعيد حين يرَى أن السَّجع والجناس حين يقتضيها المعنى مقومًا من مقومات تمام بلاغة الكلام ، حتَّى إنَّ المتكلم لَوْ رام تركهما إلى خلافهما ممَّا لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل مِن عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه في شبيهٍ ممَّا يتسبَّب إليه المتكلِّف للتَّجنيس المستكره والسّجع النَّافر[1] .

* * *

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ، ص ٥٩ ، فقرة : ٥٠ ، وأسرارالبلاغة . ص ٨ ، ١٣ ، ١٤ قراءه وعلق عليه : محمود محمد شاكر .

ثالثًا : التَّحليل البيانيّ للنغم

تأصيل القول في مقومات التّغني بالقرآن .

التّغنّي بحسين القول فطرة آدمية : خلق الله ـ سُبْحانَه وتَعَالَى ـ أبا البشرِ سيّدنا آدم عليه السلام ليكونَ في الأرضِ خليفة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠) » .

ومن قبل أن يقيمَه فيها أسكنه وزوجَه الجنّة :

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ٣٥) .

ولعلّ من وراء ذلك حكمةً تربوية يحمل منها سيدنا آدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ ما يكون عونًا لهما على أداء ما خلقا له . أسكنهما الجنّة أوّلاً ، وهي مستودع الجمال الحسيّ والمعنوي ، ليس للقبح أيّا كانت درجته فيها حضورٌ ، ممّا جعلهما كائنين جماليين ، يعشقان فطرةَ الجمال في كلّ شيْءٍ ، ويبغضان القبح في كلّ شيءٍ حسّيًا كان أو معنويًا ممًّا يمكنك معه أن تقول إن الإنسان كائنٌ جماليّ ، فمنْ يسكن إلى شيْءٍ من القبح تباعد عن آدميته بمقدار سكونِه إلى قبحٍ حسّيّ أو معنويّ .

وقد سمّاه الله ﷻ « آدم» ليكونَ في اسْمه تذكيرًا له برسالتِه الّتي خلِقَ لِتحقيقها : « الإصلاح» فكلمة « آدم» (أأْدَم) صيغة مبالغة (أَفعل) من (أدم) أيْ أصلح .

هو كـ(أحمد) أيْ هو أفضل مُصلِحٍ ، وذلك في مقابل ما قالت الملائكة فِي حقِّه إنّه يفسد في الأرض ويسفك الدِّماء ، فشأن آدم عليه السلام وذريته إصلاح كلّ قبيح ، وإحالته جميلاً .

وممَّا هو حقيقٌ بتحقيق الجمال فيه ما تسمعه الأذن (الكلام) ، وحسنه قائمٌ في ثلاثة أمور :

في معناه ، وفي صورة المعنى ، وفي وظيفته الّتي يخلق لِتحقيقها .

ومن الجمال في صورة المعنى أن تكون منغومةً تسْتلذ الأذن الإصغاءَ إليْها ، فتنساب حاملة المعنى إلى الفؤاد ، ومن ثمَّ يُتغنّى بِها لِما فطر عليْه البشر مِن محبَّة الصَّوتِ الحسن ، فمَن لَم يكن من طلبته حسن ما يسمع وما ينطق فليس من «الآدميّة» في شيءٍ .

﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (لقمان:١٩) .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ ولم يقل اغضض صوتك ، ولا اخفض صوتك ، ذلك أنّ القصد إلى أن يكون الصوت على قدر الحاجة ، فما زاد عن الحاجة رفعًا أوخفضًا فهو القبح لأنه لن يحقق ما يكون التصويت له ، وقد جاء الأمر أيضًا بالغضّ للبصر :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور:٣٠-٣١) .

فمن الجمال ترك ما لا حاجة إليْه صوتا أو نظرًا أو حركة ... ، فالجمال في الإتيان بالشيْءِ على وجهه على قدر الحاجة ، فإن الفضول قبحٌ ، ومن ثَمَّ استقبح سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ الثرثرة والتشدُّق ، لأنهما فوق الحاجة .

روى التّرمذيّ في كتاب « البرّ والصِّلة » بسندِه عَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ :

« إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّى مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّى مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ» . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ : « الْمُتَكَبِّرُونَ» . (صححه الألباني) .

وقد جعل الله ﷻ صوت الرَّجل فخيما جزلاً ، وصوت المرأة رقيقًا تحقيقا لوظيفته في كلٍّ ، فمن عوامل أنس المرأة بزوجها جلال صوته وإشعاره بالقوة والعزم الفتيّ ، ومن عوامل سكينة الرّجل إلى المرأة رقّة صوتِها ، فهو من مقومات أنوثتها .

ومن ثَمَّ نهيت المرأة عن أن تخضع بالقول لغير زوجها ، عصمة له من الفتنة . وحق المسلم على المسلم ألا يكون عونا للشيطان عليْه :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (الأحزاب:٣٢)[1] .

فطرةٌ في البشر الأسوياء تحسين الصّوت والتَّغني به ، والشَّأن في ما يأتي به الشّــرع ألا يئد الفطرة السّــوية ، بل يحقق لها طَلَبتها على نحــو يجري مع ما يقتضيه مراد الله ـ تعالى ـ ومحبوبه ، فيجعل له ما يحقّق له طلبة فطرته ، ومرضاة الله ـ تعالى ـ ، ومِن ثمَّ كان مِن شأنِ البيان القرآنّي أنّه بيانٌ ليس كمثله بيان في هذا : في تحقيق طلبة الفطرة تغنيا ، وجعل الشّرع هذا التغني

---

(١) في هذا دلالة فتيّةٌ على أنّ غناء المرأة لغير زوجها لا يحلّ أبدا ، ولا سيما إذا صحبه كشف عورة أو حركة جسدية فاتنةٍ كما هو الشأن في ما ترى وتسمع .

الحميد أثرًا عبادة ، وتزلّفًا وجعل لذلِك عواصم من أن يخرج التغنّي عمّا شرع له تحقيق مرضاة الله  باستبقاء العبد في فسطاط العبوديّة والقنوت والزّلفَى .

والعربىّ بفطرته يعشق الإيقاع ، ونشأته فى الصحارى الفسيحة جعلته معتمداً على إدراكه السمعيّ ، فأصوات الرياح حين تهبُّ إيقاع تتلقفه أذنه الرَّهيفة ، وحين يسكن الكون من حوله ، يسمع خفق القلوب ووجيبها ، ويسمع وقع الأقدام على الأرض وتوقيعها وهى على أميال عديدة ، فهو ذو أذن واعية خفايا الهمس ، فكان منطوق ألسنتهم متناغياً مع ما فطرت عليه آذانهم التى عشقت توقيع الأصوات ، فإذا العربية لغة موزونة فى حروفها ومفرداتها وتراكيبها الفنيّة والموسيقيّة «فهى فى جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل من الشّعر فى كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشّعراء».

ذلك أنّ العربيّ في طبيعته ذو نفس «طروب في جوهرها، وجميع مطامحها وانفعالاتها واندفاعاتها إنَّما تتجلى في تعبيرٍ موسيقيّ موزونٍ ، هو بيت الشِّعر الَّذي سيكون مقياسه خطوة الجَمَلِ السَّريعة أو الطويلة ، وعلم العروض نفسه في جوهره بدويّ ، إذن فصورة العبقرية البدوية قد انطبعت في الشّعر»[1] .

من خصائص النَّفس العربيّة الفطريّة أنَّها تعشق النَّغم الموزون وتنفر من تنافر النّغم ، فهو يصور انفعالاته من خلال نغم بيانه أكثر من غيره من وسائل

---

(١) الظاهرة القرآنية ، لمالك بن نبي (ت : ١٣٩٣هـ) ص ١٨٣ ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ـ دمشق سورية ط . ١٤٠٥هـ .

التنغيم من خارجه ، ولذا سجل حضارته في لغته ذات التوقيع النغمي المصور انفعالاتهم .

أنت ترَى البيان القرآني في زمن التَّنزُّل الباكر «العهد المكي» يستثمِر هذه الفطرة في تقرير معاني الهدَى في أَفئدتِهم .

وأنت - أيضًا - ترى المغيرة حين ثاب إلى رشده وانعتق من عصبيته وضلالته ، فأَصْغَى إلى آَياتٍ من كتاب الله - تعالى - قد جعل الأثرَ الصّوتي لبيان القرآن رأس الأمر ، فأعرب عمّا قام فيه من تأثيرٍ فَحيلٍ بقولِه : «وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلاوَةً ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً» .

فهو أسبق ما انفعلت به نفسه ، ثم تلاه بما حمله ذلك التغني من معاني الهدى : «فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالأَشْعَارِ مِنِّي ، وَلا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا

وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلاوَةً

وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً

وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ

وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى

وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ»[1] .

---

(١) رواه الحاكم النيسابوريّ في باب تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ من كتابه المستدرك على الصحيحين وقال : «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» (رقم : ٣٨٧٢). ورواه البيهقي في بَابٌ فِي الإِيمَانِ بِرُسُلِ اللهِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ - عَامَّةً من كتابه شعب الإيمان (رقم : ١٣٣) .

فإذا ما كانت العربية لغة منغومة موزونة فى حروفها ومفرداتها ، فحروفها موزعة المخارج الصَّوتية توزيعًا منغومًا وافيًا فإنّها فى نظم كلمات جملها أكثر اعتناءً بالوزن والإيقاع ، لأنَّـهما دعامة البناء التَّركيبيّ للجملة ، فإذا التَّوازن بين العناصر الصَّوتية للجملة وافر باهر أيضًا على نحو لا تغفل عنه أذنٌ واعيةٌ وقلب معافَى .. فالعربية فى أىّ أفقٍ من آفاق البيان بها هي لغة الإيقاع الحى المتجدد .

* * *

الحثّ على التَّغني بالقرآن :

ومِمَّا جاء في بيان النّبوَّة الثَّناء على تغني بعض صحابة سيّدنا رسول الله - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - بالقرآن على نحو ما روي أنّه - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - قال عن أبي موسى الأشعريّ - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - إنّه أوتي مزمارًا من مزامير داود .

روى الشَّيخان : البخاريّ في « فضائل القرآن » ومسلم في « صَلاة المسافرين » بسندهما عَنْ أَبِى بُرْدَةَ عَنْ أَبِى مُوسَى - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِى مُوسَى : « لَوْ رَأَيْتَنِى وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » . (النّصّ لمسلم)

ومِمَّا ينسب لأبي موسى - رَضِيَ اللهُ عَنهُ - أنّـه قال عند ذلك : « لو علمت أنَّـك تسمع قراءتي ؛ لحبَّرته لك تحبيراً » (سنن البيهقي)

لو أنَّـك استحضرت في فؤادك قول الله ﷻ :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾

(الأنبياء:٧٩) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (سبأ: ١٠-١١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (ص:١٧-٢٠) .

وأنت تتبصَّر قوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ لأبي موسى ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ : «لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» . ثمَّ تبصّرت قوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ» . لكان لك من ذلك ما يحملك على أنْ تبصر ما في نعمة حسن التَّرتيل من عظيم الفضلِ .

وفي قول سيّدنا أبي موسَى ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ : «لو علمت أنَّك تسمع قراءتي ؛ لحبَّرته لك تحبيرًا» ما يهدِي إلى أنّ بِمَلْكِ المرتّل أَنْ يَجتهدَ في التغنّي معصومًا من تحريف الكلم عن مواضعه ، فيزيد بهذا التّحبير من تزيين المعنى القرآنيّ في نفس السّامع ، فيشغله بذلك عن غيرِه ، فيستبقيه في معية القرآن ، وتلك نعمةٌ حُسْنَى .

وفي مقال رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ لأبي موسَى ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ من التعجيب ما فيه، ومثل هذا ممَّا لا تعدل به الدُّنيا وما فيها . فهي عند مَن تقال له خيرٌ من الدنيا كلها منذ خلقت إلى أن تقوم الساعة .

ولو فقه النَّاس هذا لفقهوا شيئًا ممّا قاله سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رَضِيَ الله عَنهما ـ : «مَنْ أُعْطِيَ الْقُرْآنَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ فَقَدْ حَقَّرَ مَا عَظَّمَ اللهُ، وَعَظَّمَ مَا حَقَّرَ اللهُ»(١) .

وقد استحمد سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قراءة ابن مسعود ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ ، وأنّها كما أنزل القرآن .

روَى أحمد في مسنده بسنده عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ ـ رضِيَ الله عَنْهُما ـ بَشَّرَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ : «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضاً كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ» .

وفي رواية أخرى في مسند أحمد بسنده عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ الْمَسْجِدَ وَهُوَ بَيْنَ أَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ ـ رضيَ الله عنهما ـ ، وَإِذَا ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ يُصَلِّى ، وَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ النِّسَاءَ ، فَانْتَهَى إِلَى رَأْسِ الْمِائَةِ ، فَجَعَلَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ يَدْعُو ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى ، فَقَالَ النَّبِىُّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : «اسْأَلْ تُعْطَهْ ، اسْأَلْ تُعْطَهْ» . ثُمَّ قَالَ : «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ بِقِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ» فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ لِيُبَشِّرَهُ ، وَقَالَ لَهُ مَا سَأَلْتَ اللَّهَ الْبَارِحَةَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : «اللَّهُمَّ إِنِّى

---

(١) شعب الإيمان . ٤/١٧٧ ، للبيهقيّ : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني ، (ت:٤٥٨هـ) تحقيق : عبد العلي عبد الحميد حامد ، مكتبة الرشد . الرياض . ط . الأولى ، ١٤٢٣هـ ، رقم الأثر ٥٢٢٣ .

أَسْأَلُكَ إِيمَاناً لاَ يَرْتَدُّ وَنَعِيمًا لاَ يَنْفَدُ وَمُرَافَقَةَ مُحَمَّدٍ فِى أَعْلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ» ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ ﷺ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَكَ. قَالَ : يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ مَا سَابَقْتُهُ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ إِلاَّ سَبَقَنِى إِلَيْهِ» .

وأفهم من هذا أنّ أداء سيدنا ابن مسعود ﷺ كان حاملا المعاني النّفسية الّتي في القرآن إلى فؤاد سيّدنا رسول الله ﷺ ، كالّتي كانت إليه وافدة عندما أنزل عليه يرتلّه سيّدنا جبريل عليه السلام ، ولذا نعته بأنّه غضٌّ كما أنزل .

وقد جاء في بيان النبوة أنّ أحق النّاس بإمامتهم في الصّلاة اقرؤهم وإن كان أصغرهم سنا ما كان مميّزًا .

روى أبو داود في كتاب «الصلاة» من سننه بسنده عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلِمَةَ ـ رَضِيَ الله عَنهما ـ قَالَ : كُنَّا بِحَاضِرٍ يَمُرُّ بِنَا النَّاسُ إِذَا أَتَوُا النَّبِىَّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ فَكَانُوا إِذَا رَجَعُوا مَرُّوا بِنَا ، فَأَخْبَرُونَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ : كَذَا وَكَذَا ، وَكُنْتُ غُلاَمًا حَافِظًا ، فَحَفِظْتُ مِنْ ذَلِكَ قُرْآنًا كَثِيرًا ، فَانْطَلَقَ أَبِى وَافِدًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ فِى نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ ، َعَلَّمَهُمُ الصَّلاَةَ ، فَقَالَ : «يَؤُمُّكُمْ أَقْرَؤُكُمْ» . وَكُنْتُ أَقْرَأَهُمْ لِمَا كُنْتُ أَحْفَظُ ، فَقَدَّمُونِى ، فَكُنْتُ أَؤُمُّهُمْ وَعَلَىَّ بُرْدَةٌ لِى صَغِيرَةٌ صَفْرَاءُ ، فَكُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَكَشَّفَتْ عَنِّى ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ النِّسَاءِ وَارُوا عَنَّا عَوْرَةَ قَارِئِكُمْ . فَاشْتَرَوْا لِى قَمِيصًا عُمَانِيًا ، فَمَا فَرِحْتُ بِشَىْءٍ بَعْدَ الإِسْلاَمِ فَرَحِى بِهِ ، فَكُنْتُ أَؤُمُّهُمْ وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِ سِنِينَ» (صحّحه الألبانيّ) .

تبصَّر كيف أنَّ إحسان قراءة القرآن قدمه على قومه على صغر سنّه ، جعله ذلك الإحسان إمامهم بين يدي ربهم سبحانه وتعالى ، فكيف بأحقيته في إمامتهم بين يدي



أحدٍ من الخلق ، فمن كان المقدم في الصلاة ، وكان عليما حكيما كان المقدم في ما دون الصلاة .

وفي هذا البيان النبوي وسياقاته من معاني الهدَى ما لا يستغني عنه أحدٌ ، فحبذا الاعتكاف في رياضِه ، فإن لك منه عطاءً مجيدًا حميدًا .

ومن مقومات الأقرأ جودة الحفظ ، وحسن التّرتيل ، ثمّ حسن الفقه لِما يقرأ ، ثمّ الآدب بهديه ، فمن اجتمعت فيه الأربعة ، فهو هو ، فحسن التّرتيل أعون لمن يؤمّهم الأقرأ على حسن الصَّبر على الطَّاعةِ والانشغال بالإصغاء لكلام الله ﷻ .

وغير خفيّ أنّ للتغنِّي رسالتَه : تزيينَ القرآن في صدور العباد ، ليشتغلوا بالإصغاء إليْه مرضاة لربّهم ـ سُبْحانَه وَتَعَالَى ـ ، فإذا ما انحرف التّغنّي عن هذا ، فشغل التغنّي السَّامعين عن جلال ما يسمعون وعمّا شرع له التّغني فذلك الذي يحاجز عنه ، ويدفع الناس عنه أداءً وإصغاءً .

وإذا ما كان التَّغنّي بالقرآن تغنيا رشيدًا تزيينًا للقرآن في الصُّدور لتستغني به عن غيرِه استهداءً في حياتها إلى ما يرضِي خالقها وخالقهم ، وكان التّغني إنّما مناطه « النَّغم » وهو إنّما يتحقَّق من انسجام الجرس والإيقاع ، فمنْ لم يحسن حقيقةَ كلٍّ واستحقاقاته كان تغنّيه على غير الوجه الأمثل .

و« الجرس » و« الإيقاع » عاملان متغيّران بتغيّر التَّركيب وسياق القول الخاضعان للمغزَى ، ممًّا يجعل التّفنن في التّغنّي بالنَّغم خاضعًا للمغزَى ، فمَن تغنَّى بما لا يفقه مغزاه ، فإنَّ تغنِّيه عقيمٌ ، ومِن ثمَّ لا يحقّق لِتغنّيه فضيلة تزيين القرآن في أفئدة المتلقّين .

وإذا ما فقه القارئ المغزَى أحسن اختيار التَّغني وفق استحقاقات النَّغم الخاضع لسلطان المغزَى ، وحينئذٍ يكون في أمَنة مِن أن يَفسقَ عَن المشروع في التّغنّي ، ومن ثَـمَّ لا يتغنّى بالقرآن تغنّيًا يزيّنه فِي الأفئدة إلاّ فقيه .

ولعلّه من الحُسْن العرفان بحقيقة «الجرس والإيقاع» وشـأنهما كيلا يكون التَّغنِّي وليد تقليدٍ لا وليد عرفان وعلمٍ .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء:٣٦) .

فالغاية الرَّضيّة مِن العرفان بشيْءٍ مِن حقيقةِ «جرسِ الأصواتِ وإيقاعِ الأداءِ» إنّما هو تحقيقُ حُسْنِ التَّغنّي الرّشيد تزيينًا للقرآنِ فِي أفئدةِ العبـادِ ، وما جاوز ذلك ، فهُو المدفوعُ المرغوبُ عنه والمستعاذُ بالله ـ تعالى ـ منه .

* * *

الجرس : هو الصَّوت الخفيّ ، وهو الأثر السّمعى النَّاتج عن الذَّبذبات الفرعيّة المتوائمة مع الذَّبذبات الأصليّة النَّاتجة من الأوتار الصَّوتية عند نطق الأصوات المجهورة .

الجرسُ نغمة الصَّوت سواء الصّائت (الحركات) أو الصَّامت (الحروف) فلكلّ نغمةٌ لا تتطابق معها نغمة صوتٍ آخر .

واجتماع هذه النّغمات هو ما يميّز قولاً عن قولٍ ، بل إنَّ نغمات أداء المرءِ العبارة يفارقه نغمات أداء امرءِ آخر لها نفسِها ، ممّا جعل جرس الكلام ممّا يُفارق به بيْن إنسان وإنسان ، فليس ثَمّ اثنان متطابقان في جرس كلامهما . وهذا من عظيم قدرة الله جَلَّ جَلَالُهُ .

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (طه:٧) .

فإذا كانت الكلمة مكوَّنة من حروفٍ قويّةِ الإسماع حسـنٍ جرسُها وإلاَّ ، فلا ، أضف إلى ذلك أنَّ حسنَ الجرس يرتبط أيضًا بحسن التَّأليف[1] .

وهذا «الجرس» يمكنك أن تلاحظه في بناء الكلمة - إذ تصغي إليها - ولهذا حرصت العرب في بناء كَلِمِ بيانها على أن توفّر لها مزيدًا من التَّناغم والتَّناسب ، وأَجَلَّتْ خِفةَ الأداء ، فأحدثت ضروبًا من التَّغيير ومن التحوّل في أصوات الحروف وأماكنها من بنية الكلمةِ ، وأحدثتْ كثيرًا من الاستغناء والحذف تحقيقًا للانسجام الصَّوتيِّ للكلمات ، وهذا ما يلحظه النَّاظر فيما قام له علم التَّصريف ، وهو علمٌ بأصول صناعة الكلمة في لسان العربية .

العربية في منهاجها التَّصريفيّ قد لاحظت العلاقة بين طبيعة أثر الصّورة الصَّوتيّة للكلمة ، والمعنى الَّذي تقوم الكلمة بحملـه في سياقها الَّذي تدرج عليه ، فهى كما يقول العقّاد لغة موسيقيّة موزونة فى حروفها ومفرداتها وتراكيبها ، فحروفها موزعة المخارج الصَّوتيَّة توزيعاً موسيقيًّا وافيًا ، فليس هناك مخرجٌ صوتيٌّ واحدٌ ناقصٌ فى الحروف العربيّة الَّتى قسّمت على حسن موقعها من أجهزة النّطق المستخدمة أحسن استخدام يهدى إليه الافتنان فى الإيقاع الموسيقيّ ، فإذا هي لغة شاعرة فى حروفها قبل أن تتألف منها كلمات[2] .

واجتماع حروف في مخرج واحدٍ مع تنوّعٍ في الصِّفات يمنح أصواتها فنونًا من التَّنوّعات الخفيَّة من النّغم ممًّا يستوجب حسن الإصغاء من المستمع ،

---

(١) ينطر : قراءة جديدة لتراثنا النقدي : مقال «موقف النقد العـربـي التراثـي مـن دلالات ما وراء الصياغة اللغوية» ، المجلد الثاني ، ص ٧٨٦ ، لتمام حسان .

(٢) راجـع في هـذا مـا قـال «العقـاد» في «اللغـة الشـاعرة» في فصـول : «الحـروف ، والمفردات ، والإعراب» .

وحسن الأداء من المتكلّم ، وإذا ما كان هذا استحقاقات أداء صورة المعنى وتلقيه ، فكيف باستحقاقات تلقّي المعنى نفسِه؟

وهذا يهديك إلى أنَّ فعل الكلام والاستماع فعلٌ جليل ، لا يليق به أن يكون لغوًا ، فلا يلغو إلاَّ من كان غير واعٍ بجلالِ هذا الفعل إنتاجًا وتلقّيا ، فإذا علمت الأمة هذا وقام في أفئدتها جلال ذلك الفعل لم يكن فيها من يستهلكه فيما يؤذي ، بل لَمْ يَكنْ فِيها مَنْ لا يستهلكه فيما لا يكون جليلاً نفعه .

والوزن والانسجام هما دعامة بناء الكلمة المفردة فى العربية ، فإذا التّوازن بين العناصر الصَّوتيّة للكلمة وافرٌ باهرٌ من جهة ، وهو يبيّن صورة المبنى وما فيه من المعنى كذلك ، وكثيرًا ما يسترشد بالمبنى فى نسقه الصَّوتيّ على فقه المعنى ، ولعلَّك لا تجد لغة كالعربية في هذا[1] .

ولمَّا كانت المعاني متنوّعة وجدنا في العربيّة كلمات ما تزال تحمل في بنائها الصّوتيّ آثارَ الحزونة والصُّعوبة التَّنغيميّة بغية إعانتها على الوفاء بحقّ تصوير معناها بصوتها ، فيكون منها عونٌ للمتلقى على أن يدرك المعنى الّذِي قد يجد مِن نفرة النَّفس عنه ما يعيقه بعض الشَّيْءِ عن إدراكه وتعقله ، فيبقى الأثر الصَّوتيّ معينًا على إدراك المعنى الغريب الّذي لا تأنس النَّفس بوقوعه وصحبته ، كمثل ما تراه في اصطفاء الله ﷻ كلمة : ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾ في قوله ﷻ :

---

(١) لعلنا بحاجة إلى تبيين القيمة الوظيفية العملية لعلم التصريف لطلاب العلم حتى نطهرهم من النفرة من هذا العلم لما يرونه من الاشتغال بالتدقيق في تتبع التطورات التي لحقت الكلمة حتى غدت على ما هي عليْه في اللسان .
كم هو حسينٌ بيان فلسفة هذا العلم الجليل وحكمته وفوائده البيانية ، وكيف أنه رأسٌ في امتلاك مهارة حسن إيصال المعنى إلى الفؤاد وتمكينه فيه ، وتفعيله .
كل هذا له قدر بالغ من الأثر في إتقان تعلم هذا العلم . وإتقان توظيفه .

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ (النجم:٢٢) وكلمة : ﴿طغواها﴾ في قوله ﷻ : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ (الشمس:١١) [١].

المهمّ أنَّ جرس الكلمة رافدٌ رئيسيّ مِن روافد الدَّلالة على معناها.

ونحن بحاجة إلى ملاحظة انتشار الأصوات الجهريّة الَّتى هي معدن جرس البيان القرآنيّ وتوزيعها ؛ لتتبين لنا سنّة القرآن الكريم فى التَّنسيق الصَّوتيّ بين الجهر والهمس الَّذِي هما رافد الإيقاع .

* * *

الإيقاع : مفهومه وقوانينه وفعله[٢]

على الرَّغم من أنّه من حيث هو فعلٌ حاضر في كل شيءٍ فينا ، وفي ما حولنا إلاّ أنّه لمّا تتبلور بعد نظريّة نقديّة شاملة لمفهوم الإيقاع كما يقال[٣].

يقول الخوارزمي (ت: ٣٨٧هـ) في «مفاتيح العلوم» : «الإيقاع هو النقلة على النغم في أزمنة محدودة المقادير»[٤] .

---

(١) ينظر كتاب نظم الدرر ، ٢٢/٨٠ دار الكتاب الإسلامي .

(٢) «الإيقاع» من المفردات العربية التي لم يغفلها أهل العلم ، وقد سمّى الخليل ابن أحمد أحد كتبه (الإيقاع) ، وهو مصطلح يشيع في مؤلفات النغم عند علماء العربية . انظر كتاب : كمال أدب الغناء للحسن بن أحمد الكاتب ، ص ٩٢ .

(٣) بنية الإيقاع في الخطاب الشعري . ص١١ يوسف إسماعيل ، وزراة الثقافة . دمشق ، ٢٠٠٤م .

(٤) مفاتيح العلوم . ص٢٦٦ ، تأليف : أبي عبد الله : محمد بن أحمد بن يوسف البلخي الخوارزمي (ت:٣٨٧هـ) تحقيق : إبراهيم الأبياريّ ، دار الكتاب العربي . ط . الثانية .

وفي المخصص لابن سيده (ت : ٤٥٨هـ) «الإِيقاع : حركات مُتَسَاوِيَة الأدوار لَهَا عَوْدات مُتَوَالِيَة»[١].

وهو فى عالم اللّغة توالى الصّوائت والصّوامت وانتظامها واطّرادها على نسق خاص ، فأساسُه «رجوع الظّاهرة الصَّوتية على مسافات زمنية متساوية أو متجاوبة»[٢] .

هو قياس زمنيّ للتَّواتر المتتابع بين الصّوت والصَّمت في الكلام ، أو بين المتقابلات عمومًا في الحياة من نحو الطّول والقصر، والظُّلمة والضَّوء أو الخير والشَّرّ أو السُّرعة والبطء أوالهدوء والانفعال ، والقوَّة والضَّعف ، فكلُّ متقابلين حِسّيين أو معنويين يتحقق للعلاقة بينهما التتابع والانتظام يتحقق بهما إيقاع[٣].

---

(١) المخصص . (بَاب الملاهي والغناء) ٩/٤ . تأليف : أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت : ٤٥٨هـ) تحقيق : خليل إبراهم جفال ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ط . الأولى ، ١٤١٧هـ .

(٢) ينظر : في الميزان الجديد ، م ص ٢٢٥ ، دار نهضة مصر ـ الفجالة . القاهرة . وراجع «النقد الفني دراسة جمالية فلسفية . تأليف جيروم ستولينتز ، ص ١٠٠ ، ومعجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : ص ٧١ مجدي وهبة وكامل المهندس ، لبنان ـ بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٤م . والمعجم الأدبي ، ص ٤٤ ، جبور عبد النور ، دار العلم الملايين ، بيروت ـ لبنان ، ط . الثانية ، ١٩٨٤م . والروافد المستطرقة بين جدليات الإبداع والتلقي ص ١١٦ ، لمحمد فتوح أحمد ـ مطبوعات جامعة الكويت ، ١٩٩٨م ، وتمهيد في النقد الأدبي الحديث ، ١٠٧ روز غريب ، دار المكشوف ـ بيروت ، ط . الأولى ، ١٩٧١م : نظرية الأدب ص ٢١٤ ، أوستن وارين ، رينيه وليك ، ت : محيي الدين صبحي ، مراجعة : الدكتور حسام الخطيب ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، مطبعة خالد الطرابيشي، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م .

(٣) ينظر : «نظرية الأدب» ، ص١٧٠ ترجمة : محيي الدين صبحي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ، ط . الثالثة ، ١٩٨٥م .

وقد كان للعقل البلاغيّ العربيّ اعتناءٌ بـ« الجَرسِ » و« الإيقاع » المتولد من انسجامهما « النّغمُ » يتجلى لك ذلك الاعتناء في كثير من المصطلحات البلاغية والنّقـدية ، بلْ إنّ الله ﷻ قد أمر رسُولـه سيدنا محمّـد ﷺ بترتيل القـرآن : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ (المزمل:٤) أصل كلمة « الرّتل » كما يقـول الرّاغب في « المفردات » : « اتّساق الشَّيْءِ وانتظامه على استقامة » وسئـل سيّدنا عليّ ابن أبي طالب ـ رَضِيَ الله عَنه ـ عن التَّرتييل فقال : « التَّرْتِيلُ تَجْوِيدُ الْحُرُوفِ وَمَعْرِفَةُ الْوَقْفِ »[١] .

وهذا عمودٌ من أعمدة تحقيق الإيقاع المصور للمعاني النَّفسيّة فِي الأفئدة .

قوانين الإيقاع :

يذهب أهل العلم بذلك إلى أنَّ الإيقاع تحكمه سبعة قوانين هي : النّظام ، التّغير، التّساوى ، التّوازي ، التَّوازن ، التّلازم ، التّكرار[٢] .

هذه القوانين السّبعة تعمل مجتمعة متلازمة لا متعاقبة فى إنتاج الإيقاع سواء كان صوتيًا أو معنويًا ، وهى قوانين تجتمع فى باب « الانتظام » و« الانسجام » ، فلن يكون هناك إيقاعٌ لشئٍ إلاَّ إذا تكوَّن من أشياءَ عديدةٍ منظّمةٍ منسجمةٍ سواء كان هذا الانتظام تقابليًا أو توافقيًا ، فإنَّ « الانسجام » و« الانتظام » ينبثقان مِن بيْن المختلفات مثلما ينبثقان من بين المتّفقات .

---

(١) النشر في القراءات العشر . ٢٠٩/١ ابن الجزري : محمد بن محمد بن يوسف (ت:٨٣٣ هـ) تحقيق : علي محمد الضباع (ت ١٣٨٠ هـ) المطبعة التجارية الكبرى ـ القاهرة .

(٢) الأسس الجمالية في النقد العربي : ص ١٢٢ عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي . بالقاهرة ، ط . الثالثة ، ١٩٧٤م .

الأشياء لا تكون منسجمةً إلاّ اذا كانت منتظمة أمّا الاضطراب والتّهوّش ، فهو جرثومة القبح في كلّ شيْءٍ ، وحين يكون الانتظام بيْن وحدات متكرِّرةٍ بينها وجوه تناظر عديدة وبعض وجوه التَّغاير يتحقّق «الانسجام» ، فالتّكرار المطّرد المتلازم بيْن الأشياء المتنوّعة المتلاقية من وجوهٍ عديدةٍ متساويةٍ متوازيةٍ متوازنةٍ يخلق فيها الانسجام والتّناسب الّذي هو معدن الجمال فِي الأشياء .

فكلُّ جميل إنّما جمالُه مِن انسجام عناصره (مبنى ومعنى) فيما بينها ومِن انسجامه هو مع وظيفته ، ومِن ثَمَّ لا ترَى شيْئاً جميلاً فِي كلّ مقامٍ وحالٍ وسياقٍ .

* * *

أثر الجرس والإيقاع في تصوير المعاني وتمكينها :

الجرسُ والإيقاعُ وإن كانا ليس بالرّئيس في تكوين المعنى إلاّ أنَّهما بالغا الأثرِ في تحقيق مقصد القرآن الأعظم ممًّا يصوّره من معاني الهدَى وتقريرها في النّفوس ، لتنبعث إلى ما يراد منها ولها .

فبغير هذا الأثر قد لا يتسارع إلى النَّفس توغل الأثر الموضوعيّ القائم برسالة الإعلام بما يريده الله ـ سبحانه وتعالى ـ مِنَّا ولنا[1] .

---

(١) للجرس والإيقاع من التأثير النفسي في بيان الوحي قرآنا وسنة ما للتخييل في الكلمة الإنسان شعرا ونثرا أدبيا .

يقول حازم الأنصاري : «القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده وكانت النفس إنما تتحرك لفعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن واحد واحد من الفعل والطلب والاعتقاد بأن يخيل لها أو يوقع في غالب ظنها أنه خير أو شر بطريق من الطرق التي يقال بها في الأشياء إنها خيرات أو شرور» .



ولعل ذلك من وجوه الحكمة في الدّعوة إلى التغنّي بالقرآن ، وقد جاء الأمر في ما رواه أبو داود في كتاب «الوتر» من سننه بسنده عَنِ الْبَرَاءِ ابْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»(١) . أيْ زينّوه في أفئدة السَّامعين .

وهذا التّزيين إنّما يتحقّق بما للأداء مِن فاعليّة في النَّفس من خلال الجرس والإيقاع ومنهاج التّغنّي ، ومنهاج التَّغنّي متأثّرٌ بشأن المتغنّي الإيمانيّ والفهميّ لِما يتغنَّى به ، فليس تغنِّي مَن لا يؤمِن بما يتغنَّى كمثلِ تغنّي مَن يؤمن به ، وكذلك تغنّي مَن لم يفقه ما يتغنّى كمثله من لا يفقه ما يتغنى به .

أَوَ لا ترَى إنشاد الشَّاعر قصيدته أقوى تأثيرًا في النّفسِ من إنشاد غيره لما أبدع ؟(٢) .

---

(١) من الحكمة إيراد أبي داود هذا الحديث في كتاب «الوتر» من سننه إشارة إلى أن هذه الصّلاة هي الأعون على تحقيق ذلك ، فالشأن أن «الوتر» يكون من بعد الفراغ من صلاة القيام في الثلثِ الأخير من الّليل حيث السّكون النّفسيّ للمصلّى والسكون الحركي للكون . وفي حسن التغنّي ما يعين على حسن التلقّي .

(٢) يقول جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) :

«الذي له بعض معرفة باللغة العربية يبتسم إذ يتصفح القرآن ، ولعمري ، إنّه لو أنْصَتَ إلى محمد يقرأه بنفسه في تلك اللغة البليغة الموقّعة ، وبذلك الصوت الجهوريّ المقنع الذي كان يستهوِي الأذن قبل أن يستهوِي القلب ، ولو أنصت إليه إذ لا ينفكُّ ينفثُ فِي حكمِه نبرةً وحماسًا لسجد على الأرضِ من الرهبة ، ثُمَّ لناداه : ألا ، أيها النبي الأعظم ، ألا ، يارسول الله خذنا إلي المجد والشهادة : نريد أن نغلب أو نموت في سبيلك» .

(محاولة في أصل اللغات ، ص ٧١ . تأليف جان جاك روسو ، تعريب : محمد محجوب ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ، ١٩٨٦م) . =



ولولا أنّ بيانَ القرآن قائمٌ فيـه مِـن عـوامـل التَّغنّي الفائق الّتي تمنح من اقتـدر عـلـى التّغني تحقيق هـذا التّزيين في القلوب ، ما كان لسيّدنا رسـول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ أن يأمر بذلك ، إنـه لا يأمـر بفـعـلِ شيْءٍ لا سبيلَ إلى تحقيقهِ .

وهو إذْ يأمر به أمرًا عامًّا يهدِي أيضًا إلى أنّ في جرسِه وإيقاعه ما يمكّن مَن أراد أن يتغنّى ، ويهدي إلى أنَّ هذا ليس بخاصٍّ بثلَّةٍ من النَّاس لها إمكانات خاصَّة في أصواتِها ، فكأنَّ كلَّ قارئٍ يحسن أداءَ العربيّة يملك أن يتغنّى .

وكأنّـي أيضًا أستشعر منْ أمر سيّدنا رسولِ الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ إشارةً إلى أنّ للإيمان بالقرآن أثرًا في تحقيق فاعليّة هذا التَّغنّي المزيِّن القرآنَ في الصُّدور، فذلك الإيمان يصبغ ذلك الجرسَ والإيقاعَ بلونٍ

= وكـذلك تسـمع ابـن سـلام الجمحـي (ت : ٢٣٢هـ) يقـول عـن خلـف الأَحْمَر (ت:١٨٠هـ تقريبًا) :

«اجْتمع أَصْحَابنَا أنه كَانَ أفرس النَّاس بِبَيْت شـعر وأصـدقه لِسَانا ، كُنَّا لا نبالى إِذا أَخذنَا عَنهُ خَبرا أَو أنشدنا شعرًا أَن لا نَسْمَعهُ من صَاحبه» ..

طبقات فحول الشعراء . ٢٣/١ ، فقرة : ٢٩ . محمد بن سلام بـن عبيـد الله الجمحـي (ت: ٢٣٢هـ) تحقيق : محمود محمد شاكر . نشر : دار المدني ـ جدة .

أرأيت إلى قوله : «كُنَّا لا نبالى إِذا أَخذنَا عَنهُ خَبرا أَو أنشدنا شعرًا أَن لاَ نَسْمَعهُ مـن صَاحبه» هو بالغ الدلالة على عظيم اقتدار الشاعر المبدع على إنفـاذ معانيـه النّفسـية من خلال منهاج إنشاده ، وأن خلفًـا كـان قـادرًا علـى أن يفقـه هـذه المعـاني النفسـية القائمة في إيقاع القصيدة ، فيؤديها أداءً يعصم هذه المعاني من أن تـزول أو تحـول ، وهذا لايكون إلامن عظيم الفهم للقصيدة ، فالعبارة بالغة الرّوعة في الكناية عن اقتدار حلف على الفهم ، وهذا ما سيق له القـول سـوقًا أصـليا، ويفهـم منـه أن الشـاعر لأنـه المؤمن والفاقه هو الذي من شأنه أن يكون الأقـدر علـى إيصـال معانيـه النفسـية عـن طريق الأداء المصور .

منه ، فعلَى قدر ما في فؤادِ المتغنِّي مِن الإيمانِ بالقرآن والالتزام بهديه يكون نصيبُه مِن تزيينِه فِي أفئدةِ سامعيه .

وهذا وجهٌ من وجوه الإعجاز ، فأيُّ بيانٍ يتنوَّع عِظمُ قدر إعجازه في صدور متلقيه بتنوّع إيمان مَن يتغنَّى بِه ، ذلك لا يكون لأيِّ بيانٍ غيرالقرآن .

هذا التَّجاوب الَّذي يحمل عليه المتلقّي حين يصغِي لهذا التغنّي ، فلا يملك إلا أن يتغنّى كما كان الكون يتغنّى مُنزِّهًا خالقه حين كان سيّدنا داود عليه السلام يتغنَّي بالزّبور إنّما هو أثرٌ فعيلٌ من آثار التَّغنىّ .

وهذا يفهم أنّ الأداء وعماده «الجرسُ» و«الإيقاع» لهما مِن الأثر في إيقاع المعاني في الأفئدة وتمكينها ما هو جديرٌ بأن يحرصَ عليْه كلّ مسْلمٍ ؛ إنّه مِن النّصِيحة لكتاب الله ـ تعالَى ـ وللمسلمين .

وروى الشيخان البخاريّ في «فضائل القرآن» وفي «التّوحيد» ومسلم في صلاة المسافرين من صحيحهما بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَبْلُغُ بِهِ النَّبِىَّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ : «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَىْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِىٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»[1] .

وفي كتاب «إقامة الصَّلاة» مِن سنن ابن ماجه بسنده عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : «لَلَّهُ أَشَدُّ أَذَنًا إِلَى الرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ».

---

(١) يحسُن الرجوع إلى كتاب : مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٧/٢٦٦-٢٦٩ . تأليف : أبو الحسن المبارك فوري : عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد ابن أمان الله الرحماني (ت : ١٤١٤هـ) إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء ـ الجامعة السلفية ـ بنارس الهند ، ط . الثالثة ، ١٤٠٤ هـ .

وفـي الكتاب نفسـه عَـنْ عَـبْـدِ الرَّحْمَنِ بْـنِ السَّائِبِ قَالَ قَـدِمَ عَلَيْنَا سَعْدُ ابْـنُ أَبِى وَقَّاصٍ ﷺ وَقَدْ كُفَّ بَصَرُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَنْ أَنْتَ فَأَخْبَرْتُهُ . فَقَالَ مَرْحَبًا بِـابْـنِ أَخِـى بَلَغَنِى أَنَّـكَ حَـسَـنُ الصَّـوْتِ بِالْقُرْآنِ سَمِـعْـتُ رَسُـولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ يقول : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحزْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا فَإِنْ لَـمْ تَبْكُوا ، فَتَبَاكَوْا ، وَتَغَنَّوْا بِهِ ، فَمَنْ لَـمْ يَتَغَنَّ بِهِ ، فَلَيْسَ مِنَّا »[1].

وفي هذا إعلامٌ بعظيم رضوان الله ـ تعالى ـ بهذا التّغنّي ، وفيه حثّ على الحرصِ عليه ، ولولا أنّ فيه مِن النّفع للعبادِ ومِن الحثّ لهم على الإقبال على الكتاب والاهتداء بِه ما كان لذلك مِن الفضلِ ما كان .

وهذا يحمل على الاعتناء بمدارسة ما يحقّق هذا التّغنّي المُزيّن في الصُّدور كتابَ الله ﷻ تزيينًا يجعلها ألزمَ بهديه ، فتستغنِي بِه عن كلّ تغنٍ[2] .

---

(١) لا يفهمن أحدٌ أن من لم يتغن فليس بمسلم، وأن عدم التغني ممـا يخـرج المـرء عـن الإسـلام ، بـل مـن معانيـه أنـه ليس على ما يحسن به أن يكون عليه من سمت النّبي ـ صَلّى الله وسلم عَليْـهِ وعَلَى آلِه وَصحبه ـ في أداء القـرآن ، واستثمار هـذا الأداء في تمكين المعنى في أفئدة السامعين ، هذا نهج في التَّحفيـز والتشوير والإغـراء بالفعـل . فليس أشـد تنفيراً مـن تـرك التّغني لمن استطاع مـن أن يـوصـم أنـه ليس مـن الـنبيّ ـ صَلّى الله وسلم عَليْـهِ وعَلَى آلِه وَصحبـه ـ في هديه .

(٢) جاء في صحيح البخاري « فضائل القرآن» أن سفيان بن عيينة فسـر قولـه : « يتغنـى» بأنّـه يستغني به ؟ وممّا يستغني به التّغني بالقرآن عن التّغني بغـيره ممّـا ألـف النّـاس قبل نزول القرآن . ولذا كفّ سيدنا لَبِيد بن ربيعة بن مالك العامريّ (ت : ٤١هـ) عـن قول الشّعر بعد إسلامه استغناء عن التغني بالشعر بالتغني بالقرآن .

والتَّغنِّي المسترضَى هو ما يزيّن القرآن ويحسّنه في صدور سامعيه ، أمَّا مـا يشـغلهم عن فقهه والاعتبار بما فيه من الهدَى ، فهو مشغلة للنَّاس عن القرآن ، وكـأن في هـذه المشغلة شوبًا من جريرة الصَّدِّ عن القرآن ، فعيار استطابة التّغني هو مقدار ما يحققـه هذا التّغنّي من الانشغال بالقرآن عمّا عداه .

وهذا الأثر قد يكون أظهرَ وأسرعَ إدراكًا من الأثر الموضوعِيّ المتعقَّل ، كما نراه في موقف غير قليل من أصحاب الفطر والحسّ المتيقِّظ ممّن لا يفقهون أصول البيان بالعربيّة ، وهم يستمعون ترتيل القرآن الكريم ، فيتأثرون بما يسمعون ، ولا يفقهون أثره الموضوعيّ المتعقَّل(1) .

وهذا أيضًا هادٍ إلى أنّ من سبل حسن الفهم حسن التّلاوة والتّرتيل والتغنّي ، فذلك ممّا يؤدّي فقه المعنى المؤدِّي إلى حسن التزام هديه أمرا ونهيًا ، ولن يتحقق لبيان أن يرتّل وأن يتغنّى به إلاّ إذا كان نسقه ونظمه وجرس كلماته وموقع معانيه غنيًّا بمقومات الإيقاع وأنواعه وألوانه المتعدِّدة ، وهذا ما تحقّق للقرآن الكريم ، فلا يشاركه فيه بيانٌ آخرُ(2) .

لذا يمكن القول بأنّ «الجرس» و«الإيقاع» فيه عنصرٌ رئيسٌ من عناصر البيان المنتج المعنى النّفسيّ للقرآنيّ فى قلب المتلقِّي ، وهو أظهر عناصر ذلك البيان وأقربها إلى الإدراك إجمالاً ، وإن يكن إدراكُه على التَّفصيل والتّحليل

---

(1) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٤٥-٢٤٧ لمصطفي صادق الرافعي . المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط . الثامنة ، ١٣٨٩هـ .

(2) يقول المستشرق الفرنسي ريسلر : «.. روعة القرآن في أسلوبه ، فقد أنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال . ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية . ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكّن من تذوّق جمله وقوته وسمو صياغته .
ويخلق نثره الموسيقى والمسجوع سحرًا مؤثرًا في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة ، فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمداً ﷺ كان ملهماً بجلال الله وعظمته» .
كتاب الحضارة العربية ص٣٠ ، ٣١ . تأليف : جاك . س . ريسلر . ترجمة : غنيم عبدون . مراجعة : أحمد فؤاد الأهواني . الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة .

والتَّفسير غير قريب ، ولا يسيرٍ في كثيرٍ مِن صوره ممًّا يجعل المرءَ يحتاج في إدراكِهِ إلى لقانية وحسٍّ مرهفٍ وأذنٍ واعيةٍ .

والّذي هو جليّ أنّ ما نزل من القرآن الكريم في مكّة وكان يقرر أصول العقيدة بالقصد الأوّل ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، قد اتسم بظهور القيم الصّوتية من الجرس والإيقاع في تكوين صورة المعنى وتشكيلها ؛ لما يملكه الجرس والإيقاع من قدرة على النفوذ في حنايا القلوب ، وذلك مردُّه إلى الميل الفطريّ للإنسان للإيقاع ، فقد جبلت النُّفوس النّاطقة على إدراكه ، والارتياح والطرب بإدراكه[1]. في ما تسمعه أذنه منغومًا تجاوب مع حركته وحركة الحياة في داخله وخارجه ، ذلك أنَّ هنالك تلازمًا بين الحياة والإيقاع ، فليست هناك حياة لا إيقاع فيها .

وهذا أمرٌ لا يكادُ يغيمُ على كلِّ مَن ألقى السَّمعَ لِما نزل من آيات الذكر الحكيم فِي العهد المكيّ .

وليس معنى ذلك خلاء ما نزل من الآيات في العهد المدنيّ إلى الإيقاع ، بل هو قائمٌ فيه ، ولكن قد يكون لطيفًا ، وأقلَّ ظهورًا ممًّا هو في نظيره من التّنزّل في العهد المكيّ .

وهذه الحقيقة الّتي لا يمكن التّوقّف في التّسليم بها فضلا عن إنكارها وجحدها دليلٌ على ما للقيم الصّوتية : جرسًا وإيقاعًا من أثر في إيصال المعنى إلى القلب وتقريره فيه ليبعث صاحبه إلى ما يراد منه ، وهذا ما جعل المكذّبين بالقرآن الكريم في مكّة يتناصحون بألا يستمعوا إليه ، وأن يحرصوا على أن يلغوا فيه لعلّهم يغلِبون .

---

(١) ينظر : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ٥٠٢ أبو محمد السجلماسيّ ، تحقيق : علال الغازي ـ ط : مكتبة المعارف ـ المغرب ، ١٤٠١ هـ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾

(فصلت:٢٦) .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (هود:٥) .

القرآن الكريم في العهد المكيّ إذن طابق بين مكوّنات صورة المعنى ومقتضيات السّياق والأغراض الّتي يساق لها الكلام ، وطبيعة القوم النَّازل فيهم القرآن الكريم في ذلك العهدِ ، فجعل للجرس والإيقاع مكانًا عليًا في تكوين صورة المعنى وتشكيله فيما تنزَّل من القرآن في ذلك العهد المكيّ .

فإذا اقتضَى المعنى والسياق والمغزى شيئًا من عَلِيّ النغم وصَفِيّه ، ولم يعمل المتكلم على الوفاء بذلك الحقّ كان ذلك من عُقُوق المعنى وإدخال الوَحْشَة عليه ، في شبيهٍ بما يُنسَب إليه المتكلف للتَّجنيس المستكْرَهِ ، والسجع النَّافر[1] .

* * *

مجال الإيقاع اللّغوي .

البناء اللغويُّ القائم في سياقه الممتدّ يرتكز على أساس من علاقة التَّناظر والتَّقابل بين عناصره الجزئيَّة ووحداته الكليّة ، وهذا الأساس هو روح « الإيقاع » لأنَّه كما تبيَّن نظام يعتمد التَّناوب بين العناصر والوحدات المتناسبة والمتشابهة والمتقابلة ، ممّا يحقق لها خاصيّة التّردّد المتطهّر من عوامل الملل .

---

(١) ينظر : البيان والتبيين . ١/٢٨٨ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، وأسرار البلاغة . ص١٤ ، نسخة شاكر ، ومدخل إلى كتابي عبد القاهر ، ص ٧٠ .

وهذا يجعل الإيقاع فيه نوعيْن كليَّيْن : إيقاع صوتي ، وإيقاع معنوي .

الإيقاع الصوتيّ ينشأ من أصوات الحروف والحركات فى الكلمة ، ومن مقاطع الكلمة ومن اختيارها ومن تنضيد الجملة من كلماتٍ ، وما فيها من حركاتٍ ومدَّات منسُوقة ، ومن منهج التَّركيب ، ومواقع الكلمات ، ومن طول الكلمات والجمل وقصرها ، ومن مقاطع الجمل وفواصلها ، ومن الوقف والسكتِ في الأداء ... كلُّ ذلك روافد رئيسية يستجمع منها الإيقاع الصّوتيّ .

وقد هدى « عبد القاهر » إلى أثر اختيار مواقع الكلمات فى عزف إيقاعات البيان وهو بصدد التقديم لباب «التقديم والتأخير» ، يقول : «هو بابٌ كثير الفوائد جمُّ المحاسن واسع التَّصرّف بعيدُ الغايةِ لا يزالُ يفترُّ لك عَن بديعةٍ ويُفضِي بِك إلى لطيفةٍ ، ولا تزالُ ترَى شعرًا يروقُك مسمعُه ، ويلطفُ لديك موقعُه ، ثمَّ تنظرُ ، فتجِدُ سببَ أن راقَك ولطف عندك أن قدّم فيه شيْءٌ وحوّل اللفظ عَن مكانه إلى مكان»[1] .

فى قوله : «يروقك مسمعُه» آية على أنّ التَّقديم والتَّأخير رافدٌ من روافد الإيقاع الصّوتيّ للعبارة ، وأبين من هذا ما تراه من تحليله لقول ابن المعتز :

وَإِنّي عَلَى إِشْفَاقِ عيْنِي مِـنَ العِـدَا ... لتَجْمَحُ مِنّـي نَظْـرَةٌ ثُـمَّ أَطْـرِفُ

وقول سبيع بن الحطيم :

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعابُ الحَيِّ حِينَ دَعَا ... أنْصَارَهُ بِوُجُوهٍ كالدَّنَانيرِ

فأبان أن ما تراه من الطّلاوة والظَرف والحسن والحلاوة والأريحيّة والنّشوة إنّما يأتيك من مواقع الألفاظ واختيارها واختيار هيأتها ، وما الطلاوة والحلاوة إلاَّ من حسن إيقاع الكلام[2] .

(١) دلائل الإعجاز ، ص ١٠٦ ، فقرة ٩٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٩ ، فقرة ٨٩ .



يمكنك أن تصغي إلى أصوات الغنّة في بيت ابن المعتز : « النّون » و« الميم » وتوزيع صوت « العين » في الشّطر الأوَّل منه ، مضافًا إلى ذلك أصوات المدّ في هذا الشّطر ، وقد تكرّرت خمس مرَّاتٍ ممّا يحدث رنينا وتصويتًا عليّا فِي الأذن ، يتلاءم مع ما يموج في صدر الشّاعر .

وفي بيْت سبيع : تصغي إلى أصوات « الحاء » و« العين » وهي حلقيّة ، الأوَّل مهموسٌ والثَّاني مجهورٌ ، وأصوات المدّ وقد تكرّرتْ ثماني مرَّاتٍ ، ممَّا يبعث جهارة الرَّنين ، وقد وزّعت الأصوات توزيعًا متساوقًا ، فاستمع إلى المد وموقعه في « سالت ، شعاب ، حين ، دعا ، أنصاره ، بوجوه ، كالدنانير » وهذا المدّ يمنح نفس المترنّم امتدادًا كامتداد سيلان أنصاره المُشْرِق في النَّفس بهجةً ، وهذه العين الموغلة بجهارتها في الحلق والأذن أيضًا تمكن النّغم في نفس المتلقي ، وقد وزعت على مساحة الترنّم في الشَّطر الأوّل ، فـ« السّكون » الذي في « تاء » سالتْ ، وما فيها مِن همسٍ يمهد لانطلاق العين في « عليه » ، ثُمّ « الكسرة » بما فيها مِن جهارة وخفض تستريح النّفس معه تمهّد لصوت العين المردف بالامتداد ، وكأنّه يصوّر لك امتداد هذه الشّعاب ، وتأتى كذلك « الفتحة » من قبل « العين » المردوفة بما هو من جنس ما قبلها « الفتحة » و« الألف » في « دعا » كلّ ذلك حين تصغِي إليه يقيمُ في قلبك تناغمًا مبهِجًا يصوّر لك بهجة إقبال أنصاره عليه بوجوه كالدّنانير صفاءً وإشراقًا ، وبعثًا للرَّاحة والطّمأنينة ، وقد ساعد على ذلك نظم البيت ، فانظر كيف قدم قوله « علَيْه » ، وقدّم الظرف « حين » وأخر المتعلق بسال « بوجوه ... » ، وكيف أنّه أسند الفعل « سال » إلى الشِّعاب ، وكيف أنَّه أضاف الشّعاب إلى الحيّ ، بكلّ ما تحمله هذه الكلمةُ مِن فيض الحركة المتساوقة مع الحركة في « سالت » ، وهي حركة حياة اشتق منها قوله : « الحيّ » وغير هذا لا يخفى عليك في البيت .

فإذا أنت نَسجت كلماتِ البيتِ نسجًا آخر لا يخرج علَى قواعد نحو العربية وسمتها من نحو : سالت شعاب الحى عليه بوجوه كالدنانير حين دعا أنصاره . كما يقتضِي ظاهرُ البِناءِ اللّغويِّ ، فقد ذهب الّذى كنتَ تجدُ مِن حسنٍ وحلاوة وأريحيّة ونشوةٍ ، وفِي هذا دَلالةٌ على أنَّ النَّظمَ وإنْ كان عمودَ بلاغة الكلام ، فإنَّه أيضًا معه إيقاعٌ جالبٌ حسنًا وحلاوةً ونشوةً وأريحيَّةً تترع النّفسَ بمحبّةِ الحياةِ ، فإذا ما أحبّتها عمَّرتها ، ونفَت القبحَ عنها ، وفسطاطُ القُبح : « الباطل» و« الشَّرّ» ، وفسطاطُ الحسن : « الحَقُّ» و« الخير» .

روى مسلمٌ في كتاب « الإيمان» من صَحيحه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ عَنِ النَّبِىِّ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » . قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً .

قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[(١)].

وأنت في القرآن تجِدُ ما هو أنبلُ مِن هذا التّناسقِ والانسجام . يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ

---

(١) الجمال الذي يحبه الله ﷻ هو الجمال الذي يتصاعد بك إن تأملته من طور الإنسانية الآنس بالنعمة الناسي المنعم بها إلى طور الآدمية المشتغلة في النعمة للتزلف بها إلى المنعم بها، فهو جمال متولّد من الجلال .

وهو ما تراه في نعت القرآن المرأة الصالحة بقوله تعالى :

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء: ٣٤) .

والجمال عند أهل الأرض يقذف بالمنشغل به في درك الحيوانيةِ ، وقد قالت العرب قديمًا : إياكم وخضراء الدمن المرأة الحسناء في المنبت السوء . فمقاييس الجمال في الإسلام غيرها مقاييسه عند الَّذين رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا .

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ (القمر:٤-٧) .

تصوِّر هذه الآيات مشهدَ البعث مِن القبور ، وهو أهونُ مشاهد يوم القيامة هولاً ، وبرغم مِن ذلك حين يُصْغِي الفؤادُ المُعافى مِن داءِ الشُّبهات والشَّهوات والغفلات يكاد ينخلِع مِن شدَّةِ ما يتصوَّره الآيات. يقول سيد قطب : « وهو مشهدٌ مِن مشاهدِ ذلك اليومِ ، يناسبُ هوله وشدَّته ظِلال السُّورةِ كلِّها ، ويتناسق مع الإرهاص باقتراب السَّاعة ومع الإنباء بانشقاق القمر ، ومع الإيقاع الموسيقيّ في السُّورة كذلك ! وهو متقاربٌ سريعٌ . وهو مع سرعته شاخصٌ متحرِّكٌ ، مكتمِل السِّماتِ والحركاتِ : هذِه جموعٌ خارجةٌ مِن الأجداثِ في لحظةٍ واحدةٍ كأنَّهم جرادٌ منتشرٌ ـ ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصوّر المنظر المعروض ـ وهذه الجموع خاشعةٌ أبصارها مِن الذلّ والهول ، وهي تسرع في سيرها نحو الدَّاعي ، الَّذي يدعوها لأمرٍ غريبٍ نكيرٍ شديدٍ لا تعرفه ولا تطمئن إليه ، وفي أثناءِ هذا التّجمعِ والخشوعِ والإسراعِ يقول الكافرون : ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (القمر:٨).. وهي قولة المكروبِ المجهودِ ، الَّذي يخرج ليواجه الأمرَ الصّعيب الرّعيب ! فهذا هو اليوم الّذي اقترب ، وهم عنه معرِضون ، وبه يكذبون. فتولَّ عنهم يوم يجيء[(١)] ودعهم لمصيرهم فيه وهو هذا المصير الرَّعيب المخيف »[(٢)] .

تدبَّر هذا النّسق الصّوتيّ البادِي في فواصل الآيات ، وكيف أنَّ فواصلَ الآيات معتلّقة تركيبيًّا بما قبلها وما بعدها .

---

(١) كأنه يذهب إلى أن « يوم يدع » متعلق بقوله « فتول ... » والأظهر أن قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ خاتمة قول ، فالوقف عليه « تام » ويستأنف الكلام بقوله « يوم يدع » وهو متعلق بقوله : « يحرجون » أو معمول لفعل محذوف تقديره اذكر .

(٢) في ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق ٦/٣٤٢٩ .

ولو أنّك أردت في غير القرآن أن تنسقَها ، كما يقضي ظاهرُ النّظم لقلت : يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ خُشَّعاً أَبصَارُهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ .

(أو) يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ خُشَّعاً أَبصَارُهُمْ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ستجد أنَّ فيضًا مِن المعاني النَّفسيّة قد ضاع ، وفقد البيان رونقه وبهاءه ، وأنت لم تفعل غيرَ أنّك أقمت الكلماتِ والجمل مقاماتها الّتي يقتضيها ظاهر أصل النّظم ، فحقَّ أنّك وجدت سبب أن راقك ما في النَّظم القرآنيّ ولطف عندك أن قدّم فيه شيْءٌ وحوّل اللفظ عن مكانه إلى مكان ، كما يقول عبد القاهر في تقدمة فصل التّقديم والتّأخيرفي كتابه «دلائل الإعجاز» ، ومن ثَمَّ يَجْمُلُ بنا ألاَّ نقصرَ أثر نظم البيان العالي فضلا عن العَلِيِّ على الأثرِ الموضوعِيّ المتعقِّل الّذي يمكن إدراكه وضبطه ووصفه والإبانـة عنه ، بل علينا ـ فريضة تدبّريّة تذوقيَّة ـ أن نجمع إليه الأثر الانطباعيّ الَّذي نشعر به وندركه ، ولا نضبطه ، ولا نتمكّن مِن وصفه ، والإبانة عنه كالأثر النَّفسيّ الَّذي ندركه مِن خلال جرس الكلام وإيقاعه ، وهو لا يقلّ أهمّية في تحقيق التَّثقيف النّفسِي لمنْ يتلقّى الأثرَ الموضوعيّ المتَعَقّل .

وإذا ما كان علينا ألاَّ نرغبَ عن القولِ به ؛ لأنّه حقيقة قائمة في البيان ، فعلينا ألاَّ نجزم بأنّه أثرٌ أجرد ، لا يصاحبُ أثرًا موضوعًا متعقَّلا ، لأنّ البيان الَّذي نحن بصدِده بيانٌ وصفه المتكلم به بأنّه كريمٌ مجيدٌ .

وقد جاء عن الزَّمخشريِّ فيما نُقِلَ عَن كشافِه القديم قوله : لا تحسنُ المحافظة على الفواصل لمجردها إلاَّ مع بقاء المعاني على سردها ، على المنهج الذي يقتضيه حسن النّظم والتآمه ، فأمَّا أن تهمَل المعاني ، ويهتمّ

بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه ، فليس من قبيل البلاغة؟[1].

وهذا ليس تقليلا مِن شأن الأثر النَّفسيّ الّذي يتولَّد مِن مراعاة الفواصل بلْ هو تعظيمٌ لمكان البيان القرآنِيّ العَلِيّ ، فالأعلى أن نشير إلى أنَّ إدراكنا للأثر النّفسيّ للجرس والإيقاع أظهر وأقرب وآنس للنفس ، وأنّه قد يكون لمتفرّسٍ نفوذٌ إلى ما لم ندرك مِن الأثر الموضوعيّ المتعقّل المصاحب له في لطف .

وأنت ترى شيئًا حسينًا من عناية أهل العلم بتأثير الإيقاع الصّوتي في تحسين المعنى وتقريره في النّفس في ما جاء به أبو زكريا : يحيي بن زياد الفراء» (ت: ٢٠٧) عند نظره في قول الله ﷻ :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ (النازعات:٦-١٤) .

جاء قوله ﷻ : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴾ متفردًا في قراءة أهل المدينة والحجاز والبصرة بزنة «فَعِلة» ، وجاءت قراءة عامة قراء الكوفة على زنة : «فاعِلة : ناخِرة» مشاكلة للفواصل قبلها[2] .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للجلال السيوطي ٣/٣١٣-٣١٤ ـ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : المشهد الحسيني بالقاهرة .

(٢) يقول ابن مهران : «قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، وروح وزيد عن يعقوب ، ﴿ عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴾ بغير ألف .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ، وحمزة ، ورويس عن يعقوب ، وخلف (عِظَامًا نَاخِرَةً) بالألف . =

يبين الفرّاء أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ قرأ (ناخرة) ، وأنّ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قرأ (نَخِرَة) و(ناخِرة) ، ثُمَّ يقول الفراء عَن قراءة (ناخِرة) إنَّها أجود الوجهين في القراءة ؛ لأنّ الآيات بالألف .

ألا ترى أنَّ (ناخرة) مع (الحافرة) و(السَّاهرة) أشبه بمجيْء التَّنزيل ، و(النَّاخرة) و(النّخرة) سواء في المعنى بمنزلة «الطَّامع» و«الطَّمِع» و«الباخل البَخِل» وقد فرَّق بعض المفسرين بينهما ، فقال : النّخرة : البالية ، والنّاخرة» : العظم المجوف الذي تمرّ فيه الريح ، فينخر»[1] .

لتنظر في قوله : «أجود الوجهين في القراءة ؛ لأنَّ الآيات بالألف» ... فهذا منه إعلاء لعطاء التَّوافق في إيقاع النّغم في الصّورة الصّوتية للآيات .

وقد يحسب ناظر أنَّ هذا من ردّ القراءات أو المفاضلة بينهما والقول بالتّفاوت في بلاغة القرآن الكريم .

= واختلف عن الكسائي : فروى أبو عمر الدوري وحمدون عنه (ناخرة) و(نَخِرَةً) بالألف وغير الألف ، لا يبالي كيف قرأ . وروى أبو حمدون وأبو الحارث عنه (ناخرة) بالألف . وروى قتيبة ونصير ﴿نَخِرَةً﴾ بغير ألف» .
المبسوط في القراءات العشر ، ص٤٦٠ ، تأليف أبي بكر: أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ (ت : ٣٨١هـ) تحقيق : سبيع حمزة حاكيمي . مجمع اللغة العربية ـ دمشق . ١٩٨١م .

(١) معاني القرآن . ٣/٢٣١ ، ٢٣٢ ، لأبي زكريا الفراء : يحيى بن زياد بن عبد الله ابن منظور الديلمي (ت:٢٠٧هـ) تحقيق : أحمد يوسف النجاتي ، ومحمد علي النجار ، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي . نشر : دار المصرية للتأليف والترجمة ـ مصر . ط . الأولى . معاني القرآن وإعرابه ، ٥/٢٧٨ ، ٢٧٩ ، لأبي إسحاق الزجاج : إبراهيم ابن السري ابن سهل ، (ت: ٣١١هـ) تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ـ بيروت . ط . الأولى ، ١٥٠٨هـ ، وانظر معه حجة القراءات . ص ٧٤٨ ، لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد ، أبو زرعة بن زنجلة (ت: ٤٠٣هـ) تحقيق : سعيد الأفغاني . دار الرسالة .

لو نظرت في مقال «الفراء» لرأيت أنّه يقول : «أجود الوجهين» فهو لم يحكم بصحة أحدهما دون الآخر ، بل قرَّر أنَّ قراءةَ (ناخرة) بفيوض المعنى على القلب من قراءة ﴿ نَّخِرَةً ﴾ أيْ أنّ الصُّورة الصَّوتيّة لقراءة (ناخرة) يتوافد منها على القلب من المعاني أجودها بما حملته من الانسجام في الجرس والإيقاع .

وهذا ما لا يمكن أن تدفعَه ، ولا سيّما أنّه يذهب إلى أنَّ المعنى المتعلّق من «ناخرة» «نخرة» سواء ، فلم يبق إلاّ ما يتوافد عليك من الأثر الانطباعيّ مِن الصّورة الصَّوتية المتناغية مع ما سبقها وما تلاها .

ومن هنا ندرك أيضًا وجهًا مِن مقال غير قليل من أهل العلم بالبيان بأنَّ الحذف لمراعاة الفاصلة ، وأنَّ التّقديم لذلك على نحو ما جاء عن «ابن الصّائغ (ت:٧٢٠هـ) في كتابه «إحكام الراي في أحكام الآي» من أنّ المناسبة أمرٌ مطلوب في اللغة العربية ، يرتكب لها أمورٌ من مخالفة الأصول .

وقد جاء عن ابن الأثير أنّ التَّقديم في قول الله ﷻ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) لمكان نظم الكلام ولمراعاة حسن النّظم السّجعيّ[١] .

الاقتصار على هذا الأثر النّفسيّ للقيم الصوتية في البيان القرآني غير عَلِيّ القولُ به ، بل هنالك ما يصاحبه مِن الأثر الموضوعيّ المتعقل الذي لا يحسن البتة الغفلة عن صحبته له ، وإن كان لطيفًا في بعض المقامات .

* * *

وأما النوع الثاني : إيقاع المعاني فإنَّ ذلك بادٍ فيما يكون بين معانى المفردات فى العبارة وبين أنماط التراكيب فى الجمل ، وما بين الفصول

(١) المثل السائر لضياء الدين ابن الأثير ـ ٣٦/٢ تحقيق : محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت .

والمعاقد من تواز وتقابلٌ، وترديدٌ ، وذلك فى العربية ظاهر شائعٌ ، وهو فى القرآن الكريم جدٌّ بديع ، فقد وصفه الله ﷻ بأنَّه كتاب متشابهٌ مثانٍ :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر:٢٣) .

ويأتي قوله ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ مبرزًا وصف الإحسان الحامل إلى القلب معنى الأفضلية من جهة صيغته ، ومعنى التفضّل من جهة مادته ، كما سبق أن أشرت في موضع متقدم إلى معنى الحسن .

ويهدي البيان بقوله «الحديث» إلى تلاحظ هذا النعت مع قوله «نزّل» ، وهذا ما يكشفه لك ويقربه إلى قلبك أو يودعه فيه قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ (الإسراء:١٠٦) فانظر قوله (فرقناه) وقوله (على مكث) وقوله (نزلناه تنزيلا . وجاء قوله : (كتابًا) منعوتًا بنعوت مهمة جدًّا تكشف عن حقيقة هذا الكتاب الذي هوأحسن الحديث ونعته : مُتَشَابِهاً ـ مَثَانِيَ ـ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ـ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ . هذه النّعوت الأربعة الأول والثاني منها : متشابها ، (مثاني) كالسبب ، والثالث والرابع : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر:٢٣) كالمسبب ، كونه متشابهًا ومثاني يثمر اقشعرارَ قلوب الذين يخشون ربهم ، ولين قلوبهم وجلودهم .

«التشابه» يشير إلى نعت «التّوازن» و«التّوازي» الحسّي والمعنويّ في البيان القرآني ، وهذا ركن عظيم من أركان الإيقاع الحسيّ والمعنوي الّذي

نشعر به في ترتيلنا ، وإن عجزنا أحيانًا كثيرة عن عقل ما نشعر به ووصفه ، فيملأ قلوبنا بجلاله ممّا يفيض على جوارحنا وجلودنا ، فتقشعرّ رهبةً مِن جلالِه الّذي أثمرته الخشية : «الخوف عن علم» فإذا ما قمنا في تلك المنزلة العليّة من استشعار الجلال والرّهبة انشرحت الصُّدور ، ففاض النّور من ربنا جَلَّ جلاله ، فتلذذت قلوبنا وجوارحنا وجلودنا ، فلانت من قسوتها التي كانت عليها من قبل .

والتَّثنية المقرونة بالتّشابه تشير إلى نعت التّصريف المَبْنِيِّ على التنوع المقيم حجازًا بين النّفس والملل ، فلا تشبع منه العلماء ، فالتّثنية التي لا تقوم على التّكرار الأجرد ركنٌ عظيمٌ من أركان الإيقاع الحسيّ والمعنوي الّذي نستشعره في البيان القرآنيّ .

وممّا يقوله أهل العلم في معنى «مثاني» أنَّ التَّثنية أن «تثنّى فيه القصص والمواعظ والأحكام والحكم ، مختلفة البيان فِي وجوه مِن الحكم ، متفاوتة الطّرق ، ففي وضوح الدّلالات ، من غير اختلاف أصلاً في أصل المعنى ، ولا يملّ مِن تكرار ، وترداد قراءته وتأمّله واعتباره مع أنَّ جميع ما فيه أزواج مِن الشَّيْء وضدّه : المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصِي ، والرَّحمة العامّة والرَّحمة الخاصَّة ، والجنّة والنَّار، والنّعيم والشّقاء ، والضَّلال والهدَى ، والسّرّاء والضّراء ، والبشارة والنّذارة ، فلا ترتب على شيءٍ من ذلك جزاء صريحًا إلاَّ ثُنّي بإفهام ما لضدّه تلويحًا ، فكان مذكورًا مرَّتين ، ومرغبًا فيه أو مرهبًا منه كرّتين»[1].

الآية زاخرة بالمعاني الإحسانيّة ، وممّا يزيدك اقترابًا من الشّعور بها أن تنظرَ في الآية السّابقة عليها ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي . ٦/٤٣٨ .

رَبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الزمر:٢٢) وعلاقتها بها .

يمثل التّرديد وتصريف المعاني مظهراً مِن مظاهر إيقاع المعاني في القرآن الكريم ، وهو فوق ما يحدثه ممّا يسمّى بالتّماسك النّصيّ هو يحدث أيضًا في القلب نشوةً وبهجةً ، كالّتي تحدث مِن سماع الإيقاع الصّوتِي ، وأكثر ما ترَى هذا في تصريف الدّلالة على المعنى الواحد ، كما تراه في الدّلالة عليه بالمنطوق حينًا وبالمفهوم والتّلويح حينًا والتّصريح حينًا آخر ، فيعرض عليك المعنى أكثر من مرّة في أكثر من معرض ، ليتمكّن في القلب للمتلقى ، وهذا يكثر في المعاني الرّئيسة في باب العقيدة والشّريعة .

ومن إيقاع المعاني ما تراه فى ما بينها مِن تقابلٍ وتناظرٍ وتوازنٍ وتكافؤ ، وردِّ عجزٍ على صدرٍ معنويّ ، وجمعٍ وتفريق وتقسيم إلى آخر تنسيق المعاني ومراعاة النّظائر ونسج المتقابلاتِ في إطار الجملة والمعقد والسّورة ، بل إنَّ سوراً كاملةً قامت على نهج التّوقيع المعنويّ التقابليّ على نحو ما تراه فى سورة «مُحمّد» ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ وفى سورة «الحديد» ، أو منهج التّوقيع المعنويّ التّناظريّ كما تراه فى ما بيْن معاقد سورة «النّحل» ، وما تراه مِن العموم والخصوص بيْن سورتي «النّحل» و«الإسراء» ، فإنّ العلاقة بينهما كمثل العلاقة بين اسمي الله ـ تعالى ـ : «الرّحمن» ، «الرّحيم» ، فسورة «النّحل» إلى اسمه «الرَّحمن» وسورة «الإسراء» إلَى اسمه «الرحيم» . .

فإيقاع المعاني مجاله وسيعٌ ، ألا تراه عمودَ الأمر في توالي السّور من أوّل سورة «الهمزة» إلى آخر سورة «المسد» ، فالإيقاع في ترتيب هذه السّور عموده «التقابل والتناظر» .

جُمْعَة القول :

إنَّ التَّحليل البيانيّ لإيقاع السّورة القرآنية يعمد إلى النّظر فى نوعى الإيقاع الصَّوتيّ والمعنويّ على السَّواء ، فإنَّ أحدَهما ليس أضعفَ أثرًا من الآخر فى إنتاج المعنى القرآنيّ فِى قلبِ المُتلقّي ، وإن يكن إدراك أثر الإيقاع الصَّوتيّ فى ذلك أسرع مِن إدراك أثر الإيقاع المعنويّ فإنّه قد يكون ألطف حين يدقّ ، فيحتاج المرء معه إلى مزيدِ اعتناءٍ ولقانيةٍ وخبرةٍ ودربةٍ .

* * *

المجال الثَّالث
التّحليل البيانيّ لدَلالة الصّورة على المعنى

توطئة :

ليس يخفَى أنّ الكلمات الدَّالة على معانٍ تعتريها تغيراتٌ في صورتها وأدائها وفِي مدلولاتها ، والألسنة ليست سواءً في مقدار خضوعِها لهذه التَّغيّرات ، ولعلّ العربية بفضلِ نزول القرآن هي من أقل الألسنة خضوعًا لهذه التّغيرات الجوهريّة ، فالعربيّ اليوم يفهم ما قاله جدّه من قبل خمسة عشر قرنًا، ومثل هذا يستوجب على القائم لِفقه ما جاء به البيانُ البشريّ الإبداعيّ فيما قبلَ زمن الوحي وزمانه ألاّ يتلقّى الكلم والتَّراكيب ، وفق ما استجدّ فِي زمان التَّلقّي ، والأمر في تلقّي بيان الوحي أوجب(1) .

وممًّا هو واجبٌ أيَضًا ألاَّ يسارع المتلقّي إلى الاحتكام إلى عقله الأجرد ، ومعارفه الخاصّة ، فيؤوّل الكلم والتَّراكيب على غير الحقِيقةِ احتكامًا إلى هذا العقل الأجرد أو إلى تلك المعارف ، فأهل العلم على أنّه لا يُرغَب عن الحقيقة إلاّ حين لا تستقيمُ الحقيقة ، فحيث تقوم الحقيقة لا سبيل إلى غيرها .

---

(1) ممًّا هو فريضة وقتٍ أن يعملَ علماء العربية ، ولا سيّما علماء الدَّلالة والصّيغ والتَّراكيب على بيان مدلولات الكلم والتّراكيب زمن الوحي وما قبله ، ومناظرتها بما استحدث من ذلك في الحاضر خدمةً لطلاب العلم في حسن تلقي بيان الوحي وبيان الإبداع البشري في ما قبل البعثة ، وزمانها .

يقُول أبو الحسن الرُّمانيّ (ت : ٣٨٤هـ) : «كلُّ استعارة حسنة ، فهي توجب بيان لا تنوبُ منابَه الحقيقة ، وذلك أنّـه لو كان تقوم مقامه الحقيقة ، كانت أولى به ، ولم تجـز الاستعارة[1]» . فكما أنَّ الإفهام بالاستعـارة ضرورة لا تُركب تشهّيًا أوتفنّنًا ، فحمل التَّلقّي على غير الحقيقةِ كذلك ضرورة فهمٍ وكلّ ضرورة بقدرها .

وَالْحملُ عَلَى الحقِيقةِ فِي بعضِ الْمَجالاتِ أضعوَنُ لِلقلْبِ عَلَى اتّسَاع رُؤيته وطَرافَتها ، ولا سِيّما حِين يَكُونُ القَولُ فِيما وَرَاءَ الْمَشْهُودِ ، فَعُظمُ مَا لَيْسَ بِمشْهُودِ ، ولا لِلعقلِ البَشَرِيِّ سُلطانٌ عَلَى الإحاطةِ بِه يكُونُ حملُه على الحقيقة أجود عطاءً ، وأنفذ فِي الفؤاد أثَرًا .

المسارعة إلى غير الحقيقة قد يحمل عليه خَور عزمٍ أو تساهلٌ أو تغافلٌ عمًّا هو قائم فيه ، أو نسيان أنّ البيان القرآنيّ إنّما هو بيان الله ـ تعالى ـ للعباد عمَّا يريده منهم ولهم ، وهو بكلِّ شيْءٍ عليمٌ خبيرٌ .

ومن منطق العقلِ الفطريّ أنّ بيان المُبين على قدر علمِه اتساعًا وتغورًا ، والله ـ تعالى ـ في كتابه يؤكّد الإِنباء بأنّـه بكلِّ شيْءٍ عليمٌ ، فكيف يتأتّى للمتلقّي أن يجعل محصولَه العلميّ والمعرفيّ بلسان العربيّة قبل نزول الوحي وفي زمن نزوله هو معيار التّأويل عنده ، فما لا يعلم حقيقته أوّله على غيرها ، وهذا ما لا يليقُ .

الغفلة عن أنَّ القرآن بيان الله ـ تعالى ـ لعباده عمّا يريدُ منهم ولهم ، وعن أنّـه إذا كان الله ـ تعالى ـ ليس كمثله شيْءٌ ولم يكنْ له كفوًا أحد ، فكذلك بيانه ليس كمثله بيانه ، وليس له كفوًا بيانٌ بالغة الخطر في تلقّي هذا البيان .

---

(١) النكت في إعجاز القرآن . ص ٨٦ ، للرماني .

حقُّ هذا البيان على كلِّ قائمٍ ألا يخضع تلقيه لمعارفه الخاصّة ، وعلمه المحدود مَهما حسب ضلالة أنّه بكلِّ شيْءٍ مِن لسان العربية عليمٌ ، فإن من فوق ذلك ما لا يطيقه علمك الخاصّ ، فسيبقَى فيه ما هو طعمة الأجيال القادمة إلى قيام الساعة ، وفق مستحدثات علومهم ومعارفهم وثقافاتهم ، ومهاراتهم في التلقّي ، وأدواتهم ، ليبقَى صالحا لهم ومصلحًا ومعجزًا ما بقيت الحياة ، ومن استغنى في زمانه بما كان من علماء أزمان سبقت دون أن يكون له في زمانه ما يصلِحُه فقد قصّر ، ومن ثَمَّ كان مما لايسترضَى اجترار مقالات الأجداد بدعوى أنه لم يترك الأوّل للآخر ، فهذه مقولة تخذيليّة انهزاميّة لا يصغِي إليها إلاّ مأفونٌ .

حقُّ هذا القرآن أن يستفرغ أهلُه جهدهم الجَمعِيّ لا الفردي في العلم بالدَّلالات الحقيقية للكلم والتّراكيب القرآنية ، وألاّ يبادروا إلى القول بالمجاز إلا إذا اطمأنت عقولهم وقلوبهم من بعد استفراغ الجهد الجَمعيّ التّعاونيّ التّشاوريّ أنّه لا سبيل إلى القول بالدَّلالة الحقيقية للكلمة أو التَّركيب في هذا السّياق .

ثَمَّ اشتكالٌ في مسألة تحليل دلالة الصورة : يحسب غير قليل من طلاب العلم أن البيان البليغ آنس بالدلالة المجازية ، منه بالدلالة الحقيقية ، انطلاقًا من أن الرؤية الشعرية للحياة كونا وإنسانا يناسبها العدول عن الحقيقة من أن الرؤية الشعرية للحياة كونا وإنسانا إنما هي عدول عن الرؤية المعهودة لدَى الآخرين ، وأن الدلالة المجازية عدول عن الدلالة الوضعية (الحقيقة) .

هذا الحسبان إن سمع في مدارسة الكلمة الإنسان الإبداعيَّة ، فالأمر ليس كمثله الكلمة الوحي قرآنا وسنة .

مَن يحسب أنَّ الرَّغبة عن الحقيقة من أنّ الحمـلَ علَيها أبعد عَن بلاغـة البيان ، وأنَّ الأقرب إليها المجاز بمفهومه عند متأخري اللّغويين والأصوليّين والبلاغيّين لا يكاد يستحضر جوهر بلاغة البيان .

ثَمّ مجالات مِن القول في بيان الوحي قرآنًا وسنَّةً لا سبيلَ للمتلقّى إلاّ أن يسلكَ الحقيقةَ في تلقِّيها ، وأعلاها ما كان بيانًا عَن شأن الله ـ تعالى ـ أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه ، ثُمَّ ما كان بيانًا عن أمرٍ مِن أمورِ الدَّار الآخرةِ ، وما كان غيبًا مطلقًا ، كلُّ ذلك مَنْ رَغِبَ عَنْ سلوكِ الحقيقةِ في تلقّيه ، فإنّه الرَّاغب عَن حسنِ الفهمِ ، وكلُّ ذلك لا يعجَز العقل عَن فهم المعنى الحقيقيّ له ، ولكنَّه يعجز عن أن يدركَ الكيفيَّات ، وهو غير مكلَّفٍ بفقهِ الكيفياتِ في هذه المجالاتِ ، هو مكلَّفٌ بفقهِ المعنَى وذلك ممَّا يطيقه العقل إن التزَم بأصول التلقي وضوابطه العواصم .

والله ـ تعالى ـ لم يرتب على العلم بالكيفيات تكليفات عملية ، ولذا لم يكلف بفقهها ، كلّ علم لا يترتب عليْه عملٌ السعي إليه سعي عقيم ، فما العلم إلا للعمل .

* * *

مفهوم دلالة الصُّورة على المعنى :

المفهوم الاصطلاحِيّ للدَّلالة عامّةً يتمثَّلُ فِي أنـّها « كون الشّيْءِ الدَّالّ على حالٍ يَلزم من العلم بِه العلم بشيْءٍ آخر » .

هذا يدخل فيه دلالة أيِّ دالٍّ لفظيٍّ أوغيرِه ، ولمَّا كان القصد هنا إلى الدَّلالة اللّفظيّة فإنّ مفهوم الدَّلالة اللّفظيّة يتمثّل فِي كون اللّفظ بحيث إذا أرسل علم منه المعنى للعلم بوضع ذلك اللّفظ لهذا المعنى وضعًا شخصيًّا أوْ نوعِيًّا .

الدالُّ اللفظيّ قد يكون مفردًا أو مركبًا أيًا كان امتداد تركيبه ، بدءًا مِن الجملة إلى النّصّ .

والمدلولُ هو المعنى سواءٌ كان معنى مفردًا وضع الّلفظ بإزائه وضعًا شخصيًّا متعيّنًا ، أوْ كان المعنى معنًى مركبًا (معنى الجملة) فهو من قبيل الوضعَ النوعِيّ .

وسواءٌ كان هذا الموضوع له الّلفظ هو معنى المنطوق أو لازمه ، وإن تعدّد الّلازم وتنوَّع في علاقته بالمعنى الملزوم .

وأهل العلم ينظرون إلى الدَّلالة من جهاتٍ عدةٍ .

١- من جهة نوع الدّال .

٢- ومن جهة مستوى الظّهور .

٣- ومن جهةِ الوضع الشَّخصيّ للألفاظ والنوعيّ للتّراكيب .

٤- ومن جهة العموم والخصوص .

٥- ومن جهة الإطلاق والتقييد .

أوّلاً : إذا ما نظرنا من جهة نوع الدّال ألفينا أنَّ الدَّال قد يكون «النّظم» أو «معنَى النّظم» أو «لازم النّظم» وبناء على هذا فهنالك مذهبان :

الأوّل : يمثله علماء الحنفية يجعلون الدّلالة بحسب نوع الدّال أربعة :

دلالة عبارة (وهي دلالة النَّظم) ـ دلالة إشارة ـ دلالة اقتضاء ـ دلالة النّصّ .

والآخر : يمثّله سائر الفقهاء يجعلونها نوعين كليين :

دلالة منطوق ودلالة مفهوم : مفهوم موافقة ، ومفهوم مخالفة .

وليست «دلالة العبارة» عند الحنفية هي هي «دلالة المنطوق» عند غيرهم وإن كانا معًا من قبيل (دلالة النَّظم) ، ذلك أنَّ «دلالة العبارة» عند الحنفية

يشترط فيها أن يساق الدَّال إلى المدلول سوقًا رئيسًا ، فالاعتبار عندهم بسياق القصد ومستواه ، فإنْ كان معنى المنطوق مسوقًا له سوقًا تبعيًا فدَلالة إشارة على الرَّغم من أنها معنى المنطوق .

وعلى هذا يكون بعض ما يسمى بمعنى المعنى من قبيل دلالة العبارة ، وهذا إعلاءٌ منهم لِشأن السِّياق والقصد .

وهذا أَيضًا يستوجب أن يكونَ المستمِع واعيًا لسياق القول ، ومقصديّة الإبانة ، ولا ينصرف إلى العبارة وحدها دون الاعتداد بسياق القول ومقصديّة الإبـانة ، وهذا منهم عَلِيّ الشَّـأن . فقوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (البقرة:٢٧٥) حين يتلقى مغفولا عن سياقه يحسَب أنّ النّظم مسوق سوقًا أصليًا لِبيان حكم البيع ، وحكم الرّبا .

الأمر على غير ذلك : سياق النَّظم للرَّدِّ على افتراء المقترفين الرِّبا أنَّ البيع الذي لا يتوقف في حلّه مثل الرِّبا ، جاعلين الرِّبا أصلاً فِي الحلّ، وهو نهجٌ مِن المغالطة يسلكه أحفادهم في كلّ عصرٍ .

جاء قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ مسوقًا سوقًا أصليًا لبيان الفرق بين البيع والرّبا ، وليس لبيان حكم البيع وحكم الرّبا ، وإن كان هذا يفهم بدلالة «الإشارة» فهي دَلالة لزوميّة يُساق البيان إليها بالقصد التبعيّ .

وبيان مستوى الدّلالة قصدًا رئيسًا أو قصدًا تبعيًا في منزلة مستوى نوع الدّليل ، فليس المدلول عليه بصريح البيان القرآن كمثله المدلول عليه بحديث نبويّ غيرمتواترٍ .

ولذا تجد الحنفيّة يفرقون بين ما هوفرضٌ وما هو واجبٌ وفق نوع المستدلّ بِه ، وهذا ينفعنا جدًا في تحليل دَلالة الصّورة على المعنى ، ذلك أنّ الوعي

بمستوَى القصدِ أصِيلا أو تابعًا بالغَ الأهميّة في حسن التَّلقّي عن المُبين ، فما كان ركنًا رئيسًا فِي المراد الإلهيّ العقديّ والعمليّ (الشّرعيّ والأخلاقيّ) لا يبقَى العبد في فسطاط الإيمان والإسلام إلا بتحقيقه ، يكون النّظم مسوقًا للدَّلالة عليه سوقًا أصليًا في مواقع عديدة[1].

وما كان دون ذلك فقد يكون معنى النّظم ولازمه دلالته عليه سوقًا تبعيًّا فهو مقصود ، إلا أنّه قصد تبعيّ لا يتحقّق إلا بتحقق المقصود قصدًا أصليا رئيسًا .

وإذا لم نكن على وَعيٍ بالغٍ بِما بيْن الضَّربين مِن مفاضلةٍ موقعيّةٍ فَإنَّنا قد نزِلّ .

وأمرٌ آخر واجبٌ استحضارُه في مدارسة دلالة الصورة على المعنى يتمثّل في استحضار قول من يذهب إلى التَّفريق بين مصطلحي «الدَّلالة» و«الإفادة»، فهنالك معانٍ لا تفهم باللّفظ ، ولكن تفهم عند اللّفظ ، فهي دَلالة عنديّة ، وهي ما يسمى بـ«مستتبعات التَّراكيب» وهي لا تندرج تحت تقسيم الدَّلالة إلى حقيقة ومجاز .

وهذه المعاني العِندية سياقيّة متنوّعة متكاثرة ، وإذا لم يكنْ في البيان وسياقه البيانيّ والمقاميّ ما يصرف عن فهمها ، فهي معانٍ في بيان الوحي مقصودة. فكلُّ ما يفهم من البيان (بيان الوحي) وفق أصول الفهم وضوابطه ، وليس في الكلام وسياقه القريب والمديد ، المقاليّ والمقاميّ ما يدفعه ، فهو مقصودٌ قصدًا رئيسًا أو قصدًا ثانويًا ، لأنه لو كان غير مراد لا أقيم في سياقه

---

(١) لا يعني هذا أنّه لا يأتي مدلولا عليه تلويحا في بيان الوحي . كلاّ ، بل الأعظم حضوراً مدلولاً عليه تلويحا . فمن السنة الإفهامية لبيان الوحي أنّه ما من معنى جاء تصريحًا إلا جاء في موقع آخر تلويحا ، فهو بيان متشابه مثاني .

وفي الإبانة التلويحية من المعاني التّصعيدية في مقامات القربِ ما لا يدركها إلاّ صفوة في الإيمان والعمل الصالح والزلفَى إلى الله ـ تعالى ـ بالإحسان إلى عباده احتسابًا .

المقاليّ المتَّصل أوْ المنفصل أوْ المقامي ما يصرفُ عنه ، ذلك أنّ هذا مِن حقّ السَّامع على المتكلّم .

وحظّ البلاغة ألاّ يؤتَى المتكلّم مِن قبلِ السَّامع ، ولا يؤتَى السَّامع من قبلِ المتكلّم كما هدَى إليه الحفيد العباسيّ .

وكذلك علينا أن نكونَ على وعي بما سِيق للقول في شأن الكافرين والمنافقين ، وما سيق للقول في شأن العصاة من المسلمين ، فلا يستقيم البتة أن نُنزل ما سيق في شأن الكافرين على العصاة ، ولا يغرّنك أنَّ « النَّظم » أحيانا يمكن أن يؤخذ فريدًا كما يؤخذ المثل ، فينزله بعضٌ على ما لا يصحّ نزوله عليه فهو أقربُ إلى تحريفِ الكلم عَن مواضعه ، فلا يستقيم أن تقول لمن نازعك من المسلمين في أمر ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦) فهذه لا تقال إلا لكافرٍ بيّن الكفر .

ومثلُها ما يتعلّقُ بالعقِيدةِ ليْسَ حسَنًا أنْ تجريه مَجرَى المثَلِ ، فليْسَ كلُّ مَا يَصلُحُ تركِيبًا أن يَجري مَجرَى الْمثل يُتّخذ فِيه ذَلِك ، فَثَمّ ضَابطٌ آخرُ متعلّقٌ بِالسّياق والْمغزَى ، وهذَا أمرٌ بَالغ الأهميّة فِي مراعَاتِه .

* * *

ثانيا : إذا ما نظرنا من جهة مستوى الدلالة ظهورًا وخفاءً فإنّ لأهل العلم نظرًا فِي هذا :

جعل الحنفيّة مستويات الدَّلالة ظهورًا وخفاءً ضربان كلّيان : الدّلالة الظّاهرة ، والخفيّة .

الضّرب الأوّل : أربعة مستويات : الظّاهر ـ النَّصّ ـ المفسّر ـ المحكم .

والضّرب الآخر : الخفيّ ـ المشكِل ـ المجمل ـ المتشابه .

وهذه المستويات كلُّها تندرج تحت مصطلح «البيان» ، فالبيان منه ما هو ظاهرٌ ومنه ما هو خفيٌ ، وما كان خفيًا له ما يتوصل إليْه أهل التلقّي وصولاً آمنًا حتى ما يعرف بالمتشابه ، فليس في بيان الوحي قرآنًا وسنة ، ما لا سبيل إلى الوصول إلى معناه ، فالله ـ سُبْحانَه وَتَعَالَى ـ لا يخاطب عباده بما لا سبيل إلى فقهِه ، لأنَّ الخطابَ بما لا يفقه عبثٌ يتنزّه الله ـ تعالى ـ عنه ، وكذلك سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ لا يخاطب بما لا سبيل إلى فقهه ، فكلُّ ما في بيان الوحي له سبيلٌ إلى فقهِه ، وإن تفاوتت صور البيان جلاءً وظهورًا ، والعباد في تلقّيه متفاضِلون[1] .

وما يعرَفُ عند البلاغيين بـ«علم البيان» هو علم مهمومٌ بدَلالة الكلام على معناه مِن حيثُ مستوياتُ جلائه «علمٌ يعرف بِه إيراد المعنى الواحد بطرقٍ في وضوح الدّلالة عليْهِ» وغير خفيّ أن وضوح الدلالة درجات ، فما هو أدنىً هو أخفَى بالنسبة لما فوقَه وضوحًا . فالنِّسبيّة وضوحًا مقصودةٌ في التَّعريف ..

ومستويات الدَّلالة متعدّدة متنوّعة ، وقصر «علم البيان» على مستوى «الجلاء» دون المستويات الأخر لوجوه الدلالة نظر إلى ضرب يراه البلاغيون هو الأعلى والأولَى بالعنايةِ ، وليس نفيًا لغيره ، وشأن العقل البلاغيّ أنّه أحيانًا يصطفِي ضربًا مِن منهج الإبانة ، فيقصِر النّظر عليه ، فيظنّ أنّه بذلك ينفِي

---

(١) قد يُقال : ما بال ما يُسمّى «الحروف المقطعة» في أوائل السُّور ؟
الّذي أُومنُ بِه أنّ لِهذه الكلم معانِيَ لَمّا تكشف لنا لما أنّه لا يترتّبُ عَلى إدراك معناها عملٌ سُلوكيّ ، بلْ يترتبُ عليْه تمكين إيمان ، وسيأتِي زمانٌ تتوافرُ فِيه المعارف والعلوم بما يكون معينا على كشف معناها، فمعناها سرٌّ بالنسبَةِ لَنا ، وقد ينكشف السّرُّ فِي قَابل الأيام حين يحتاج الناس إليْهِ ، فبعضُ معانِي القرآن ينكشف بمقدار حاجة كلّ زمَان ، ليبقَى لِكلِّ زمان مَا يَخصّه ، وما يُعجزه .
﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت:٥٣) .

ما دونه عمًّا هو بصددِه ، على نحو ما تراه في أسلوب «الفصل» و«الوصل» ، قصروا نظرهم في مبحثِ «الوصل» على ما كان من قبيل عطف الجملة على جملة ليس لها محلٌّ من الإعراب ولا قيد معنوي بالواو خاصة ، فهم لا يقصون الصُّور الأخر ، بل يأخذون ما يرونه الألطف الأحوج إلى مزيدٍ من النّظر والتّأمّل ، وكذلك ماتراه في طريق القصر بالاستثناء قصروا النّظر على الاستثناء المنفي الناقص «الاستثناء المفرّغ» وانصرفوا عن النّظر في سائر صور الاستثناء المتّصل ، لما رأوه من حاجة الاستثناء المنفي النّاقص «الاستثناء المفرّغ» إلى مزيدِ تبصّر لجمعه المعنيين المثبت والمنفي في جملة واحدة على نحو لا يتحقق في غيره من صور الاستثناء المتصل المثبت أو المنفيّ ، وكذلك مذهب السّكاكي في التشبيه التمثيليّ إذ قصره علَى التَّشبيه العقليّ المركّب .

ليس هذا إقصاءً للتشبيه العقليّ المفرد كما عند عبد القاهر أو المركَّب الحِسيّ كما عند الخطيب ، بل هو آخذٌ بما هو الأعلى وأحوجه إلى مزيد لطف في الإفهام من المُبِين والفهم من المتلقّى ، وهو في هذا مستمدّه من إلماع عبد القاهر أنَّ العقليّ المركّب هو الأعلَى والأولَى[1] .

الأهمُّ أنّ الأحرَى في تحليل دلالة الصُّورة على المعنى ، ألا نقصر الأمر على ما قصره البلاغيون في علم البيان ، بلْ نبسط القول في كلّ مستويات الدّلالة سواء من حيث نوع الدّال ، أو مستوى الدَّلالة في الجلاء والخفاء ،

(١) يقول عبد القاهر : «وعلى الجملة ، فينبغي أن تعلم أن المثَل الحقيقي ، والتشبيه الذي هو الأولَى بأن يسمَّى تمثيلاً لُبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ، ما تجدُه لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر ، حتى إنّ التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقلياً محضاً ، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر» أسرار البلاغة . ص ١٠٨ ، قرأه : محمود شاكر .

ومستوَى الدَّلالة في الإحكام والاحتمال ، القرب والبعد ، والقصد الرئيس والقصد الثّانوي ....

* * *

ثالثًا : إذا ما نظرنا من جهة مستوى الإحكام والاحتمال . كان علينا ألا نغفل عن أنّا هنا بصدد القول في «دلالة الصُّورة على المعنى» ولسنا بصدد القول في الدَّال والمدلول ، ولذا جعلت مقابلَ الإحكامِ الاحتمالَ ، وأردت بالإحكام قطعيّ الدَّلالة ، فالبيان القرآنيّ كلّه قطعيّ الثّبوت ، ومنه ما هو قطعي الدّلالة ، وما هو ظنيّ الدّلالة ، وهو الاحتمال الراجح ، وهو لايعارض قطعيّ الدّلالة ، لأنّه احتمال راجح لا مرجوح .

ولم أجعل الإحكام في الدّلالة مقابلا التّشابه على ما تراه في قول الله ـ تعالى ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ (آل عمران:٧) .

المحكم في هذه الآية مقابل للمتشابه ، ومناط الإحكام والتَّشابه هنا المدلول وليس الدَّلالة ، ولذا قال (وأُخَر) جمع أُخرَى أيْ غيرها .

وكذلك قد يكون مقابل الإحكام التّفصيل كما جاء في أول سورة هود : بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود:١) .

الإحكام هنا إلى الإجمال المقابله التفصيل ، فالمفصل من المحكم وله وإليْه ، و(ثم) في قوله (ثُمّ فصلت) هادٍ إلى ما بين المجمل والمفصل من تفاوت في درجة التبيين .

وقد يكون الإحكام بمعنى العصمة من أن ينقض ، والقرآن كلّه كذلك ، ولذا وصفت آياته بالحكمة ، وكما وصف هو بالحكمة ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤١-٤٢) .

لدينا أربعة أنواع :

١- إحكام في الدال (إجمال) يقابله (تفصيل) .

٢- وإحكام في الدلالة (القطع) يقابله (احتمال) .

٣- وإحكام في المدلول (الوضوح) يقابله (خفاء) .

٤- وإحكام في المدلول أيضًا ، وهو العصمة من الباطل ، وذلك يشمل القرآن كله .

والَّذي أنا بصدده هنا الإحكام في الدلالة أي قطعية الدّلالة ، فلا سبيل إلى أن تكون هنالك معــانٍ أخر غير مــرادة ، وهذا ما تراه في آيات سـورة «أم الكتاب» فدلالة النّظم على المعنى دلالة محكمة ، وليس فيها ما يدلّ على أصل المعنى دَلالة راجحة فضلا عن مرجوحة ، فكل دلالة على أصل المعنى دلالة قطعيّة .

وهذا يفهمك أنّ الإحكام لا يعني أنّ هذا المعنى لا يتولّد منه معانٍ كُثر، بل ما مِن معنى من معاني القرآن الدّال عليها النّظم دلالة محكمة إلا وأنتَ تستولد مِن النّظم في سياقه القريب والمديد معاني جدّ عظيمة ، أو لا ترَى أنّ سورة «أمّ الكتاب» على ما ذكرت لك دلالة «النّظم» فيها على معانيها الرّئيسة دلالة محكمة ، وبرغمِ من ذلك فما يتولّد من معنى كلّ آية لا يحصَى، بل ما يتولد منها هو ما جاء بعد ذلك في سائر السور إلى آخر سورة «النّاس» .

وهنا يتراءى لك أن قولهم : «القرآن حمال ذو وجوه» لا يعني أنّ دلالته على المعنى ليست محكمة لأنّ كل كلمة أو جملة في سياقها محكمة الدَّلالة، والاحتمال المرجوج إنّما هو آتٍ من ضعف المتبصر في الأخذ بالسّياق القريب والمديد والقرائن ، فيحسب أن للكلمة أو الجملة وجوهًا متقابلة في السياق الواحد .

لا يمكن أن يكون ذلك لأن من مهمات السّياق والقرائن أن يأخذ بيد المستبصر إلى المعنى المحكم ، فمن غفل عن السّياق والقرائن حسب أنّ للكلمة أوالجملة أو الآية في سياقها وجوهًا متقابلة ، أما الوجوه المتناظرة المتآخية فهذا يعضد بعضها بعضًا .

فالفقه الصحيح لمقولة القرآن حمال ذو وجوه أن الكلمة والكلام في سياقه له جهات نظرٍ ، كل وجهٍ يأتيك منه بالاستنباط الصحيح معانٍ متعددة متنوعة متآخية ومتساندة يأخذ بعضها بحجز بعض لأنها خرجت من رحم واحد خروجًا قويما .

* * *

رابعًا : إذا ما نظرنا من جهة دلالة الصورة من حيث العموم والخصوص ألفينا أن بعض الصور في سياقاتها تدل على معنى عامٍّ محيطٍ أريد به العموم ، كما في قوله تعالى ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:٤) .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ (هود:٦) .

فهذا عامٌّ أريد به العموم ، ولا يقبل التّخصيص ، وقد تدل على عام أريد به في سياقه خاصٌّ دل عليه بعام لحكمة ترجع إلى إفهام شيْءٍ في الخاصّ ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾ (النساء:٥٤) .

قوله تعالى : ﴿ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ عام أريد به سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ على ما عليه جمهرة أهل العلم ، أو أريد به العرب على ما عليه ثلة من أهل العلم[1] .

والوجهان من قبيل العام الذي أريد به الخاص ، وفي هذا إشارة إلى أنّ من أطلق عليه الناس كأنّه الناس في القدر والفضل والمنزلة واستجماع الفضائل والمناقب ، وهذا من الإبلاغ في التنويه بالقدر والإبلاغ في الثَّناء ، والحث على العرفان له بالفضل ، وأنك إن أردت أن تعرف الناس على الحقيقة فدونك الرسول ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ أو دونك العرب .

ومن ذلك دلالة الصّورة على عام خُصِّص بمستقل في موضع آخر يستوجب استحضاره عند التلقّي ، سواء كان هذا المستقلُّ قائمًا في السّياق القرآني المديد أو قائما في بيان النّبوّة .

من هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ (البقرة:٢٢١) .

هو عامٌّ يخصّصه قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة:٥) .

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن ٤٧٧/٨ . لأبي جعفر الطبري : محمد بن جرير ابن يزيد ابن كثير بن غالب (ت: ٣١٠هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط . الأولى ، ١٤٢٠ هـ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء: ١١) .

هذا عام في الأولاد جميعا أيا كان حالهم ، وأيا كان حال الوالد المتوفّى أو الوالدة ، ولكن هذا العموم تخصّصه السنة .

من ذلك ما رواه أحمد في مسنده عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لاَ يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ وَلاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ ».

وكذلك ما رواه ابن ماجه في « الديات » عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « الْقَاتِلُ لاَ يَرِثُ » .

وما رواه أحمد في مسنده بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم - : « إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مَئُونَةِ عَامِلِي وَنَفَقَةِ نِسَائِى صَدَقَةٌ » .

هذا كلّه خصص العموم الذي في الآية ، فليس كلّ ولد يرث والده أو والدته ، فمن كان قاتلاً مورثه أو كان أحدهما كافرًا والآخر مسلما أو كان المورث نبيا فلا توارثَ .

هذا كلّه داخل في علاقات النّصوص ببعضها دلالةً ، وهو بابٌ بالغ الأهمية في التلقّي ، ومَن لم يحسن فقهه قد تزلّ قدمه ، وأهل العلم على أنّ القرآن يفسّر بعضُه بعضا ، وعلى أن السنة تبيين للقرآن ، ومن هذا تبيين مستوى دلالة نص بنصّ آخر .

ويدخل في هذا دلالة البيان على مطلق قيد بقيد منفصل ، وكذلك حمل مطلق على مقيد ، ومقيد على مطلق . وضوابط ذلك كلّه .

كلّ ذلك داخلٌ في بابِ التّحليل البياني لدلالة الصُّورة على المعنى ، وهو كما ترى قاموسٌ محيطٌ متراميةٌ شطآنُه متلاطمةٌ أمواجه .

* * *

بيان عبد القاهر خصائص دلالة الصُّورة على المعنى :

« إذا ما نظرتَ في مقالِ عبد القاهر في تحقيق القول على « البلاغة » و« الفصاحة » ، و« البيان » و« البراعة » ، وكلّ ما شاكل ذلك ، **ممّا يُعبَّر به عن فضلِ بعضِ القائلين على بعض** ، من حيثُ نَطقوا وتكلَّموا ، وأخبروا السّامعين عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أنْ يُعْلِمُوهم ما في نفوسهم ؛ ويكشفوا لهم عن ضمـائر قلوبهم ، رأيت أنه يذهبُ إلى أنـَّه لا معنى لهذه العبـاراتِ وسائرِ ما يَجْري مَجراها ... غيرُ وصْفِ الكلامِ بِحُسْنِ الدَّلالة وتمامِها فيما له كانت دَلالةٌ ، ثم تَبرُّجها في صورةٍ هي أبهى وأزْيَنُ وآنَقُ وأَعْجَبُ وأَحقُّ بأنْ تستوليَ على هَوى النفس ، وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْل القلوب ، وأولى بأن تُطْلِقَ لسانَ الحامدِ ، وتُطِيلَ رغْمَ الحاسد»[1] رأيت أنه قد بدأ بيانه عن حقيقة البلاغة وجوهرها ببيان خصائص دلالة الصُّورة على المعنى ، من قبل بيان شأن الدّال « الصورة » .

أبانَ أنّ من شأن دلالة البيان على ما يراد الإبانة عنه أن تكون متسمة بثلاثة أمور رئيسة : الحسن ، والتمام ، والتبرّج ، وكأنَّ قيمة الصّورة لبست في ذاتها تكوينًا وتشكيلاً ، فحسب بل تتمثل في ذلك إذا ما كان محققا لها قيامها بوظيفتها الَّتي من أجلها خلقتْ ، فالاشتغال بمدارسة تكوين الصُّورة وتشكيلها والتَّغافل عن وظيفتها : الدَّلالة على المعنى وسمات هذه الدَّلالة ، وعن ثمار هذه الوظيفة : المعنى والمغزى الذي هو طعمة الفؤاد مما لا يليق .

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٤٣ فقرة : ٣٥ . قرأه : محمود شاكر .

خصائص دلالة الصورة على المعنى :

أولاً : حسن الدّلالة : الحسن هنا لا يعني سفور الدّلالة ، السُّفور قبحٌ ، بل يعني تعبيد الطَّريق إلى المعنى (إماطة الأذى عن الطريق) فحسن الدّلالة هنا نقيض «التعقيد» وليس نقيض «الغموض» ، الغامض داخلٌ في حسن الدّلالة ؛ لأنّ للغامض سبيلا قريبًا أو بعيدًا غير أنّه ليس بمنقطعٍ ، ولا مخوفٌ [1] .

ثانيًا : تمام الدّلالة : وهو يتمثل في الصّدق ، والأمانة في الإبانةِ ، فلا تدلّ الصورة على غيرِ ما يراد ، ولا على بعضِ المراد دون بعضٍ ، وهذا لا يكاد يتحقّقُ في غير بيان الوحي قرآنا وسنة على الوجه الأكمل .

ما من مبينٍ إلا وفي بيانه ما يعجز عن الوفاءِ بحق ما هو مكنونٌ في صدرِه، وكلّما كانت المعاني في صدر المبين ذات لطفٍ ودقة كانت الصورة الدالة عليْها أعجز عن الوفاء بحقها ، وقد قيل إذا اتسعت الرؤية البشرية للحياة ضاقت العبارة عنها .

ولولا أنّ المبين كان مدركًا أن في فؤاده معانِيَ يعجز اللِّسان عن الوفاء بحقّها لما استعان بغير لسانه ليبين عما عجز االلِّسان عن البيان عنه .

ثالثًا : إحكام الدّلالة : وذلك بتطهّرها من الاحتمال المرجوح والمجروح ، وهو ما عبر عنه عبد القاهر بـ« التبرّج» .

وحقّ السّامع على المتكلّم ألا يكون بيانه غيرَ محكم في الدلالة على معناه حتى لا يسيئ فهمه ، فلا يؤتِي البيان رسالته

وكان جعفر بن يحيى البرمكى قد قيل له : ما البيان؟ فقال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلّي عن مغزاك ، وتخرجه عن الشّركة ، ولا تستعين عليه

---

(١) ينظر: المدخل إلى كتابيّ عبد القاهر الجرجاني ، ص ٨٧ ، ٣٤٩ .

بالفكرة ، والّذي لا بد له منه ، أن يكون سليما من التّكلف ، بعيدا من الصّنعة، بريئا من التعقد ، غنيا عن التأويل[1] .

قوله : « أن يكون الاسم يحيط بمعناك » فهذا يشير إلى تمام الدّلالة .

وقوله : « يجلّي عن مغزاك » يشير إلى حسن الدّلالة ، وكذلك قوله « لا تستعين عليه بالفكرة» يشير إلى حسن الدلالة ، . وكذلك قوله : « أن يكون سليما من التّكلف ، بعيدا من الصّنعة (أي الّتي تسوق المعنى إلى اللفظ) بريئا من التعقد .

وقوله : « تخرجه عن الشّركة » يشير إلى التبرّج : إحكام الدّلالة ، وكذلك قوله : « غنيا عن التّأويل » يشير إلى « التبرّج » .

وكأنّي بعبد القاهر كان يستحضر مقالة « جعفر البرمكيّ » هذه وهو يُجمل مقالته في هذه السّمات الثّلاث للدّلالة .

جمعة القول : إذا ما كانَ « المعنى القرآني » كما سبق بيانُه ذا مستويات لا تتناهَى ، فإنّ دَلالة الصّورة على المعنى « الجمهوريّ » الّذي سيق له الكلام سوقا أصليًّا يغلبُ أن تكونَ الدّلالة عليه قرينة محكمةٌ من أنّ الكلام سيقَ له سوقًا أصليًّا ، وهذا يستوجبُ ألا نتوقف في التحليل البيانيّ للدلالة عند هذا المستوى ، فعظم ما سيقَ له البيان سوقًا أصليًّا في القرآن يصحبه معاني آخر سيق لها القرآن سوقًا تبعيًا أي هي من حيثُ القصد تالية تابعة ، وهو متعدّدٌ متنوع منه ما هو متراكبٌ ومنه ما هو متفرعٌ .

* * *

---

(١) البيان والتبيين . ١٠٦/١ تحقيق : هارون .

وانظر كتاب الصناعتين ، ص ٤٢ لأبي هلال : الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى ابن مهران العسكري (المتوفى : نحو ٣٩٥هـ) المحقق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العنصرية ـ بيروت ، ١٤١٩ هـ .

أثر مجال القول ومناطه فِي منهج التَّحليل البيانيّ لِدَلالة الصُّورة على المَعنى .

للقولِ مجالاتٌ يقوم فيها ، ومناطاتٌ يتعلّقُ بِها :

حينًا يكون قولاً في شأنِ اللهِ ـ تعالى ـ ذاتًا وأسماء وصِفاتٍ وأفعالا .

وحينًا يكونُ قولاً في شأنِ غيبٍ لا سبيلَ للعلمِ بِه إلاّ بإخبارٍ ممَّن يعلمُ الغَيبِ ﷻ ، سواءٌ كان غيبًا قد وقعَ ومضَى أوْ سَيَقعُ فِي الدُّنيا أوْ الآخرةِ .

وحينًا يكونُ فِي شأنِ الرُّسل ـ عَلَيْهِم الصّلاة والسّلام ـ وفِي شأن رسالاتهم وأقوامِهم .

وحينا يكونُ في شأنِ مرادِ الله الشَّرعِيّ مِن عبادِهِ تقريرًا وتقريبًا .

وحينًا يكونُ فِي شأنِ تَثقِيفِ القلوبِ ؛ لِتقبلَ علَى مرادِ الله ﷻ ، وهو بابٌ وسيعٌ فعيلٌ يندرج فيه القولُ في شأن الكونِ أجمعِه .

تلك أهمُّ المجالات الكُبرَى الكليّة للقول ، ولتحليلِ دَلالة القول علَى المعنَى فِي كلِّ مجال منهاجُه وأدواتُه وضوابطُه ، ولعلّ أدقَّها ، وأخطرَها القولُ في دَلالة القولِ على المعنَى في مجالِ البيانِ عَن اللهِ ﷻ ، فقد زلت فيه عقولُ وألسنة وتفاوت الناسُ فيه تحريرًا وتضليلاً .

لن تجد قطُّ بيانًا عن اللهِ ﷻ هو أصدقُ وأوثقُ وأتمُّ وأدقُّ مِن بيان الله ﷻ عن نفسِه ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه ، ونحن ما عرفنا الله ـ تعالى ـ بعقولنا كما تقُولُ الدهماء ، إنّما عرفناه بالوحي ، وكانت الأفئدة (العقول) هي أداة التلقّي ، وليس مصدر المعرفة ، فالقول بأنّا عرفنا الله ـ تعالى ـ بعقولِنا خلط

بين مصدر المعرفة وأداتها : الوحي هو مصدر المعرفةِ باللهِ ـ تعالى ـ ، والعقلُ (الفؤاد) هو أداة التلقّي[1] .

وقد كان لله ـ تعالى ـ في كتابه عن نفسِه بيانا وسيعًا أقامه في سياقات عدة ، وقد استفتح كتابه بالبيان عن نفسِه ، فهو ﷻ عليمٌ بأنَّ العالمين عاجزون عن أن يقوموا بذلك على النّحو الّذي يليق به ، وقد علَّمنا سيّدنا رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ أنّا العاجزون عَن الثَّناءِ عليْه بما يليق به ﷻ :

روى مسلمٌ في كتاب «الصّلاة» مِن صَحيحِهِ بِسَنَدِهِ عَن سيّدتنا أم المؤمنين : عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنها ـ قَالَتْ : فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ ، فَالْتَمَسْتُهُ ، فَوَقَعَتْ يَدِى عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ ، وَهُوَ فِى الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ ، وَهُوَ يَقُولُ :

«اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لاَ أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[2] .

تبصّر قوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : «لاَ أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» ، ففيه اعترافٌ بالعجز عن الوفاء بحق الثّناء على الله ﷻ ، وهذا من سيد المرسلين ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ فكيف بي وبك ؟! ممّا يحمل المرء إلى أن يقيم معتكفًا في اليقين

---

(١) إن أريد بـ«الباء» فِي قولهم : «بعقولنا» ما يراد بها في قولنا «كتبت بالقلم» فلا حرج . ولعلَّ هذا مراد قائلها الأول .

(٢) قولها رَضِيَ الله عَنها : «وهوفي المسجد» أي في سجوده ، وليس المسجد هنا المسجد الجامع .

بالتّقصير والعجز ، فإذا فؤاده ولسانه يلهج بالاستغفار واستجداء العفو ، ومَن اعتكف في ذلك لا يتسلّل إلى نفسِه العُجبُ ، فهو في حصنٍ منيع من عَوادي العُجب ، وحضور النفسِ في العمل ..

وقد كان من جليل رحمة الله ﷻ بعباده ، وكميـلِ تربيتهم أن استفتـح كتابه ﷻ بقوله : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:١-٤) .

جمع في بيانِه جمعة ما يليقُ به ، وجعل ما يأتي من بيانه عن نفسِه في سائر سور القرآن تفصيلاً لهذا الّذي جمعه في مفتتح كتابِه ، فما من آيةٍ في شأنٍ من شؤونه ﷻ إلاّ هو راجعٌ إلى شيْءٍ مِن هذا الذي استفتح به ، وهذا الّذي استفتح به جماعًا لكلّ ما هو له بالغُ الجلاء على الرّغم من أنه جمعة القول وكليّته ، وما يكون ذِي معرفة بلسان العربية مفتقرًا إلى أن يبين له أصلُ المعنى في هذه الآيات الجوامع ، كلُّ آية أوجملة وردت بعدُ في شأن الله ﷻ على المستبصر أن يتبيّن ما ترجع إليه مِن هذه الآيات الأربع الجوامع ، وحينذاك لا يكون ما يكون مشكلاً فضلا عن أن يكون مشتبهًا ممّا لا سبيلَ إلى معرفة معناه .

ولذا لم يكنْ شيْءٌ قطُّ في ما يتعلقُ بأسماءِ الله ـ تعالى ـ وصفاته وأفعاله ممًّا يجهلُ معناه لأهل العلم بلسان العربيّة ، فجميع الجمل والآيات الواردة في القرآن في شأن الله ﷻ ليس منها شيْءٌ يدخلُ في ما يعرف بـ« المتشابه » الّذي لا يتبيَّن أصلُ معناه ، فالّذين يذهبون إلى أنّ من أسماء الله ﷻ وصِفاتِه وأفعاله ما يُفوّض العلم بأصل معناه إلى الله ﷻ ، وأنـّه ممًّا استأثر الله ﷻ بعلمه لا أسلم لهم ذلك ، بل الحقُّ الّذي أدين بِه أنّ جَميع أسماءِ الله ﷻ

وصِفاتِه وأفعاله المذكورة في بيان الوحي قرآنًا وسنة ممًّا يعلم معناه ، ويجهل كيفُه ، فليس فِي علم معناه تفويضٌ ، إنّما التفويض في العلم بالكيفيّة .

سلف الأُمّة وخلفها الصَّالح وإن اتفقوا بالقول في التَّفويض ، فإنّهما مختلفان في مناط التّفويض :

السَّلف على أنَّ التفويض مناطه الكيفياتُ لا المعاني ، المعاني معلومةٌ لأن الله ـ تعالى ـ لا يخطابُ عبادَه بما لا يُعلم معناه ، ولا يكلّفهم بما لا يُطاق ، ومنه علم ما لا تقدِر أفئدتهم على علمه ، ولا يكلّفهم بعلم ما لا يترتَّب على علمِه أثرٌ في الإيمان عقيدةً وسلوكًا ، ذلك أنّه ربّهم ﷻ وليس من الرّبوبيّة تكليفهم بشيْءٍ من ذلك .

قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (الأعراف:٥٤) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر:٦٧) .

وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح:١٠) .

كلُّ ذلك معناه معلومٌ وكيفه مجهولٌ ، فالتّفويض مناطُه التّكيفيات ، ولذا روى أنّ الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ لمَّا سُئل عن قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) قال : «الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ».

قوله : «الاستواء معلومٌ» أي معلومٌ ثبوته لله ـ تعالى ـ ومعلومٌ معناه ، والكيف هو مناطُ الجهل ، والسُّؤال عَن معنى الاستواء بدعةٌ ؛ لأنّه سؤالٌ عمّا لا يجهل ، ولا يسأل عَمّا لا يجهل إلاّ إثارة فتنة أو السؤال عن الكيف بدعة ..

وجمعٌ من الخلف على صرف المعنَى عن ظاهرِه وتأويله بما يرونه أليق بشأن الله ـ تعالى ـ ، وكلّ مِن السّلف والخلف على الرَّغم من تقابل المنهجين القصدُ إلى تعظيم الله ـ تعالى ـ ، وليس لنا تفسيق أيٍّ ، فكلٌّ مجتهدٌ إلى تقديس الله ﷻ .

مناط التباين منهجًا فيما أذهب إليْه إنّما هو الموقف من كيفية الصّفة والفعل أتدخل في معنى الصّفة والفعل ؟

مَن ذهب إلى أنّ الكيفيّة ليست من معنى الفعل والصفة ذهبَ إلى أنّ معنى الصّفة والفعل أهلٌ لأن يعلم (الاستواء معلوم) ، أمَّا الكيف فلا يعلم (الكيف مجهول) وهذا مذهب السَّلف ومن جَرى على مَعيَهِم مَن الخلف .

ومن ذهب إلى أنّ الكيفية داخلةٌ في معنى الفعل والصّفة ومن ثَمَّ لا يكون المعنى المراد معلومًا ، فيصرفون الفعل والصِّفة عن ظاهرهما إلى ما يليق بالله ﷻ عندهم ، ولم يتيسّر العلم الموثّقُ بأنَّ أحدًا من الصحابة ﭫ أو التّابعين ـ رَحمهم الله تعالى ـ قد جرَى على ذلك ، فمن علم ، فلْيعلِمْ ، فتلك أمانةٌ ..

الذي إليه أذهب أنَّ كيفية الفعل والصِّفة في شأن الله تعالى وما هو غيبٌ مطلق ليست مِن معناهما ، ومن ثَمَّ المستمسك به عندي أن صِفات الله ﷻ وأفعاله معلومة المعنى مجهولة الكيفيّة .



أنت إذا تدبّرت قول الله ﷻ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢٦٠).

ألفيت أن سيّدنا إبراهيم عليه السلام لا يسأل عن معنى الإحياء ، وإنّما عن كيفيته : ﴿ كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ولم تكن إجابة سؤاله ببيان الكيفية ، بل قال له الله ﷻ : ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ لم يتبين له ماذا حدث ليأتين سعيا ، فما تزال الكيفية مجهولة لإبراهيم عليه السلام ، وهذا تعليمٌ له ولنا ألاَّ يسأل عمَّا لا يستطيع احتمال علمِه ، وهذا من قبيل : «أسلوب الحكيم» فإذا كان خليل الله عليه السلام لا يستطيع أن يتلقَى العلم بالكيفية ، فنحنُ أولى بذلك منه .

وإذا ما نظرت في ما يؤولون به صفات الله ـ تعالى ـ وأفعاله رأيت أنّه ليس هو المعنى الحقيقي لما أوّل ، بل هو مترتبٌ عليه ومآله ، ولو قيل مآل هذا الفعل الّذي يكون من الله ـ تعالى ـ على ما يليقُ به ﷻ كذا ، أو مآل هذه الصفة الثابتة لله ـ تعالى ـ على ما يليقُ به كذا ، ربما كان أقربُ .

* * *

وإذا ما كان مناط القولِ الغيبِ الذي لا سبيلَ للعلمِ بِهِ إلاّ بإخبارٍ ممَّن يعلمُ الغَيبِ ﷻ ، سواءٌ كان غيبًا قد وقعَ ومضَى أوْ سيَقعُ فِي الدُّنيا أوْ الآخرةِ ، فالذهاب إلى القول بالحقيقة هو الصراط القويم .

روَى التّرمذيّ في كتاب «تفسير القرآن» من سننه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ

« يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ صِنْفًا مُشَاةً وَصِنْفًا رُكْبَانًا وَصِنْفًا عَلَى وُجُوهِهِمْ» . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ : « إِنَّ الَّذِى أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَمَا إِنَّهُمْ يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكٍ» . ورواه أحمد والحاكم

وهذا فيه الهداية إلى أنّ ما كان غيبًا لا يتوقّف في التسليم بكيفيته، ولا يفتقر إلى السؤال عن كيفيته .

وإذا ما كان مناط القول فِي شأنِ الرُّسل - عَلَيْهِم الصّلاة والسّلام - وفِي شأن رسالاتهم وأقوامِهم فالشّـأن أن يجري فيما ليس من الغيبِ على الحقِيقة حتى لا يكون سبيلٌ إلى الحمل عليْها ، فإنّ غير الحقيقة لا يعمد إليه إلاّ إذا عجزالحملُ على الحقيقة عَنْ الوفاء بالمعنى أوْ عَن الوفاء بما هو أليقُ بالسِّياق والمغزَى .

وما قد أراه أنه غير متّسق مع السّياق فأذهبُ إلى غيرِ الحقيقةِ قد يراه غيرِي أعمق رؤية متسقًا متآخيًا متناغِيًا مع الحقيقة ، وما كان عطاءُ ربّك محظورا .

فالاستعارةُ الحُسْنَى وهي من سُبُل التّأويلِ : «توجب بيانًا لا تنوبُ منابَه الحقيقة ، وذلك أنّـه لو كان تقومُ مقامَه الحقيقةُ ، كانتْ أوْلَى بِهِ ، ولَمْ تَجز الاستعارةُ « كما يقولُ أبو الحسن الرُّمانيّ المعتزليّ (ت: ٣٨٤هـ) في «نكتِه» ، فالاستعارة خاصة والمجاز عامّة ضرورة ، وليس اختياراً .

وإذا ما كان مناط القولِ مرادَ الله الشَّرعِيّ مِن عبادِهِ تقريراً وتقريبًا ، أوْ بيان تَثقِيفِ القلوبِ فالأمرُ أوسَعُ مِن غَيْرِه ، وبرغمِ مِن ذلك لا بدَّ مِن الأخذِ بالعواصِمِ مِن القَواصِمِ فِي هذا البابِ ، فَإنّه جِدُّ خطِيرٍ .

* * *

محصول القول :

أنّ علينا في تحليل دَلالة الصورة على المعنى أن نجتهد في العلم بوجه الدّلالة على المعنى ، وبمستواها ، وبمنزلها حين تتعارضُ دَلالات الصُّور ، وكيف يجمع بيْنها إنْ أمكنَ الجمعُ ، وكيف يرجح وجهٌ على وجهٍ ، وأن نجتهدَ في العلم بدلالةِ الصّورة على ما لطف من المعاني ودقّ ، فإن معاني بيان الوحي لا تتناهَى ، فهِي تتسعُ حركةَ الحياة على تنوّعها وتجدّدها تُصلِح منها ما اعوجَّ ، وتؤكّد ما استقام وتذكّيه .

ليس من أحــدٍ مؤمنٍ بالقرآن إلاّ وله من المعنى القرآنيّ ما يقوّم عوجــه أو يسدّ خلَلَه أو يكمل نقصَه أو يقوّى صوابَه أو يزكّيه أو يذكّيه ، فتستقيم له الحياةُ على وفق ما يريد الله ﷻ منه وله في مسيره ، وليكون له من الله ﷻ في مصيره ما يرضيه ويسعده .

والله المستعان على ما يرضِيه

والحمد لله رب العالمين

زبدة البيان وسلافته

إذا ما كان حقًّا ما ذهبَ إليْه عبد القاهر من أنّه لا معنى لقوله «البلاغة» و«الفصاحة» وسائرِ ما يَجْري مَجراها غيرُ وصْفِ الكلام بِحُسْنِ الدَّلالة وتمامِها فيما له كانت دَلالةٌ ، ثم تَبرُّجِها في صورةٍ هي أبهى وأزْيَنُ وآنَقُ وأَعْجَبُ وأَحقُّ بأنْ تستوليَ على هَوى النفس ، وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْل القلوب ، وأولى بأن تُطْلِقَ لسانَ الحامدِ ، وتُطِيلَ رغْمَ الحاسد ، فإن حقًّا مثلَه أنّ منهاج القرآن في حسن دلالته على معانيه ، وتمامها وتبرجها قائمٌ من أمرين متمازجين لاينفكّ أحدهما عَن الآخر :

منهاج التّصريح الممزوج بالتّلويح في سياقٍ ومغزَى ، ومنهاج التلويح الممزوج بالتّصريح في سياقٍ ومغزَى ، فما صرّح بأمرٍ إلاَّ لوَّح بآخر ، وما لوّح بشيء إلا وصرح بآخر ، فمن الناس من طعمته ما صرّح به يستبقيه في الدرج الأدنَي في مقامات القربِ الأقدسِ ، ومن النّاس من طعمته ما صرح به وما لوح معًا ، فيتسنم مدارج القلوب حتى يبلغ مقام الصديقية أو مقام المشاهدة : «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» ، أو ما دونه مقام المراقبة : «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» . فيجد فيه كلّ معتفٍ طَلَبَته .

حقّ على القائم إلى حسن التلقّي عن الله ـ تعالى ـ تفقّهًا وتفهمًا أن يكون مكينا محيطا بمنهاج الإبانة والإعراب القرآني عَن المعاني .

وهذا لايتحقق شيءٌ منه إلا إذا تهيّأ ظاهر المرء وباطنه للتلقّي ، ومن ثَمَّ جاء الأمر بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن لتتحقّق منه بهما الرحمة :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٤-٢٠٦) .

إذا ما تحقق من المرء ذلك فإنّه سيتحصد به ضربين كليين من معاني الهدَى : ضَربَيْنِ متمازجين :

الأوّل : (معنًى تكليفيّ) بوجهيه العقدي والعمليّ المحيط بأصول علاقة العبدِ بخالقِه ﷻ وبنفسِه ، وبالحياة كونًا وإنسانًا مسالمًا أو مساندًا أو مصادمًا بأبعادها الثَّلاثة : الوجوبِ والإباحةِ والمحاجزةِ ، وقد عُنِيتْ بذلِك طائفةٌ الأصوليّين في الفقهين : الأكبر(العقدي) والكبير (العمليّ) عناية بالغةً ، وكانَتْ لَهُمْ فِي ذَلِك دراسات عميقة محيطةٌ ، لا تكادُ تجدُ قريبًا منها في أيّ أمّة أخرَى قدِيمًا وحديثًا .

والآخر : (معنًى تثقِيفيّ) : قائمٌ بفريضةِ تفعيل المعنى التكليفيّ بوجهيه علَى نحوٍ يجعلُ قيام العبدِ به قيام محبّةٍ وتشوفٍ يمثله قول رسول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ : «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلاَةِ» (النسائي والبيهقي في سننهما ، وأحمد في مسنده من حديثِ أنسٍ) وقوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ «يَا بِلاَلُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا» (أبو داود ، وأحمد) .

المعنى التَّثقيفيّ هو الَّذي يستحيل فيه التَّكليفُ العقديُّ والعمليُّ قرة عينٍ وراحة نفسٍ وإشراقة فؤاد يرمز إليْهِ «قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِى الْمَسَاجِدِ» (متفق علَيْهِ) .

المعنَى التَّثقِيفيّ الَّذي هو الرّوح الفَعُولُ لِما هُو تكلِيفِيّ عقيدةً وسلوكًا هُو مَشغلةُ العقل البلاغيّ .

إن يكن مناطُ نظر العقل الأصوليّ بنوعيه العقديّ والعمليّ بمثابة الجسدِ، فإنّ العقلَ البلاغِيّ يعملُ فيما هو بمثابة الرّوح .

ومن ثَم كانت عواملُ تحقيقِ العقلِ البلاغيّ رسَالتَه النَّافخة في الجسدِ روحه جدّ عديدةٍ مِن أعظمها صفاءُ القصدِ وفتوةُ العزم ووثاقةُ العلاقة بالله ﷻ وبرسوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ ، فإن من المعاني التثقيفيّة ما لا يُستجنَى بأيّ علم مِن العلوم المكتسبة بالتّعليم والتّدريب ، وهذا ما أنتَ مبصره فيما جاء في كتابِ الله ـ تعالى ـ من نحو قوله ﷻ : بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(البقرة: ١-٢) .

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (يونس: ٢٥-٢٦) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨) .

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ (النور: ٥٤) .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(العنكبوت: ٦٩) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (لقمان: ١-٣) .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (محمد:١٧) .

آياتٍ من اعتكف في محرابِ تبصُّرها متدبّرًا اهتدَى إلى أنّ الّذي مضَى في الأوراق الماضِيّةِ مِن السّعي في ما سبق إلى إقامةِ معالمَ على الطّريق إلى حُسن فقه المعنى القرآنيّ في سِياقِ السّورة غير كافٍ وحدَه لأن يحقّق المرءِ طَلِبته من تحقيق حُسنِ الفهمِ عن اللهِ ﷻ ، وعن رَسوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ .

وأن عليـه فريضةً أن يكونَ ذا عـلاقـة حُسْنَى بالله ﷻ ، وبسيّدنا رسـول الله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ وأن يتصاعد في مقامات القُرب الأقدس من الله ﷻ ، وألاّ يشتغل بغير القرآن من العلـوم إلا من أجل القرآن ، فكـلّ ما عداه وسيلة إليْه .

وليس من علم صحيح نصيح إلا وفيه ما ينفعك فـي حسـن التلقّي عـن الله ـ تعالى ـ .

روى التـرمـذيّ في سننـه بسنـده عَنْ أَبِي سَعِيـدٍ ، قَـالَ : قَـالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ :

«يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ ، وَفَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الكَلامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ»: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ) .

ورواه الدّارمي في سننه والبخاري في كتاب خلق أفعال العباد ، والبزار في مسنده ، والطّبراني في الدّعاء ، والبيهقي في الاعتقاد ، وفي شعب الإيمان .

وحَسِينٌ جدًا ما قاله الزَّركشيّ في «البرهان في علوم القرآن» .

«وَقَالَ بَعْضُهُمْ : النَّاسُ فِي تِلاوَةِ الْقُرْآنِ ثَلاثَةُ مَقَامَاتٍ :

الأَوَّلُ : مَنْ يَشْهَدُ أَوْصَافَ الْمُتَكَلِّمِ فِي كَلامِهِ وَمَعْرِفَةِ مَعَانِي خِطَابِهِ ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ كَلامِهِ وَتَكَلُّمِهِ بِخِطَابِهِ وَتَمَلِّيهِ بِمُنَاجَاتِهِ وَتَعَرُّفِهِ مِنْ صِفَاتِهِ ، فَإِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ تُنْبِئُ عَنْ مَعْنَى اسْمٍ أَوْ وَصْفٍ أَوْ حُكْمٍ أَوْ إِرَادَةٍ أَوْ فِعْلٍ ، لأَنَّ الْكَلامَ يُنْبِئُ عَنْ مَعَانِي الأَوْصَافِ وَيَدُلُّ عَلَى الْمَوْصُوفِ وَهَذَا مَقَامُ الْعَارِفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لأَنَّهُ لا يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ وَلا إِلَى قِرَاءَتِهِ وَلا إِلَى تَعَلُّقِ الإِنْعَامِ بِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مُنْعِمٌ عَلَيْهِ ، بَلْ هُوَ مَقْصُورُ الْفَهْمِ عَنِ الْمُتَكَلِّمِ مَوْقُوفُ الْفِكْرِ عَلَيْهِ مُسْتَغْرِقٌ بِمُشَاهَدَةِ الْمُتَكَلِّمِ ، وَلِهَذَا قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ : لَقَدْ تَجَلَّى اللَّهُ لِخَلْقِهِ بِكَلامِهِ ، وَلَكِنْ لا يُبْصِرُونَ .

وَمِنْ كَلامِ الشَّيْخِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيِّ : لَوْ طَهُرَتِ الْقُلُوبُ لَمْ تَشْبَعْ مِنَ التِّلاوَةِ لِلْقُرْآنِ .

الثَّانِي : مَنْ يَشْهَدُ بِقَلْبِهِ كَأَنَّهُ تَعَالَى يُخَاطِبُهُ ، وَيُنَاجِيهِ بِأَلْطَافِهِ ، وَيَتَمَلَّقُهُ بإنعامه وَإِحْسَانِهِ ، فَمَقَامُ هَذَا الْحَيَاءُ وَالتَّعْظِيمُ وَحَالُهُ الإِصْغَاءُ وَالْفَهْمُ ، وَهَذَا لِعُمُومِ الْمُقَرَّبِينَ .

الثَّالِثُ : مَنْ يَرَى أَنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ ﷻ فَمَقَامُ هَذَا السُّؤَالُ وَالتَّمَكُّنُ وَحَالُهُ الطَّلَبُ

وَهَذَا الْمَقَامُ لِخُصُوصِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ يَلْقَى السَّمْعَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ سَمِيعِهِ مُصْغِيًا إِلَى سِرِّ كَلامِهِ ، شَهِيدَ الْقَلْبِ لِمَعَانِي صِفَاتِهِ نَاظِرًا إِلَى قُدْرَتِهِ ، تَارِكًا لِمَعْقُولِهِ ، وَمَعْهُودِ عِلْمِهِ ، مُتَبَرِّئًا مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، مُعَظِّمًا

لِلْمُتَكَلِّمِ مُتَفَرِّغًا إِلَى الْفَهْمِ بِحَالٍ مُسْتَقِيمٍ وَقَلْبٍ سَلِيمٍ وَصَفَاءِ يَقِينٍ وَقُوَّةِ عِلْمٍ وَتَمْكِينٍ ، سَمِعَ فَصْلَ الْخِطَابِ وَشَهِدَ غَيْبَ الْجَوَابِ ؛ لأَنَّ التَّرْتِيلَ فِي الْقُرْآنِ وَالتَّدَبُّرَ لِمَعَانِي الْكَلامِ وَحُسْنَ الاقْتِصَادِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ فِي الإِفْهَامِ وَالإِيقَافَ عَلَى الْمُرَادِ وَصِدْقَ الرَّغْبَةِ فِي الطَّلَبِ سَبَبٌ للاطلاع على المطلع من السِّرِّ الْمَكْنُونِ الْمُسْتَوْدَعِ .

وَكُلُّ كَلِمَةٍ مِنَ الْخِطَابِ تَتَوَجَّهُ عَشْرَ جِهَاتٍ لِلْعَارِفِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مَقَامٌ وَمُشَاهَدَاتٌ :

أَوَّلُهَا الإِيمَانُ بِهَا ، وَالتَّسْلِيمُ لَهَا ، وَالتَّوْبَةُ إِلَيْهَا ، وَالصَّبْرُ عَلَيْهَا ، وَالرِّضَا بِهَا ، وَالْخَوْفُ مِنْهَا ، وَالرَّجَاءُ إِلَيْهَا ، وَالشُّكْرُ عَلَيْهَا ، وَالْمَحَبَّةُ لَهَا ، وَالتَّوَكُّلُ فِيهَا .

فَهَذِهِ الْمَقَامَاتُ الْعَشْرُ هِيَ مَقَامَاتُ الْمُتَّقِينَ ، وَهَى مُنْطَوِيَةٌ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ يَشْهَدُهَا أَهْلُ التَّمْكِينِ وَالْمُنَاجَاةِ وَيَعْرِفُهَا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ ؛ لأَنَّ كَلامَ الْمَحْبُوبِ حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ لا يُنْذَرُ بِهِ إِلاَّ حَيٌّ وَلا يَحْيَا بِهِ إِلاَّ مُسْتَجِيبٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ (يس:٧٠) .

وقال تعالى : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال:٢٤) .

وَلا يَشْهَدُ هَذِهِ الْعَشْرَ مُشَاهَدَاتٍ إِلاَّ مَنْ يَتَنَقَّلُ فِي الْعَشْرِ الْمَقَامَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ الأحزاب ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٣٥) .

أَوَّلُهَا مَقَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَآخِرُهَا مَقَامُ الذَّاكِرِينَ ، وَبَعْدَ مقام الذِّكْرِ هَذِهِ الْمُشَاهَدَاتُ الْعَشْرِ فَعِنْدَهَا لا تُمَلُّ الْمُنَاجَاةُ لِوُجُودِ الْمُصَافَاةِ ، وَعَلِمَ كَيْفَ تُجَلَّى لَهُ تِلْكَ الصِّفَاتُ الإِلَهِيَّةُ فِي طَيِّ هَذِهِ الأَدَوَاتِ ، وَلَوْلا اسْتِتَارُ كُنْهِ جَمَالِ كَلامِهِ بِكِسْوَةِ الْحُرُوفِ لما ثبت لسماع الكلام عرش ، ولا ترى وَلا تَمَكَّنَ لِفَهْمِ عَظِيمِ الْكَلَامِ إِلاَّ عَلَى حَدِّ فَهْمِ الْخَلْقِ ، فَكُلُّ أَحَدٍ يَفْهَمُ عَنْهُ بِفَهْمِهِ الَّذِي قُسِمَ لَهُ حِكْمَةً مِنْهُ» (اهـ) .

ويقول ابن عطاءِ الله السكندريّ في حِكَمِه السَّرِيّة :

« كيْف يشرِقُ قلبٌ صُورُ الأكوانِ مُنطَبِعَةٌ فِي مِرآتِهِ ؟

أمْ كيفَ يَرحلُ إلَى اللهِ ، وهُو مُكَبَّلٌ بِشهوَاتِهِ؟

أمْ كيْفَ يطمَعُ أن يدخلَ حضرةَ اللهِ ، وهُو لَمْ يَتَطَهّرْ مِن جنابةِ غفَلاتِهِ ؟

أمْ كيف يرجُو أنْ يَفْهَمَ دقائقَ الأسرارِ ، وهُو لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟»

ويقول ابن القيّم (ت ٧٥١هـ) في مفتتح كتابه «الفوائد» :

«قَاعِدَة جليلة: إِذا أردْت الانْتِفَاع بِالْقُرْآنِ فاجمع قَلْبك عِنْد تِلاوَته وسماعه، وأَلْقِ سَمعك واحضر حُضُور من يخاطبه بِهِ من تكلّم بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ ، فإنه خَاطب مِنْهُ لَك على لِسَان رَسُوله ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آله وَصَحبه وسَلّم ـ قَالَ ـ تَعَالَى ـ : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ (ق:٣٧) .

وَذَلِكَ أَنّ تَمام التَّأْثِير لمّا كَانَ مَوْقُوفا على مُؤثر مُقْتَض ، وَمحل قَابل ، وَشرط لحُصُول الأثر وَانْتِفَاء الْمَانِع الَّذِي يمْنَع مِنْهُ تضمّنت الآيَة بَيَان ذَلِك كلّه



بأوجز لفظ وأبينه وأدلّه على المُرَاد فَقَوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أشار إِلَى مَا تقدّم من أوّل السُّورَة الى هَهُنَا ، وَهَذَا هُوَ المؤثّر وَقَوله : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فَهَذَا هُوَ الْمحل الْقَابِل وَالْمرَاد بِهِ الْقلب الحيّ الَّذِي يعقل عَن الله كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾(يس:٦٩-٧٠) أَي حيّ الْقلب وَقَوله : ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أَي وجَّه سَمعه وأصغى حاسّة سَمعه إِلَى مَا يُقَال لَهُ ، وَهَذَا شَرط التأثّر بالْكلَام وَقَوله : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أَي شَاهد الْقلب حَاضر غير غَائِب .

قَالَ ابْن قُتَيْبَة : اسْتمع كتاب الله وَهُوَ شَاهد الْقلب والفهم لَيْسَ بغافل وَلَا ساه ، وَهُوَ إِشَارَة إِلَى الْمَانِع من حُصُول التَّأْثِير ، وَهُوَ سَهْو الْقلب وغيبته عَن تعقّل مَا يُقَال لَهُ وَالنَّظَر فِيهِ وتأمّله ، فَإِذا حصل الْمُؤثر وَهُوَ الْقُرْآن وَالْمحل الْقَابِل وَهُوَ الْقلب الْحَيّ وَوجد الشَّرْط وَهُوَ الإصغاء وانتفى الْمَانِع وَهُوَ اشْتِغَال الْقلب ، وذهوله عَن معنى الْخطاب ، وانصرافه عَنهُ إِلَى شَيْء آخر حصل الأثر وَهُوَ الانْتِفَاع والتذكّر» (اهـ) .

آثرت أن أقيم هـذا بين يديك في خاتمة هذا الكتاب ليكون لك ما يثور العزيمة على أن تجمعَ إلى العوامل العلميّة المكتسبة عوامل إيمانية إحسَانية يفيض بسببِها على فؤادِك ما لا يكونُ له دونها .

روى مسلم في كتاب «القدر» في صَحيحِه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آله وَصَحبِه وسَلّم : «احْـرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ» .

إذا ما قام هذا الذي ذكرت في خلـدك فعيلا ، فإنّ لك من عطاء ربك ﷻ ما لا يُحمَلُ عنك مذكورًا ، فيكونُ رافدًا يحقّق بالحسناتِ الّيراتِ المُنيرات في مسيرك ومصيرك .

روَى مسْلِمٌ في كتاب «الْوَصِيَّةِ» مِنْ صَحِيحِهِ بسندِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلّم ـ قَالَ : «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» .

والله المستعان على طاعتِه ، والحمد لله ربّ العالمين .

القاهرة : مدينة الشروق

الدكتور
مَحمُود تَوفِيق مُحمَّد سَعد
الأسْتاذ بجامِعَة الأزْهَر
عُضْو هَيْئَة كِبَار العُلَمَاء بِالأزْهَر الشَّرِيف

ثبت أهم المصادر

١- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق : مركز الدراسات القرآنية ، مجمع الملك فهد . المملكة العربية السعودية ، ط . الأولى .

٢- الأساس في التفسير ، سعيد حوّى (ت : ١٤٠٩هـ) دار السلام ـ القاهرة ، ط . السادسة ، ١٤٢٤هـ .

٣- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني . (ت : ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه ، محمود شاكر ، مطبعة المدني ، بالقاهرة .

٤- الإعجاز البلاغي ، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ، شيخنا محمد أبي موسى ، مكتبة هبة ، القاهرة ، ط . الأولى .

٥- إعجاز القرآن ، أبي بكر الباقلاني محمد بن الطيب (ت : ٤٠٣هـ) تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف ـ القاهرة ، ط . الخامسة ، ١٩٩٧م .

٦- آل حم غافر ـ فصلت دراسة في أسرار البيان ، شيخنا محمد أبي موسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ط . الأولى ، ١٤٣٠هـ .

٧- آل حم الشورى ـ الزخرف ـ الدخان دراسة في أسرارالبيان ، شيخنا محمد أبي موسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٨- آل حم الجاثية ـ الأحقاف دراسة في أسرار البيان ، شيخنا محمد أبي موسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، ط . الأولى ، ١٤٣٢هـ .

٩- البحر المحيط في أصول الفقه،بدر الدين الزركشي:محمد بن عبد الله بن بهادر (ت : ٧٩٤هـ) ، تحقيق : محمد محمد تامر ، دار الكتب العلمية ، بيروت . ط . الأولى ، ١٤٢١هـ .

١٠- البرهان في تناسب سور القرآن ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ، أبي جعفر (ت : ٧٠٨هـ) تحقيق : محمد شعباني ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب ، ١٤١٠هـ .

١١- بيان إعجاز القرآن ، الخطابي : حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (ت: ٣٨٨هـ)، تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام . دار المعارف ـ القاهرة ، ط . الثالثة ، ١٩٧٦م ، مطبوع ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة : ذخائر العرب] .

١٢- البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ، ط . الخامسة .

١٣- تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير ، لأبي الحَسَنِ عَلِيُّ ابنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الحرالّيّ (ت : ٦٣٨هـ) تحقيق : محمادي ابن عبد السلام الخياطي ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـ الرباط . ط . الأولى ، ١٤١٨هـ .

١٤- تقريب منهاج البلغاء ، شيخنا محمد أبي موسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، ط . الأولى ، ١٤٢٧هـ .

١٥- الخصائص ، أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ) تحقيق : محمد علي النجار . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط . الرابعة .

١٦- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) . قرأه وعلق عليه : محمود شاكر ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة .

١٧- دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، محمد عبد الخالق عضيمة (ت:١٤٠٤هـ) تصدير : محمود محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة .

١٨- الزمر ـ محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان ، شيخنا محمد أبي‌موسى ، مكتبة وهبة ، ط . الأولى ، ١٤٣٣هـ .

١٩- شرح رسالة الرماني في إعجاز القرآن لعالم مجهول ، تحقيق : زكريا سعيد على ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط . الأولى ، ١٩٩٧م .

٢٠- علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم ، دراسة بلاغية نظرية تطبيقية ، دكتور إبراهيم صلاح الهدهد ، مكتبة الإيمان ، ط . الأولى ، ١٤٣٢هـ .

٢١- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب : حاشية الطيبي على الكشاف ، شرف الدين الطيبي (ت : ٧٤٣هـ) تحقيق : جمع من أهل العلم ، مؤسسة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم . ط . الأولى ، ١٤٣٤ هـ .

٢٢- مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ، شيخنا محمد أبي موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط . الأولى ، ١٤١٨هـ .

٢٣- مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ ، البقاعي : إبراهيم بن عمر ابن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت : ٨٨٥هـ) تحقيق : عبد السميع حسانين ، مكتبة المعارف ـ الرياض . ط . الأولى ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م .

٢٤- مفاتيح الغيب ، فخر الدين : محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري (ت : ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . ط . الثالثة ، ١٤٢٠ هـ .

٢٥- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم الأنصاري القرطاجني ، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، ط . الثالثة ، ١٩٧٦م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .

٢٦- الموافقات في أصول الشريعة ، لأبي إسحاق الشاطبي ، تحرير : الشيخ عبد الله دراز ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٢٧- النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن ، محمد عبد الله دراز ، دار القلم . الكويت ، ط . الرابعة ، ١٣٩٧هـ .

٢٨- نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم ، محمد عبد الله دراز . مقال منشور في مجلة «المجلة» ، العدد (٧) ، ذو الحجة ١٣٧٦هـ ، يوليه ١٩٥٧م .

٢٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين البقاعي : إبراهيم ابن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت : ٨٨٥هـ) دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة .

٣٠- النقد الفني دراسة جمالية فلسفية ، ج . ستولنيتز ، ترجمة : فؤاد زكريا . الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ، ط . الثانية ، ١٩٨١م .

٣١- النكت في إعجاز القرآن ، أبي الحسن عليّ بن عيسَى بن عليّ بن عبد الله الرماني (ت : ٣٨٤هـ) ، تحقيق : محمد خلف الله ، دكتور محمد زغلول سلام . مطبوع ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة : ذخائر العرب] دار المعارف بمصر . ط . الثالثة ، ١٩٧٦م .

بحوث المؤلف وكتبه

(أولا : الكتب) :

١- دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين : دراسة منهجية تحليلية ، مكتبة وهبة ـ القاهرة

٢- سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة : دراسة منهجية تأويلية ناقدة ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٣- صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٤- الإمام البقاعي جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٥- الإمام أبو حنيفة بليغًا وصيته تلاميذه نموذجًا قراءة في المنهج والبيان ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٦- الرجال قوامون على النساء مدارسات إيمانية أخلاقية في ضوء علم البلاغة العربي ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٧- أسرار البلاغة القرآنية في سورة تبت يدا أبي لهب ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٨- تقريب رسالة القواعد لأبي العباسي أحمد بن إدريس الحسني (ت١٢٥٣هـ) دراسة تحليلية لقواعد السلوك إلى الله ـ تعالى ـ في ضوء الكتاب والسنة ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

٩- إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في البيان القرآني . مكتبة وهبة ـ القاهرة .

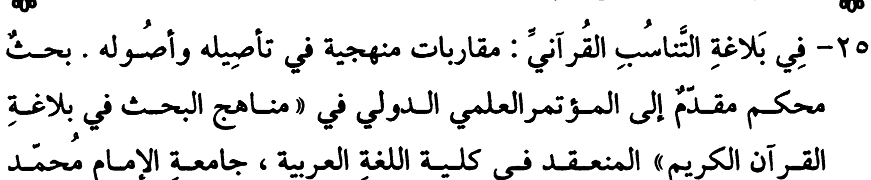
١٠- مسالك العطف بين الإنشاء والخبر ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

١١- تغييب الإسلام الحق ، دحض افتراءات دعاة التنوير على القرآن الكريم . مكتبة وهبة ـ القاهرة .

١٢- فقه بيان النبوة منهجًا وحركة : دراسة في البلاغة النبوية ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .
١٣- الكلمة نور محاورات منهجية في كتاب شرح أحاديث من صحيح مسلم لشيخنا محمد أبي موسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .
١٤- علم البديع عند الشيخ محمد أبي موسى ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .
١٥- من ميراث النبوة : دراسة في البلاغة النبوية ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .
١٦- الاحتفال بذكرى ميلاد سيد الأنبياء أحكام وآداب ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .
١٧- فقه تغيير المنكر: كتاب الأمة ـ وزارة الأوقاف بدولة قطر .
١٨- قطرات الندى معالم الطريق إلى فقه المعنى الشعري في سياق القصِيدة .
١٩- قضايا نقدية في طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .
٢٠- نسق بناء القصيدة في عيار الشعر لابن طباطبا ـ دراسة نقدية .
٢١- قراءة في المثل السائر لابن الأثير .
٢٢- نقد العقل البلاغي ، نشر مشيخة الأزهر الشريف ـ منشورات مجلس حكماء المسلمين ، ١٤٤٠ هـ .

(ثانيا : البحوث) :

٢٣- الدراسات البلاغية العليا في جامعة الأزهر الداء والدواء : بحث محكّم مقدّم للمؤتمر العلمي الدولي في البلاغة : «النهوض بالبحث البلاغي والنقدي» المنعقد في كلية الدراسات الإسلاميّة والعربية للبنات بالقاهرة .
٢٤- التفكير البلاغي في بيان الوحي . بحث محكم مقدم إلى المؤتمر العلميّ الدولي في البلاغة المنعقد في جامعة أم القرى بمكة المكرمة . ومنشور في كتاب المؤتمر .



٢٥- فِي بَلاغةِ التَّناسُبِ القُرآنيِّ : مقاربات منهجية في تأصِيله وأصُوله . بحثٌ محكم مقدَّمٌ إلى المؤتمرالعلمي الدولي في «مناهج البحث في بلاغةِ القرآن الكريم» المنعقد في كليةِ اللغةِ العربية ، جامعةِ الإمامِ مُحمَّد ابن سُعود الإسلامية بالرياض ونشر في كتاب «المؤتمر».

٢٦- الإغريض في الفرق بين الكناية والتعريض ـ لتقي الدين السبكي ـ تحقيق : ودراسة . بحث محكَّم منشور في مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر فرع المنوفية .

٢٧- نظرية النَّظم الجرجانية وقِراءة الشعر. (بحث محكَّم منشور في مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر فرع المنوفية) .

٢٨- نقد مذهب التقي السبكي في دلالة التقديم على الحصر ، دراسة بلاغية ، بحث محكم منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، العدد (١٦) رجب ١٤٣١هـ .

٢٩- مراجعات ناقدة في أسلوبِ الفصل والوصل ، بحث محكَّم منشور في مجلة جذور حولية النادي الأدبي الثقافي بجدة .

٣٠- الاستفهام القرآني دقائق ورقائق بيانية . بحث محكَّم منشور في مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر فرع المنوفية .

٣١- فقه التعبير القرآني في ضوء مقامات القرب (بحث محكَّم منشور في مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر فرع المنوفية) .

٣٢- خصائص البيان القرآني في سُورة المسد ، بحث محكَّم منشور في حولية مجلة الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية بجدة .

٣٣- مستويات بناء صُورة المعنى في العقل البلاغي ، بحث محكَّم منشور في مجلة جذور حولية النادي الأدبي الثقافي بجدة .

٣٤- عوائق بناء العقل العلمي ـ بحث منشور في الكتاب التذكاري التكريمي لشيخ البلاغيين محمد أبي موسى ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
ما يقوم له هذا الكتاب	٧
تحليل عنوان الكتاب	١٠
ما يقوم عليه الكتاب	١٤
الضابط الكلي لمنهاج القول في قضايا هذا الكتاب ومسائله	١٦
أدوات المدارسة	١٧

الشريج الأول
في المصطلح وما إليه
(٢١-١٥٥)

التوطئة في شأن المقصد الربانيّ من إعجاز البيان القرآني :

المقصد الرباني من إعجاز البيان القرآني	٢٢
المعقد الأول : التدبر مفهومًا ومغزى	٣٥
مفهوم التدبر	٤٠
المبتغى إليه بالتدبر	٤١
المعقد الثاني : مصطلح المعنى القرآني : مفهومه وأنواعه وخصائصه ومستوياته	٤٥
مفهوم المعنى القرآني	٤٦
أنماط المعنى الثلاثة : المقصود ، المدلول ، المفهوم	٤٨
خصائص المعنى القرآني	٥١
الخصيصة الأولى : المعنى القرآني إلهيُّ المصدر آدميّ الغاية	٥١

الخصيصة الثانية : حليته جِلال الألوهيّة وجمال الرّبوبية.................... ٥٥
الخصيصة الثالثة : التّكاثر في أفئدة المتّقين.................... ٥٨
الخصيصة الرَّابعة : مواءمتُه لأحوال المؤمِنين به
على تنوّع مقاماتهم الإيمانيّة.................... ٦٣
الخصيصة الخامسة : امتزاج معاني التَّثقيف بمعاني التَّكليف.................... ٦٤
الخصيصة السّادسة : أنه معنى لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه ، ولا يتفاوت في درجة بلاغته.................... ٦٥
الخصيصة السَّابعة : حسن تلقيه مِن حسن العلاقة
بمنزّله سبْحانَه وتَعالى.................... ٦٨
مستويات المعنى القرآني.................... ٧١
المستوى الأول : المعنى الجمهوري.................... ٧٢
المستوى الثاني : المعنى الإحساني.................... ٧٤
من حديث القرآن عن القرآن.................... ٧٩
المعقد الثالث : العواصم من القواصم (المنقذ من الضلال).................... ١٠٣
الكليات الأربع :.................... ١٠٤
تفصيل البيان في الكلية الأولى : عواصِمُ تتعلَّقُ
بالقول في شأن مُنزِّل هذا الكتابِ سُبْحانَه وَتَعَالَى.................... ١٠٤
تفصيل البيان في الكلية الثَّانية : عواصِمُ تتعلّقُ
بالقول في شأن الكتابِ نفسِه.................... ١١٣
تفصيل البيان في الكُلّيّة الثّالثة : عواصِمُ تتعلّق بمقاصِد هذا الكتاب.................... ١١٧
تفصيل البيان في الكُلّيّة الرَّابعة : عواصِمُ تتعلقُ
باللسان الذي أبان به هذا الكتابُ عن معانيه.................... ١٢٨
المعقد الرَّابع : مستويات بِنَاءِ صُورةِ المعنَى فِي الذكر الحكيم.................... ١٣٩
مستويات البناء الأربعة على الإجمال.................... ١٤٠

المستوى الأول : النظم.. ١٤٦
المستوى الثَّاني : التَّرتيب.. ١٤٨
المستوى الثالث : التّأليف.. ١٤٨
المستوى الرّابع : التّركيب.. ١٤٩
المعقد الخامس : النص والخطاب وما إليهما.. ١٥١

الشّريج الثّاني
معالم على الطّريق
(١٥٧-٥١٥)

تَوْطِئَةٌ تأصِيلِيَّةٌ : الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ.. ١٥٨
المعقد الأوّل : موقع السّورةِ من نسق التّلاوة المديد
والحزبِ الذي تكون فيه.. ١٦٣
الحكمة من حفظ الله ـ تعالى ـ الذكر.. ١٦٣
تنزلات القرآن.. ١٦٧
أثر تحزيب القرآن في الوعي بموقع السّورة
من حركة المعنى القرآني المديد.. ١٧٨
المعقد الثّاني : الطّريق إلى استنباط المقصود الأعظم
للسّورة وفقه أثره في البناء النّصّي للسّورة.. ١٨٩
مفهوم مصطلح السورة.. ١٩١
موقع المقصود الأعظم من أغراض السّورة.. ١٩٣
روافد استبصار المقصود الأعظم للسور.. ١٩٩
الرَّافد الأوّل : اسم السُّورة.. ٢٠٠
تسمية السور بين التوقيف والاجتهاد.. ٢٠٨
تفاوت أهل العلم في توجيه أسماء السُّور.. ٢١١
وجه تعدّد أسماء السّورة.. ٢١٣

محصل القول تأصيلا وتأويلا.. ٢١٥
الرافد الثّاني : مطلع السّورة ومقطعها تلاوةً.......................... ٢٢٥
أولا : الفاتحة والمطلع.. ٢٢٦
ثانيا : الخاتمة والمقطع.. ٢٣٢
مقاربة في مطلع بعض السُور ومقطعها................................ ٢٣٧
مقاربات تأويلية عجلى في بعض السور................................ ٢٤٣
الرَّافد الثَّالِث : تدبّر الفروق البيانيّة بيْن المعانِي
الكُلّيّة المُصرَّفة فِي السّورِ.. ٢٥١
الرّافد الرابع : تَدَبّر المعاني الكلية الخاصّة.......................... ٢٥٧
الرَّافد الخامس : تدبُّر الفروق البيانية بين المعاني
الجزئية المصرفة في السّور... ٢٦٥
الرَّافد السَّادس : تكرار نمط تركيبى فى سياق السّورة.................. ٢٧١
الرّافد السابع : المعجم الكلِمِي...................................... ٢٧٣
المعقد الثَّالث : تقسيم السُّورة إلى معاقد وعلاقتها
بالمقصود الأعظم وحركة المعنى...................................... ٢٨١
مذهب العلماء في أثر تنجيم النزول في بناء السورة.................... ٢٨٣
معاقد السورة : ترتيبها وعمود أمره.................................. ٢٨٩
مقاربة تأويلية في معاقد سورة البقرة................................. ٢٩٠
مقاربة تأويلية في شأنِ معاقد سورة « يوسف »......................... ٢٩٨
مقاربة تأويليّة في معاقد سورة النّحل................................. ٣٠٨
البيان الجُمَليّ لمعاقد سورة النَّحل.................................... ٣١٢
البَيان التفصِيليّ للبناء التّركيبيّ لسورة « النّحل »..................... ٣١٤
فقه دَلالة فاتحة سُورة النحل على مقصودها :......................... ٣١٧
المعقد الأول : من سورة النحل التَّدليل بالنّعم على الوحدانيّة والقدرة.... ٣٢٢

المعقد الثَّاني للسّورة : بيان موقف المعاندين والرد على شبهاتهم......... ٣٢٧
المعقد الثالث : عودة إلى الامتنان والتّدليل
على الوحدانيّة في صورةٍ جديدةٍ ٣٤٢
تعقيبٌ معاقد السّورة وختامها.. ٣٥٧
المعقد الرَّابع : تقسيم المعاقد إلى نجوم وعلاقتها
بالغرض المرحليّ للمعقد وحركة المعنى.. ٣٧١
نجوم معاقد سورة أم الكتاب.. ٣٧٣
نجوم معاقد سورة الضحى.. ٣٧٥
نجوم معاقد سورة البقرة.. ٣٧٨
المعقد الخامس : التَّحْليلُ البَيَانيّ لنظم المعقد وما دونه
وعلاقته بالمقصود الأعظم وحركة المعنى في السّورة............................ ٣٨٣
مفهوم التّحليل البياني.. ٣٨٤
التّحليل عملٌ فطريٌّ من أعمال التّلقّي.. ٣٩٠
التّحليل البيانيّ بيْن الذَّاتيّة والموضوعيّة..................................... ٣٩٢
مجالات التَّحليل البيانيّ... ٣٩٨
المجال الأول : تحليل علاقاتِ المعاني ومواقعها
على مستوى بنية «المعقد» و«النّجم» و«الآية»................................ ٤٠٠
المحور الثَّانِي : تحليل بناء صورة المعنى....................................... ٤٢٢
التّحليل البيانيّ للكلم... ٤٢٩
التّحليل البيانيّ للتَّراكيب... ٤٤٣
التّحليل البيانيّ للنغم... ٤٥٤
الحثّ على التَّغني بالقرآن... ٤٥٩
الإيقاع : مفهومه وقوانينه وفعله.. ٤٦٧
قوانين الإيقاع :... ٤٦٩



أثر الجرس والإيقاع في تصوير المعاني وتمكينها........................ ٤٧٠
مجال الإيقاع الّلغوي.. ٤٧٧
إيقاع المعاني.. ٤٨٥
المجال الثَّالث : التّحليل البيانيّ لدَلالة الصّورة على المعنى.................. ٤٩٠
مفهوم دلالة الصُّورة على المعنى.. ٤٩٣
بيان عبد القاهر خصائص دلالة الصُّورة على المعنى.......................... ٥٠٥
أثر مجال القول ومناطه فِي منهج التَّحليل البيانيّ
لِدَلالة الصُّورة على المَعنى.. ٥٠٨
الخاتمة (زبدة البيان وسلافته).. ٥١٦
ثبت أهم المصادر... ٥٢٥
بحوث المؤلف وكتبه.. ٥٢٨
الفهرس.. ٥٣١